

المسكريد

نجمت مختار



السُّكْرِيَّة

من عمرها، مجللة الشعر بهالة ذهبية، مزينة الوجه بعينين زرقاوين، كعائشة في شبابها أو أفتن ملاحه، ولكنها كانت نحيفة رقيقة كالخيال، تعكس عيناها نظرة ودیعة حاملة تقطر طهارة وسداجة وغرابة عن هذا العالم، وكانت ملتصقة بمنكب أمها كأنها لا تود أن تفارقها لحظة. وقالت أم حنفي وهي تفرك يديها فوق المجرمة:

- سينزل البنّاءون عن العمارة في هذا الأسبوع بعد عام ونصف من العمل...

فقال نعيمة في نغمة ساخرة:

- عمارة عمّ بيومي الشرباتي...

ارتفعت عينا عائشة عن المجرمة إلى وجه أم حنفي لحظة ولكنها لم تعلق بكلمة، قد علموا في حينه بهدم البيت الذي كان يوماً بيت السيد محمد رضوان ثم إعادة بنائه عمارة مكسوة من أربعة أدوار باسم عمّ بيومي الشرباتي، تلك الذكريات القديمة، مريم وباسين ولكن ترى أين مريم، وأم مريم وبيومي الشرباتي الذي استولى على البيت بالوراثة والشراء، أيام كانت الحياة حياة والقلب ناعم البال! وعادت أم حنفي تقول:

- أجل ما فيها يا ستي دكان عمّ بيومي الجديدة، ثريات ودندمة وحلوى، كلها مرايا وكهرباء، والراديو ليل نهار، يا عيني على حسنين الحلاق ودرويش بائع الفول والفولي اللبان وأبو سريع صاحب القلي وهم ينظرون من دكاكينهم البالية إلى دكان زميلهم القديم وعبارته...

فقال نعيمة وهي تشبك الشال حول منكبيها:

- سبحان ربك الوهاب...

فعدت نعيمة تقول وهي تحيط عنق أمها بذراعيها:

تقاربت الرؤوس حول المجرمة وانبسطلت فوق وهجها الأيدي، يدا أمينة النحيلتان المعروقتان، ويذا عائشة المتحجرتان، ويذا أم حنفي اللتان بدتا كغطاء السلحفاة، وأما هاتان اليدان الناصعتا البياض الجميلتان فكانتا يدي نعيمة. وكان برد يناير يكاد يتجمد ثلجاً في أركان الصالة، تلك الصالة التي بقيت على حالها القديم بحصرها الملونة وكنباتها الموزعة على الأركان، إلا أن الفانوس القديم بمصباحه الغازي قد اختفى وتدلّى مكانه من السقف مصباح كهربائي، كذلك تغير المكان فقد رجع مجلس القهوة إلى الدور الأول. بل انتقل الدور الأعلى جميعه إلى هذا الدور تيسيراً للأب الذي لم يعد قلبه يسعفه على ارتقاء السلم العالي. ثمّة تغير أدرك أهل البيت أنفسهم، فقد جفّ عود أمينة واشتعل رأسها شيئاً، ومع أنها لم تكذب تبلغ الستين إلا أنها بدت أكبر من ذلك بعشر، ولكنّ تغير أمينة كان لا شيء بالقياس إلى ما جرى لعائشة من تدهور وانحلال، كان ممّا يدعو إلى السخرية أو الرثاء أن شعرها لم يزل مذهّباً وعينيها زرقاوان، ولكنّ هذه النظرة الخاملة لا توحى بحياة، وهذه البشرة الشاحبة بأي مرض تنضح؟ وهذا الوجه الذي نثأت عظامه وغارت فيه العينان والوجنتان أهر وجه امرأة في الرابعة والثلاثين؟ وأما أم حنفي فبدا أن الأعوام تتراكم عليها ولا تنال من جوهريها، لم تكذب تمسّ لحمها وشحمها فتكاثفت كالغبار أو كالقشور فوق جلدها وحول رقبتها وتغرها، غير أن عينيها الساهمتين لاحتا مشاركتين لأهل البيت في حزنهم الصامت. نعيمة وحدها بدت في هذه المجموعة كالوردة المغروسة في حوش مقبرة، استوت شابة جميلة في السادسة عشرة

- سدّ جدار العبارة سطحنا من هذه الناحية، وإذا
عمرت بالسكان فكيف نستطيع أن نغضي الوقت فوق
السطح؟

لم يكن في وسع أمينة أن تتجاهل سؤالاً توجهه
حفيدتها الجميلة مراعاة لحاظ عائشة قبل كلّ شيء
فقالت:

- لا يهّمك السكان، امرحي كيف شئت...

واستقرت النظر إلى عائشة لترى وقع إجابتها
اللطيفة، إذ إنها باتت من شدّة الخوف عليها وكأنما
تخافها، ولكنّ عائشة كانت مشغولة في تلك اللحظة
بالتطلع إلى مرآة فوق نضد بين حجرة السيّد
وحجرتها، لم تزايلها عادة التطلع إلى المرآة وإن لم يعد
لها معنى، وبمرور الزمن لم يعد يروعها منظر وجهها
الضحل، وكلّما سأها صوت باطنيّ «أين عائشة
زمان؟» أجابت دون اكتراث «وأين محمّد وعثمان
وخليل؟»، وكانت أمينة تلاحظ ذلك فينبض قلبها،
وسرعان ما يسري الانقباض إلى أمّ حنفي التي اندمجت
في الأسرة حتّى ورثت عنها همومها. ونهضت نعيمة إلى
الراديو القائم ما بين حجرة الاستقبال وحجرة السفارة
وأدارت مفتاحه وهي تقول:

- ميعاد إذاعة الأسطوانات يا ماما...

وأشعلت عائشة سيجارة وأخذت نفساً عميقاً،
وجعلت أمينة تنرنو إلى الدخان وهو ينبسط سحابة
خفيفة فوق المجمرة، وانبعث من الراديو صوت يغني
«يا عشرة الماضي الجميل يا ريت تعودني». وعادت
نعيمة إلى مجلسها وهي تحبك الروب حول جسمها.
كانت - كأنّها في الزمان الخالي - تهوى الغناء. وهبت
كيف تسمعه وكيف تحفظه وكيف تعيده بصوت
حسن. لم ينل من هذا الهوى شعورها الدينيّ الذي
غلب على كافّة مشاعرها، فهي تواظب على الصلاة،
وتصوم رمضان مذ بلغت العاشرة، وتحلم كثيراً بعالم
الغيب، وترحب بغبطة لا حدّ لها بزيارة الحسين إذا
دعتها جدّتها إليها، ولكنّها في الوقت نفسه لم تقلع عن
حبّ الغناء، فهي تغني كلّما خلّت إلى نفسها في
حجرتها أو في الحفام. وكانت عائشة ترضى عن كلّ ما

يصدر عن وحيدتها، الأمل المضيء في أفقها المظلم،
تعجب بتدبّرها كما تعجب بصوتها، وحقّ عن التصاق
الفتاة بها - ذلك الالتصاق الذي بدا خارقاً للحدّ -
فهي تشجعه وتحبه ولا تطيق أن تسمع عنه آية
ملاحظة، بل هي تضيق بالنقد عامّة وإن هانّ وحسن
القصد فيه. من ذلك أنّه لم يكن لها من عمل في البيت
غير القعود وحسو القهوة والتدخين، فإذا دعتها أمّها
إلى المشاركة في عمل - لا لحاجتها إلى مساعدتها ولكن
لتخلق لها ما تتسلّى به عن أفكارها - امتعضت وقالت
جملتها المشهورة «أف... دعي وشأني». ولم تكن
تسمح لنعيمة بأن تمدّ للعمل يداً، كأنّها كانت تخاف
عليها أقلّ حركة، ولو أمكن أن تصلي نيابة عنها
لفعلت وكفتها جهد الصلاة. وكم من مرّة حدّثتها أمّها
في هذا الشأن قائلة إنّ نعيمة أصبحت «عروساً»
وينبغي لها أن تلمّ بواجبات «ست البيت» فكانت
تقول لها بصوت ينمّ عن الضجر «ألا تريها
كالخيال؟. إنّ ابنتي لن تتحمّل أيّ جهد فدعيها
وشأنها، لم يعد لي من أمل في الدنيا سواها». ولم تكن
أمينة لتعيد القول. كان قلبها يتقطع حزناً عليها،
وتنظر إليها فتجدها مثلاً مجسّماً لخيبة الأمل، وترى
وجهها التعيس الذي فقد كلّ معنى للحياة فتذهب
نفسها حشرات، لذلك أشفقت من مضايقتها، ولذلك
اعتادت أن تتحمّل ما قد ينمّ عنها من جفاء في الردّ أو
قسوة في الملاحظة بصدر رحيب وعطف سمح. لم يزل
الصوت يغني «يا عشرة الماضي الجميل». وجعلت
عائشة تدخن سيجارتها وتصغي إليه. هذا الغناء الذي
كانت تحبه، ولا زالت تحبه، فالحزن واليأس لم يقتلا
الإحساس به، بل لعلّها قويّاه في نفسها بما يردّده عادة
من معاني الشجن والحسرات، ولو أنّ شيئاً في الوجود
ليس بمستطيع أن يعيد عشرة الماضي الجميل، بل إنّها
لتنساءل أحياناً أكان هذا الماضي حقيقة لا حلمًا ولا
خيالاً؟ إذن أين البيت العامر؟ وأين الزوج الكريم؟
وأين عثمان وأين محمّد؟ وهل لا يفصلها عن ذلك
الماضي إلّا ثمانية أعوام؟ ولم تكن أمينة ترتاح إلى هذه
الأغاني إلّا في النادر. إنّ فضيلة الراديو الأولى في

اليوم كالصبيان... فقالت أم حنفي باحتقار:
- يتعلّمن لأنّهن لا يجدن العريس، أمّا الجميلة
مثلك...

فهزّت أمينة رأسها موافقة ثم قالت:
- وأنت متعلّمة يا ستّ البنات. حائزة على
الابتدائية، ماذا تريدن أكثر من ذلك؟، ولست في
حاجة إلى الوظيفة، فلندعُ الله أن يقوِّك وأن يكسو
جمالك الفتان بالعافية واللحم والدهن.
فقالت عائشة بحدة:

- أريد لها العافية لا السبانة، السبانة من العيوب
خاصّة في البنات، أمّا كانت زين أيامها ولم تكن
سمينة.

فابتسمت أمينة وقالت برقة:
- حقاً أمك يا نعيمة كانت زين أيامها...

فقالت عائشة وهي تتنهد:

- ثم صارت عبرة الأيام!

فغصمت أم حنفي:

- ربّنا يفرّحك بنعيمة...

فقالت أمينة وهي تربّت على ظهر نعيمة بحنان:

- آمين يا ربّ العالمين...

وعُدن إلى الصمت، وإلى سماع الصوت الجديد
الذي كان يغني «أحبّ أشوفك كلّ يوم»، وإذا بباب
البيت يُفتح ثم يُغلق فقالت أم حنفي «سيدتي الكبير»
وقامت مسرعة إلى الخارج لتضيء مصباح السّلم. وما
لبش أن سمعن دقات عصاه المعهودة، ثم تراءى عند
مدخل الصّالة فوقفن جميعاً في أدب. ووقف قليلاً ينظر
إليهنّ خلال أنفاسه المبهورة ثم قال: «مساء الخير»
فرددن في صوت واحد: «يسعد مساك»، وسبقت أمينة
إلى حجرته فأضاءتها، ومضى الرجل على أثرها في حالة
من وقار الشيخوخة البيضاء. وجلس كي يستردّ
أنفاسه. ولم تكن الساعة قد جاوزت التاسعة مساء.
ظلت أناقته كما كانت في الماضي، فالجبة الجوخ
والقفطان الشاهي والكوفيّة الحريري كالعهد القديم، أمّا
هذا الرأس المرصع بالبياض، والشارب الفضيّ،
والجسم النحيل الذي خلا من سكّانه، فكانت جميعاً.

نظرها أنّه أتاح لها سماع القرآن الكريم والأخبار، أمّا
الأغاني فكانت تجزع عند تلقّي معانيها الحزينة وتشفق
على ابتتها من سماعها حتّى قالت مرّة لأم حنفي «أليس
هذا هو النواح؟». كانت لا تني عن التفكير في عائشة
حتّى كادت تنسى ما أخذ ينتابها هي من أعراض
الضغط ومتاعبه، ولم تكن تجد فرجة إلّا في زيارة
الحسين وغيره من الأولياء، وشكراً للسيد الذي لم يعد
يحجر عليها فتركها تنطلق إلى بيوت الله كما تحبّ. لم
تعد - هي أيضاً - أمينة العهد الماضي. غيرها كثيراً
الحزن والتوجّع. وقد فقدت مع الزمان مشابرتها
العجيبة على العمل وطاقتها الخارقة في التنسيق
والتنظيف والتدبير، ففيها عدا شئون السيد وكمال لم
تكن تعنى بشيء. عهدت بحجرة الفرن والمخزن لأم
حنفي، قانعة بالإشراف وحده، وحتّى الإشراف كانت
تنهاون فيه. وكانت ثقّتها في أم حنفي لا حدّ لها،
فليست هي بالغريبة عن الدار وأهلها، ثم إنّها شريكة
العمر ورفيقة السراء والضراء، وقد اندجبت في الأسرة
حتّى صارت قطعة منها، وتمثّلت بكلّ قلبها مسرّاتها
وأحزانها. وساد الصمت حيناً كأنّما استأثر الغناء
بوعيمهم، حتّى قالت نعيمة:

- لمحت في الطريق اليوم صديقتي سلمى، كانت
معي في الابتدائية، وستقدّم العام المقبل في امتحان
البكالوريا...

فقالت عائشة بامتعاض:

- لو سمع جدّك لك بالاستمرار في الدراسة لتفوّقت
عليها، ولكنّه لم يسمح!
وفطنت أمينة لما أوحى به جملة «ولكنّه لم يسمح»
من الاحتجاج فقالت:

- جدّها له آراؤه التي لا ينزل عنها، ترى أكنت
ترخّين باستمرارها في التعليم رغم ما في ذلك من
تعب وهي العزیزة الرقيقة التي لا تتحمّل
التعب!؟...

فهزّت عائشة رأسها دون أن تنبس، أمّا نعيمة
فقالت بحسرة:

- وددت لو أتممت تعليمي، كلّ البنات يتعلّمن

من المأكّل والمشرب والهناء؟، وأين مسيره في الأرض كالجمل وضحكته المجلجلة من الأعصاق؟ وطلوع الفجر عليه وهو ثمل بشقّي المسرات؟، اليوم يُقضى عليه بأن يعود من سهرته في التاسعة كي ينام في العاشرة والأكل والشرب والمشي بحساب دقيق مسجّل في دفتر الطبيب، وهكذا البيت الذي غشاه الزمن بالكآبة هو قلبه ومقامه، وعائشة التعيسة شوكة في جنبه لا يستطيع أن يصلح ما فسد من حياتها وهيئات أن يطمشّ على حالها، أليس قد ينكشف عنها الغد وحيدة بائسة بلا أب ولا أم؟ وما يعانیه من قلق على صحته هو المهذّدة بالمضاعفات وأخوف ما يخاف أن تخونه قواه فيلزم الفراش كالميت وليس بميت مثل الكثيرين من أصدقائه وأحبّائه، وهذه الأفكار التي تقوم حوله كالذباب فيستعيز بالله من شرّها، أجل ينبغي أن يسمع الأغاني القديمة ولو لينام على الأنغام...

- اتركي الراديو مفتوحاً حتّى لو نمت...

فهزّت رأسها بالإيجاب باسمه، فعاد يقول متنهّداً:
- ما أشقّ السّلم عليّ!

- استرح يا سيّدي عند كلّ بسطة...

- لكنّ جوّ السّلم شديد الرطوبة، ما ألعن هذا الشتاء... «ثمّ متسائلاً»... أراهن على أنّك زرت الحسين كالعادة رغم هذا البرد...

فقالت في حياء وارتباك:

- في سبيل زيارته يهون كلّ صعب يا سيّدي...

- الحقّ عليّ وحدي!...

فقالت في استرضاء:

- إنّني أطوف بالضريح الطاهر وأدعو لك بالصّحة

والعافية.

ما أمسّ حاجته إلى صادق الدعاء، فكلّ طبّيب يدبر عنه، حتّى الدشّ البارد الذي اعتاد أن ينعش به جسده كلّ صباح حُرّم عليه لخطورته - فيما قيل - على شرايينه، وإذا صار كلّ طبّيب ضارّاً فليرحمنا الله. ومضى وقت قصير ثمّ ترامت إلى الحجرة صفقة باب البيت وهو يغلق فرفعت أمينة عينيها متمتمة «كيال». ولم تكد تمرّ دقائق حتّى دخل كمال الحجرة في معطفه

بعودته المبكّرة - من طوارئ الزمن الجديد. ومن طوارئ هذا الزمن أيضاً سلطانيّة اللّبن الزباديّ والبرتقالة اللتان أعدتا لعشائه، فلا خر ولا مرّة ولا لحوم ولا بيض، وإن بقي بريق عينيّه الزرقاوين الواسعتين آية على أنّ رغبته في الحياة لم تفر ولم تن. ومضى يخلع ملابسه بمعاونة أمينة كالمعتاد، ثمّ ارتدى جلبابه الصوفيّ وتلقّع بالعباءة ولبس طاقية ثمّ تربّع على الكنبه. وقدمت له صينيّة العشاء فتناولوه دون حماس، ثمّ قدّمت له أمينة قدحاً مملوئاً حتّى نصفه بالماء فأخذ زجاجة الدواء وسكب في القُبْح ستّ نقط، ثمّ تحرّجه بوجه مقطب متقرّز، ثمّ تمتم «الحمد لله ربّ العالمين». طالما قال له الطبيب إنّ الدواء مؤقّت أمّا «الرجيم» فدائماً، وطالما حذّره من الاستهتار أو الإهمال، فالضغط قد استفحل، والقلب قد تأثّر به. وأجبرته التجربة على الإيمان بتعلييات الطبيب بعد أن عانى من الاستهانة بها ما عانى، فما من مرّة خرج عن حدّه حتّى تداركه الجزاء، وأخيراً أذعن لحكمه، لا يأكل ولا يشرب إلّا ما يسمح به، ولا يسهر إلى ما بعد التاسعة، ولكنّ قلبه لم يتخلّ عن الأمل في أن يستردّ يوماً - بقدرة قادر - صحته وأن ينعم بحياة طيبة هادئة، وإن تكن حياة الماضي قد ولّت إلى الأبد. وامتدّت أذنه إلى الغناء المترامي من الراديو في ارتياح، وكانت أمينة تحدّثه من مجلسها فوق الشلّة عن برد اليوم والمطر الذي انهمر في الضحى فلم يلقِ إليها بالاً وقال في سرور:

- قيل لي أنّه ستُذاع الليلة بعض الأغاني

القديمة...

فابتسمت المرأة في ترحيب إذ كانت تحبّ هذا اللون من الغناء، ربّما متابعة لحبّ السيّد له أكثر من أيّ شيء آخر، ولبت السرور متألقاً في عينيّ الرجل لحظات حتّى أدركه فتور. لم يعد بمسّطيع أن ينعم بشعور سارّ دون تحفّظ، أو دون أن ينقلب عليه فجأة فيستيقظ من حلمه مرتطّلاً بالواقع، الواقع يحذق به من جميع النواحي، أمّا الماضي فعُلم، فيمّ السرور وقد ولّت إلى الأبد أيّام الأُنس والطرب والعافية؟. وانطوى اللذيد

فلم ينبس كمال بكلمة وإن نطق وجهه بالرفض المؤدّب، فعاد الرجل يقول متأسفًا:

- تأب هذا كي تضيع وقتك في قراءة لا نهاية لها وكتابة بلا أجر، أيصح هذا من عاقل مثلك؟
وهنا خاطبت أمينة كمال قائلة:

- ينبغي أن تحب المال كما تحب العلم (ثم موجّهة الخطاب إلى السيّد وهي تبتسم في خيلاء) إنه كجده لا يعدل بحب العلم شيئًا...

فقال السيّد متأفّفًا:

- رجعنا إلى جده!... يعني كان الإمام عمّد عبده؟!

ومع أنّها لم تعرف شيئًا عن الإمام إلّا أنّها قالت بحماس:

- لم لا يا سيّدي؟! كان كلّ الجيران يقصدونه في شئون دينهم ودنياهم!

فغلبت روح الفكاهة على السيّد فقال ضاحكًا:

- مثله الآن كلّ عشرة بقرش!

واحتجّ وجه المرأة دون لسانها. وابتسم كمال بعطف وارتيابك، واستأذن في الانصراف ثم غادر الحجرة. وفي الصالة اعترضت نعيمة طريقه لترى فستانها الجديد، وذهبت لتجيء به، فجلس إلى جانب عائشة ينتظر، كان - كبقية أهل البيت - يجمّل عائشة في شخص نعيمة، ولكنّه إلى هذا كان معجبًا بالفتاة الحسناء إعجابه بأمّها قديمًا. وجاءت نعيمة بالفستان فبسّطه على يديه وراح يتفحصه وهو يبدي الإعجاب، وكان يتأمّل صاحبة الفستان بعطف وحبّ. مأخوذًا بجملها البديع الهادئ الذي اكتسى من صفاتها ورقتها نورانيّة ذات بهاء. ومضى عن المكان بقلب لا يخلو من شجن، إنّ مصاحبة أسرة حتّى شيخوختها كجمل مجرّن. ليس ممّا يهون أن يرى أباه في وهته بعد سطوة وجبروت أو يرى ذبول أمّه وتواربها وراء الكبر، أو يرى انحلال عائشة وتدهورها، هذا الجوّ المشحون بنذر التعاسة والنهاية. وركي في السّلم إلى الدور الأعلى - شقته كما يسمّيه - حيث يعيش منفردًا بين حجرة نومه ومكتبته المطلّتين على بين القصرين. وخلع ملابسه ومضى

الأسود الذي نمّ على نحافته وطوله، يتطلّع إلى أبيه خلال نظّارته الذهبية، وقد أضفى عليه شاربه المرتّع الغزير الأسود وقارًا ورجولة. انحنى على يد والده مسلّمًا فدعاه إلى الجلوس وهو يسأله كالعادة بأسًا:

- أين كنت يا أستاذ؟

وكان كمال يحبّ هذه اللهجة الودّية اللطيفة التي لم يحظ بها إلّا بعد عمر طويل، فأجاب وهو يجلس على الكنبه:

- كنت في القهوة مع الأصحاب.

ترى أيّ نوع من الأصحاب؟ بيد أنّه يبدو جادًا رزينًا وقورًا أكثر من سنّه، ثمّ إنّ أكثر لباله تقضى في مكتبته، شتّان ما بينه وبين ياسين، وإن كان لكلّ آفته، وعاد يسأله بأسًا:

- أشهدت اليوم المؤتمر الوفدي؟

- نعم، وسمعت خطبة مصطفى النحاس، كان يومًا مشهودًا.

- قيل لنا أنّه كان حدثًا عظيمًا ولكنّي لم أستطع حضوره فنزلت عن بطاقة الدعوة لأحد الأصدقاء، لم تعد الصّحة تحتمل التعب...

فدخل كمال العطف وتمتم:

- ربّنا يقويك...

- ألم تقع حوادث؟

- كلّ مرّ اليوم بسلام، واكتفى البوليس بخلاف عاداته بالمراقبة...

فهزّ الرجل رأسه في ارتياح، ثمّ قال في لهجة ذات معنى:

- نعود لموضوعنا القديم، ألا زلت عند رأيك الخاطي عن الدروس الخصوصية؟!

لم يزل يشعر بالارتباك والحرج كلّما وجد نفسه مضطّرًا إلى إعلان مخالفته لرأي والده، فقال برقة:

- لقد انتهينا من هذا الموضوع!

- في كلّ يوم يطلب إليّ أصدقاء أن تعطي دروسًا خصوصية لابنائهم، لا ترفض الرزق الحلال، إنّ الدروس الخصوصية مصدر رزق واسع للمدرّسين، والذين يطلبونك من أعيان الحيّ...

الجارح، ولشَّد ما استثار المنسي من أحزانه، بيد أنَّه سرُّ آخر الأمر بالمنزلة الرفيعة التي بات يحتلها في نفوس الصغار الذين كانوا يتطلعون إليه بإعجاب وحب وإجلال. وواجهته مشكلة أخرى تتعلق بمقالاته الشهرية في مجلة «الفكر»، وكان يخاف هذه المرة الناظر والمدرسين أن يسألوه عما يعرض فيها من فلسفات قديمة وحديثة تنقد أحياناً العقائد والأخلاق بما لا يتفق ومثولية «المدرّس» ولكن من حسن الحظ أنَّ أحدًا من المسئولين لم يكن بين قراء «الفكر»، ثم تبين له بعد ذلك أنَّ المجلة لا تطبع أكثر من ألف نسخة يصدر نصفها إلى البلاد العربية، فشجَّعه ذلك على الكتابة إليها وهو أمين على نفسه ووظيفته. وفي هذه السويكات القلائل ينقلب «مدرّس اللغة الإنجليزية بالسليحدار الابتدائية» سائحاً حراً يجوب أجواء لا تُحد من الفكر، فيقرأ ويدون الملاحظات التي يجمعها بعد ذلك في مقالاته الشهرية، تحته على جهاده الرغبة في المعرفة وحب الحقيقة وروح المغامرة النظرية والحنين إلى العزاء والتخفيف من جو الكآبة الذي يغشاها والشعور بالوحدة الذي يستكن في أعماقه. قد يلوذ من الوحشة بوحدة الوجود عند سبينوزا، أو يتعزى عن هوان شأنه بالمشاركة في الانتصار على الرغبة مع شوبنهاور، أو يهون من إحساسه بتعاسة عائشة بجرعة من فلسفة لينتري في تفسير الشر، أو يروي قلبه المتعطش إلى الحب من شاعرية برجسون، بيد أنَّ جهاده المتواصل لم يجد في تقليم مغالب الحيرة التي تبلغ حدّ العذاب، فالحقيقة معشوق ليس دون المعشوق الأدمي دلالاً وغمّاً ولعباً بالعقول وإثارة للشك والغيرة مع إغراء عفيف بالتملّك والوصال، وهي كالمعشوق الأدمي عرضة لأن تكون ذات وجوه وأهواء وتقلّبات، ولا تخلو في كثير من الأحيان من مكر وخداع وقسوة وكبرياء، وكان إذا ركبته الحيرة وأعياه الجهد يقول متعزياً «قد أكون معذباً حقاً ولكنني حي، إنسان حي، ولن تكون حياة الإنسان الخليفة بهذا الاسم بلا ثمن!».

مرتدياً جلبابه متلفعاً بالروب إلى المكتبة، وكانت مكوّنة من مكتب كبير فيها يلي المشربية وصفين من خزانات الكتب على جانبيها. وكان يريد أن يقرأ فصلاً على الأقل في كتاب «منبع الدين والأخلاق» لبرجسون، وأن يراجع مراجعة أخيرة مقاله الشهري لمجلة «الفكر» الذي اتفق أن كان عن البراجتزم. هذه السويكات الموهوبة للفلسفة، التي تمتد حتى منتصف الليل هي أسعد أوقات يومه، وهي التي يشعر فيها - على حدّ تعبيره - بأنّه إنسان، أمّا بقية اليوم الذي ينقضي في عمله كمدرّس بمدرسة السليحدار الابتدائية أو في إشباع شغني مطالب الحياة الضرورية، فمداره الحيوان الكامن فيه، المستهدف أبداً تأمين ذاته وتحقيق شهواته، ولم يكن يحبّ عمله الرسمي ولا يحترمه، ولكنّه لم يعلن سخطه، خاصة في بيته، أن يشمت به الشامتون، ومع ذلك فقد كان مدرّساً ممتازاً حائزاً للتقدير، وكان الناظر يعهد إليه ببعض النشاط المدرسي، حتى رمى نفسه متفكّها بالعبودية، أليس هو العبد الذي يتقن العمل الذي لا يحبّه؟. والحق أنَّ ولعه بالتفوق الذي اعتاده منذ الصغر هو الذي دفعه إلى الاجتهاد والامتنياز دفعا لا هوادة فيه. وقد صمّم من بادئ الأمر على أن يكون شخصية محترمة بين التلاميذ والمدرّسين فكان له ما أراد، بل كان شخصية محترمة ومحبوبة معاً، رغم رأسه وأنفه العظيمين... ولا شك أنَّه كان لها - رأسه وأنفه - أو كان لإحساسه الاليم بهما الفضل الأول في هذا التصميم القوي الذي خلق منه هذه الشخصية المهابة. كان يعلم بأنَّ رأسه وأنفه سيثيران من حوله الفتن فاستلّ عزمه ليردّ عنها وعنه كيد العابثين. أجل لم ينبج أحياناً من غمز وتعريض في أثناء الدرس أو في ملعب المدرسة، فكان يلقي الهجوم بحزم شديد، ثم يلفظه بعطفه المطبوع، إلى ما أثر عنه من مقدرة في الشرح والتفهم، وما يأخذ فيه بين آونة وأخرى من موضوعات طريفة حماسية تمس القومية أو ذكريات الثورة، كل أولئك جعله يستميل إليه «الرأي العام» بين التلاميذ، وكان ذلك إلى حزمه المتوثّب عند الضرورة - كفيلاً بالقضاء - على الفتن في مهدها! ولشَّد ما آله أول الأمر الغمز

فخض الحمزاوي عينيه وقال:
- موقفي لا أحسد عليه، ولا أدري كيف
أتكلّم...

فقال السيّد مشجّعاً:
- ولكيّ عاشرتك أكثر ممّا عاشرت أهلي فتستطيع أن
تفني إليّ بكلّ ما في نفسك...

- العشرة هي التي تصعب عليّ يا سي السيّد...
العشرة؟ لم يخطر له هذا على بال...
- أتريد؟... حقاً!

قال الحمزاوي بحزن:
- آّن لي أن أعترل، الله لا يكلف نفساً إلّا
وسعها...

وانقبض قلب السيّد، فاعتزال الحمزاوي للعمل
ليس إلّا نذيراً له بالاعتزال، كيف ينهض بأعباء العمل
في دكانه وهو على ما هو عليه من مرض وكبر؟. ونظر
إلى وكيله في حيرة فعاد الرجل يقول متأثراً:

- إني آسف جدّاً، ولكيّ لم أعد أطيق العمل، ولّي
ذلك الزمان، غير أنّي دبرّت الأمر فلن أتركك وحدك،
سيملاً مكاني من هو أقدر منّي...

إنّ ثقته في أمانة الحمزاوي قد رفعت عن كاهله
نصف متاعبه، فكيف يعود ابن الثالثة والسّتين إلى
ملازمة الدكان من طلعة الشمس إلى مغيبها؟. قال:

- ولكنّ اعتزال العمل والقبوع في البيت يسرعان
بالإنسان إلى التدهور، ألا ترى هذا في أصحاب
المعاش من الموظّفين؟

فقال الحمزاوي باسماً:
- التدهور موجود قبل الاعتزال.
وضحك السيّد فجأة كأنّما ليداري الحرج الذي

شعر به مقدّمًا قبل أن يقول له:
- يا عجوز يا مكّار، أنت تهجرني تلبيةً للإلحاح
ابنك فؤاد.

فهتف الحمزاوي متأثراً:
- معاذ الله، إنّ حالتي الصحيّة لا تخفى على أحد،
وهي السبب الأوّل والأخير...

من يدري؟. فؤاد وكيل نيابة ومثله لا يرتاح لبقاء
أبيه عاملاً بسيطاً في دكان ولو كان صاحب الدكان هو

اليوم السابق، كلّ ذلك كان أحمد عبد الجواد يؤدّيه
على خير الوجوه وبالدفّة المعهودة فيه من قديم غير أنّه
يؤدّيه اليوم بمشقة لم يكن يجدها من قبل أن يركبه العمر
والمرض. وكان منظره وهو منكّب على دفاتره تحت
لافتة البسملة، وشاربه الفضيّ يكاد يختفي تحت أنفه
الكبير الذي زاده ضمور الوجه ضخامة، كان ذلك
المنظر ممّا يستحقّ العطف، غير أنّ منظر وكيله
ومساعدته جميل الحمزاوي الذي كان يهدف إلى
السبعين كان ممّا يستحقّ الرثاء، ولم يكن يفرغ من
زبون حتّى يتهالك على مقعده وهو يلهث فكان أحمد
يقول لنفسه في شيء من الامتعاض «لو كنّا موظّفين
لأغنانا المعاش في مثل سنّنا من الكدّ والعمل!». ورفع
السيّد رأسه عن الدفتر وهو يقول:

- لا زالت الحالة متأثّرة ببعض الشيء بالآزمة
الاقتصادية...

فارتسم الامتعاض على شفّتي الحمزاوي الباهتين
وقال:

- بدون شكّ، غير أنّ هذا العام خير من العام
السابق، والعام السابق خير من الذي قبله، الحمد لله
على أيّ حال...

عام ١٩٣٠ وما تلاه من أعوام، تلك الفترة التي
كان التّجار من أصحابها يسمّونها أيّام الرعب. حين
استبدّ إسمايل صدقي بالحياة السياسيّة وسيطر القحط
على الحياة الاقتصاديّة، ويقبلون الأكفّ وهم يتساءلون
عما يخبّي لهم الغد، وقد كان من المحظوظين بغير شكّ
لأنّ ضيقته لم تبلغ به الإفلاس الذي تهدّده عامّاً بعد
عام.

- أجل الحمد لله على أيّ حال...

ووجد جميل الحمزاوي يرنو إليه بنظرة غريبة، فيها
تردّد وحرج، ماذا عنده يا ترى؟. وقام الرجل فقرّب
مقعده من المكتب ثمّ جلس وهو يتسم في ارتباك.
وكان البرد قاسياً رغم سطوع الشمس، وكان للهواء
حملات قويّة ارتجّت لها الأبواب والنوافذ وتعالى
الصفيّر. قال السيّد وهو يعتدل في جلسته:

- هات ما عندك، إني موقن بأنّك ستقول شيئاً
هامّاً.

- لا أحب أن أضيع وقتك وأنت مشغول، ولكنك أنبل من عرفت في حياتي، فإما أن تمدني بسلفة أخرى، وإما أن تجد لبيتي شاريًا، ويا حبة لو تكون أنت الشاري!

فقال أحمد عبد الجواد متنهّدًا:

- أنا؟ يا ليت، الزمن غير الزمن يا سلطنة، طالما صارحتك بالحقيقة ولكن يبدو أنك لا تصدّقين يا سلطنة...

فضحكت ضحكة دارت بها خيبة أملها وقالت:

- السلطنة مفلسة، فما العمل؟

- في المرة السابقة أعطيتك ما قدرت عليه، ولكنّ الحال لا يسمح بتكرار ذلك...

فتساءلت في قلق:

- ألا يمكن أن تجد لبيتي شاريًا؟

- سأبحث لك عن شارٍ. أعدك بذلك.

فقال ممتنة:

- هذا ما يُنتظر منك يا سيّد الكرماء (ثمّ بلهجة حزينة) ليست الدنيا وحدها التي تغيّرت ولكنّ الناس تغيّروا أكثر، سامح الله الناس، في أيّام العزّ كانوا يستبقون إلى تقبيل حداثي، والآن إذا لمحوني على جانب الطريق مالوا إلى الجانب الآخر.

لا بدّ أن يتنكر للإنسان شيء، بل أشياء، الصحة أو الشباب أو الناس، أما أيّام العزّ، أيّام الأنعام والحبّ فأين هي؟!

- ومن ناحية أخرى فأنت يا سلطنة لم تعملي للأيام حسابها...

فتنهّدت آسفة وهي تقول:

- نعم، لست كأختك جليلة التي تتاجر بالأعراض وتقتني المال والبيوت، وفضلاً عن ذلك فقد ابتلاني الله بأولاد الحرام حتّى بلغ الفجر بحسن غير أنّه كان يبيعني شمة الكوكايين - عندما ندر في الأسواق - بجنيه!

- لعنه الله.

- حسن عنبر؟... ألف لعنة!

- بل الكوكايين.

- والله الكوكايين أرحم من الإنسان.

الذي مهّد له السبيل ليتبوأ مركزه في النيابة، ولكنّه شعر بأنّ تصريحه قد ألم وكيله الطيّب فتراجع متسائلاً في لطف:

- متى يُنقل فؤاد إلى القاهرة؟

- في صيف هذا العام أو في صيف العام القادم على الأكثر...

ومضت فترة سكون مشحونة بالحرج حتّى قال الحمزاوي مجارياً السيّد في لطفه:

- وإذا أقام معي في القاهرة وجب التفكير في تزويجه، أليس كذلك يا سي السيّد؟ إنّه ابني الوحيد على سبع بنات، ولا بدّ من تزويجه، وكلّما فكّرت في ذلك جرت في خاطري الأنسة المهذّبة حفيدتك...

واسترق إلى وجه السيّد نظرة استطلاع ثمّ تتمم:

- لسنا قدّ المقام طبعاً...

فلم يَسع السيّد إلّا أن يقول:

- استغفر الله يا عمّ جميل، نحن أخوان من قديم الزمن...

ترى أحزّضه فؤاد على جسّ النبض؟. وكيل نيابة شيء عظيم والعبرة في الأصل بالطيبة، ولكن أهذا وقت التحدّث في الزواج؟

- حدّثني أوّلاً أنت مصمّم على اعتزال العمل؟

وجاء صوت من باب الدكان يقول:

- يا ألف صباح الخير...

- أهلاً وسهلاً... (ثمّ وهو يشير إلى المقعد الذي أخلاه الحمزاوي) تفضّل...

جلست زبيدة بجسم قد ترهّل، ووجه قد تقنّع بالأصباغ، أمّا الحليّ فلم يعد لها أثر في عنقها أو أذنيها أو ساعديها، ولا للجبال القديم مكان، وجعل السيّد يرحّب بها كعادته مع كلّ زائر لا أكثر، أمّا قلبه فلم يرتج للزيارة، فما من مرّة تحيئه إلّا وترهقه بالمطالب. سألتها عن الصّحة فأجابته وهي لا تعني شيئاً «الحمد لله» وقال لها بعد هنيهة صمت... أهلاً... أهلاً، فابتسمت شاكرة ولكن بدا أنّها استشعرت الفتور الكامن في مجاملاته. وضحكت متجاهلة الجوّ الذي يكتنفها. وكانت الأيام قد علّمتها البرود، ثمّ قالت:

بصوت عتيق يتعالى من الباب قائلاً في لهجة الغزل:

- من هذا الذي يجلس وراء المكتب كالقمر؟!

بدا الشيخ متوتراً عبد الصمد في جلباب خشن رث لا لون له، ومركوب متفزز، معصوب الرأس بتلفيعه من وبر، مستند القامة على عكاز، وكان يرمش بعينه الحمراوين مسدداً بصره نحو الجدار الملاصق لمكتب السيد وهو يظن أنه يستدنه نحوه... فابتسم السيد رغم همه قائلاً:

- تعال يا شيخ متوتري، كيف حالك؟

فكشف الرجل عن فم لم يبق فيه ناب واحد وهو يهتف:

- يا ضغط زُل، يا صحبة عودي إلى سيد الناس...

وقام السيد فأنجحه نحوه فاعتدل بصر الشيخ إليه ولكنه تراجع في الوقت نفسه كالحارب، ثم جعل يدور حول نفسه، مشيراً إلى الجهات الأربع وهو يصيح «من هنا تفرج... ومن هنا تفرج». ثم تحول إلى الطريق قائلاً:

- ليس اليوم، غداً، أو بعد غد، قل الله أعلم... ومشى في خطوات واسعة لا يناسب نشاطها مظهره البالي...

٣

يوم الجمعة رجعت الفروع إلى الأصل وعمر البيت القديم بالأبناء والأحفاد، ذلك تقليد سعيد لم ينقطعوا عنه. ولم تعد أمينة «بطلة» يوم الجمعة كما كانت قديماً، فلم حنفي تبوّأت المركز الأوّل في المطبخ، ولم تكن أمينة تني عن تذكير القوم بأنّ أم حنفي تلميذتها فإنّ غرامها بالثناء كان يتشجّع على الإفصاح عن ذاته كلياً شعرت بقلّة استحقاقها له، إلى أنّ خديجة - رغم أنّها في حكم الضيفة - لم تقصّر في إهداء معونتها. وقبيل ذهاب السيد إلى الدكان التفت به الضيوف، إبراهيم شوكت وابناه عبد المنعم وأحمد، وياسين وابناه رضوان وكريمة، يكتنفهم ذلك الخشوع الذي يجعل من ضحكهم ابتساماً ومن حديثهم همساً. وكان السيد يجد في حضورهم سروراً يزداد تعلّقاً به كلّما تقدّم به

- لا... لا، من المبحزن حقاً أنّك وقعت في شرّه.

فقال بتسليم وقنوط:

- هدّ حيلي وضبيّ مالي، ما علينا، متى تجد لي شارياً؟

- إن شاء الله عند أوّل فرصة.

فقال في عتاب وهي تنهض:

- اسمع، إذا زرتك في المرة القادمة فابتسم من قلبك، كلّ إساءة تهون إلّا التي تحيطني من ناحيتك، أنا عارفة أنّ أضيافك بمطالبي ولكّني في ضيق لا يعلم به إلّا الله، وأنت أنبل الناس في نظري.

فقال لها معتذراً:

- لا تتوهمي ما ليس فيّ، الأمر أنّي كنت مشغولاً بمسألة هامة عند قدومك، وهموم التجار لا تنتهي كما تعلمين!

- رفع الله عنك الهموم.

فحنى رأسه شاكراً وهو يوصلها، ثم ودّعها قائلاً:

- أهلاً بك من القلب في كلّ حين...

ولح في عينيها نظرة خابية تفيض غمّاً فرق لها، وعاد إلى مجلسه منقبض الصدر فالتفت إلى جميل الحمزاوي وقال:

- دنيا...

- كففاك شرّها وأطعمك خيرها.

غير أنّ نبرات الحمزاوي قست وهو يستدرك قائلاً:

- ولكّنها عاقبة عادلة لامرأة مستهترّة!

فهزّ أحد عبد الجواد رأسه هزة مقتضبة سريعة كأنما يعلن بها احتجاجاً صامتاً على قسوة هذه الموعظة، ثمّ سأله بصوت رجح به إلى النغمة التي قطعها مجيء زبيدة:

- ألا تزال مصمّماً على رأيك في هجرنا؟

فقال الرجل في حرج:

- ليس هجراً ولكّنه تقاعد وأنا آسف من كلّ قلبي.

- كلام كالذي داريت به زبيدة منذ دقيقة!

- استغفر الله، إنّني أنكلم من قلبي، ألا ترى يا سيدي أنّ الكبر يكاد يعجزني؟

ثمّ دخل الدكان زبون فمضى الحمزاوي إليه، وإذا

الكهربائي. وكان إبراهيم شوكت كعادته التي لم يغيرها الزمن ينوّه باللوان الطعام التي أعجبت، غير أنّ تنويهه اقتصر في الفترة الأخيرة على فضل الأستاذة على تلميذتها النجيبة، وكانت زُتوبة تعيد ثناءه كالصدي فإنها لم تكن تهمل فرصة يمكن أن تتودّد بها إلى أحد من أهل زوجها. والحقّ أنّها مذ فتحت لها أبواب آل زوجها وأتيحت لها مغالطتهم وهي تعمل بلباقة على توثيق علاقتها بهم، لأنّها عدّت ذلك اعترافاً بمكانتها بعد أن انقضت أعوام وهي تعيش في عزلة كالمنبوذة.

وكان موت وليد ياسين السبب الحقيقي في زيارة أهله لبيته للتعزية، فصافحت يدها أيديهم لأوّل مرّة منذ زواجها، وتشجّعت بذلك فزارت السكرية، ثمّ زارت بين القصرين عند اشتداد المرض على السيّد، بل أقدمت على زيارته في حجرته فتقابلت كشخصين جديدين لا تاريخ مشتركاً بينهما. هكذا اندمجت زُتوبة في آل أحمد حتّى غدت تخاطب أمانة فتقول لها يا تيزة وتنادي خديجة فتقول لها يا أختي، وبدت دائماً مثلاً للاحتشام، وعلى خلاف نساء الأسرة أنفسهنّ تجنّبت التبرّج خارج بيتها، حتّى بدت أكبر من سنّها، إذ بادر الذبول إلى جمالها قبل الألوان، فلم تصدّق خديجة أبداً أنّها في السادسة والثلاثين، ولكنّها استطاعت أن تفوز من الجميع بشهادة طيّبة لها حتّى قالت عنها أمانة يوماً «لا شكّ أنّ أصلها طيّب، ربّما أصلها البعيد، فليكن،

ولكنّها بنت حلال، هي الوحيدة التي عمّرت مع ياسين!». وبدت خديجة في شحمها ولحمها أضخم من ياسين نفسه، ولم تكن تنكر أنّها سعيدة بذلك، كما كانت سعيدة بعبد المنعم وأحمد وحياتها الزوجية الموقّعة عامّة، بيد أنّها لم تكفّ يوماً عن التشكّي اتّقاء العين.

وقد تغيّرت معاملتها لعائشة تغيّراً كليّاً فلم تندّ عنها طوال ثمانية أعوام كلمة واحدة تتمّ عن سخرية أو خشونة ولو على سبيل المازحة، بل حرصت الحرص كلّه على الترفّق بها والتودّد إليها وملاطفتها، خشوعاً حيال تعاستها وخوفاً من الاقدار التي قضت عليها بما قضت، وإشفاقاً من أن تضع المرأة المحزونة حظّها موضع المقارنة، وقد وقفت موقفاً كريماً يوم حثّمت على

العمر، فعتب على ياسين انقطاعه عن زيارته في الدكان اكتفاء بزيارة يوم الجمعة، ألا يريد هذا البغل أن يفهم أنّه يتوق إلى رؤيته كلّ حين؟. وابنه رضوان جميل المحيّا ذو العينين المكحولتين والبشرة الوردية الذي يعكس جماله ألواناً متنوّعة تذكّره مرّة بياسين ومرّة بهنّة أم ياسين وثلاثة بصديقه الحبيب محمّد عفت فهذا أحبّ الأحفاد إلى قلبه، وكريمة أخته مصغّر شابّة في الثامنة من عمرها سوف تنضج نضجاً عجيباً كما تشهد عيناها السوداءوان - عينا زُتوبة أمّها - اللتان يسمّ لهما خطره ابتسامة نديّة بالحياء والذكريات. أمّا عبد المنعم وأحمد فحسبه أن يرى في وجهيهما قدراً لا يُستهان به من أنفه العظيم كما يرى عيني خديجة الصغيرتين، غير أنّها أجراً من الآخرين في مخاطبته، وكلّهم - هؤلاء الأحفاد - يشقّون طريق دراستهم بنجاح يدعوا إلى الفخار، لكنّهم يبدون مشغولين بأنفسهم عن جدّهم، فمن ناحية يعزّونه بأنّ حياته لم ولن تنقطع ومن ناحية أخرى يذكّرونه بأنّ شخصه يتراجع رويداً عن مركز الاهتمام الذي كان يستأثره، ولم يكن ذلك ليحزنه، فإنّ الإيغال بالعمر يجيء بالحكمة كما يجيء بالوهن والمرض. ولكن هيات أن يمنع ذلك الذكريات من أن تتدفّق، عندما كان مثل هؤلاء في مطلع العمر، وعندما كان العام ١٨٩٠، وكان يتعلّم قليلاً ويلهو كثيراً ما بين مغاني الجبالية ومرتاد الأزبكية، وفي ركابه يجري محمّد عفت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار، وكان أبوه يملأ الدكان نفسها يزجر وحيداً قليلاً، ويرقّ له كثيراً، وكان العمر صفحة مطوية مكتظة بالأمال، ثمّ كانت هنيّة... ولكن مهلاً! لا ينبغي أن تستخفّه الذكريات.

وقام لبصليّ العصر فكان ذلك إيذاناً بالانصراف، ثمّ ارتدى ملابسه ومضى إلى الدكان، وتجمّعوا هم في مجلس القهوة حول مجمرة الجلدة، في جوّ التلاقي والسمر. احتلّت الكنبّة الرئيسيّة أمانة وعائشة ونعيمة، أمّا الكنبّة اليمنى فجلس عليها ياسين وزُتوبة وكريمة، وعلى الكنبّة اليسرى قعد إبراهيم شوكت وخديجة وكمال، على حين اتخذ رضوان وعبد المنعم وأحمد مجالسهم على كراسيّ توسّطت الصالة تحت المصباح

يتنفس في جَوِّ الآمال القديمة، بيد أن الحياة تجبهه بصدمات قاسية كل يوم، فوكيل النيابة مثلاً لا يحتاج إلى تعريف أما كاتب مقالات مجلّة «الفكر» فربما احتاج إلى تعريف أكثر من مقالاته الغامضة نفسها! ولم يدعه أحمد إبراهيم شوكت لحيرته فنظر إليه بعينه الصغيرتين البارزتين وهو يقول:

- إنّي أترك الجواب لخالي كمال...

وابتسم إبراهيم شوكت ابتسامة يداري بها حرجه، أما كمال فقال دون حماس:

- ادزُسْ ما تشعر بأنّه يوافق موهبتك.

وبدا الظفر في وجه أحمد فردّد رأسه الرشيق بين أخيه وأبيه غير أن كمال عاد يقول:

- ولكن ينبغي أن تعلم أنّ الحقوق تفتح لك مجالاً من الحياة العملية الممتازة لا تستطيعه الآداب. سيكون مستقبلك إذا اخترت الآداب في التعليم وهو مهنة شاقّة ولا جاء لها...

- بل سأنتج إلى العمل في الصحافة.

- الصحافة!... «صاح إبراهيم شوكت»... إنّه لا يدري ماذا يقول.

فقال أحمد مخاطباً كمال:

- إنّ قيادة الفكر وقيادة عربية كارو شيء واحد في أسرتنا!

فقال رضوان ياسين بأسماً:

- إنّ أكبر قادة الفكر في وطننا من الحقوق...

فقال أحمد في كبرياء:

- إنّ الفكر الذي أعنيه شيء آخر!

فقال عبد المنعم شوكت عابساً:

- وهو شيء خفيف هدام، إنّي أعلم والأسفاه بما تعني...

وعاد إبراهيم شوكت يقول لأحمد وهو ينظر إلى الآخرين كأنما يشهدهم على ما يقول:

- فغُرّ قبل أن تقدم، إنك لا زلت في السنة الرابعة، لن يعدو ميراثك المائة جنيه في العام، وإنّ بعض أصحابي يشكون مرّ الشكوى من أنّ أبناءهم الجامعيّين لا يجدون عملاً، أو يعملون كتّبةً بمرتبات تافهة، وأنت حرّ بعد ذلك فيها تختار...

إبراهيم شوكت أن ينزل عن حقّه المشروع في ميراث أخيه المتوفّى لنعيمة فألّ الميراث كلّهُ لعائشة وكرّميتها دون شريك. وأملت خديجة أن يذكر صنيعها في حينه ولكنّ عائشة استغفرها ذهول غيّب عنها كرم أختها فلم يقعد ذلك بخديجة عن غمرها بالعطف والرحمة والتسامح كأنما انقلبت أمّاً أخرى لها، ولم تكن تطمع في أكثر من رضاها ومودّتها كي تطمئنّ على أسباب التوفيق التي هيأها لها الله. وأخرج إبراهيم شوكت علبه سجنائه وقدمها لعائشة فتناولت سيجارة شاكرة، وتناول أخرى وراحا يدخنان. كثيراً ما يكون إفراط عائشة في التدخين وتعاطي القهوة ملتقى ملاحظات وإن تكن تقابل منها عادة بهزّ الكتفين. أمّا أمّها فتتقنع بأن تقول في لهجة الدعاء «ربّنا يصبرها» وأمّا ياسين فكان أجراً الأهل في نصيحها كأنما قد أهله لذلك فقد وليده، غير أنّ عائشة لم تكن تعدّه مصاباً مثلها وتضنّ عليه بمكانة مرموقة في دولة المهلبين إذ إنّ ابنه مات وهو دون العام لا كعثان أو حمّد، والواقع أنّ حديث المصائب كان يبدو كثيراً هوايتها المفضّلة، كأنما كانت تعترّ بدرجة الممتازة في دنيا الشقاء، واستمع كمال إلى ما يدور من حديث عن المستقبل بين رضوان وعبد المنعم وأحمد فأرهف السمع بأسماً، وكان رضوان ياسين يقول:

- كلّنا من القسم الأدبي، فليس أمامنا كلّية جديدة بالاختيار إلّا الحقوق.

فأجابه عبد المنعم إبراهيم شوكت بصوته القويّ المفعم بنبرات التوكيد، وكان يهزّ رأسه الضخم الذي جعله أقرب الشبان شبهاً إلى كمال:

- مفهوم... مفهوم، ولكنّه لا يريد أن يفهم!

وأوماً عند عبارته الأخيرة إلى أخيه أحمد الذي ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، فانتهاز إبراهيم شوكت الفرصة وقال مشيراً إلى أحمد أيضاً:

- ليدخل الآداب إذا شاء ولكن عليه أن يقنعني بقيمتها، أنا أفهم الحقوق ولكنني لا أفهم الآداب!

وغضّ كمال بصره فيها يشبه الأسى، إذ عاودته أصداء نقاش قديم عن الحقوق والمعلمين. إنّه لا زال

شعر كمال كأنَّ هذا القول انتقاد مرَّ موجَّه إلى شخصه، أمَّا عائشة فقالت لأول مرة:

- إنَّه يريد أن يخطب نعيمة.

وفي فترة الصمت التي استقبل بها الخبر قالت أمينة:

- أبوه فاتح جدُّها أمس...

وتساءل ياسين جادًا:

- وهل وافق أبي؟

- هذا سابق لأوانه.

فتساءل إبراهيم شوكت بحذر وهو ينظر إلى عائشة:

- وما رأي عائشة هانم؟

فقالت عائشة دون أن تنظر إلى أحد:

- لا أدري...

فقالت خديجة وهي تتفحصها بعين:

- ولكنك أنتِ الكلِّ في الكلِّ...

وأراد كمال أن يشهد بشهادة طيبة لصديقه فقال:

- فؤاد شابٌ ممتاز حقًّا...

فقال إبراهيم شوكت بحذر كالمسائل:

- أظنَّ أهله من السوقة ١٩.

فقال عبد المنعم شوكت بصوته القوي:

- نعم، خاله مكاري، وخاله الآخر فؤاد، وعمّه

كاتب محامٍ (ثمَّ بلهجة استدرائية ضعيفة) ولكن هذا

لا ينقص من قدر الإنسان فالإنسان بنفسه لا بأهله!

وأدرك كمال أنَّ ابن أخته يريد أن يقرِّر حقيقتين

يؤمن بهما على تنافرها، أوَّلًا وضاعة أصل فؤاد، وثانيًا

أنَّ وضاعة الأصل لا تنقص من قدر الشخص. بل

أدرك أكثر من هذا أنَّه يحمل في الأولى على فؤاد وأنَّه

يكفِّر في الثانية عن حملته الظالمة مرضاة لعقيدته الدينيَّة

القويَّة. ومن عجب أنَّ تقرير هاتين الحقيقتين أراحه

وكفاه شرَّ الإفصاح عنها بنفسه، فإنَّه كابن أخته لم

يكن يؤمن بفوارق الطبقات، وكان مثله أيضًا يميل

للمحبة على فؤاد والخطِّ من شأنه الذي يدرك خطورته

وتفاوته هو بالقياس إليه. والظاهر أنَّ أمينة لم ترتج

لهذه المحبة فقالت:

- أبوه رجل طيب، حدِّثنا العمر كلَّه بأمانة

وإخلاص.

فجمعت خديجة شجاعتها وقالت:

وتدخل ياسين في المناقشة بأن اقترح قائلاً:

- لنسمع رأي خديجة، إنَّها المدرِّسة الأولى لأحد،

وهي أقدرنا على الاختيار بين الحقوق والآداب...

وامتلأت الثغور بالابتسام، حتَّى أمينة ابتسمت

وهي عاكفة على كنجة القهوة، بل حتَّى عائشة

ابتسمت، فتشجَّعت خديجة بابتسامة عائشة فقالت:

- سأقصَّ عليكم قصَّةً لطيفة، أمس بعد العصر

بقليل - والدنيا تظلم بسرعة في الشتاء كما تعرفون -

كنت راجعة من الدرب الأحمر إلى السكرية، فشعرت

كأنَّ رجلاً يتبعني، وإذا به يمرُّ بي تحت قبة المتولِّي وهو

يقول «على فين يا جميل»، فالتفت نحوه قائلة: «على

البيت يا سي ياسين!».

وضجَّت الصالة بالضحك. ونظرت إليه زئوبة

نظرة ذات معنى تجلَّ فيها الانتقاد والباس، أمَّا ياسين

فجعل يشير للضاحكين بيده حتَّى عاد السكون، ثمَّ

تساءل:

- أמן المعقول أن يصيبني العمى إلى هذا الحدِّ؟

فحدِّره إبراهيم شوكت قائلاً:

- حاسب!

أمَّا كريمة فامسكت بيد أبيها وضحكت كأنَّها رغم

كونها بنت ثمانية قد فهمت المقصود من قصَّة عمَّتها،

وقالت زئوبة تعليقًا على الحال:

- شرَّ الأمور ما يضحك.

وحلج ياسين خديجة بنظرة مغيظة وهو يقول

«حفرت لي حفرة يا بنت الإيه» فقالت خديجة:

- إذا كان أحد في الموجودين في حاجة إلى الآداب

فهو أنت لا أحمد ابني المجنون!

وصدَّقت زئوبة على قولها، أمَّا رضوان فدافع عن

أبيه ودعاه بالبريء المظلوم، وظلَّ أحمد ينظر إلى كمال

متعلِّقًا به كالأمل، أمَّا عبد المنعم فكان يسترُق النظر

إلى نعيمة التي تبدَّت لصق أمَّها كالوردة البيضاء،

وكانت كلَّها شعرت بعينيهِ الصغيرتين تورَّد وجهها

الشاحب الرقيق، حتَّى عاد إبراهيم شوكت يقول مغيرًا

مجرى الحديث مخاطبًا أحمد:

- انظر إلى الحقوق وكيف جعلت من ابن الحمزاوي

وكيل نيابة قَدِّ الدنيا...

ثم قالت في حياء واستياء:
- لا رأي لي، دعني وشأني! ...
فقال أحمد ساخرًا:
- الحياء الكاذب ...
ولكن عاتشة قاطعته متسائلة:
- الكاذب؟!
فاستدرك قائلاً:
- الحياء موضة قديمة، ينبغي أن تتكلمي وإلا ضاعت منك الحياة ...
فقال عاتشة بمرارة:
- إننا لا نعرف هذا الكلام.
فقال أحمد متشككاً دون أن يعبا بنظرة أمه المنذرة:
- أراهن على أن أسرتنا متأخرة عن العصر الحديث بأربعة قرون!
فسأله عبد المنعم ساخرًا:
- لم حدّتها بأربعة؟
فقال دون اكتراث:
- على سبيل الرفقة!
وإذا بخديجة توجه الخطاب إلى كمال متسائلة:
- وأنت! ... متى تتزوج أنت؟!
بوغت كمال بالسؤال فتهرب قائلاً:
- حديث قديم!
- وجديد في الوقت نفسه، ولن نتركه حتى يجمع الله شملك على بنت الحلال ...
تابعت أمينة الحديث الأخير باهتمام مضاعف، فزواج كمال أعز أمانيتها، وكم رجته أن يحقق أمنيتها حتى تقر عينها بحفيد من صلب ابنها الوحيد، قالت:
- عرض عليه أبوه عرائس من أحسن الأسر، ولكنه يتعلل دائماً بعذر أو بآخر ...
- أعدار واهية، كم عمرك الآن يا سي كمال؟! ...
تساءل إبراهيم شوكت ضاحكاً ...
- ثمانية وعشرون عاماً! ... فات الوقت ...
أنصت أمينة إلى رقم العمر بدهش كأنها لا تريد أن تصدق، أما خديجة فاحتدت وهي تقول:
- أنت مغرم بتكبير عمرك!
أجل فهو الأخ الأصغر، فالكشف عن عمره كشف

- ولكن ربما عاشرت نعيمة - لو تم هذا الزواج -
أناساً ليسوا أهلاً للمعاشرة، الأصل كل شيء.
وجاءها تأييد من حيث لم ينتظر أحد، فقالت
زئوبة:

- صدقت، الأصل كل شيء!
واضطرب ياسين، واسترق إلى خديجة نظرة سريعة وهو يتساءل عن رجوع قول زوجته في نفسها، وتعليقها الباطني عليه وما يستدعيه ذلك إلى خواطرها عن عالم العوالم والتخت. حتى لعن زئوبة في سره على «قزحتها» الفارغة واضطر أن يتكلم ليغطي على كلام زوجته، فقال:

- تذكروا أنكم تتحدثون عن وكيل نيابة ...
فقال خديجة متشجعة بسكوت عاتشة:
- أبي الذي جعل منه وكيل نيابة، أموالنا نحن التي صنعته!

فقال أحمد شوكت في سخرية نطقت بها عيناه
البارزتان اللتان تذكران بالمرحوم خليل شوكت:
- نحن مدينون لأبيه أكثر مما هو مدين لنا!
فأشارت إليه خديجة بسبابتها وهي تقول بلهجة ملؤها الانتقاد:
- أنت دائماً ترمينا بكلام غير مفهوم.

فقال ياسين بلهجة من يأمل في إنهاء الموضوع:
- أريحوا أنفسكم فالكلمة الأخيرة لبابا ...

ورّعت أمينة فناجيل القهوة، وأجهت أعين الشباب إلى حيث جلست نعيمة لصق أمها. قال رضوان لنفسه: بنت لطيفة وجيلة، ليته كان في الإمكان أن أصادقها وأزاملها، لو مشينا في الطريق معاً لاحتار الرجال آينا الأجل!، وقال أحمد لنفسه أيضاً: جيلة جداً، ولكنها كأنما هي ملزوقة في خالتي بالغرا، ولا حظ لها من الثقافة. أما عبد المنعم فقال: جيلة وست بيت وشديدة التقوى، لا يعيبها إلا ضعفها، وحتى ضعفها جميل، خسارة في عين فؤاد، ثم جاوز الحديث الباطني فسألها:

- وأنت يا نعيمة خبرينا عن رأيك؟
فتورد الوجه الشاحب، وقطبت ثم ابتسمت، وتوتر حالها وهي تمزج الابتسام بالتقطيع لتخلص منها معاً،

فابتسمت زَنُوبة ابتسامة أرجعتها إلى الوراء عشرة أعوام وتساءلت:

- ولم لا ترغب في الزواج؟

فقال كمال فيما يشبه الضجر:

- الزواج حبة وأنتم تجعلون منه قبة...

ولكنه كان يؤمن في أعماقه بأن الزواج قبة لا حبة، وكان يساوره شعور غريب بأنّه يوم يدعن للزواج فسيفس على قضاء مبرماً. وأنقله من موقفه صوت أحمد وهو يقول له:

- آنا لنا أن نصعد إلى المكتبة.

فنهض مرتجاً بدعوته، ومضى خارجاً وعبد المنعم وأحمد ورضوان في أثره، وصعدوا إلى حجرة المكتب لاستعارة بعض الكتب كعادتهم كلما جاءوا إلى البيت القديم زائرين. وكان مكتب كمال يتوسط الحجرة تحت المصباح الكهربائي بين صفتين من خزائن الكتب، فجلس إلى مكتبه على حين رأى الشبان يطالعون عناوين الكتب المصفوفة على الأرفف، ثم اختار عبد المنعم كتاب «محاضرات في تاريخ الإسلام»، وجاء أحمد بكتاب «مبادئ الفلسفة»، ثم وقفوا حول مكتبه وهو يرّد بصره بينهم صامتاً، حتى قال أحمد متضايقاً:

- لن أقرأ كما أحب حتى أتمكن لغة أجنبية واحدة على الأقل.

وتم عبد المنعم وهو يقرأ صفحات كتابه:

- لا أحد يعرف الإسلام على حقيقته.

فقال أحمد ساخطاً:

- أخي يتلقى حقيقة الإسلام على يد رجل شبه عامي في خان الخليلي...

فصاح به عبد المنعم:

- صه يا زنديق!

ونظر كمال إلى رضوان متسائلاً:

- وأنت ألا تريد كتاباً؟

فأجاب عنه عبد المنعم:

- وقته مشغول بقراءة الجرائد الوردية!

فقال رضوان وهو يومي إلى كمال:

- في هذا يتفق معي عمي!

عمّه لا يؤمن بشيء ورغم ذلك فهو وفدي! كما أنّه

غير مباشر عن عمرها. مع أنّ زوجها بلغ الستين إلا أنّها كانت تكره أن تذكر بأنّها في الثامنة والثلاثين، أمّا كمال فلم يكن يدري ماذا يقول، ولم يكن الموضوع في نظره ممّا يُحسم بكلمة، ولكنه كان يشعر دائماً أنّه مطالب بإيضاح موقفه فقال بلهجة المعتذر:

- إني مشغول بهاري بالمدرسة وليلي بمكتبي!

فقال أحمد بحماس:

- حياة عظيمة يا خالي، ولكنّ الإنسان ينبغي مع ذلك أن يتزوج.

وقال ياسين الذي كان أعرف الجميع بكمال:

- أنت تتجنّب الشواغل حتى لا تشغلك عن طلب «الحقيقي» ولكنّ الحقيقة في هذه الشواغل، لن تعرف الحياة في المكتبة، ولكنّ الحقيقة في البيت والشارع...

فقال كمال ممعناً في الهرب:

- تعودت أن أنفق مرتبي لآخر ملّيم، ليس عندي

مدّخر، كيف أتزوج؟!

فقال خديجة تحاصره:

- أئو الزواج مرة وستعرف كيف تستعدّ له.

وقال ياسين ضاحكاً:

- إنك تنفق مرتبك لآخر ملّيم حتى لا تتزوج...

كانت شيئا واحداً. ولكن لم تترجّع رغم استجابة الظروف ورغبة الوالدين؟. أجل مضت فترة في ظلّ الحب فكان الزواج ضرباً من اللعب، وتبعها فترة حلّ محلّ الحب فيها بديل هو الفكر فاستغرق الحياة بينهم، وكانت فرحة الأفراح أن يعثر على كتاب جميل أو يظفر بنشر مقالة. وقال لنفسه إنّ المفكر لا يتزوج وما ينبغي له. كان ينظر إلى فوق ويظنّ أنّ الزواج سيحمله على النظر إلى تحت. وكان - وما زال - يلدّ له موقف المشاهد المتأمل بقدر ما ينفر من الاندماج في ميكانيكية الحياة. وإنّه ليضنّ بحرّيته كما يضنّ البخيل بماله، ثمّ إنّه لم يبقَ عنده من المرأة إلا شهوة تُقضى، وإلى هذا كلّه فالشباب لم يضع هباء ما دام لا ينقضي أسبوع دون مسرات فكرية ولذات جسدية، ثمّ إنّه حائر يداخله الشك في كلّ شيء، والزواج نوع من الإيمان، قال:

- أريحوا أنفسكم، سأترجّع عندما أرغب في الزواج.

وقد انحشر كمال بين الواقفين وكأنه يطلّ عليهم بقامته الطويلة النحيلة. كانوا مثله - فيها بدا له - يقصدون مكان الاحتفال بالعيد الوطني - عيد ١٣ نوفمبر - فردّد عينيه في الوجوه مستطلعًا ومرحبًا.

والحقّ أنّه يشارك في هذه الأعياد كأشدّ المؤمنين بها وإن آمن في الوقت نفسه بآلأ إيمان له. وكان الناس يتحدّثون معلّقين على الموقف دون سابق تعارف مكتفين بوحدة الهدف وبرابطة «الوفديّة» التي ألّفت بين قلوبهم، قال أحدهم:

- عيد الجهاد هذا العام عيد جهاد بكلّ معنى الكلمة، أو هذا ما يجب أن يكون...
فقال آخر:

- يجب أن يُردّد فيه على هور وتصريحه المشؤم.
وثار ثالث لذكر هور فصاح:
- ابن الكلب قال: نصحنّا بأن لا يعاد دستور ١٩٢٣، ولا دستور ١٩٣٠، ما شأنه هو ودستورنا؟
فأجابه رابع:

- لا تنس أنّه قال قبل ذلك: «على أنّنا عندما استشارونا نصحنّا» إلخ...

- أجل، من الذين استشاروه؟
- سلّ عن ذلك حكومة القوّادين!
- توفيق نسيم... كفى! أنسيتموه؟ ولكن لماذا هادنه الوفد؟!

- لكلّ شيء نهاية، انتظروا خطبة اليوم.
أصغى كمال إليهم، بل اشترك في حديثهم، وأعجب من هذا أنّه لم يكن من دونهم حماسًا، وكان هذا ثامن عيد جهاد يشهده، وكان كالآخرين قد امتلأ بمرارة التجارب السياسيّة التي خلّفتها الأعوام السابقة. أجل «لقد عاصرت عهد محمّد محمود الذي عطّل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد واغتصب حرّيّة الشعب في نظير وعده له بتجفيف البرك والمستنقعات! كما عشت سنين الإرهاب التي فرضها إسماعيل صدقي على البلاد، كان الشعب يثق في قوم ويريدهم حكمًا له ولكنّه يجد فوق رأسه دائمًا أولئك الجلّادين البغضاء، تمهيمهم هراوات الكونستبلات الإنجليز ورصاصهم، وسرعان ما يقولون له بلغة أو

يشكّ في الحقيقة عامّة، ورغم ذلك فهو يتعامل مع الناس والواقع. تساءل وهو يرّدّد عينيه بين عبد المنعم وأحمد:

- وأنتما وفديّان كذلك فما وجه الغرابة؟ وكلّ وطنيّ فهو وفديّ، أليس كذلك؟

فقال عبد المنعم بصوته اليقينيّ:
- الوفد أفضل الأحزاب بلا ريب، ولكنّه في ذاته لم يعد مقتنعًا كلّ الإقناع...
فقال أحمد ضاحكًا:

- إني أوافق أخي على رأيه هذا، أو بالأحرى لا أوافقه على رأيي إلّا هذا، وربما اختلفنا في درجة الإقناع الخاصّة بالوفد، أكثر من ذلك فإنّ الوطنيّة نفسها يجب أن تكون موضع استفهام، أجل إنّ الاستقلال فوق كلّ نزاع، أمّا معنى الوطنيّة بعد ذلك فينبغي أن يتطوّر حتّى يفنى في معنى أشمل وأسمى، وليس بعيد أن ننظر في المستقبل إلى شهداء الوطنيّة كما ننظر الآن إلى ضحايا المعارك الحمقاء التي تنشب بين القبائل والأسرا!

معارك حمقاء يا أحمق! فهمي لم يستشهد في معركة حمقاء، ولكن أين وجه اليقين؟ ورغم خواطره قال بحدّة:

- أيّ قتيل في سبيل شيء فوق نفسه فهو شهيد، وقد تتغيّر قيم الأشياء أمّا موقف الإنسان منها فهو قيمة لا تتغيّر...

وغادروا حجرة المكتب ورضوان يقول مخاطبًا عبد المنعم ردًا على ملاحظة له:

- السياسة أخطر وظيفة في المجتمع...
ولما عادوا إلى مجلس القهوة كان إبراهيم شوكت يقول لياسين:

- وهكذا فنحن نربّي ونوجّه وننصح ولكن كلّ ولد يندمج في مكتبة، وهي عالم مستقلّ عنّا، يزحمنا فيه أناس غريباء، لا ندرى عنهم شيئًا فما عسى أن نصنع؟!

كان الترام مكتظًا حتّى لم يعد به موضع لواقف،

فاخري أنت شعب قاصر ونحن الأوصياء، والشعب يخوض المعارك دون توقّف فيخرج من كلّ وهو يلهث، حتى اتخذ في النهاية موقفًا سلبيًا، شعاره الصبر والسخرية، فخلا الميدان إلّا من الوفديّين من ناحية والطغاة من ناحية أخرى، وقنع الشعب بمجلس المتفرّج وراح يشجّع رجاله في همس دون أن يمدّ لهم يدًا. إنّ قلبه لا يستطيع أن يتجاهل حياة الشعب، إنّهُ يخفق معه دائمًا، رغم عقله التائه في ضباب الشكّ. غادر الترام عند شارع سعد زغلول، وسار في طابور غير منتظم نحو سرادق الاحتفال المقام في جوار بيت الأمة، تقابلهم بين كلّ عشرة أمتار مجموعة من الجنود تحت رياسة كونستبل إنجليزي تنطق وجوهم بالصرامة والبلادة. والتقى قبيل السرادق بعبد المنعم وأحمد ورضوان وشابّ لا يعرفه وقد وقفوا معًا يتحدّثون، فأقبلوا نحوه مسلمّين ولبثوا معه بعض الوقت. منذ شهر تقريبًا ورضوان وعبد المنعم بين طلبة الحقوق أمّا أحمد فقد انتقل إلى السنة النهائية بالثانوي، وإنّه ليراهم في الطريق «رجالًا» بخلاف ما يراهم في البيت فليسوا إلّا أبناء أخته وأخيه. وما أجمل رضوان!، كذلك جميل، صاحبه الذي قدّمه إليه باسم حلمي عزّت وقد صدق من قال إنّ الطيور على أشكالها تقع. وكان أحمد يسرّه، ويتنظر منه دائمًا قولًا غريبًا متمًا أو سلوكًا لا يقلّ عنه غرابة، إنّهُ أقرب الجميع إلى روحه، أمّا عبد المنعم فما أشبهه به لولا ميله إلى القصر والامتلاء، لذلك فحسب يحبه، أمّا يقينه وتعصّبه فما أزدلهما!

وأقبل على السرادق الضخم، وألقى نظرة شاملة على الجموع الحاشدة، مسرورًا بكثرتها الهائلة، وتطلّع مليًا إلى المنصة التي سيعلو عندها عمّا قليل صوت الشعب، ثمّ اتخذ مجلسه. إنّ وجوده في مثل هذا الجمع الحاشد يطلق من أعماق ذاته الغارقة في الوحدة شخصًا جديدًا ينتفض حياة وحاسًا. هنا ينحبس العقل في مقمق إلى حين وتطلق قوى النفس المكتوبة طامحة إلى حياة مفعمة بالعواطف والأحاسيس دافعة إلى الكفاح والأمل، وعند ذاك تتجدّد حياته وتنبعث غرائزه وتتبدّد وحشته ويتّصل ما بينه وبين الناس

فيشارك في حياتهم ويعتنق آمالهم وآلامهم. إنّهُ بطبعه لا يطيق أن يتخذ من هذه الحياة حياة ثابتة له ولكن لا بدّ منها بين حين وآخر حتّى لا ينقطع ما بينه وبين الحياة اليومية، حياة الناس، فلتؤجّل مشكلات المادّة والروح والطبيعة وما وراء الطبيعة، وليمتلئ اهتمامًا بما يجب هؤلاء الناس وما يكرهون، بالدستور... بالأزمة الاقتصادية... بالموقف السياسي... بالقضية الوطنية. لذلك لم يكن عجبًا أن يهتف «الوفد عقيدة الأمة» غداة ليل قضاه في تأمل عبث الوجود وقبض الريح، والعقل يحرم صاحبه نعمة الراحة، فهو يعشق الحقيقة ويهوى النزاهة ويتطلّع إلى التسامح ويرتطم بالشكّ ويشقى في نزاعه الدائم مع الغرائز والانفعالات، فلا بدّ من ساعة يأوي فيها ألتعب إلى حضن الجماعة ليجدّد دمائه ويستمدّ حراره وشبابًا. في المكتبة أصدقاء قليلون ممتازون مثل دارون وبرجسون ورسل. في هذا السرادق آلاف من الأصدقاء، يبدون بلا عقول، ولكن يتملّك في مجتمعتهم شرف الغرائز الواعية، وليسوا في النهاية دون الأوّل خلقًا للحوادث وصنعًا للتاريخ. في هذه الحياة السياسيّة يحبّ ويكره ويرضى ويغضب ويبدو كلّ شيء ولا قيمة له. وكلّما واجه هذا التناقض في حياته زعره القلق. ولكن ليس ثمة موضع في حياته يخلو من تناقض وبالتالي من قلق. لذلك شدّ ما يحنّ قلبه إلى تحقيق وحدة منسجمة تتسم بالكمال والسعادة، ولكن أين هذه الوحدة؟!.

ويشعر بأنّ الحياة العقلية لا مفرّ منها ما دام به عقل يفكر فلا يقعه ذلك عن التطلّع إلى الحياة الأخرى تدفعه كآفة القوى المعطّلة المكبوتة، فهي صخرة النجاة. فلعلّه لذلك بدا هذا الجمع رائيًا، وكلّما ازداد كثرة ازداد روعة. وها هو القلب ينتظر ظهور الزعماء بنفس الحرارة واللهفة كالآخرين. وقد جلس عبد المنعم وأحمد على مقعدين متجاورين، أمّا رضوان وصاحبه حلمي عزّت فيسيران في الممرّ الذي يشقّ السرادق ذهابًا وجيئة أو يقفان عند المدخل يتبادلان الحديث مع بعض المشرفين على الاحتفال فيا لهما من شائين ذوي نفوذ! وكانت همسات القوم تتجمّع فتحدث لغظًا عامًا أمّا الأركان التي احتلّها الشباب

المقاعد ترتجّ بمن فوقها، فما الخطوة التالية؟ ما يدرى
إلا والجموع تتجّه نحو الخارج. وغادر موضعه وهو
يلقي نظرة عامّة باحثاً عن شباب أسرته ولكنّه لم يعثر
لهم على أثر. وغادر السراق من الباب الجانبى، ثمّ
سار مستهدفاً شارع قصر العيني في خطوات سريعة
حتى يسبق الجموع. ومرّ في طريقه بيت الأئمة وكان
كلّما مرّ به يعلّق به بصره ورّدّد عينيّه بين الشرفه
التاريخيّة والفناء الذي شهد أجلّ الذكريات الوطنيّة،
أجلّ لهذا البيت مثل السحر في نفسه، فها هنا كان
يقف سعد، وها هنا كان يقف فهمي وأقرانه، وفي
هذا الطريق الذي يسير فيه الآن كان ينطلق الرصاص
ليستقرّ في صدور الشهداء، إنّ قومه في حاجة دائمة
إلى الثورة ليقاوموا موجات الطغيان التي تترصّد سبيل
نهضتهم، في حاجة إلى ثورات دوريّة تكون بمثابة
التطعيم ضدّ الأمراض الخبيثة، والحقّ أنّ الاستبداد
هو مرضهم المتوطن. هكذا نجح اشتراكه في العيد
الوطنيّ في تجديد نفسه فلم يكن يهيمه في تلك اللحظة
إلا أن تحيى مصر على تصريح هور إجابة حاسمة
كاللكمة القاضية. وانتصبت قامته النحيلة الطويلة،
وارتفع رأسه الكبير، واشتدّ وقع خطاه وهو يتقدّم أمام
الجامعة الأمريكيّة متخيلاً أموراً جليّة وفعالاً خطيرة.
حتى المدرّس ينبغي أن يثور أحياناً مع تلاميذه.
وابتسم فيما يشبه الكآبة... مدرّس كبير الرأس مقضيّ
عليه بأن يعلم مبادئ الإنجليزيّة - المبادئ فحسب -
رغم أنّه يطلّع بها على أسرار وأسرار، يحتلّ جسمه من
مزدحم الأرض موضعاً ضئيلاً أمّا خياله فيضطرب في
الدوامة التي تحيط بمغالق الطبيعة. يسأل في الصباح
عن معنى كلمة وهجاء أخرى ويتساءل بالليل عن معنى
وجوده ذلك للغز القائم بين لغزين، وفي الصباح
أيضاً يضطرب فؤاده بالثورة على الإنجليز وفي الليل
تدعوه الأخوة العامّة المعذّبة - أخوته لبني الإنسان -
للتعاون أمام لغز القضاء. وهزّ رأسه في شيء من
العنف كأنّما ليطرد عنه هذه الخيالات، وقد ترامت إلى
مسامعه أصوات الهتاف وهو يقترب من ميدان
الإساعييّة فأدرك أنّ المتظاهرين قد وصلوا إلى شارع
قصر العيني، ودعاه الشعور بالنضال الذي يعمر صدره

فعلاً ضجيجها وتخلّلت الهتافات، ثمّ ترامى هتاف قويّ
ذو دلالة من الخارج فتسلّعت الرؤوس إلى مدخل
السراق الخلفيّ، ثمّ هبوا واقفين، وتعالى هتاف يصمّ
الأذان، ثمّ لاح مصطفى النحاس فوق المنصة وهو
يحیی الألوف بابتسامة وضيئة ويذین قوتین. وتطلّع
إليه بعينين اختفت منها نظرة الشكّ إلى حين، وكان
يتساءل كيف أومن بهذا الرجل بعد أن فقدت الإيمان
بكلّ شيء؟. ألاّئه رمز الاستقلال والديمقراطيّة؟!
مهما يكن من أمر فإنّ التجاوب الحارّ المتبادل بين
الرجل والشعب ظاهرة جديرة بالنظر، وهي بلا شكّ
قوة خطيرة تلعب دورها التاريخي في بناء القوميّة
المصريّة. وتشتّب الجوّ بالحساس والحرارة، وتعب
المشرفون على الحفل حتى نشروا السكون في الأركان،
كي يسمع الناس المقرئ وهو يتلو ما تيسر من القرآن
مرّدداً فيما يتلو «يا أيّها النبي حرّض المؤمنين على
القتال»، وكان الناس ينتظرون هذا النداء فتعالى
الهتاف والتصفيق حتى احتجّ بعض المتزمتين وطالبوا
بالصمت احتراماً لكتاب الله. وأثار قولهم في نفسه
ذكريات قديمة يوم كان يُعدّ واحداً من هؤلاء المتزمتين
فارتسمت على شفتيه ابتسامة ما واستشعر من توه عالمه
الخاصّ الخافل بالمتناقضات الذي يبدو من تعارض
متناقضاته وكأنّه فراغ. ووقف الزعيم وراح يلقي
خطابه. ألقاه بصوت رثان وبيان نافذ فاستغرق إلقاؤه
ساعتين، ثمّ ختمه جاهراً في عصف سافر بالدعوة إلى
الثورة، وبلغ الحساس من القوم مداه فوقفوا على
المقاعد، وجعلوا يهتفون بحاس جنونيّ. ولم يكن
دونهم حماساً وهتافاً، نسي أنّه مدرّس مُطالب بالوقار
وخيل إليه أنّه رجع إلى الأيّام المجيدة التي سمع عنها
وحال عمره دون الاشتراك فيها. أكانت الخطب تُلقى
بهذه القوّة؟. أكان الناس يتلقونها بمثل هذا الحساس؟.
أكان الموت لذلك يهون؟. من مثل هذا الموقف بدأ
فهمي دون ريب، ثمّ اندفع إلى الموت، إلى الخلود أم
إلى الفناء؟!. أومن الممكن أن يستشهد رجل في مثل
حاله من الشكّ؟. لعلّ الوطنيّة - كالحبّ - من القوى
التي ندعن لها وإن لم نؤمن بها...!
إنّ فورة الحساس عالية، الهتافات حارة متوعّدة،

الجنود المصريين ليسوا دونهم وحشية، إنها مذبحة مدبرة يا إلهي! وجاء صوت من آخر المقهى يقول: «كان قلبي يحدّثني بأنّ اليوم لن يمضي على خير»، فأجاب آخر: «أيّام تنذر بالشرّ، فمنذ أعلن هور تصريحه والناس تتوقّع أحداثاً خطيرة، هذه معركة وستلونها معارك، وأؤكد لكم هذا!».

- الضحايا الطلبة دائماً، أعزّ أبناء الأمة، وأسفاه!...

- ولكنّ الضرب سكت اليس كذلك؟، أنصتوا...

- المظاهرة الأصليّة عند بيت الأمة، وسيستمرّ الضرب هنالك ساعات طويلة!...

ولكنّ الصمت ساد الميدان، ومضى الوقت ثقيلًا مشحونًا بالتوتر، وأخذت الظلمة تدنو حتّى أضيئت أنوار المقهى ثمّ لم يعد يُسمع صوت كأنّما حلّ بالميدان والشوارع المحيطة به الموت، وفتح باب المقهى على مصراعيه فترأى الميدان خاليًا من المازّة والمركبات. ثمّ جاء طابور من فرسان البوليس ذوي الخوذات الفولاذيّة فطاف بالميدان يتقدّمه الرؤساء الإنجليز. وكان باطن كمال لا يكفّ عن التساؤل عن مصير الأبناء. ولما دبّت الحركة في الميدان غادر المقهى متعجلًا، ولم يعد إلى بيته حتّى مرّ بالسكّريّة وقصر الشوق واطمأنّ على عبد المنعم وأحمد ورضوان.

ونحلا إلى نفسه في مكتبته بقلب مليء بالحزن والأسى والغضب، لم يقرأ كلمة ولم يكتب كلمة وظلّ عقله غائبًا في منطقة بيت الأمة، في هور والخطبة الشائرة والهتاف الوطنيّ وأزيز الرصاص وصرخات الضحايا، ووجد نفسه يحاول أن يتذكّر اسم صاحب دكانّ البسبوسة التي اختبأ بها قديمًا ولكنّ الذاكرة لم تسعفه!



كان منظر بيت محمّد عفتّ بالجباليّة من المناظر المألوفة المحبوبة لدى أحمد عبد الجواد. هذه البوابة الخشبيّة التي تبدو من الخارج كأنّها مدخل وكالة قديمة، وذلكّ السور العالي الذي يخفي ما وراءه خلا رعوس

إلى التوقّف لعلّه يشترك على نحو ما في مظاهرة ١٣ نوفمبر. شدّ ما طال بالوطن موقف الصابر الذي يتلقّى الضربات. اليوم توفيق نسيم وأمس إساعيل صدقي وأوّل أمس محمّد محمود، تلك السلسلة المشثومة من الطعانة التي تمتدّ إلى ما قبل التاريخ، كلّ ابن كلب غرته قوته يزعم لنا أنّه الوصيّ المختار وأنّ الشعب قاصر.

مهلاً!... إنّ المظاهرة تغلي وتغور، ولكن ما هذا؟!، التفت كمال إلى الوراء في اضطراب. سمع صوتًا اهتزّ له قلبه، وأنصت في انتباه فصلك الصوت مسامعه مرّة أخرى. إنّ الرصاص. ورأى المتظاهرين عن بعد يضطربون في دوامة خطيرة لا يتضح له أمرها، ولكنّ جماعات كانوا يهرعون نحو الميدان، وآخرين إلى الشوارع الجانبية، وكثير من الكونستبلات الإنجليز فوق الجياد ينهبون الأرض. وعلا الهتاف واختلط بأصوات الغضب والصراخ واشتدّ انطلاق الرصاص. وخفق قلبه وتساءلت دقّاته عن عبد المنعم وأحمد ورضوان، وامتلا اضطرابًا وغضبًا، وتلقّت يمنة ويسرة فرأى قهوة غير بعيد على الناصية فأتجّه إليها. وقد أغلق بابها نصف إغلاق. وما إن مرق منها حتّى تذكر دكانّ البسبوسة بالحسين حيث سمع طلقات الرصاص لأوّل مرّة، وشاع الاضطراب في كلّ مكان. وانطلق الرصاص في غزارة خفيفة ثمّ متقطّعا. وتراكت أصوات كسر زجاج وصهيل خيل، وعلت أصوات مزججة دلّت على أنّ تجمّعات ثائرة تنتقل من مكان إلى مكان بسرعة خاطفة. ودخل المشروب شيخ وقال قبل أن يسأله أحد عمّا وراءه: «إنّ رصاص الكونستبلات ينهال على الطلبة والله أعلم بعدد الضحايا، ثمّ جلس وهو يلثث وعاد يقول بصوت متهدّج: «غدروا بالأبرياء غدرا، لو كان تفريق المظاهرة غايتهم لأطلقوا الرصاص في الهواء من مواقعهم البعيدة، ولكنهم سايروا المظاهرة في هدوء مصطنع، وجعلوا يوزعون أنفسهم على مخارج الطريق، وفجأة أشهروا المسدّسات وأطلقوا الرصاص، على المقاتل أطلقوا بلا رحمة، وسقط الصغار يتخبّطون في دمهم، الإنجليز وحوش ولكنّ

بصينة عليها ثلاثة أقذاح شاي وكأس ويسكي بالصودا فتناول محمد عقت الكأس بأسماً وتناول الثلاثة الآخرون أقذاح الشاي. وكان هذا التوزيع الذي يتكرر كل مساء كثيراً ما يضحكهم؛ فقال محمد عقت وهو يلوح بالكأس في يده ويشير إلى أقذاح الشاي في أيديهم:

- عفا الله عن الأيام التي أدبتكم!

فقال أحمد عبد الجواد متنهّداً:

- إنها أدبتنا جميعاً، وأنت أولنا، غير أنك قليل

الأدب...

وكان صدر إليهم أمر طيب واحد في أوقات متقاربة من عام واحد بالامتناع عن تناول الخمر، غير أن طبيب محمد عقت سمح له بكأس واحدة في اليوم، وظن أحمد عبد الجواد يومذاك أن طبيب صديقه يتسامح فيما يتشدّد فيه طبيبه هو، فما كان منه إلا أن عرض نفسه عليه ولكن الطبيب حدّره في جدّ وحزم قائلاً: «إن حالتك غير حالة صديقك»، وقد افتضح أمر سعيه إلى طبيب محمد عقت فكان موضع نقاش وتندر طويلين. وعاد أحمد يقول ضاحكاً:

- لا شك أنك نفحت طبيبك برشوة كبيرة حتى

سمح لك بهذه الكأس!

فقال الفار متأوّهاً وهو يرنو إلى الكأس بيد محمد عقت:

- كدت والله أنسى نشوتها!

فقال له عليّ عبد الرحيم مازحاً:

- فسدت تويتك بهذا القول يا عرييد.

فاستغفر الفار ربّه ثمّ تمتم في استسلام:

- الحمد لله...

- بتنا نحسد على كأس واحدة!... أين... أين

النشوات!؟

فقال أحمد عبد الجواد ضاحكاً:

- إذا ندمتم فاندموا على الشرّ لا على الخير يا أولاد

الكلب!

- إنك كسائر الوعاظ، ألسنتهم في دنيا وقلوبهم في

دنيا أخرى...

الأشجار العالية، أما هذه الحديقة المظلمة بأشجار التوت والجُميز والمهندسة بأشجار الخناء والليمون والفّل والياسمين فشأنها عجب، وعجيب أيضاً بركة المياه التي تتوسّطها، ثمّ الفراندا الخشبية التي تمتدّ بعرض الحديقة. وكان محمد عقت واقفاً على سلّم الفراندا ينتظر القادم وهو يحبك عباءته المنزلية، أما عليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار فقد جلسا على كرسيّين متجاورين. وسلّم أحمد على الإخوان ثمّ تبع محمد عقت إلى الكنبّة التي تتوسّط الفراندا وجلسا معاً. وكانت بدانتهم قد زابلتهم جميعاً فيما عدا محمد عقت الذي بدا مترهلاً كما بدا وجهه شديد الاحمرار، وقد صلع عليّ عبد الرحيم واشتعلت رعوس الآخرين شيئاً، وانتشرت في صفحات الوجوه التجاعيد، وبدا عليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار أشدّ إذعائاً للكبر، غير أن حمرة وجه محمد عقت كانت بالاحتقان أشبه، وبقي أحمد رغم ضموره وشبيه جيلاً صافياً. وكان أحمد يحبّ هذا المجلس حباً جماً، كما يحبّ منظر الحديقة التي تترامى حتّى السور العالي المشرف على الجمالية، وقد مال برأسه إلى الوراء قليلاً كأنما ليتمكن أنفه العظيم من الارتواء بعبير الفّل والياسمين والخناء، وربّما أغمض عينيه أحياناً ليخلص لسماع زقزقة العصافير اللاهية فوق أغصان التوت والجُميز. غير أن أنبل ما خالط قلبه في تلك اللحظة كان شعور الأخوة والصدّاقة الذي يكنّه لهؤلاء الرجال. كان يرنو بعينه الزرقاوين الواسعتين إلى وجوههم الحبيبة التي نكرها الكبر فيفيض قلبه بالأسى والحنان عليهم وعلى نفسه، وكان أشدهم تعلقاً بالماضي وذكرياته، يفتنه كلّ ما يذكّر بجبال الشباب وصبوة العواطف ومغامرات الفتوة. وقام إبراهيم الفار إلى خوان قريب وضع عليه صندوق النرد فجاء به وهو يتساءل:

- من يلاعبني؟

فقال أحمد مستنكراً وكان قليلاً ما يشترك في

العابهم:

- أجل اللعب إلى حين، لا يجوز أن نشغل به عن

أنفسنا من أوّل الجلسة.

فأعاد الفار الصندوق إلى مكانه، ثمّ جاء نوبيّ

- إذا ذهب الإنجليز فلن يبقى لأحد من هؤلاء شأن، ستصبح الانقلابات في خبر كان...
- نعم، وإذا فُكر الملك أن يلعب بذيله فلن يجد من يسأله!
وعاد محمد عفت يقول:
- سيجد الملك نفسه بين اثنتين فأما احترام الدستور وأما السلام عليكم!

وتساءل إبراهيم الفار فيما يشبه الشك:
- وهل يتخلى عنه الإنجليز إذا طلب حمايتهم؟
- وإذا سلّم الإنجليز بالجللاء فلماذا يحمون الملك؟
فتساءل الفار مرة أخرى:
- وهل يسلم الإنجليز بالجللاء حقاً؟
قال محمد عفت في ثقة من يعتز بثقافته السياسية:
- لقد دهمونا بتصريح هور فكانت المظاهرات، وكان الشهداء رحمة الله عليهم، ثم كانت الدعوة إلى الائتلاف، ثم عاد دستور سنة ١٩٢٣، أؤكد لكم أن الإنجليز راغبون الآن في المفاوضة، حقاً إن الإنسان لا يدري كيف تنكشف هذه الغمسة، كيف يمكن أن يذهب الإنجليز أو ينتهي نفوذ الخواجات، ولكن ثقتنا في مصطفى النحاس لا نهاية لها...
- ثلاثة وخسون عاماً من الاحتلال تنتهي بشووية كلام حول مائدة؟!

- كلام قد سبق بدم زكي مسفوح...
- ولوا...
فقال محمد عفت وهو يغمز بعينه:
- سيجدون أنفسهم في مركز حرج وسط حالة دولية خطيرة!
- يستطيعون أن يجدوا دائماً من يؤمن ظهرهم، وإسماعيل صدقي حي لم يميت...
فعاد محمد عفت يقول بلهجة العارف:
- حادث كثيرين من المطلعين فوجدتهم متفائلين، يقولون إن العالم مهتد بحرب طاحنة، وإن مصر في فوهة المدفع، وإن من صالح الطرفين الاتفاق المشرف...
ثم واصل حديثه بعد أن مسح على كرشه في ثقة واطمئنان:

وإذا بعلي عبد الرحيم يقول رافعاً صوته إلى درجة جديدة منذرة بتغيير مجرى الحديث:
- يا رجال! ما رأيكم في مصطفى النحاس؟
الرجل الذي لم تؤثر فيه دموع الملك الشيخ المريض فأبى أن ينسى ثانية واحدة مطلبه الأسمى «دستور سنة ١٩٢٣»...

ففرق محمد عفت بأصابعه وقال في سرور:
- برافو... برافو... إنه أصلب من سعد زغلول نفسه، من كان يرى الملك الجبار مريضاً باكيًا ثم يصمد أمامه بهذه الشجاعة النادرة ويردد في ثبات صوت الأمة التي أولته زعامتها قائلاً: «دستور سنة ١٩٢٣ أولاً»، وهكذا عاد الدستور، فمن كان يتصور ذلك؟

فقال إبراهيم الفار وهو يهز رأسه في عجب:
- تصوروا هذا المنظر، الملك فؤاد وقد حطمه المرض والشيخوخة، يضع يده على كتف مصطفى النحاس في مودة بالغة! ثم يدعوه إلى تأليف وزارة ائتلافية، فلا يتأثر النحاس لذلك كله، ولا ينسى واجبه كزعيم أمين، يغفل لحظة واحدة عن الدستور الذي توشك الدموع الملكية أن تغطي عليه، لا يتأثر لشيء من هذا ويقول بشجاعة وصلابة: دستور سنة ١٩٢٣ أولاً يا مولاي.

علي عبد الرحيم محاكياً نفس اللهجة:
- أو الخازوق أولاً يا مولاي!
أحمد عبد الجواد ضاحكاً:
- قسماً بمن جرت مقاديره بأن نرى الويسكي بيننا ونتجنبه لأنه لموقف عظيم!

وشرب محمد عفت بقية كأسه ثم قال:
- نحن في عام ١٩٣٥، ثماني سنوات مرت على موت سعد، وخمسة عشر عاماً على الثورة، ولا يزال الإنجليز في كل مكان، في الثكنات والبوليس والجيش وشقي الوزارات، الامتيازات الأجنبية التي تجعل من كل ابن لبوة سيّداً مهائياً ما زالت قائمة، ينبغي أن تنتهي هذه الحال المؤسفة...

- ولا تنس الجلادين أمثال إسماعيل صدقي ومحمد محمود والإبراشي!

الجامع الحرام، فقلت في نفسي خفف الوطء يا بن المركوب!

وعلا الضحك، أما أحمد عبد الجواد فلم يكن أفاق من ذهوله ولكنه رأى أن يتخفف منه بالمشاركة في الضحك. وتساءل محمد عفت بلهجة ذات مغزى وهو يحدق في وجه أحمد:

- ما وجه العجب في ذلك أليس هو ابن حضرتك؟!

فقال أحمد عبد الجواد وهو يهز رأسه عجباً:

- عرفته دائماً مؤدباً مهذباً هادئ الطبع، لا يرى إلا في مكتبته وهو يقرأ أو يكتب حتى أشفقت عليه من الإغراق في الانزواء والإفراط في عمل لا جدوى منه...

فقال إبراهيم الفار مداعباً:

- من يدري فلعل في بيت جليلة فرعاً من دار الكتب!

وقال عليّ عبد الرحيم:

- أو لعله يعتزل في مكتبته لمطالعة كتاب رجوع الشيخ، ماذا تنتظر من رجل بدأ حياته بتقرير أن الإنسان أصله قرد؟!

وضحكوا فضحك معهم أحمد عبد الجواد الذي كان يعلم بخبرته أن الاستسلام للجدّ في أمثال هذه الأحوال يجعل منه هدفاً سهلاً للمزاح والقفش، ثم قال:

- لهذا لا ينكر الملعون في الزواج حتى ظننت به الظنون!...

- ما عمر المحروس الآن؟

- في التاسعة والعشرين!...

- يا سلام!... يجب أن تزوجه، لماذا يرغب عن الزواج؟

تجشأ محمد عفت ثم مسح على كرشه وهو يقول:

- هذه موضحة فحسب ولكن بنات اليوم يزمن الشوارع فضعت الثقة بهنّ، ألم تسمعوا الشيخ حسين وهو يغني «يا ما نشوف حاجات تجنن، البيه والهانم عند مزين؟!».

- ولا تنس الأزمة الاقتصادية وضيق المستقبل أمام

- إليكم خبراً هاماً، وعدت بأن أشرح في دائرة الجليّة في الانتخابات القادمة، وعدني النقراشي نفسه.

وتهللت وجوه الأصدقاء سروراً، ثم لما جاء دور التعليق قال عليّ عبد الرحيم متصنّعاً الجدّ:

- لا يعيب الوفد إلا أنه يرشح حيوانات أحياناً باسم نواب!

فقال أحمد عبد الجواد كأنما يدافع عن عيب الوفد:

- وماذا يفعل الوفد؟ إنّه يريد أن يمثل الأمة كلها، أبناء حلال وأبناء سفلة، فمن يمثل أولاد السفلة إلا الحيوانات؟!

فلكزه محمد عفت في جنبه وهو يقول:

- عجوز وقارح، أنت وجليلة شخص واحد، كلاهما عجوز وقارح!...

- إني أرضى لو رشحوا جليلة، فهي عند اللزوم قد تفرش الملاية للملك نفسه!

وهنا قال عليّ عبد الرحيم باسمًا:

- قابلتها أول أمس أمام عطفتها، ما زالت كالمحمل ولكنّ الكبر أكل عليها وبال!

فقال الفار:

- صارت معلّمة قدّ الدنيا، بيتها شغال ليل نهار، وموت الزمار وصباغه ييلعب.

فضحك عليّ عبد الرحيم طويلاً ثم قال:

- كنت ماراً أمام باب بيتها فرأيت رجلاً يتسلّل إليه وهو يظنّ أنّه بمأمن من الرقباء، فمن تظنونه كان؟...

(ثم أجاب وهو يغمز بعينه صوب أحمد عبد الجواد)...

المحروس كمال أفندي أحمد خوجة مدرسة السلحدار!...

ضحك محمد عفت والفار ضحكة عالية، أما أحمد عبد الجواد فقد اتسعت عيناه دهشاً وانزعاجاً، ثم تساءل في ذهول:

- كمال ابني؟!

- أي نعم، كان ملتقاً في معطفه، وعلى عينه نظارته

الذهبيّة، وشاربه الغليظ يخال وقاراً، كان يسير في رزاة ومهابة كأنما ليس هو ابن «ضحكجي أغا»، وبنفس الوقار انعطف إلى البيت كأنما ينعطف إلى

متعزياً إنه رباه فأحسن تربيته حتى حصل على الشهادة العليا وصار مدرّساً محترماً فله أن يفعل ما يشاء. ولعلّه من حسن التفويك أن يعرف كيف يلهو رغم عوده الرفيع ورأسه وأنفه العظيم! . ولو أنصف الحظ لتزوج كمال منذ سنوات، ولما تزوج ياسين أبداً، ولكن من يدعي القدرة على حلّ هذه الرموز؟. وإذا بالفار يسأله:

- متى رأيت زبيدة آخر مرة؟

فأجاب أحمد بعد تذكّر:

- في يناير الماضي، أي منذ عام تقريباً، يوم جاءني

في الدكان لأبيع لها البيت...

فقال إبراهيم الفار:

- اشترته جلييلة، ثم وقعت المجسونة في حبّ

عربجي كارو فتركها على الحديدية، وهي الآن تقيم

بحجرة على سطح بيت سوسن العاملة في حال من

الاضمحلال يرثى لها

فهزّ أحمد عبد الجواد رأسه في أسف، وتمتم:

- السلطانة في حجرة فوق السطح! . سبّحان من له

الدوام. فقال عليّ عبد الرحيم:

- نهاية محزنة، بيد أنّها كانت متوقّعة...

فندّت عن محمّد عفت ضحكة رثاء وقال:

- فليرحم الله من يامن إلى هذه الدنيا

ثم دعا الفار إلى اللعب فتحذّاه محمّد عفت،

وسرعان ما التقوا جميعاً حول النرد، وأحمد عبد الجواد

يقول:

- ترى من يكون حظّه كجلييلة، ومن يكون

كزبيدة!

٦

في إحدى حجرات قهوة أحمد عبده، جلس كمال

وإسماعيل لطيف. وهي نفس الحجرة التي كان كمال

يجالس فيها فؤاد الحمزاوي في مطلع شبابه. وبالرغم

من برودة ديسمبر كان جوّ القهوة دافئاً، إذ إنه بإغلاق

مدخلها يسدّ المفدّ الوحيد لها إلى سطح الأرض،

فكان من الطبيعي أن تدفأ وإن انتشرت الرطوبة في

جنابتها بدرجة محسوسة. ولم يكن لإسماعيل لطيف

الشباب. إنّ خريجي الجامعة يتوظّفون بعشرة جنيهات إن وجدوا وظيفة بطلوع الروح!

وتساءل أحمد عبد الجواد في قلق بين:

- أخاف أن يعرف أنّ جلييلة كانت يوماً صاحبتني أو

تعرف هي أنّه ابني!

فتساءل عليّ عبد الرحيم ضاحكاً:

- أحسبتها تستجوب الزبائن؟!

فقال محمّد عفت وهو يغمز بعينه:

- لو عرفته الفاجرة لقصّت عليه قصّة أبيه من

الألف إلى الياء!

فهتف أحمد عبد الجواد وهو ينفخ:

- لا قدر الله ولا كان...

فتساءل إبراهيم الفار:

- أتمسّب أنّ الذي يستطيع أن يعرف أنّ جدّه

الأول قرد يعجز عن معرفة أنّ أباه فاسق فاجر؟!

فضحك محمّد عفت عالياً حتى سعل، وصمت

لحظات ثم قال:

- الحق أنّ مظهر كمال خدّاع، رزين هادئ

متزمت، خوجه بكلّ معنى الكلمة...

فقال عليّ عبد الرحيم بلهجة الترضية:

- يا سيدي ربنا يخلّيه ويطوّل عمره، ومن شابه أباه

فما ظلم... فعاد محمّد عفت يتساءل:

- المهمّ أهو «حلنج» كأيّيه؟... أعني هل يجيد

معاملة النساء والاستحواذ عليهنّ؟

فقال عليّ عبد الرحيم:

- أمّا هذا فلا أظنّ! . يخيّل لي أنّه يظّل متقدّماً

برزائه ووقاره حتى يغلق الباب عليه وعلى صاحبة

النصيب، ثم يأخذ في نزع ثيابه بنفس الرزانة والوقار،

ثم يرمي عليها، وهو في الغاية من الجدّ والرزانة كأنّما

يلقي درساً خطيراً!

- يخلّق من ظهر الحلنج دهل!

وساءل أحمد عبد الجواد نفسه فيما يشبه السخط:

لماذا يبدو لي الأمر غريباً؟! . وصمّم على أن يتناسى

الخبر. ولما رأى الفار يذهب إلى صندوق النرد ويعود

به، قال دون تردّد أنّه آن لهم أن يلعبوا. بيد أنّ

أفكاره ظلّت تدور حول الخبر الجديد. وقال لنفسه

الذي زامله فيها بين عامي ١٩٢١ و١٩٢٧، تلك الفترة الفضة في حياته التي عاشها بكل جوارحه، فلم تمض دقيقة من زمانها دون سرور عميق أو ألم شديد، فكانت عهد الصداقة الحقة متمثلة في حسين شداد، وعهد الحب الصادق متبلورا في عايدة، وعهد الحماسة العارمة مستمدة من شعلة الثورة المصرية الرائعة، ثم عهد التجارب العنيفة التي قذف بها الشك والمجون والأهواء، وقد كان إسماعيل لطيف هذا رمز العهد الأخير، ودليله الخطير، فأين هو اليوم من ذلك؟

وعاد إسماعيل لطيف يقول في شيء من التذمر:
- بيد أن هناك أمورا تشغل بالنا باستمرار، كالكاكر الجديد ووقف التريقات والعلاوات، وأنت تعلم أنني تعودت على الحياة الرغيدة في كنف أبي، ولكن أبي لم يترك ميراثا، والدتي بدورها تستهلك كل معاشها، لذلك رضيت في سبيل الرزق أن أعمل في طنطا، وهل كان مثلي يرضى بذلك؟

فضحك كمال قائلا:

- مثلك ما كان يرضى بشيء!

فابتسم إسماعيل فيما يشبه الزهو اعتزازا بماضيه الحافل الذي هجره بمحض اختياره. وسأله كمال:

- ألا تنازعك نفسك إلى معاودة شيء من الماضي؟
- كلا شبت من كل شيء، وأستطيع أن أقول بأني لم أضجر من حياتي الجديدة بعد، كل المطلوب مني أن أبدي شيئا من المهارة بين حين وآخر، حتى أفوز ببعض النقود من والدتي، كذلك على زوجي أن تلعب نفس الدور مع أبيها، إذ إنني لا زلت مغرما بالحياة الرغيدة...

فلم يملك كمال أن يقول ضاحكا:

- علمتنا وتركنا وحدنا على الطريق...

فضحك إسماعيل ضحكة عالية أعادت إلى وجهه الرزين كثيرا من ملامح الماضي الماكرة، وقال:

- آسف أنت على ذلك؟. كلا، أنت تحب هذه الحياة بإخلاص عجيب، غير أنك رجل معتدل، إنني فعلت في سنوات لعبي القلائل ما لن تفعل مثله مدى عمرك «ثم بلهجة جدية»... تزوج وغير حياتك!

ليرضى بالجلوس في قهوة أحمد عبده، لولا رغبته في مجارة كمال. إنه الصديق القديم الذي لم تنقطع بكمال أسبابه، رغم أن مطالب الرزق دفعت به إلى طنطا خبيراً محاسباً مذ تخرج في مدرسة التجارة. فكان إذا عاد إلى القاهرة في إجازة اتصل به تليفونيا بمدرسة السلحدار، ونال منه موعدا للقاء في هذا الركن الأثري. وجعل كمال ينظر إلى صديقه القديم، كما بدا له بمنظره المدمج وملامحه المذبذبة الحادة. ويعجب لما آل إليه حاله من رزانة وأدب واستقامة، جعلته مثالا طيبا للزوج والأب، الذي كان يوما مثالا فذا للفتحة والاستتار والفظاظة. وصب كمال الشاي الأخضر في قدح صاحبه ثم في قده وهو يقول باسما:

- يبدو أن قهوة أحمد عبده لا تعجبك!

فارتفع رأس إسماعيل في تطاوله المعهود، وقال:
- إنها غريبة حقاً، ولكن لماذا لا نختار مكاناً فوق سطح الأرض؟

- على أي حال هي أنسب مكان للناس المستقيمين أمثالك.

فضحك إسماعيل وهو يهز رأسه في تسليم، كأنما يقر بأنه أصبح جديراً حقاً بفضيلة الاستقامة، هو الذي كان وكان، وعند ذلك سأله كمال مجاملاً:

- كيف الحال في طنطا؟

- عال، أما النهار فعمل متواصل في المصلحة، وأما الليل فأفضيه مع زوجي وأولادي.

- وكيف حال الأناجال؟

- نعمه، إن راجتهم دائماً على حساب تعبنا، ولكن نعمه في جميع الأحوال...

فسأله كمال مدفوعاً بحب الاستطلاع الذي يثيره في نفسه حديث الأسرة بصفة عامة:

- وهل وجدتهم حقاً السعادة الحقيقية، كما يقول العارفون؟

- نعم، إنهم لذلك.

- رغم متاعهم؟

- رغم كل شيء!

وجعل كمال ينظر إلى صاحبه بفضول أشد. هذا شخص جديد لا يكاد يمت بصلة إلى إسماعيل لطيف

فقال كمال بلهجة عابثة :

- هذا أمر جدير بالتفكير!

ما بين ١٩٢٤ و ١٩٣٥ خلق إسماعيل لطيف جديد جدير بأن يزوره غواة الأعاجيب. على أي حال إنه الصديق القديم الباقي، أما حسين شذاد فقد اختطفته فرنسا من وطنه، وكذلك حسن سليم أمسى الخارج مقامه ومعاشه، لم يعد لهما من سبب في القلب وأسفاه، لم يكن إسماعيل لطيف يوماً صديق الروح. ولكنه ذكرى حيّة من الماضي العجيب، لذلك فهو خليق بأن يعتز به، واعتز به أيضاً لوفائه، لا مسرة روحية في مصاحبته، ولكنه آية حيّة على أن الماضي لم يكن خيلاً، ذلك الماضي الذي أحرص على إثبات حقيقته حرصي على الحياة نفسها، ترى ماذا تصنع عابدة في هذه اللحظة من الزمان؟ وأين هي في عالم المكان؟ وكيف استطاع القلب أن يبرأ من مرض حيها؟... كل أولئك أعاجيب... .

- إني معجب، يا سيد إسماعيل، أنت شخص جدير بكل توفيق.

وألقي إسماعيل نظرة على ما حوله، استعرض بها السقف والفوانيس والحجرات والوجوه الخاملة والعاكفين على السمر واللعب، ثم تساءل:

- ماذا يعجبك في هذه القهوة؟

فلم يجبه كمال على سؤاله، ولكنه قال بلهجة آسفة:

- أما علمت؟! سوف تهدم في القريب ليقام على أنقاضها عمارة جديدة، سيختفي هذا الأثر إلى الأبد!

- مع ألف سلامة، فلتختف هذه المقبرة ليقوم فوقها

عمران جديد.

أنطق بالحق؟. ربّما، ولكن للقلب لواعجه، يا

قهوتي العزيزة أنت قطعة من نفسي، فيك حلمت كثيراً

وفكرت كثيراً، وفيك سكن ياسين أعواماً، واجتمع

فهمني بالثوار ليفكروا ويعملوا من أجل عالم أفضل،

ثم إني أحبك لأنك مصنوعة من مادة الحلم، ولكن ما

جدوى هذا كله؟. وما قيمة الحنين إلى الماضي؟. ربّما

ظلّ الماضي أفيونة أصحاب القلوب، وأشقى ما تصاب

به أن تكون ذا قلب حنون وعقل شاك: فلنقل أي

كلام ما دمنا لا نؤمن بشيء.

- في هذا صدقت، إني أقترح أن يهدموا الهرم إذا وجدوا لأحجاره فائدة ما للمستقبل!

- الهرم! ما دخل الهرم في قهوة أحمد عبده؟!

- أعني الآثار، أعني أن نهدم كل شيء في سبيل اليوم والغد.

فضحك إسماعيل لطيف، وتناول بعنقه - كما كان يفعل قديماً كلما تحدّى - ثم قال:

- أحياناً تكتب كلاماً يناقض هذا القول، إني كما

تعلم أقرأ بين حين وآخر مجلّة الفكر إكراماً لك،

وسبق أن صارحتك برأيي، أي نعم، مقالاتك

عسيرة، المجلّة كلّها جافّة والعياذ بالله، لم أستطع

المثابرة على اقتنائها لأن زوجتي لا تجد فيها شيئاً يُقرأ،

ولا تؤاخذني فهذا قولها! أقول إني وجدت أحياناً فيما

تكتب نقيض ما تقول الآن، ولكني لا أزعم أنني أفهم

كثيراً - وبيني وبينك ولا قليلاً - ممّا تكتب، وبهذه

المناسبة أليس من الأفضل أن تكتب كما يكتب الكتاب

المحبوبون؟، لو فعلت لوجدت جمهوراً كبيراً،

ولربحت مالا وفيراً.

في زمن مضى كان يحتقر هذا الرأي في عناد وثورة،

الآن لا زال يحتقره ولكن دون ثورة، لكنه يشك في

هذا الاحتقار، لا لشبهة في أنه في غير موضعه، ولكن

لأنه يرتاب أحياناً في قيمة ما يكتب، وربّما ارتاب في

ارتبابه نفسه، وسرعان ما اعترف فيما بينه وبين نفسه

بأنه قد ضاق بكل شيء ذرعاً، وأن الدنيا تبدو أحياناً

كلفظة قديمة اندثر معناها.

- إنك لم ترض يوماً عن عقلي!

إسماعيل وهو يقهقه:

- أنذكر؟. يا لها من أيام!

أيام مضت، لم تعد نيرانها تحرق، لكنها مصنوعة في

موضعها كالجثة العزيرة، أو كعلبة الملبس المستكنة في

مكانها منذ ليلة عائدة...

- ألم يبلغك شيء عن حسين شذاد أو حسن

سليم؟!

رفع إسماعيل حاجبيه الكثيفين، وقال:

- ذكرتني! حدثت أمور في العام الماضي الذي

قضيته بعيداً عن القاهرة...

- لا شك أنه عاد عقب الحادث، كذلك حسن سليم وعائدة، ولكن لا أحد منهم في مصر الآن. وكيف عاد حسين تاركاً أسرته على حالها؟ ومن أين له أن ينفق بعد إفلاس والده؟

- سمعت أنه تزوج هناك، ولا يبعد أن يكون قد وجد عملاً في أثناء إقامته الطويلة في فرنسا، لا أدري شيئاً عن هذا، فانا لم أره منذ ودّعناه معاً، كم مضى على ذلك؟ عشرة أعوام على وجه التقريب. اليس كذلك؟ إنه تاريخ قديم، كم أثار شجوني!

كم وكم، أما هو فالدومع لا تزال تطرق أبواب عينيه الخلفية، إنها لم تفتح منذ ذلك العهد وعلاها الصدا، وقلبه يقطر حزناً، فيذكر بذلك القلب الذي اتخذ من الحزن شعاراً، إن هذا الخبر قد رجّحه رجلاً عنيماً حتى كاد ينفذ عنه الحاضر كله، ويكشف عن الإنسان القديم الذي كان حباً خالصاً وحزناً خالصاً، أهذه هي نهاية الحلم القديم؟ الإفلاس والانتحار. كأنما قضي بأن تؤذبه هذه الأسرة بأدب الالهة الساقطين. الإفلاس والانتحار، وإذا كانت عائدة لا تزال في بحبوة من العيش بفضل مكانة زوجها، فماذا طرأ على كبرياتها الملائكي؟ وهل هبطت الأحداث بشقيقتها الصغيرة إلى...

- كان لحسين أخت صغيرة. ما اسمها؟ إنني أذكره حيناً وأنساه أحياناً كثيرة!

- بدور، إنها تعيش مع والدتها وتقاسمها متاعب الحياة الجديدة...

تصوّر آل عائدة في حياة متواضعة. كحياة هؤلاء الناس حولنا، فهل تمضي بدور يوماً بجورب مرفوف؟ وهل تتخذ من الترام مركباً؟ آه... لا تغالط نفسك فأنت اليوم حزين ومهما يكن لعقلك من رأي في الطبقات وفوارقها، فإنك تشعر من جرّاء هذا الانقلاب بانقياس خفيف، ويعزّ عليك أن تسمع بأنّ هؤلاء العلياء تتمرّغ في التراب، فلتهنأ على أيّ حال بأنّه لم يبق من الحب شيء، أجل... ماذا بقي من الحب القديم؟ إذا قال لا شيء فإن قلبه يخفق في حنان عجيب عند تردّد أيّ أغنية من أغاني ذلك العهد، رغم ابتداء ألفاظها ومعانيها وأنغامها، فما

ثم استطرد في اهتمام متزايد:

- علمت حال عودتي من طنطا أنّ أسرة شدّاد انتهت.

تفجّرت في قلب كمال ثورة اهتمام طاغية، وعانى كثيراً وهو يغالب آثارها الظاهرة، ثم تساءل:

- ماذا تعني؟

- أخبرني والدتي أنّ شدّاد بك أفلس، التهمت البورصة آخر مليم في حوزته، انتهى شدّاد، ثمّ إنّه لم يتحمّل الصدمة فانتحراً.

- يا له من خبر! متى حدث ذلك؟

- منذ أشهر، وضاع القصر الكبير فيما ضاع من متاع، ذلك القصر الذي عشنا في حديقته زمناً لا يُنسى...

أيّ زمن وأيّ قصر، وأيّ حديقة، أيّ ذكريات، أيّ ألم نسي، أيّ نسيان مؤلم، الأسرة الرفيعة، الرجل العظيم، الحلم الكبير، اليس هذا الجيّدان أضخم ممّا ينبغي أن يستدعيه الحال؟! وهذه الحقيقة التي تمخّض عنها القلب أشدّ ممّا تستحقّ ذكريات عفى عليها النسيان؟

قال كمال بصوت حزين:

- انتحر البيك، وضاع القصر، ولكن ما مصير أهله؟

قال إسماعيل في امتعاض:

- لم تعد لأمّ صديقنا إلّا خمسة عشر جنيهاً شهرياً من ريع وقف، وقد انتقلت إلى شقّة متواضعة بالعباسية، وقد زارتها والدتي فعادت تصف حالها وهي تبكي، تلك السيّدة التي تقلّبت في نعيم لا يتصوّره الخيال، ألا تذكر؟

يذكر ولا شك، أم يظنّه نسي؟ يذكر الحقيقة والكشك والنسيم الذي كان يترنّم به الهواء، ويذكر السرور والحزن، بل إنّه الساعة حزين حقاً، إنّ الدموع تطرق أبواب عينيه الخلفية، ولن يحقّ له أن يجزّ بعد الساعة على قهوة أحمد عبده التي يتهدّدها الزوال، فكلّ شيء ينبغي أن ينقلب رأساً على عقب. - إنّه لشيء عجز، ومما يضاعف الحزن أنّنا لم نقم

بواجب العزاء، ترى ألم يعد حسين من فرنسا؟

٧

مليح هذا المجلس... غير أنّ اليد قصيرة، من هذا الموضع الدائى ترى الغادي والرائح... من شارع فاروق وإليه... ومن الموسيقى وإليه... ومن العتبة وإليها، ولولا برودة ينابر القاسية لما توارى المشتاق وراء زجاج القهوة، تاركاً رغم أنفه الركن البديع التابع للقهوة على الطوار المقابل، ولكن سيأتي الربيع يوماً... أجل سيأتي غير أنّ اليد قصيرة، ستة عشر عاماً أو يزيد وأنت حبيس الدرجة السابعة، دكان الحمزاوي بيع بأبخس الأثمان... وربيع الغورية على ضخماته لا يدرّ إلاّ جنينها... أما بيت قصر الشوق فمُسكني ومأواي، وإذا كان لرضوان جدّ غنيّ فكرمية لا عائل لها غيري، رب أسرة وعشيق، ولكن للأسف اليد قصيرة.

وفجأة وقعت عيناه الحائرتان على شابّ طويل نحيل ذي شارب مربّع ونظارة ذهبية، يخطر في معطفه الأسود قادماً من الموسيقى متّجهاً نحو العتبة، فابتسم ونهض بنصفه الأعلى كأنما كأنهم بالقيام، ولكنّه لم يفارق مجلسه. ولولا أنّ الشاب كان مسرعاً لمضى إليه ودعاه إلى مجالسته. كمال خير سميح حين الضجر، لم يخطر الزواج له على بال رغم اقترابه من الثلاثين، لم تعجّل الزواج قبل الأوان؟. ولم وقعت فيه مرّة أخرى قبل أن أفيق من لطمته الأولى؟. ولكن من ذا الذي لا يشكو: أعزب كان أم متزوّجاً؟. وكانت الأزيكية ملاذاً ومتعة، ثمّ حلّ بها البوار فهي اليوم بؤرة الحثالة والسفلة، لم يبق لك من عالم المسرات إلاّ لذة المشاهدة في هذا المفرق من الطريق ثمّ، الصيد الرخيص، وخير الصيد الرخيص خادمة مصريّة من العاملات في الأسر الإفرنجيّة... فهي في الغالب مهذّبة المظهر نظيفة، أمّا سيّد مزايهاها دون منازع فضضع الخلق، وتوجد أكثر ما توجد بسوق الخضار بميدان الأزهار.

كان قد فرغ من حسو قهوته، وجلس وراء زجاج النافذة المغلقة يرسل طرفه إلى ملتقى الطرق، يتابع كلّ ذات حسن، فتنتطع على عدسة عينه صور النساء

معنى ذلك؟. لكن مهلاً، إنها ذكرى الحبّ لا الحبّ نفسه، ونحن نحبّ الحبّ في جميع الأحوال خاصّة الأحوال التي لا حبّ فيها، أمّا في هذه اللحظة فإنني أشعر كأنّي غريق في بحر الهوى، ذلك أنّ المرض الكامن ينثف سمومه حين الضعف الطارئ، وما الحيلة ما دام الشكّ زلزل الحقائق جميعاً يقف عند الحبّ في حذر، لا لأنّه شيء فوق الشكّ، ولكن احتراماً للحزن، وحرصاً على حقيقة الماضي.

وعاد إسماعيل إلى المأساة سائلاً كثيراً من التفاصيل، حتّى ضاق بها فيها بدا، فقال بلهجة من يؤدّ الفراغ من السيرة كلّها:

- الدوام لله إنّه شيء مؤسف حقاً، ولكن حسبنا نكد...

ولم يحاول كمال أن يدعوه إلى مزيد. كان فيها قال الكفاية، إلى أن وجد رغبة إلى الصمت والتأمل. وكان يبكي بكاء صامتاً بدموع غير منظورة يذرفها قلبه. وأدهشه ذلك بصفته مريضاً قديماً قد برئ من مرضه، وقال لنفسه متعجباً: تسعة أعوام أو عشرة! ما أطولها وما أقصرها، ترى ما صورة عابدة الآن؟. كم يؤدّ أن يديم إليها النظر ليطلع على سرّ ذلك الماضي الساحر. بل ليقف على سرّ نفسه. إنّه الآن لا يراها إلاّ لمحا خاطفاً في نغمة قديمة معادة، أو صورة في إعلان صابون. أو من سباته كالفرع وهو يهمس: هذه هي! ولكن ما هي على الحقيقة قسمة من قسّمات نجمة سينية، أو ذكرى متسلّلة، فيستيقظ والواقع! ونبا به مجلسه، فتأقت نفسه إلى رحلة مغامرة في دنيا الغيب، فقال لإسماعيل:

- أتقبل دعوتي إلى كأسين في مكان لطيف مأمون؟ فقهقه إسماعيل قائلاً:

- إنّ زوجتي تنتظرني لنذهب معاً إلى زيارة خالتها...

ولم يكرث لرفض دعوته. طالما كانت نفسه نديمه. وغادرا المكان وهما يتبادلان الحديث. أيّ حديث. وفيما بين ذلك قال كمال لنفسه: قد نضيق بالحبّ إذا وُجد، ولكن شدّ ما نفتقده إذا ذهب.

يكن بها إلا نافذة واحدة ذات قضبان حديدية تطلّ على عطفة المارودي، قد صفت بها ثلاث موائد متفرقة في الأركان، خلّت اثنتان وأحدق بالثالثة أصحابه الذين استقبلوه مهّلّين، شأنهم كلّ مساء. كان ياسين - رغم شكواه - أصغرهم سنًا، أمّا أكبرهم فكان أعزب من أصحاب المعاشات، يليه في مجلسه باشكاتب بالأوقاف، فريّس المستخدمين بإدارة الجامعة، ثمّ محامٍ من ذوي الأملاك غير مشغول. كان الإدمان يلوح في سحناتهم نظرة ذابلة وبشرة محتقة أو بالغة الشحوب، وكانوا يتوافدون إلى الحانة فيما بين الثامنة والتاسعة فلا يفارقونها إلا في الهزيع الأخير من الليل، يتجرّعون أردًا أنواع الخمر وأشدها مفعولًا وأرخصها ثمنًا، غير أنّ ياسين لم يكن يلازمهم من البداية إلى النهاية، أو لم يكن يفعل ذلك إلا في القليل النادر، وفيما عدا ذلك فكان يُمضي معهم ساعتين أو ثلاثًا كيفما اتفق، وكالعادة استقبله الأعزب العجوز قائلاً:

- أهلاً بالحاج ياسين...

وكان يصّر على وصفه بالحاج إكرامًا لاسمه المبارك، أمّا المحامي وكان أشدهم إدمانًا فقال:

- تأخّرت يا بطل، حتّى قلنا لقد عثر في امرأة ستحرمننا من أنسه الليلة كلّها...

فعلّق الأعزب العجوز على كلام المحامي متفلسفًا:

- لا يفرّق بين الرجل والرجل إلا امرأة!

فقال له ياسين مداعبًا، وكان قد جلس فيما بينه وبين باشكاتب الأوقاف:

- لا خوف عليك من هذه الناحية...

فقال العجوز وهو يرفع الكأس إلى فيه:

- إلا لحظات شيطانية، فقد تستثيرني بنت في الرابعة عشرة.

فقال الباشكاتب:

- الاسم لطوبة والفعل لأمشيرا.

- لا أفهم ما تقصد بهذا الكلام البارد.

- ولا أنا فاهم!

وجاء خالو بالكأس والترمس، فتناول ياسين الكأس وهو يقول:

من ذوات المعاطف والملاءات اللّف، يَراها كلاً وأجزاء في مثابة لا تعرف الكلال. كان يجلس أحياناً فيطول به الجلوس حتّى العاشرة، وفي أحيان أخرى ربّما لم يطل به الجلوس إلا ربّما يشرب قهوته، ثمّ ينهض مسرعاً في أثر صيد قد آنس منه استجابة ورخصاً، كأنه تاجر روبابيكيا. ولكنّه يقنع في الغالب بالمشاهدة، وربّما تبع الحسنة دون مقصد جدّي، أمّا الإقدام الحقّ، كان يصطاد خادماً خليعة أو أرملة فوق الأربعين، فكان يقع على فترات وفي حرص شديد. إذ إنّ لم يعد الرجل الذي كان، لا لأنّ الموارد ناءت بالأعباء فحسب، ولكن لسنّ الأربعين التي نزلت به ضيقاً دون دعوة أو استئذان. يا لها من حقيقة مرعبة! «وشعرة بيضاء في عارضي طالما أوصيت الحلاق بمعالجتها، وقال الحلاق إنّ أمر الشعرة هيّن، ولكنّ الشيب لا يلبث أن ينفجر. ثبّا لها، للحلاق وللشيب، ووصف الرجل صبغة مفيدة ولكنّي لن ألجا إليها. بيد أنّ أبي بلغ الخمسين دون أن تحترق له شعرة، أين أنا من أبي؟ لا في الشيب وحده، كان شاباً في الأربعين، وكان شاباً في الخمسين، أمّا أنا! ربّاه لم أفرط أكثر ممّا أفرط أبي». أريح رأسك وأتعب قلبك، ترى أكانت حياة هارون الرشيد حقاً كما يرويها الرواة؟ أين زُوبة من هذا كلّ؟! جانب من الزواج خدعة بنت كلب، ولكنّ قوّته في أنّك تحتضن الخدعة ما حييت، وسوف تدول دول وتقلب أزمان، ولم يزل الدهر يتمخّض عن امرأة سارحة ورجل جادّ في أثرها، الشباب لعنة، والكهولة لعنات، فأين راحة القلب أين؟ وأنعس ما في الدنيا أن تتساءل يوماً ذاهلاً أين أنا؟!

وغادر القهوة في منتصف العاشرة، فقطع العتبة متمهلاً إلى شارع محمّد عليّ، ثمّ مال إلى حانة «النجمة»، وحياً «خالو» المائل وراء البار في وقفته التقليدية، فردّ الرجل تحيته بابتسامة عريضة كشفت عن أنياب صفر مرّمة، ثمّ أشار بذقنه إلى الحجرة الداخلية كأنّما ليخبره بأنّ أصحابه في الانتظار. وكان يمتدّ أمام البار دهليز ينتهي إلى ثلاث حجرات متداخلة يصبّج جوّها بالعريضة، فمضى إلى الأخيرة منها، ولم

- يناير هذا العام شايف كيفه .

فقال رئيس المستخدمين :

- لله في خلقه شئون، جاء يناير بالبرودة ولكنّه ذهب بتوفيق نسيم إلى غير رجعة ! .

فصاح المحامي :

- أنقلونا من السياسة، ما زلنا نسكر ونغزّ بالسياسة حتّى أخذت أنفاسنا، شوفوا حكاية ثانية . . .

فقال رئيس المستخدمين :

- حياتنا في الواقع سياسيّة ولا شيء غير هذا . . .

- أنت رئيس مستخدمين درجة سادسة، مالك أنت والسياسة ؟ .

فقال الرئيس محتدًا :

- درجة سادسة قديم من فضلك، من أيّام سعدا

فقال الأعزب العجوز :

- أنا درجتي السادسة من أيّام مصطفى كامل، لذلك أحلت بها على المعاش إكرامًا لذكراه . . .
اسمعوا، ليس من الأفضل أن نسكر ونغني ؟ .

فقال ياسين وهو يهيم بإفراغ كأسه :

- لنسكر أولًا يا والدي . . .

لم يتمتّع ياسين في حياته بنعمة الصداقة العميقة، ولكنّه كان له في كلّ مجلس - قهوة أو حانة - أصحاب، وكان يألّف بسرعة ويؤلّف بأسرع من ذلك . ومنذ اتّخذ هذه الحانة - تبعًا لتطوّر حالته المادّيّة - مجلسًا ليليًا مختارًا عرف هذه الجماعة، وتوثّقت أسباب السمر بينهم، غير أنّه لم يقابل أحدًا منهم في الخارج، ولم يسعَ إلى ذلك، جمع بينهم الإدمان والاسترخا، وكان رئيس المستخدمين أرقاهم مركزًا، ولكنّه كان كثير العيال، أمّا المحامي فقد جاء هذه الحانة جريًا وراء سمعة خمرها القويّة، بعد أن لم تعد تؤثّر فيه الخمور النظيفة إلّا في النادر، ثمّ ألفها واعتادها . وجعل ياسين يشرب ويثرثر، قاذفًا بنفسه في دوامة العريضة التي تحتاح المكان وترطم بآركانه . وكان العجوز الأعزب أحبّ أفراد الجماعة إليه . ولم يكن يشبع من مداعبته خاصّة فيما يتعلق بالرموز الجنسيّة، فكان الرجل يحذّره من الإفراط . ويذكره بمسؤوليّاته العائليّة، فيقول له ياسين في استهانة ومباهاة، نحن قوم خلقنا لهذا، هكذا أبي،

وهكذا كان جدّي من قبل، وأعاد هذا القول في هذه السهرة، فتساءل المحامي مازحًا :

- وأمك ؟ . . . أكانت كذلك أيضًا ؟

وضحكوا كثيرًا وضحك ياسين، غير أنّ قلبه غاص في صدره متوجّعًا وأفراط في الشراب . وخيّل إليه رغم نشوته أنّه يتدهور، فلا المكان مكانه، ولا الخمر خمره، ولا اليوم يومه «وفي كلّ مكان يتغامزون عليّ»، فأين أنا من أبي ؟ . ليس أتعس من أن يزيد عمرك وتنقص نقودك، بيد أنّ رحمة الشراب واسعة، تفيض عليك أنسا، أنسا رقيقًا وعزاء جميلًا يهون عنده كلّ خطب، فقل ما أعظم مسرّي، لن يعود العقار الذي ضاع، ولا الشباب الذي انقضى، ولكنّ الخمر تصلح أن تكون خير رفيق على مدى العمر، رضعتها شابًا يافعًا، وها هي تؤنس رجولتي، وسوف يهتّز لها طربًا رأسي المجلّج بالمشيب، بذلك يفرح مقي القلب رغم العناء، وغدًا عندما يستوي رضوان رجلًا وتتهادى كريمة عروسًا، أشرب أنخاب السعادة في العتبة الخضراء، فما أعظم مسرّي .

وإذا بالجماعة تغني «أسير العشق ياما يشوف هوان» ثمّ غنّت «يا جارة الوادي» في جوّ صاحب وأصوات معرّبة، فردّد الغناء أقوام من سائر الحجرات والسدهليز، ثمّ ساد صمت مرهق فعساد رئيس المستخدمين يتحدّث عن استقالة توفيق نسيم، ويتساءل عن المعاهدة التي تهدف إلى حماية مصر من خطر إيطاليا، ذلك الجار الثقيل القائم في ليبيا، فما كان من الجماعة إلّا أن ردّدت في صوت واحد «إرخي الستارة اللي في ريحنا . . . أحسن جيرانا نجرحنا» . ورغم إفراط العجوز في الشراب والعريضة، فقد احتجّ على هذه الإجابة الماجنة، ورياهم بالهذر فيما يليق به الجدّ . فأجابوه في صوت واحد مرّدين «صحيح خصامك وإلا هزار» فلم يسعَ الشيخ إلّا أن يضحك، وأن يعود إلى مشاركتهم بلا تحفّظ .

وغادر ياسين الحانة عند منتصف الليل، فبلغ بيته في قصر الشوق حوالى الواحدة صباحًا . وكعادته كلّ ليلة جعل يمرّ بحجرات شقّته كأنما يقوم بجولة تفثيشيّة، فوجد رضوان في حجرته يذاكر، وقد رفع

الليل كان يفصح عن ولعه بهم دون تحفظ، وهو في نشوة من الخمر والحب، كان يمازحهم ويسامرهم، وربما قصّ عليهم نوادر السكارى الذين صادفهم في الحانة، غير عابئ بأثر ذلك في الأنفس البريئة، مستهينًا باحتجاجات زئوبة التي تومئ بها إليه من وراء وراء، فيبدو وكأنما نسي نفسه وجرى على سجيته دون حذر أو مبالاة.

وفي حجرته وجد زئوبة - كالعادة - نائمة وليست بنائمة. هكذا كانت أبدًا، فقبل أن يلج الحجرة يترامى إليه شخيرها، حتى إذا توسّطها تحرّكت وفتحت عينيها وقالت بلهجتها الساخرة «حمداً لله على السلامة». ثم تنهض لمعاونته على خلع ثيابه وترتيبها. وقد بدت في صورتها الطبيعية أكبر من سنّها، وكثيراً ما ظلّها تامله سناً. ولكنّها باتت أليفته واشتبتك جذورها بجذوره، تلك الغاية القديمة التي نجحت في معاشرتة فيها لم تنجح فيه سيّدة من قبل، فأرست حياته الزوجيّة على أساس متين، نعم لقد انتابت حياتها في أوّل الأمر معارك وعلا بها زئير ولكنّها بدت دائماً حريصة على حياتها الزوجيّة كلّ الحرص. ومع الأيام صارت أمّاً، ومنيت بالثكل، فلم يبق لها غير كريمة، غير أنّ ذلك دعاها إلى مضاعفة الاستمساك بحياتها الزوجيّة، خاصّة بعد أن تهدّدها الذبول وناوأها الكبر المبكر، ثم علّمتها الأيام أن تتحلّى بالصبر والمهاتنة، وأن تتمرّس بدور «السيدة» بكلّ معنى الكلمة، وغالت في ذلك إلى حدّ أنّها لم تكن تتبرّج خارج بيتها حتى فازت أخيراً باحترام بين القصرين والسكريّة إلى حدّ ما، وكان من حسن سياستها أن تحمل نفسها على معاملة رضوان معاملة كريمة بالغة الرقة والمودة، على الرغم من أنّها لم تكن تجد نحوه جيّاً، خاصّة بعد أن ثكلت في الذكر الوحيد الذي أنجبته لياسين، وكانت رغم تغيرها شديدة العناية بحسن هندامها وأناقته ونظافتها، وقد لاحظها ياسين بأساً وهي تعيد ترتيب شعرها أمام المرأة، ومع أنّه كان يضيق بها أحياناً إلى حدّ الضجر، إلّا أنّه كان يشعر بحقّ باتّها أصبحت شيئاً ثميناً في حياته لا يمكنه الاستغناء عنه بحال. وجاءت بشال فتلفّعت به وهي تقفّف من البرد، وقالت متشكّية:

الشابّ رأسه عن كتاب القانون ليتبادل مع والده ابتسامة. وكان الحبّ بينهما عميقاً، كذلك الاحترام رغم أنّ رضوان كان يعلم أنّ والده لا يعود هذه الساعة إلّا ثملاً. أمّا ياسين فكان يعجب بجمال ابنه أيّما إعجاب، كما يعجب بذكائه واجتهاده، ويرى فيه وكيل نيابة المستقبل الذي سيرفع من شأنه، ويعزّز من كبريائه، ويعزّيه عن أمور كثيرة، سأله:

- كيف تجد دروسك؟

وأشار إلى نفسه كأنما يقول له «نحن هنا». فابتسم رضوان، وابتسمت فيه عينا هيّة المكحولتان، فعاد أبوه يسأل:

- أيزعجك إذا أدّرت الفونوغراف؟

- أمّا عيّ فلا. ولكنّ الجيران نائمون في هذه الساعة المتأخّرة.

فابتعد عن الحجرة وهو يقول هازئاً:

- نوم العافية!

ومرّ بحجرة نوم «الأولاد» فوجد كريمة تغطّ في نومها على فراش صغير، على حين بقي فراش رضوان في الجانب الآخر من الحجرة خالياً ينتظر فراغه من مذاكرته. وخطر له لحظة أن يوقظها ليداعبها، ولكنّه ذكر ما يصحب إيقاظها في تلك الساعة من تدمّر فعدل عن خاطرته. وأنجّه صوب حجرته. أجمل الليالي في هذا البيت حقّاً هي ليلة الجمعة، تلك العطلة المقدّسة، فإذا عاد إلى بيته ليلة الجمعة - بصرف النظر عن الساعة التي يعود فيها - فإنّه لا يتردّد في أن يدعو رضوان إلى مجلسه بالصالة، ثم يوقظ كريمة وزئوبة، ويدير الفونوغراف، ويمضي في محادثتهم وممازحتهم حتى الهزيع الأخير من الليل. كان مغرماً بأسرته - خاصّة رضوان - أجل لم يكن يشغل نفسه - أو لم يكن لديه من الوقت - ليتابعهم برعايته وتوجيهه، تاركاً أمرهم لعناية زئوبة وحكمتهم الفطريّة! ومهما يكن الأمر فإنّه لم يطق لحظة واحدة أن يمثّل حيالهم الدور القاسي الذي مثله أبوه حياله، وكره من صميم قلبه أن يخلق في قلب رضوان شعور الرهبة والخوف الذي كان يجده نحو أبيه! والحقّ أنّه لم يكن يستطيع ذلك حتى لو أراد. وعندما كان يجمعهم حوله بعد منتصف

- ما أشدَّ البرد! . هلاً رحمت نفسك من السهر في الشتاء؟

فقال ساخراً:

- الخمر تغَيِّرَ الفصول كما تعلمين، لم تتعيني نفسك بالاستيقاظ؟

فنفخت قائلة:

- فعلك متعب وكلامك متعباً .

بدا في جلبابه كالنطاد، ومسح بيده على كرشه وهو يرنو إلى المرأة في ارتياح، وكانت عيناه السوداوان تشتعلان، ثم ضحك فجأة قائلاً:

- لو رأيته وأنا أتبادل التحية مع العساكر أسمى عساكر آخر الليل أصدقائي الأعزاء .

فغمضت وهي تتنهَّد:

- يا فرحتي! .

٨

كان منظر رضوان ياسين وهو يسير في الغورية بخطواته المثبتة مما يلفت الأنظار حقاً . كان في السابعة عشرة من عمره، مكحول العينين، متوسط القامة مع ميل خفيف إلى الامتلاء، أنيق الملبس إلى حد التبرُّج، ينتسب ببشرته الوردية إلى آل عفت، فهو يشعُّ بهاءً ونوراً، وتتم حركاته عن دلال من لا يخفى عليه جماله، وعندما مرَّ بالسكَّرية اتَّجه رأسه إليها فيما يشبه الابتسام، وذكر لتوهَ عَمَتَه خديجة وابنيها عبد المنعم وأحمد، فوجد لذكرهما شعوراً لا يخلو من فتور، والحق أنه لم يجد من نفسه مشجَعاً - ولو مرة - على أن يتخذ أحداً من أقربائه صديقاً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . وسرعان ما اجتاز بؤابة المتوتري، ثم مال إلى الدرب الأحمر، حتَّى بلغ به المسير باب بيت قديم فطرقه وانتظر، وفتح الباب عن وجه حلمي عزت، صديق صباه، وزميله اليوم بكلية الحقوق، ومنافسه - فيما بدا - في الجمال . وتهلَّل وجه حلمي لرؤياه، ثم تعانقا وتبادلا قبلة كعادتهما عند اللقاء . ومضيا معاً يصعدان السلم، وفي أثناء ذلك جعل حلمي يَنوِّه بربطة رقبته صديقه وتحاوُّب لونها مع قميصه وجوربه، وكان يضرب بهما المثل في الأناقة وحسن الذوق، فضلاً عن

أنَّ اهتمامهما بالملابس والموضة لم يكن دون اهتمامهما بالسياسة أو دراسة القانون . وانتهيا إلى حجرة كبيرة عالية السقف، دلَّ وجود الفراش والمكتب بها على أنَّها معدَّة للنوم والذاكرة معاً . والحقَّ أنَّهما طالما سهرا بها يذاكران، ثمَّ ناما جنباً إلى جنب على الفراش الكبير ذي الأعمدة السوداء والناموسية . ولم يكن بيتا رضوان خارج البيت بالشيء الجديد، فقد اعتاد منذ صباه أن يدعى إلى أكثر من بيت لقضاء عدَّة أيَّام، كبيت جدِّه محمَّد عَفَتَ بالجمالية، أو بيت أمِّه بالمثيرة التي لم تنجب غيره رغم زواجها من محمَّد حسن، ولذلك وليل أبيه الطبيعي إلى اللامبالاة، وترحيب زُتوبة الخفيِّ بكلِّ ما يبعده عن بيتها ولو إلى حين، لم يجد معارضة في البيات عند صديقه في مواسم المذاكرة، ثمَّ صار الأمر بعد ذلك مألوفاً فلم يكن أحد ليعبره أيُّ اهتمام، وفي مثل هذا الجوِّ من اللامبالاة نشأ حلمي عزت . توفِّي أبوه - وكان مأمور قسم - منذ عشرة أعوام . وفي ذلك الوقت كانت أخواته الست قد تزوجن، فعاش وحده مع أمِّه العجوز، ووجدت المرأة صعوبة في بادئ الأمر في السيطرة عليه، ثمَّ ما لبث أن صار هو المسيطر على البيت كلِّه . وكانت المرأة تعيش على معاش زوجها الصغير، وإيجار الدور الأوَّل من بيتها القديم، فلم تعرف الأسرة الحياة الرهيبة منذ وفاة الأب، ولكنَّ حلمي لم يعجز عن مواصلة حياته المدرسية حتَّى التحق بكلية الحقوق، عافطاً في أثناء ذلك كلِّه على ما تتطلبه حياته من مظاهر الاحترام . وكان سرور حلمي بلقاء صديقه لا يعادله سرور، ولم تكن تطيب له أوقات العمل أو الراحة إلَّا به، لذلك بعث وجوده في نفسه نشاطاً وحاسة، فأجلسه على الكنية الملاصقة لباب المشربية وجلس إلى جانبه، وراح يفكر في اختيار موضوع - وما أكثر المواضيع لمحدثته - غير أنَّ نظرة واجبة لاحت في عيني رضوان اعترضت تيار حماسه، فرنا إليه متسائلاً، ثمَّ تخنَّ ما هنالك فتمتم:

- زرت والدتك؟ أراهن أنَّك قادم من هناك . . .

أدرك رضوان أنَّ صدق تخمين صاحبه يرجع إلى وجهه هو، فلاح الضجر في عينيه، وهزَّ رأسه

الصمت وهما يذبيان السكر. وتغير تعبير وجه رضوان
فأذن ذلك بإنهاء السيرة المحزنة، ورتب حلمي بذلك
فقال في ارتياح:

- تعودت المذاكرة معك، فلا أدري كيف أذاكر
وحدي...

فابتسم رضوان متجاوبًا مع هذا الشعور الرقيق،
ولكنه سأل فجأة:

- هل أطلعت على المرسوم الصادر بتأليف وفد
المفاوضة؟

- نعم. ولكن كثيرين يغطون متشائمين بالجور
الذي يحيط بالمفاوضة، ويبدو أن إيطاليا - التي تهدد
حدودنا - هي محور المفاوضة الحقيقي، والإنجليز من
جانبهم يهددون في حال فشل الاتفاق!
- إن دماء الشهداء لم تبرد بعد، وعندنا دماء
جديدة!

فهز حلمي رأسه قائلاً:
- هذا كلام يقال، لقد سكت القتال وبدأ الكلام،
ما رأيك؟

- على أي حال فإن للوفد أغلبية ساحقة في هيئة
المفاوضة، تصور آتي سألت محمد حسن زوج أمي عن
رأيه في الموقف، فقال لي ساخراً: «أتوهم حقاً أن
الإنجليز يمكن أن يخرجوا من مصر؟!»، هذا هو
الرجل الذي ارتضته أمي زوجاً!

فضحك حلمي عزت عالياً وسأله:
- وهل يختلف رأي أبيك عن ذلك؟
- إن أبي يكره الإنجليز، وحسبه ذلك.
- أكرههم من صميم قلبه؟

- إن أبي لا يكره ولا يحب شيئاً من صميم قلبه!
- إني أسألك عن رأيك أنت، فهل أنت مطمئن؟
- لم لا، حتى متى تبقى القضية معلقة؟ أربعة
وخمسون عاماً من الاحتلال، أف، لست أنا التبعس
وحدي!

فتناول حلمي عزت آخر رشفة من قدحه وقال
باسماً:

- يبدو لي أنك كنت تحادثني بهذه الحماسة عندما
وقعت عيناه عليك!

بالإيجاب دون أن يتكلم، فسأله حلمي:
- وكيف حالها؟

- عال...
ثم وهو ينتهد:

- ولكن هذا المدعو محمد حسن!، أنت لم تعرف
معنى أن يكون لأهلك زوج غير أبيك!

فقال حلمي مواسياً:
- كثيراً ما يقع هذا، لا عيب فيه، ثم إنه شيء
قديم!

فهتف رضوان حائقاً:
- لا لا لا، إنه دائماً في البيت، لا يبرحه إلا إلى
عمله في الوزارة، نفسي مرة أزورها فأجدها وحدها،
ويطيب له أن يمثل دور الوالد والمرشد، سحقاً له،
وعند كل مناسبة يذكرني بأته رئيس أبي في إدارة
المحفوظات، ولا يتردد عن انتقاد مسلكه في عمله،
ولكني من ناحيتي لا أسكت له...

وصمت دقيقة حتى يبدأ انفعاله، ثم واصل
حديثه:

- أمي حمقاء إذ رضيت أن تتزوج من هذا الرجل،
ألم يكن من الأفضل أن تعود إلى أبي؟
وكان حلمي يعرف الكثير عن سيرة ياسين
المشهورة، فقال باسماً:

- في العشق يا ما كنت أنوح!
فلوح رضوان بيده معانداً وهو يقول:
- ولولا إن ذوق النساء سر خيف والأدهى من ذلك
أنها فيما يبدو راضية!

- لا تسع وراء ما ينغص صفوك.
فقال رضوان في نبرات حزينة:

- يا للعجب، إن جانباً عريضاً من حياتي ينضح
بالتعاسة، إني أمقت زوج أمي ولا أحب امرأة أبي،
جو مشحون بالبغضاء، إن أبي - كأمي - لم يحسن
الاختيار، ولكن ماذا في وسعي أن أفعل؟!، وامرأة
أبي تحسن معاملتي ولكن لا تصور أنها تحبني، هذه
الحياة ما أرضها!

وجاءت خادماً عجوز بالشاي، فتحلب ريق رضوان
الذي عانى في الطريق من رياح فبراير القاسية. وساد

- من؟

فابتسم حلمي عزّت ابتسامة غريبة، وقال:

- كلّما تحمّست تورّد وجهك وبرز جمالك في أحسن أحواله، وفي لحظة من تلك اللحظات السعيدة رآك ولا شكّ وأنت تحدّثني، كان ذلك يوم ذهب وفد الطلبة إلى بيت الأمة داعين إلى الاتحاد، ألا تذكر ذلك اليوم؟

فتساءل رضوان باهتمام لم يحاول إخفاءه:

- نعم، ولكن من هو؟

- عبد الرحيم باشا عيسى!

فتفكّر رضوان قليلاً ثمّ تمتم:

- رأيته مرّة عن بُعد...

- أمّا هو فقد رآك اليوم لأوّل مرّة.

وارتسمت على وجه رضوان علامة استفهام، فعاد حلمي يقول:

- وعندما قابلني عقب انصرافك سألني عنك،

وطلب إليّ أن أقدمك إليه في أوّل فرصة!

وتبسّم رضوان ثمّ قال:

- هات كلّ ما عندك.

فقال حلمي وهو يربّت منكب صاحبه:

- دعائي وسألني بخفته - على فكرة هو خفيف

جداً - «مَن المليح الذي كان يحدّثك؟» فأجبت أنّه

زميل في الحقوق وصديق قديم واسمه كذا ألخ.

فسألني باهتمام: «ومتى تقدّمه إليّ؟» فسألته بدوري

متجاهلاً غرضه: «ولمّه يا باشا؟» فانفجر قائلًا

كالغاضب - هكّذا تبلغ به خفة الروح أحيانًا -:

«لأعطيه درسًا في الديانة يا بن الكلب». فضحكت

بدوري حتّى كنتم فمي بيده...

وساد الصمت لحظة دوّت فيها الريح في الخارج،

وترامى صوت ارتطام ضلفة شبّاك بجدار، ثمّ علا

صوت رضوان وهو يتساءل:

- سمعت عنه كثيرًا، أهو كما يقال؟

- وأكثر...

- لكنّه عجوز!

فقال حلمي عزّت وأساريره تنطق بالضحك دون

صوت:

- هذا في المرتبة الأخيرة من الأهميّة، إنّه رجل كبير المقام، ظريف، ذو نفوذ ولعلّ شيخوخته أجلّ فائدة من الشباب...

فعاود رضوان الابتسام، ثمّ تساءل:

- أين منزله؟

- فيلاً هادئة في حلوان.

- آه نكتنّز بالقاصدين من كافّة الطبقات!

- سنكون ضمن مريديه، لمّ لا؟، إنّه من شيوخ

الساسة ونحن من شبابهم!

فتساءل رضوان في شيء من الحذر:

- وزوجه وأولاده؟

- يا لك من جاهل، إنّه أعزب، لم يتزوّج قطّ ولا

يحبّ هذه السيرة، كان وحيد أبويه، وهو يعيش وحده

مع خدمه كأنّه مقطوع من شجرة، وإذا عرفته فلن

تسلو عنه أبدًا...

وتبادلا نظرة باسمة طويلة تفيض بالمؤامرات، حتّى

قال حلمي عزّت في شيء من الجزع:

- سألني متى نذهب لزيارته من فضلك؟

فقال رضوان وهو ينظر إلى ثمالة الشاي في قدحه:

- متى نذهب لزيارته؟

٩

لاح بيت عبد الرحيم باشا عيسى على ناصية شارع النجاة بحلوان آية في البساطة والأناقة. فيلاً سمراء مكوّنة من دور واحد يعلو عن الأرض بمقدار ثلاثة أمتار تكتنفه حديقة أزهار، ويستهلّ بسلامك. وكان البيت والطريق والمنطقة المحيطة به غارقة في صمت مريح. وكان يجلس على أريكة عند الباب البوّاب وسائق السيّارة، ببوّاب نوبّ بارع القسيات ممشوق القوام، وسائق في ريق الشباب مورّد الحديّين. وهمس حلمي عزّت في أذن رضوان وهو يمدّ بصره نحو السلامك:

- صدق الباشا فيما وعد، فلا زائر اليوم غيرنا!

وكان حلمي عزّت معروفاً لدى البوّاب والسائق، فوقفا لاستقباله في أدب، ولما داعبها مآزحاً انطلقا

- المخابرة يا سعادة الباشا مع ولي الأمر؟
فضحك عبد الرحيم باشا واكتفى بمصافحة
رضوان، ثم دعاها إلى الجلوس وهو يجلس على مقعد
كبير على كنب منها، وقال باسماً:
- ولي أمرك هذا ملعون يا رضوان، أليس هذا هو
اسمك؟ أهلاً وسهلاً، لقد رأيتك في صحبة هذا
الولد الشقي، فراقني أدبك وتمتيت لقاءك، وها أنت لم
تضرن عليّ به...

- إني سعيد بالشرف بمعرفتكم يا سعادة الباشا.
فقال الرجل وهو يدير خاتماً ذهبياً كبيراً في بنصر
يسراه:

- أستغفر الله يا بني، لا تستعمل عبارات التعظيم
واللقاب التفضيم، إني لا أحب شيئاً من هذا كله،
الذي يهمني حقاً هو الروح اللطيف والنفس الصافية
والإخلاص، أما سعادة الباشا وسعادة البك فكلنا أبناء
آدم وحواء، الواقع لقد راقني أدبك فوددت لو أدعوك
إلى بيتي، فأهلاً وسهلاً، أنت زميل حلمي في كنيّة
الحقوق، أليس كذلك؟

- نعم يا فندم، إننا زملاء من عهد خليل آغا
الابتدائية...

فرفع الرجل حاجبيه الأشيبين في إعجاب قائلاً:
- زمالة صبا!... (ثم وهو يهز رأسه)... جميل،
جميل، لعلك مثله من حيّ الحسين؟

- نعم يا سيدي، ولدت في بيت جدي السيد محمد
عفت بالجالية، وأقيم الآن بمنزل والسدي بقصر
الشوق...

- أحياء مصر الأصيلة، البقاع الطيبة، ما رأيك لقد
عشت فيها دهرًا مع المرحوم أبي في بيرجوان، كنت
وحيد أبوي، وكنت عفريتًا، وطالما جمعت الصبيان في
شبه زفة ومضينا من حارة إلى حارة نعاكس طوب
الأرض، ويا ويل الدنف لو رماه القدر إلى طريقنا،
وكان أبي يثور غضبه فيجري ورائي بالعصا... قلت
يا بني إن جدك هو محمد عفت؟

فقال رضوان بفخار:

- نعم يا سيدي...

فتفكر الباشا قليلاً ثم قال:

يضحكان دون كلفة. وكان الجو قارص البرودة رغم
جفافه، فدخلا بهو استقبال آية في الفخامة، تصدّره
صورة كبيرة لسعد زغلول في بذلة التشريرة، ومال
حلمي عزّت إلى مرآة ممتدة طولاً حتى السقف تتوسط
الجدار الأيمن، فألقى على صورته نظرة متفحّصة
طويلة، فلم يتردد رضوان أن يلحق به. وأن يمتحن
منظره بنظرة مثلها، حتى قال حلمي باسماً:
- قمران يرتديان بذلة وطربوشاً، والي يعشق جمال
النبي يصلي عليه!

وجلسا متجاورين على كنب مذهب ذات غطاء أزرق
وثير. ومزّت دقائق ثم سمعت حركة آتية من وراء
الستار المسدل على باب كبير تحت صورة سعد، فاتجه
ناحيتهما رأس رضوان وقلبه يخفق باهتمام. وما لبث أن
ترأى الرجل في بذلة سوداء أنيقة، تنتشر بين يديه
رائحة زكية، وقد بدا داكن السمرة، حليق الوجه،
نحيل الجسم، مائلاً إلى الطول نوعاً، ذا قسبات دقيقة
براها الكبر، وعينين صغيرتين ذابلتين، أما طربوشه
فقد مال إلى الأمام حتى كاد يمس حاجبيه، وكان يتقدّم
هادئاً وقوراً في خطوات متقاربة وبطيئة معاً، فانعكس
منه إلى قلب الشاب إجلالاً وطمأنينة. ولازم الصمت
حتى وقف أمام الشابين اللذين وقفا لاستقباله، ثم
تفحّصهما بنظرة ثابتة ثبتت على رضوان طويلاً حتى
اختلج جفناه، ثم ابتسم فجأة، فشاع في الوجه
القديم إناس وجاذبية قربت المسافة التي تفصل بينه
وبينهما حتى لم تعد شيئاً. ومدّ حلمي يده فتناولها الآخر
واستبقاها في يده، ثم مدّ بوزه وانتظر، فأدرك حلمي
غرضه، وسرعان ما عرض له خدّه فقبله، ثم نظر
صوب رضوان قائلاً بصوت رقيق:

- لا تؤاخذني يا بني، فهذه هي طريقة السلام
عندي...

ومدّ رضوان يده في حياء، فتناولها الرجل وهو
يتساءل ضاحكاً:

- وخدك؟

فتورّد وجه رضوان، وهتف حلمي مشيراً إلى
نفسه:

وسوف نتحدث طويلاً ونتدارس العبر كيما تكون لنا حياة موفورة الكمال والسعادة . . .

فنظر حلمي إلى رضوان قائلاً:

- ألم أقل لك إن صداقة الباشا كنز لا يفنى؟

فقال عبد الرحيم عيسى موجّهاً الخطاب إلى رضوان الذي لم تكذب تتحوّل عنه عيناه:

- إني أحبّ العلم وأحبّ الحياة وأحبّ الناس، وديدي أن أخلد بيد الصغير حتى يكبر، وأي شيء في الدنيا خير من الحب؟. يجب إذا واجهتنا مشكلة قانونية أن نحلّها معاً، وإذا فكرنا في المستقبل أن نفكر معاً، وإذا نازعنا أنفسنا إلى الراحة أن نرتاح معاً، ما وجدت رجلاً حكيمًا مثل حسن بك عماد، اليوم هو من رجال السلك السياسيّ المعدودين، ودعك أنّه من أعدائي السياسيين. ولكنه كان إذا تفرّغ لبحث قتله، وإذا طرب رقص عاريًا، الدنيا حلوة على شرط أن تكون حكيمًا واسع . . . الإدراك! أليس واسع الإدراك يا رضوان؟

فأجاب عنه حلمي عزّت من فوره:

- إذا لم يكن فنحن على استعداد لتوسيعه! . . .

فأشرق وجه الباشا بابتسامة طفوليةّ ثمت عن رغبته التي لا حدّ لها في المسرة، وقال:

- هذا الولد عفريت يا رضوان، ولكن ما حيلتي؟ إنّه زميل صباك يا بخته، ولست أنا القاتل إنّ الطيور على أشكالها تقع. لازم أنت أيضًا عفريت، خبّرني يا رضوان من أنت؟. هه. إنّك تركتني أتكلّم بلا وعي وأنت صامت كدهاة السياسة، هه؟ قل يا رضوان ماذا تحبّ وماذا تكره؟.

عند ذاك دخل الخادم حاملًا صينية القهوة، وكان فتى أمرد شبيهًا بالبواب والسائق، فشرّبوا أكواب الماء المزوجة بالزهر، وجعل الباشا يقول:

- الماء بالزهر شراب أهل الحسين، أليس كذلك؟.

فغمغم رضوان باسمًا:

- نعم يا سيّدي.

فقال الباشا وهو يهزّ رأسه طربًا:

- يا أهل الحسين مددًا.

وضحكوا جميعًا، حتّى الخادم ابتسم وهو يغادر

- أذكر أنّي رأيته مرّة في بيت نائب الجبالية، رجل وجيه ووطنيّ صادق، كاد يرشّح نائبًا في الانتخابات القادمة لولا تنخّيه في آخر لحظة لصديقه النائب القديم، إنّ الاتحاد الأخير أوجب الصداقة في الانتخابات حتّى يظفر إخواننا الأحرار الدستوريّون ببعض المقاعد، إذن أنت زميل حلمي في الحقوق!.

جميل، القانون سيّد الدراسات، وهو يتطلّب لدراسته ذكاءً لائقًا، أمّا عن المستقبل فما عليك إلّا الاجتهاد! وجد في نبراته الأخيرة ما يوحي بالوعد والتشجيع، فذبّ في قلبه الطموح والحماسة فقال:

- نحن لم نفشل ولا مرّة واحدة في حياتنا الدراسية!.

- برفو، هذا هو الأساس، بعد ذلك تحيي النيابة ثمّ القضاء وسيوجد دائمًا من يفتح الأبواب المغلقة أمام المجتهدين، حياة القضاء شيء عظيم، عمادها الذكاء اليقظ والضمير الحيّ، لقد كنت بفضل الله من أبنائها الصادقين، وقد تركت القضاء للاشتغال بالسياسة، فالوطنية تحمّ علينا أحيانًا أن نهجر أعمالنا المحبوبة ولكن إلى اليوم نجد من يضرب بنا المثل في العدالة والنزاهة، فضع نصب عينيك في الاجتهاد والنزاهة وأنت حرّ بعد ذلك في حياتك الخاصة، قم بواجبك وافعل ما تشاء، أمّا إذا قصّرت في الواجب فلن يرى الناس فيك إلّا النقص، ألا ترى أنّه لا يحلو لكثير من الفضوليين إلّا أن يقولوا فلان الوزير به الداء الفلانيّ. وفلان الشاعر به الداء العلانيّ. حسن، ولكن ليس كلّ المصابين وزراء وشعراء، فكن وزيرًا وشاعرًا أولًا وافعل بعد ذلك ما تشاء، لا يغيبن عن ذكائك هذا الدرس يا أستاذ رضوان . . .

وهنا قال حلمي عزّت بخبث:

- كفى المرء نبلاً أن تعدّ معاييه، أليس كذلك يا سعادة الباشا؟

فثنى الرجل رأسه إلى منكبه الأيمن، وقال:

- طبعًا، سبحان من له الكمال وحده، الإنسان

ضعيف جدًا يا رضوان، ولكن عليه أن يكون قويًا في

الجوانب الأخرى. مفهوم؟. لو تشاء أحدّثك عن كبار

الرجال في الدولة ولن نجد واحدًا خاليًا من داء،

فؤاد هو الذي عارض في ترقيتي يومًا، والملك فؤاد آخر من يتكلم في الأخلاق، وعلى أي حال سأقابلك غدًا في النادي، سلام عليكم يا باشا...

وعاد الرجل متجهًا الوجه، ولكنه ما كاد يرى وجه رضوان حتى عاوده الانسراح فواصل حديثه قائلاً:

- نعم يا سيّد رضوان، تعارفنا وما أجمل التعارف، أنصحك بالاجتهاد، أنصحك بالآلا تتخلى عن الواجب والمثل الأعلى، بعد ذلك أحدثك عن الطرب والهناء.

وهنا نظر رضوان في ساعته، فلاح الجزع في وجهه الباشا وقال:

- إلّا هذا! الساعة عدوّ مجالس الأنا.

فتمتم رضوان في شيء من الارتباك:

- ولكنّا تأخّرنا يا سعادة الباشا.

- تأخّرنا! أتعني أنّه تأخّر بي العمرا! أخطأت يا بنيّ، ما زلت أحبّ السهر والجمال والغناء بعد الساعة الواحدة، السهرة لم تبدأ بعد، لم نقل إلّا بسم الله الرحمن الرحيم، لا تعترض. السيّارة تحت أمركم حتى الصباح، وبلغني أنّك تبيت خارج البيت للمذاكرة، فلنذكرك، لِمَ لا؟ ما أحلّ أن أعود إلى المدخل في القانون العامّ أو شيء من الشريعة، بهذه المناسبة من يدرّس لكم الشريعة؟ الشيخ إبراهيم نديم، مساء الله بالخير، إنّهُ كاتب عظيم، لا تدهش، سنؤرّخ يومًا لكلّ رجال العصر، يجب أن نفهم كلّ شيء، ليلتنا ليلة عبة وصدافة، خبّرني يا حلمي ما أنسب شراب لمثل هذه الليلة؟

فقال حلمي باطمئنان:

- ويسكي وصدودا وشواء.

فقال الباشا ضاحكًا:

- وهل الشواء شراب يا شقي؟

١٠

عقب الغداء من يوم الخميس يلتئم شمل أسرة خديجة على نحو لا يكاد يتغيّر. وهكذا جمعت الصالة بين الأب إبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد، ولما كان من النادر أن تبقى خديجة بدون عمل فقد جلست

البهو، واستطرد الباشا متسائلًا:

- ماذا تحب؟ وماذا تكره؟ تكلم بصراحة يا رضوان، دعني أيسر لك الجواب، أنت مهتم بالسياسة؟

فقال حلمي عزّت:

- كلانا في لجنة الطلبة.

- هذا أوّل سبب للمقاربة بيننا، وهل لك في الأدب؟

فأجاب حلمي عزّت:

- إنّهُ مغرم بشوقي وحافظ والمنفلوطي...

فنهز الباشا قائلاً:

- اسكت أنت، أريد يا أخي أن أسمع صوته...

فضحكوا، وقال رضوان بأسًا:

- إنّهُ أموت في شوقي وحافظ والمنفلوطي...

فقال الباشا بإعجاب:

- «أموت في» يا له من تعبير، لا تسمعه إلّا في الجمالية، أهي نسبة إلى الجمال يا رضوان؟ إذن أنت من هواة «فضّة ذهب» و«في الليل لما خلى» و«من يكن» و«فنن يشيله وفنن يحطه»، الله... الله، هذا سبب آخر للمقاربة بيننا يا جمالية، وهل تحبّ الغناء؟

- إنّهُ من غواة...

- اسكت أنت.

فضحكوا مرّة أخرى، وقال رضوان:

- أمّ كلثوم.

- جميل، لعلّي من عشاق القديم، ولكنّ الغناء كلّهُ جميل، فانا أحبّه، ثقيله وخفيفه، كما يقول المعري، وأموت فيه كما تقول حضرتك. جميل جدًّا، الليلة عجب.

ودقّ جرس التليفون، فنهض الباشا إليه، ووضع الساعة على أذنه وهو يقول: آلو.

- أهلاً أهلاً معالي الباشا.

.....

- أنا قلت رأيي للزعيم صراحة، وهو رأي ماهر والنقاشي أيضًا.

.....

- أسف يا باشا، لا أستطيع. أنا لا أنسى أنّ الملك

المنعم وأحمد لم تكن تعجبها كثيرًا، كما أنَّ نحافتها كانت تغیظها فقالت باستياء:

- قلت ألف مرة إنه يجب أن تغيرا ريقكما على البابونج ليفتح شهيتكما، يجب أن تأكلا جيدًا، ألا تريان أباكما كيف يأكل؟

وابتسم الشابان وهما ينظران نحو أبيهما، فقال الرجل:

- ولماذا لا تضربين المثل بنفسك، وأنت تأكلين كالطاحونة؟

فقالت باسمه:

- إني أترك لهما الحكم والخيار.

فقال إبراهيم محتجًا:

- عينك يا شخبة أصابتي! لذلك نصحني الدكتور بأن أخلع أسناني...

فلاحت في عينيها نظرة رقيقة، وقالت:

- لا تمزع، ستذهب بشرها، ولن تشكو ألما بعد ذلك إن شاء الله...

وهنا خاطبها أحمد قائلاً:

- جارنا ساكن الدور الثاني يرجو أن يؤجل دفع الأجرة حتى الشهر القادم، قابلني على السلم فرجاني في ذلك!

فسألته وهي تنظر إليه مقلبة:

- وماذا قلت له؟

- وعدته بأن أحدث أبي...

- وهل حدثت أباك؟

- ها أنا أحدثك أنت!

- إننا لا نشاركه في شقته فلا يجوز له أن يشاركنا في رزقنا، ولو تساهلنا معه ل تبعه ساكن الدور الأول،

أنت لا تعرف الناس فلا تتدخل فيها لا يعينك...

فنظر أحمد إلى أبيه متسائلاً:

- ما رأيك يا بابا؟

فابتسم إبراهيم شوكت قائلاً:

- في عرضك لا تصدع دماغي، عندك أمك...

فعاد أحمد إلى أمه قائلاً:

- إذا تساهلنا مع رجل مزنوق فلن نجوع...

فقالت خديجة بامتعاض:

بينهم وهي تطرز غطاء مائدة، وقد بدا الكبر أخيراً على إبراهيم شوكت بعد مقاومة طويلة جبارة، فشاب شعره وترهل بعض الشيء، وإن حافظ فيها عدا ذلك على صحة يحسد عليها، وكان يدخن سيجارة، ويأخذ مكانه بين ابنه في هدوء وطمأنينة. تعكس عيناه البارزتان نظرة الخمول واللامبالاة التقليدية، على حين لم ينقطع الشابان عن الحديث، فيما بينهما حيناً، أو مع الأب أو الأم التي شاركت في الحديث دون أن ترفع رأسها عن عملها، وقد بدت كتلة عظيمة من الشحم واللحم. لم يعد في الجوّ ما ينقص على خديجة صفوها، إذ لم يبقَ من ينازعها السيادة في بيتها مذ توفيت حماتها. كانت تقوم بواجباتها بهمة لا تحذف أبداً، وترعى سيانتها بعناية فائقة وهي جوهر جمالها كلّها، وتحاول فرض رعايتها على الجميع، الأب والابن، فيطاول الرجل، وأما عبد المنعم وأحمد فيشق كل سبيله كما يرى مستعيزين بحبها من سطوتها. وقد نجحت منذ سنوات في حمل زوجها على احترام تقاليد الدين، فمارس الرجل الصلاة والصوم واعتادهما، وكان عبد المنعم وأحمد قد شبّا على ذلك من قبل، غير أن أحمد توقف عن أداء الفريضة منذ عامين، وجعل يتهرّب من استجواب أمه كلّما استجوبته أو يتعلّل بعذر أو بآخر. وكان إبراهيم شوكت يحبّ ابنه حباً جمّاً، ويعجب بها أشدّ الإعجاب، وبنوّه في كلّ فرصة بنجاحها المتواصل الذي بلغ بعبد المنعم كلّية الحقوق وبأحمد نهاية المرحلة الثانوية، وفي ذلك كانت خديجة تقول في مباهاة:

- كلّ هذا ثمرة اهتمامي أنا، لو ترك الأمر لك ما فلاح أحدهما ولا كان له شأن...

وقد ثبت أخيراً أنّها نسيت مبادئ القراءة والكتابة لعدم الاستعمال ممّا جعلها هدفاً لسخرية إبراهيم، حتى اقترح ابنها أن يذكرها بما نسيت ردّاً لجميلها الذي تباهي به، فغضبت قليلاً وضحكت كثيراً، ثمّ لحقت الحال في كلمة قائلة:

- لا حاجة بامرأة إلى الكتابة والقراءة ما دامت لا تكتب رسائل غرام!

بدت في أسرتها سعيدة راضية، ولعلّ شهية عبد

- بالصراحة إن رأسه يحتاج إلى تطهير من الداخل...
 - إنه...
 - اسمعي، هذا الشاب لا دين له، هذا ما بت اعتقده...
 فلوح أحمد بيده كالغاضب، وهتف متسائلاً:
 - من أين لك الحق في الحكم على القلوب؟
 - الأفعال تنم عن السرائر (ثم وهو يداري ابتسامة)
 يا عدو الله!
 فقال إبراهيم شوكت دون أن يخرج من هدوءه وطمأنينته:
 - لا تنهم أخاك ظلياً.
 وقالت خديجة مخاطبة عبد المنعم وهي تلحظ أحمد:
 - لا تسلب أخاك أعز ما يملك الإنسان، كيف لا يكون مؤمناً؟، إن آل أمه لا تنقصهم إلا العيائم ليكونوا من رجال الدين، وكان جدّه من صميم رجال الدين، لقد نشأنا فوجدنا من حولنا يصلون ويتعبّدون كأننا في جامع!
 فقال أحمد متهمّاً:
 - مثل خالي ياسين...!
 ونذت عن إبراهيم شوكت ضحكة، فقالت خديجة متظاهرة بالغضب:
 - تكلم عن خالك بأدب، ماله؟ قلبه عامر بالإيمان وربنا يهديه، انظر إلى جدك وجدتك.
 - وخالي كمال؟
 - خالك كمال من محاسيب الحسين، أنت لا تدري شيئاً.
 - بعض الناس لا يدرون شيئاً...
 فسأله عبد المنعم محتثاً:
 - لو كان الناس جميعاً مهملين في دينهم، فهل يشفع لك ذلك؟
 فقال أحمد في هدوء:
 - على أي حال اطمئن، فلن تؤخذ يوماً بذنبي!
 وهنا قال إبراهيم شوكت:
 - كفاساً خصاماً، نفسي أراكما كرضوان ابن خالكما...!

- لقد حدّثني زوجة وأجلت لها الدفع فليرتح بالك، ولكي أفهمتها أنّ أجرة المسكن واجبة كمصروفات الأكل والشرب، أفي ذلك خطأ؟، إني ألام أحياناً لأنّي لم أأخذ من جاراتي صديقات، ولكن من يعرف الناس يحمّد الله على الوحدة...
 فعاد أحمد يتساءل وهو يغمز بعينه:
 - وهل نحن خير الناس؟
 فعبست خديجة قائلة:
 - نعم، إلا إذا كان لك في نفسك رأي آخر!
 فقال عبد المنعم:
 - رايه في نفسه أنّه خير الناس جميعاً، لا رأي إلا رايه، والحكمة موقوفة على رأسه!
 فقالت خديجة متهمّة:
 - ومن رايه أيضاً أن يستأجر الناس البيوت دون دفع أجرتها!
 فقال عبد المنعم ضاحكاً:
 - إنه غير مقتنع بأنّه من حقّ بعض الناس أن يملكوا بيوتاً على الإطلاق...
 فقالت خديجة وهي تهزّ رأسها:
 - يا عيني على الرأي الفقري...
 وحجج أحمد أخاه بنظرة غاضبة، فهزّ عبد المنعم منكبيه باستهانة وهو يقول:
 - راجع نفسك قبل أن تغضب...
 فقال أحمد محتثاً:
 - يحسن بنا ألا نتناقش معاً!
 - بل انتظر حتّى تكبر...
 - إنك أكبر منّي بعام لا أكثر...
 - أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة...
 - هذا المثل لا أومن به!
 - اسمع، لا يهمني إلا شيء واحد، هو أن تعود إلى الصلاة معي...
 فهزّت خديجة رأسها بأسف وهي تقول:
 - صدق أخوك، الناس تكبر تعقل أمّا أنت فأعوذ بالله منك، حتّى أبوك صلي وصام، فكيف فعلت بنفسك ما فعلت؟، إني أتساءل ليل غمار!
 فقال عبد المنعم بصوت قويّ شديد الثقة بنفسه:

الساكنة في الدور الأول، فقالت خديجة وهي تهتم بالقيام:

- ماذا تريد يا ترى؟... إن كان في الأمر تأجيل دفع أجرة فلن يفصل بيننا إلا قسم الجمالية!

١١

كان الموسكي شديد الزحام، اكتظَّ بأهله وما أكثرهم فضلاً عما استجدَّ عليه ذلك اليوم من تيارات بشرية تدفقت من ناحية العتبة. وكانت شمس إبريل الصافية تقذف لها، فشقَّ عبد المنعم وأحمد سبيلهما في جهد غير يسير وهما يتصببان عرقاً. وقال أحمد وهو يتأبط ذراع أخيه:

- حدثني عن شعورك...

فتفكر عبد المنعم قليلاً، ثم راح يقول:

- لا أدري، الموت رهيب، فما بالك بموت ملك، وكان طريق الجنازة مكتظاً بالناس بصورة لم أشهدها من قبل، أنا لم أشهد جنازة سعد زغلول حتى أستطيع المقارنة بين الجنائزين، ولكن يبدو لي أنَّ أكثر الناس كان متأثراً على نحو ما، وبعض النساء يبكين، نحن المصريين قوم عاطفيون...

- لكنني أسألك عن شعورك أنت؟

فعاد عبد المنعم يفكر وهو يتفادى من الارتطام بالناس، ثم قال:

- لم أكن أحبه، وهذا اعتنقناه جميعاً فأنا لم أحزن، ولكنني لم أَسَرَّ كذلك، تابعت النعش بعين من لا قلب له، لا له ولا عليه، غير أنَّ فكرة الجبار في النعش أثرت في، لا يمكن أن يمرَّ منظر كهذا دون أن يؤثر في، لله الملك جميعاً، هو الحي الباقي فليت الناس يعلمون، غير أنَّه لو مات الملك قبل أن تتغير الحالة السياسية التي كانت قائمة لزگرد كثيرون وكثيرون جداً، وأنت ما شعورك؟

- أنا لا أحب الطغاة أيّاً كانت الحالة السياسية!

- هذا حسن، ولكن منظر الموت؟

- ولا أحب الرومانتيكية المريضة!

فتساءل عبد المنعم في ضجر:

فحدجته خديجة بنظرة استياء، كأنما عزَّ عليها أن يعدَّ رضوان خيراً من ابنها، فقال إبراهيم موضحاً رأيه:

- لهذا الشاب على صلة بكبار الساسة، شاب ذكي، وقد ضمن بذلك مستقبلاً باهراً...

فقالت خديجة غاضبة:

- لست من رأيك، رضوان شاب سيئ الحظ، ككلَّ شباب يحرمه سوء الحظ من رعاية أمه، وزنوبة «هانم» لا تهتم في الواقع بأمه، أنا لا أنخدع بحسن معاملتها له فهذه سياسة كسياسة الإنجليز، لذلك لا يقرُّ للمسكين قرار، وأكثر أيامه يبيتها خارج بيته، أما صلته بالكبراء فلا معنى لها، إنَّه طالب مع عبد المنعم في سنة واحدة، فما معنى هذا التداخل الخطير؟ أنت لا تعرف كيف تضرب الأمثال...

فرمقها إبراهيم بنظرة كأنما يقول لها: «لا يمكن أن تقرَّني على رأي»، ثم قال مواصلاً إيضاح رأيه:

- ليس الشبان اليوم كما كانوا في الزمن الماضي، السياسة غيّرت كلَّ شيء، فكلَّ كبير له مريدوه منهم، والطموح الذي يريد أن يشقَّ سبيله في الحياة لا بدَّ له من كبير يرجع إليه، إنَّ مكانة والدك الكبيرة تقوم على اتصالاته الوثيقة بالكبراء!

فقالت خديجة بكبرياء:

- أبي يسعى الناس إلى التعرّف به ولا يسعى هو إلى أحد، أمّا عن السياسة فأبنائي لا شأن لهم بها، لو أتيح لهما أن يريا خالهما الشهيد لأدركا من نفسيهما معنى كلامي، بين يحيى فلان ويسقط فلان يهلك أبناء الناس، ولو عاش المرحوم فهمي لكان من أكبر القضاة اليوم...

فقال عبد المنعم:

- لكلَّ طريقته، نحن لا نقلد أحداً، ولو أردنا أن نكون كرضوان لكنّا...

فقالت خديجة:

- أحسنت!

وقال له أبوه باسماً:

- أنت كأهلك، وكلاكما لا تساويان شيئاً...

ودقَّ الباب، فجاءت الخادم تؤذن بقدوم الجارة

- سعيكما مشكوراً!

ثم صافحهما ومضى كل إلى حال سبيله، وأتبعه أحد نظره قليلاً، ثم قال:

- جَدْنَا ظريف وأنيق، لقد ملأ أنفي شداً طيباً...

- نينة تروي عن جبروته الأعاجيب...

- لا أظنه جباراً، هذا شيء لا يصدق.

فضحك عبد المنعم قائلاً:

- إن الملك فؤاد نفسه بدا في أواخر عهده لطيفاً

طيباً...

وضحكا معاً. ومضيا إلى قهوة أحمد عبده. وفي الحجرة المواجهة للنافورة رأى أحمد شيئاً مرسل اللحية حادّ البصر يتوسط جمعا من الشبان يتطلعون إليه في اهتمام، فتوقف وهو يقول لأخيه:

- الشيخ عليّ المنوفي صديقك، أخرجت الأرض ألقاها، ينبغي أن أتركك هنا...

فقال عبد المنعم:

- تعال اجلس معنا، أحب أن نجالسه ونسمع له، ناقشه كيفما شئت، كثير ممن حوله من طلبية الجامعة...

فقال أحمد وهو يخلص ذراعه من ذراع أخيه:

- لا يا عمّ، كدت مرة أشتبك معه في عراك، أنا لا

أحب المتعصبين، مع السلامة...

فحذجه عبد المنعم بنظرة انتقاد، ثم قال بحدّة:

- مع السلامة، ربنا يهديك...

وأقبل عبد المنعم على مجلس الشيخ عليّ المنوفي ناظر مدرسة الحسين الأولى، فنهض الرجل لاستقباله - وقد نهض معه جميع الجلوس حوله - وتعانقا، ثم جلس الشيخ وجلسوا وهو يتساءل متفحّصاً عبد المنعم بعينه الحاذتين:

- لم نرك أمس؟...

- المذاكرة...

- الاجتهاد عذر مقبول، وما لأنيك قد تركك

وذهب؟.

فابتسم عبد المنعم ولم يجب، فقال الشيخ عليّ

المنوفي:

- ربنا الهادي، لا تعجبوا له، لقد صادف مرشدنا

- أشررت إذن؟

- تمّنت أن يمتدّ بي العمر حتّى أرى العالم وقد خلص من كافة الطغاة على اختلاف أسمائهم وأوصافهم...

وسكتا قليلاً وكان التعب قد نال منهما كلّ منال، ثم عاد أحمد يتساءل:

- وماذا عمّا بعد ذلك؟.

فقال عبد المنعم بلهجة اليقين التي اشتهر بها:

- فاروق غلام، ليس له دهاء أبيه ولا نابه الأزرق، فإذا سارت الأمور سيراً حسناً، فنجحت المفاوضات، وعاد الوفد إلى الحكم، فسوف تستقرّ الأمور وينقضي عهد المؤامرات... المستقبل حسن فيما يبدو...

- والإنجليز؟

- إذا نجحت المفاوضات انقلب الإنجليز أصدقاء، وبالتالي ينقطع التحالف القائم بين السراي والإنجليز ضدّ الشعب، فلا يجد الملك بداً من احترام الدستور.

- الوفد خير من غيره...

- بلا شك، إنّه لم يحكم طويلاً حتّى يعرف مدى قدرته، وقريباً تكشف التجربة عن إمكانيّاته الحقيقيّة، إنّي أوافقك على أنّه خير من غيره، ولكنّ طموحنا لن يقف عنده!

- طبعاً، إنّي أومن بأنّ حكم الوفد نقطة ابتداء حسنة لتطوّر أعظم، وهذا كلّ ما هنالك، ولكن هل تتفق مع الإنجليز حقّاً؟

- إنّما الاتفاق وإما العودة إلى حكم صدقي، في أمّتنا احتياطيّ من الخونة لا ينفد، كلّ مهمّته دائماً تأديب الوفد إذا قال للإنجليز «لا»، وإنّهم لفي الانتظار، هذه هي المأساة...

وعندما بلغا السكّة الجديدة وجدا نفسيهما فجأة أمام جدّهما أحمد عبد الجواد الذي كان متّجهاً صوب الصاغة، فتقدّما إليه وسلّما عليه بإجلال، فسألها باسماً:

- من أين وإلى أين؟.

فقال عبد المنعم:

- كنّا نتفرّج على جنازة الملك فؤاد...

فقال الرجل دون أن تفارق الابتسامة شفّتيه:

نكون مسلمين فعلاً، لقد منّ الله علينا بكتابه فتجاهلناه فحقت الذلّة علينا، فلنعد إلى الكتاب، هذا هو شعارنا، العودة إلى القرآن، بذلك نادى المرشد في الإسماعيلية، ومن ساعتها ودعوته تسري في الأرواح، غازية القرى والدساكر حتى تملأ القلوب جميعاً...

- ولكن ليس من الحكمة أن نتجنب السياسة؟

- الدين هو العقيدة والشريعة والسياسة، إنّ الله أرحم من أن يترك أخطر الأمور الإنسانيّة دون تشريع وتوجيه، ولهذا في الواقع هو درسنا الليلة...

كان الشيخ شديد الحماسة، وكانت طريقته أن يقرّر حقيقة ما، ثمّ تدور حولها المناقشات ما بين أسئلة من مريديه وأجوبة عليها منه، يقوم أكثرها على الاستشهاد بالقرآن والحديث. وكان يتحدث وكأنّه يخطب، أو كأنّه يخطب الجالسين في القهوة جميعاً. فسمعه أحمد وهو جالس في أقصى المكان، يحتمي الشاي الأخضر، وعلى شفّته ابتسامة ساخرة. وكان يقيس الشقّة بينه وبين هذه المجموعة المتحمّسة في عجب، ويحدّثه نحوها ازدراء وغضباً، وثار به التحديّ مرّة فهم بأن يطلب من الشيخ أن يخفض من صوته حتى لا يعكر على رواد القهوة صفاء راحتهم، ولكنّه عدل عتاً هم به في اللحظة التي تذكّر وجود أخيه بينهم. وأخيراً لم يجد بداً من مغادرة القهوة، فقام ساخطاً وغادرها...

١٢

عاد عبد المنعم إلى السكّرية حوالى الثامنة مساءً. وكان الجوّ سكّنت حنقه فمال إلى اللطافة وشاعت فيه رقة الربيع. كان الدرس ما يزال يكبر في رأسه ويتردّد في قلبه، ولكن أعياه الجهد والفكر. وعبر حوش البيت في ظلام دامس ثمّ اتّجه إلى السكّية، وفي تلك اللحظة فتح باب الدور الأول، وعلى الضوء المنبعث من داخل الشقّة رأى شيئاً يتسلّل إلى الخارج ثمّ أغلق الباب وراءه وسبقه إلى السكّية. وخفق قلبه وجرى دمه حارّاً كحشرة هيّجها القيظ. رآها في الظلام تنتظر عند أول بسطة وتطلّع نحوه فتطلّع نحوها، ولم يتحوّل عنها رأسه. وعجب كيف يستغل الصغار الكبار، فهذه الصغيرة غادرت بيتها بحجّة زيارة الجيران، وسوف

كثيرين من أمثاله هم اليوم من أشدّ المخلصين لدعوته، ذلك أنّ الله إذا أراد لقوم هداية فلن يكون للشيطان عليهم من سلطان، ونحن جنود الله، ننشر نوره، ونحارب عدوّه، وهبنا أرواحنا له من دون الناس، فما أسعدكم جنود الله...

وقال أحد الجالسين:

- ولكنّ مملكة الشيطان كبيرة!

فقال الشيخ على المنوفي معاتباً:

- انظروا إلى من يخاف دنيا الشيطان والله معه!

ماذا نقول له؟ نحن مع الله والله معنا فماذا نخاف؟ من جنود الأرض يتمتّع بقوّتكم؟ وأيّ سلاح أحد من سلاحكم؟ الإنجليز والفرنسيّون والألمان والطلبيان جلّ اعتمادهم على الحضارة المادّيّة، أمّا أنتم فاعتمادكم على الإيمان الصادق، إنّ الإيمان يفلّ الحديد، الإيمان أقوى قوّة في العالم، املاؤا قلوبكم الطاهرة بالإيمان تخلص الدنيا لكم...

فقال آخر:

- نحن مؤمنون، ولكنّنا أمة ضعيفة.

فكّور الشيخ قبضته وشدّ عليها وهو يهتف:

- إذا كنت تستشعر ضعفاً فإيمانك يعتوره نقص وأنت لا تدري، الإيمان خالق القوّة وباعثها، إنّ القنابل تصنعها أيّد كأيدينا وهي ثمرة القوّة قبل أن تكون من مسبّاتها، كيف انتصر النبيّ على أهل الجزيرة؟ وكيف قهر العرب العالم كلّهُ؟

فقال عبد المنعم بحماسة:

- الإيمان... الإيمان...

غير أن صوتاً رابعاً تساءل:

- ولكن كيف كان للإنجليز هذه القوّة وهم قوم غير

مؤمنين؟

فابتسم الشيخ متخلّلاً لحيته بأصابعه وهو يقول:

- لكلّ قوّةٍ إيمانه، إنهم يؤمنون بالوطن

وبالمصلحة، أمّا الإيمان بالله فهو فوق كلّ شيء،

وأحرى بالمؤمنين بالله أن يكونوا أقوى من المؤمنين

بالحياة الدنيا، فتحت أيدينا نحن المسلمين ذخيرة

مدفونة يجب أن نستخرجها. يجب أن يُبعث الإسلام

كما بُعث أول مرّة، نحن مسلمون اسماً فيجب أن

- نحن في بيتنا، في غرفتنا، هذه البسطة هي غرفتنا!

- العصر وأنا ذاهبة إلى خالتي نظرت إلى فوق لعلّي أراك في النافذة، فإذا بوالدتك تطلّ على الحارة فالتفت عيني بعينها فارتعدت من الخوف.

- ماذا خفت؟

- خيّل إليّ أنّها عرفت عمّن أبحث وأنها كشفت سريّ...

- تعين سرّنا، إنّهُ شيء واحد يربطنا، ألسنا الآن شيئاً واحداً؟

وضمّهما إلى صدره بعنف في رغبة جامحة، وفي الوقت نفسه كأنّما كان يجذّ هارباً من أصوات المعارضة الخافتة في أعماقه باستسلام يائس، فلفحته نيران متأجّجة، واحتوته قوّة قادرة على إذابة اثنين في دوامة واحدة...

ونذّ عن الصمت تنهيدة ثمّ تردّد أنفاس، وشعر أخيراً بأنّه هو وأنها هي وأنّ الظلام يضمّ شبحين. ثمّ جاء همسها الرقيق يقول في استحياء:

- نتقابل غداً؟

فردّ في امتعاض حاول ما استطاع التسرّع عليه:

- نعم... نعم، ستعلمين في حينه...

- أخبرني الآن...

فقال والامتعاض يزداد ثقلًا على قلبه:

- لا أدري كيف يكون وقّتي غداً!

- ليه؟...

- اذهبي بالسلامة، سمعت صوتاً!

- كلاً، لا صوت هناك...

- لا ينبغي أن يجدا أحد هكذا...

وربّت كفّهما كأنّما يربّت خرقه ملوّثة، وتخلّص من ذراعها في رقّة مفتعلة ثمّ رقي في السكّم على عجل. كان والداه جالسين في الصالة يستمعان إلى الراديو، وكانت حجرة المكتب مغلقة الباب مضاءة الشّراعة ممّا دلّ على أنّ أحمد يذاكر، فحيّاهما تحيّة المساء وقصد حجرة النوم ليخلع ملابسه. واستحمّ، وتوضّأ، وعاد إلى حجّرتة فصلّى، ثمّ تربّع على سجّادة الصلاة وراح في تأمل عميق. كانت عيناه ترنوان بنظرة حزينة،

تزور الجيران، ولكن بعد خوض مغامرة خطيرة فوق بسطة السكّم المستكنّة في الظلام. ولتوّه وجد رأسه فارغاً، تبخّر ما كان يصطّرع فيه من أفكار وتطّاير، وتركّز هو في رغبة واحدة هي أن يشبع النهم الذي بات يؤرّق أعصابه وأعضائه. أمّا ذلك الإيمان الصادق فيبدو أنّه ولّى غاضباً، أو غاصّ في الأعماق يدمدم حانقاً ولكنّ صوته ضاع في أزيز النار المستعرة. أليست هي فتاته؟. بلى، تشهد بذلك حنايا الحوش وبثر السكّم وركن السطح المطلّ على السكّرية. وكانت بلا ريب ترقّب عودته لتلتقي به في اللحظة المناسبة. كلّ هذا العناء من أجله هوا. ومضى متعجّلاً حذرًا حتّى وقف إزاءها على البسطة، لا يكاد يفصل بينهما شيء، وقد سطع أنفه شدا شعرها، ودغدغ عنقه تردّد أنفاسها. وربّت منكبها برقّة هامساً:

- نصعد إلى البسطة الثانية فنكون في موضع آمن من هذا.

تقدّمته دون أن تنبس فتبعها محاذراً. وبلغا البسطة الثانية فيما بين الدورين. فوقفت مستندة إلى الجدار ووقف بين يديها، ثمّ أحاطها بذراعيه فقاومته بحكم العادة مقدار ثانية ثمّ سكنت في حضنه...

- حبيبتي...

- انتظرتك في النافذة، نينة مشغولة باستعدادات شَمّ النسيم.

- كلّ سنة وأنت طيّبة، دعيني أشمّ النسيم بين شفّتيك...

والتقت شفّتها في قبلة طويلة جائعة. ثمّ تساءلت:

- أين كنت؟

ذكر في سرعة خاطفة درس السياسة في الإسلام، ولكنّه أجاب:

- مع بعض الأصدقاء في القهوة...

قالت بلهجة تشي بالاحتجاج:

- القهوة ولم يبقّ على الامتحان إلّا شهر؟

- ولكيّ أعرف واجبي، سأقبلك قبلة ثانية جزاء

سوء ظنّك بي...

- صوتك عال، أنسيت أين نحن؟

ثم جلس بعد أن جلس الرجل وأذن له في الجلوس. شعر بالارتياح والزهو وهو يرنو إلى الأستاذ الكبير الذي تلقى عنه النور والعرفان في الأعوام الثلاثة الماضية، سواء عن مؤلفاته أم مجلته، فراح يملأ عينيه من الوجه الشاحب الذي وخط الشيب شعره وعلاه الكبر فلم يبق له من أمارات الفتوة إلا عينان عميقتان تشعان بريقاً نقاداً. هذا أستاذه، أو أبوه الروحي كما يدعوه، وإنه الآن في حجرة الوحي التي لا جدران لها ولكن رفوف الكتب تمتد عالياً حتى السقف.

وقال الأستاذ بلهجة المتسائل:

- أهلاً وسهلاً؟

فقال أحمد بلباقة:

- جئت لأسدّد الاشتراك.

ولما اطمأن إلى الأثر الطيب الذي أحدثه قوله استدرك قائلاً:

- وأسأل عن مصير مقالة أرسلتها إلى المجلة من أسبوعين.

فابتسم الأستاذ عدلي كريم وهو يتساءل:

- اسم حضرتك؟

- أحمد إبراهيم شوكت.

فارتسمت على جبين الأستاذ تقطعية التذكر ثم قال:

- إني أذكرك، أنت أول مشترك في مجلتي، نعم،

وجئتني بثلاثة مشتركين، هه؟ إني أذكر اسم شوكت،

وأظنتني أرسلت لك خطاب شكر باسم المجلة؟

فقال أحمد بارتياح ممتناً لهذا التذكر الجميل:

- جاءني كتاب حضرتك، اعتبرني فيه «صديق

المجلة الأول»!

- هذا حق، إن مجلة الإنسان الجديد مجلة مبدل ولا

بدل لها من أصدقاء مؤمنين لتشق طريقها في زحمة

مجلات الصور والاحتكار، فأنت صديق المجلة، أهلاً

وسهلاً، ولكنك لم تشرفنا بالزيارة من قبل؟

- كلا، إني لم أأخذ البكالوريا إلا في هذا الشهر.

فضحك الأستاذ عدلي كريم قائلاً:

- أنت فاهم أن المجلة لا يزورها إلا الحاصل على

البكالوريا؟!

فابتسم أحمد في ارتباك وقال:

وكان صدره يضطرم شجناً، وهفت نفسه إلى البكاء، ودعا ربّه أن يطرد الشيطان عن سبيله وأن يشدّ أزره في مقاومة الغواية. ذلك الشيطان الذي يعترضه في صورة فتاة ويندفع في دمه رغبة جامحة. ودائماً أبداً يقول عقله لا فيقول قلبه نعم، ثم يتلقفه ذلك الصراع المخيف الذي ينتهي بالهزيمة والندم. كل يوم تجربة وكل تجربة جحيم فمتى ينقضي هذا العذاب؟، إن نضاله الروحي كله مهتد بالخراب وكأنما يبني قصوراً في الهواء ولن يقرّ قرار لغارق في الطين، فليت الندم يستطيع أن يرجع ساعة مضت.

١٣

أخيراً اهتدى أحمد إبراهيم شوكت إلى مبنى مجلة «الإنسان الجديد» بغمرة. كان المبنى يقع في مكان وسط بين محطتي الترام، وكان مكوّنًا من دورين وبدروم، فأدرك لأول وهلة أن الدور الأعلى مسكن كما استدلّ من الغسيل المعلق في شرفته، أما الدور الأول فقد ثبتت لافتة باسم المجلة على بابه، وأما البدروم فقد خصّص للمطبعة التي رأى آلتها خلل قضبان النوافذ. وصعد درجات أربعاً إلى الدور الأول، ثم سأل أول من التقى به - وكان عاملاً يحمل بروفات - عن الأستاذ عدلي كريم صاحب المجلة، فأشار الرجل إلى باب مغلق في نهاية صالة خالية من الأثاث حيث تراءت لافتة رئيس التحرير، فمضى وهو يتلفت فيما حواليه على يجد حاجباً ولكنه ألغى نفسه منفرداً بالباب فتردد لحظة ثم طرق برقة حتى جاءه صوت من الداخل يقول «ادخل» ففتح الباب ودخل، فالتقت عيناه في نهاية الصالة بعينين واسعتين تحدّقان به متسائلتين من تحت حاجبين كثيفين أشبيين، فردّ الباب وراءه وقال بصوت المعتذر:

- لا مؤاخذه، دقيقة واحدة...

فقال الرجل بصوت رقيق:

- تفضّل...

وتقدّم أحمد من مكتب كُندست فوقه الكتب والأوراق، ثم سلّم على الأستاذ الذي قام لاستقباله،

- كلاً طبعاً، أعني أنّي كنت صغيراً.

فقال الأستاذ جاداً:

- لا يليق بقارئ الإنسان الجديد أن يحسب العمر بالسنين، في بلادنا شيوخ جاوزوا الستين ولكنهم ما زالوا شباباً بعقولهم، وفيها شبّان في ربيع العمر ولكنهم معتمرون - منذ ألف سنة أو أكثر - بعقولهم، وهذا هو داء الشرق... (ثمّ بلهجة أرق) وهل أرسلت إلينا مقالات من قبل؟

- ثلاث مقالات كان مصيرها الإهمال، ثمّ مقالة أخيرة كنت أطمع في نشرها! - عن ماذا؟، لا تؤاخذني فإنّي أنلّقى عشرات المقالات يوميّاً؟

- عن رأي لوبون في التعليم وتعليقي عليه! - على أيّ حال ستبحث عنها في السكينة - الحجرة المجاورة لحجرتي - وتعلم بمصيرها... وهمّ أحمد بالقيام ولكنّ الأستاذ عدلي أشار إليه بالاستمرار في الجلوس وهو يقول: - المجلّة اليوم في شبه إجازة، أرجو أن تمكث معي قليلاً لتتحدّث.

فتمتم أحمد بارتياح عميق:

- بكلّ سرور يا فندم. - قلت إنّك أخذت البكالوريا هذا العام، كم سنّك؟ - ستّة عشر عامّاً. - سنّ مبكّرة، حسن، هل المجلّة منتشرة في المدارس الثانوية؟ - كلاً للأسف... - أعلم هذا، أكثرية قرائنا في الجامعة، القراءة في مصر ملهاة رخيصة، ولن نتطوّر حتّى نؤمن بأنّ القراءة ضرورة حيويّة.

- كلاً للأسف...

- أعلم هذا، أكثرية قرائنا في الجامعة، القراءة في مصر ملهاة رخيصة، ولن نتطوّر حتّى نؤمن بأنّ القراءة ضرورة حيويّة.

ثمّ بعد قليل من الصمت:

- وما حال التلاميذ؟ - فنظر إليه أحمد متسائلاً كأنّما يستزيده تفسيراً لقوله، فقال الرجل:

- إنّني أسأل عن الناحية السياسيّة باعتبارها أوضح من غيرها...

- الأغليّة الساحقة من التلاميذ وفديّون...

- ولكن ثمة كلام عن حركات جديدة؟

- مصر الفتاة؟... لا وزن لها، فرقة تُعدّ على الأصابع، الأحزاب الأخرى لا أنصار لها إلّا أقارب زعمائها، وهناك قلّة لا تهتمّ بشئون الأحزاب كافّة، وآخرون - وأنا منهم - نفضل الوفد على غيره ولكننا نطمع فيما هو أكمل...

فقال الرجل بارتياح:

- هذا ما أسأل عنه، الوفد حزب الشعب، وهو خطرة تطوريّة خطيرة وطبيعيّة في آن واحد، كان الحزب الوطنيّ حزباً تركيّاً دينيّاً رجعيّاً، أمّا الوفد فهو مبلور القوميّة المصريّة ومطهّرها من الشوائب والخبائث، إلى أنّه مدرسة الوطنيّة والديمقراطيّة، ولكنّ المسألة أنّ الوطن لا يقنع وما ينبغي له أن يقنع بهذه المدرسة، نريد مرحلة جديدة من التطوّر، نريد مدرسة اجتماعيّة، لأنّ الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة، ولكنّه الوسيلة لنيل حقوق الشعب الدستوريّة والاقتصاديّة والإنسانيّة.

فنهف أحمد بحماس:

- ما أجمل هذا الكلام!

- ولكن ينبغي أن يكون الوفد نقطة البدء، أمّا مصر الفتاة فحركة فاشستيّة رجعيّة مجرّمة، ليست دون الرجعيّة الدينيّة خطراً وهي ليست إلّا صدى للعسكريّة الألمانيّة والإيطاليّة التي تعبد القوّة وتقوم على الاستبداد وتزري بالقيم الإنسانيّة والكرامة البشريّة، إنّ الرجعيّة داء مستوطن في الشرق كالكوليرا والتيفود فينبغي استئصاله...

فعاد أحمد يقول متحمّساً:

- إنّ جماعة «الإنسان الجديد» تؤمن بهذا كلّ الإيمان...

فهزّ الرجل رأسه الكبير في أسف وهو يقول:

- ولذلك فالمجلّة هدف للرجعيّين من كافّة النحل،

إنّهم يرمونني بإفساد الشباب!

- كما اتّهموا سقراط من قبل...

فابتسم الأستاذ عدلي كريم في ارتياح وقال:

- وما وجهتك؟ أعني أيّ كلّية تقصد؟

- الآداب...

فاعتدل الأستاذ في جلسته، وقال:

- الأدب وسيلة من وسائل التحرير الكبرى، ولكنه قد يكون وسيلة للرجعية، فاعرف سبيلك، فمن الأزهر ودار العلوم خرجت آداب مَرَضِيَّة عملت أجيالاً على تجميد العقل وقتل الروح، ومهما يكن من أمر - ولا تدهش أن يصارك بهذا الرأي رجل معدود في الأدباء - فالعلم أساس الحياة الحديثة، ينبغي أن ندرس العلوم وأن نشبع بالعقلية العملية، الجاهل بالعلم ليس من سكان القرن العشرين ولو كان عبقرياً، وعلى الأدباء أن ينالوا حظهم منه. لم يعد العلم وفقاً على العلماء، أجل لهؤلاء التضلع والتعمق والبحث والكشف، ولكن على كل مثقف أن يضيء نفسه بنوره وأن يعتنق مبادئه ومناهجه ويتحلى بأسلوبه، ينبغي أن يحل العلم محل الكهانة والدين في العالم القديم...

فقال أحمد مؤمناً على قول أستاذه:

- ولذلك كانت رسالة «الإنسان الجديد» هي تطوير المجتمع على أساس علمي...

فقال عدلي كريم باهتمام:

- أجل على كل منا أن يقوم بواجبه، ولو وجد وحيداً في الميدان...

فهزّ أحمد رأسه موافقاً فعاد الآخر يقول:

- ادرس الآداب كما تشاء، واعنّ بعقلك أكثر ما تعنى بالمحفوظات، ولا تنسّ العلم الحديث، ولا يجب أن تخلو مكتبك - إلى جانب شكسبير وشوبنهاور - من كونت ودارون وفرويد وماركس وإنجلز، لتكون لك حماسة أهل الدين ولكن ينبغي أن تذكر أنّ لكل عصر أنبياءه، وأنّ أنبياء هذا العصر هم العلماء.

وابتسم الأستاذ ابتسامة أوحّت بأنّها تحية الختام فنهض أحمد مادّاً يده، وسلّم ثمّ غادر الحجرة ممثلاً حياة وسعادة. وفي الصالة الخارجية ذكر الاشتراك والمقالة فمال إلى الحجرة المجاورة، وطرق الباب مستأذناً ثمّ دخل. رأى حجرة بها ثلاثة مكاتب، اثنان خاليان، والثالث جلست عليه فتاة. لم يكن يتوقع هذا فوقف ينظر إليها في حيرة وتساؤل. كانت في

العشرين، عميقة السمرة، سوداء العينين والشعر، وكان في أنفها الدقيق وذقنها المدبّب وفمها الرقيق ما يوحي بالقوة، دون أن يفسد ملامحتها. ساءلت وهي تتفحصه:

- أفندم؟

فقال يعزّز مركزه:

- الاشتراك...

ودفع المبلغ وأخذ الإيصال، وفي أثناء ذلك كان قد تغلّب على ارتباكها فقال:

- كنت قد أرسلت مقالة إلى المجلة، وأخبرني الأستاذ عدلي كريم بأنّها في السكترارية.

وهنا دعتة للجلوس على كرسيّ أمام المكتب فجلس ثمّ سألت:

- عنوان المقالة من فضلك؟

قال دون أن يشعر بارتياح لموقفه هذا أمام فتاة:

- التعليم عند لوبون.

فتحت دوسيتها، وفوّت أوراقاً حتّى استخرجت المقال، ولمح أحمد خطّه فحقق قلبه، وحاول أن يقرأ التوقيع الأحمر عليه من مجلسه غير أنّها وفّرت عليه عناء المحاولة إذ قالت:

- موقع عليه بما يأتي «يلخص ويُشرّ في باب رسائل القراء».

فشعر أحمد بخيبة أمل، ولبت لحظات ينظر إليها دون أن ينبس، ثمّ تساءل:

- في أيّ عدد؟

- في العدد القادم.

فسأل بعد تردّد:

- ومن الذي يلخصه؟

- أنا.

وداخله شعور بالامتناع، ولكنه سأل:

- ويوقع عليه باسمي؟

فقالت ضاحكة:

- طبعاً، يُنشر عادة ما يفيد بأنّه جاءتنا رسالة من الأديب (ثمّ وهي تنظر إلى الإمضاء) أحمد إبراهيم

شوكت ثمّ نورد تلخيصاً وافياً لفكرتك!

فتردّد قليلاً ثمّ قال:

- كنت أفضل لو نُشرت بأكملها...

فقلت باسمه:

- المرة القادمة إن شاء الله...

فجعل ينظر إليها صامتاً ثم سألها:

- حضرتك موظفة هنا؟

- كما تراني!

نازعته نفسه أن يسألها عن مؤهلاتها ولكن شجاعته خذلته في اللحظة الأخيرة فسألها:

- اسم حضرتك من فضلك لأطلبك في التليفون

إذا لزم الأمر!

- سوسن حماد.

- متشكر جداً.

ونفض محبباً إياها بيده، وقبل أن يغادر الحجرة التفت نحوها قائلاً:

- أرجو أن تلخصيها بعناية.

فقلت دون أن تنظر إليه:

- إني أعرف واجبي!

فغادر الغرفة نادماً على قوله...

١٤

كان كمال في حجرة مكتبه عندما جاءت أم حنفي لتقول له:

- سي فؤاد الحمزاوي عند سيدي الكبير...

ونفض كمال بجلبابه الفضفاض وغادر الحجرة مسرعاً إلى تحت. إذن عاد فؤاد إلى القاهرة بعد غيبة عام، عاد وكيل نيابة قنا العتيذا. وكانت تميش بصدرة مشاعر صداقة ومودة بيد أن شواذب عدم الارتياح شابتها، فصداقته لفؤاد كانت ولا تزال تنطوي على نوع من الصراع، صراع من الحب والنفور، بين المودة والغيرة، ومهما يحاول أن يتسامى بعقله فالغرائز تشده على رغمه إلى الإسفاف الدنيوي. فلم يكن يشك وهو يهبط السلم في أن هذه الزيارة ستثير عنده ذكريات سعيدة ولكنها في الوقت نفسه ستثقل جروحاً كادت أن تندمل. وعندما مر في الصالة بمجلس القهوة المكون من الأم وعائشة ونعيمة سمع

أمه وهي تهمس قائلة:

- سوف يطلب يد نعيمة...

ولما شعرت بوجوده التفتت إليه قائلة:

- صديقك بالداخل، ما أطفه، أراد أن يقبل يدي

فمنعته!

ورأى والده متربّعاً على الكنبه وفؤاد جالساً على

مقعد قبائله، فتصافح الصديقان القديمان وكمال يقول:

- حمداً لله على السلامة، أهلاً وسهلاً، أنت في

إجازة؟

فأجاب عنه السيد أحمد باسمًا:

- بل نُقل إلى نيابة القاهرة، نُقل أخيراً بعد غربة

طويلة في الصعيد...

فجلس كمال على الكنبه وهو يقول:

- مبارك، من الآن فصاعداً نرجو أن نراك من آن

لآخر.

فقال فؤاد:

- طبعاً، وسنقيم من أول الشهر القادم بالعباسية،

استأجرنا شقة بجوار قسم الوايلي...

لم تتغير هيئة فؤاد كثيراً، ولكن صحته تقدّمت

بدرجة محسوسة فامتلاً عوده وتورّد وجهه، أما عيناه

فلا زالتا تشعان ذلك الوميض الذكي. وسأل السيد

أحمد الشاب قائلاً:

- وكيف حال والدك؟... لم أره منذ أسبوع.

- ليست صحته على ما يرام، إنه لا يزال آسفاً على

ترك المحلّ، لكن المأمول أن يكون خليفته قائماً

بالواجب.

- الأمر يقتضيني اليوم بقطعة متواصلة، كان والدك

يقوم بكل شيء شفاه الله وعافاه...

واعتمد فؤاد في جلسته ووضع رجلاً على رجل

فلفتت هذه الحركة انتباه كمال فيما يشبه الانزعاج، أما

السيد فلم يبد عليه حتى أنه لاحظها. أهكذا تتطور

الأمر؟ أجل إنه وكيل نيابة قنّ الدنيا، ولكن أنسي من

يكون الشخص المترع أمامه؟ ربه ليس هذا

فحسب، لقد أخرج علبة سجاثر وقدمها للسيد فاعتذر

شاكراً! حقاً إن النيابة تُنسي، ولكن من المؤسف أن

يمتدّ نسيانها إلى وليّ النعمة الذي يبدو أن فضله تبدّد

في الهواء كدخان هذه السجارة الفاخرة. ولم يكن في حركات فؤاد تكلف من أي نوع كان، كان سيّدًا قد تعود السيادة، وقال السيّد غاطبًا كمال:

- وهنّهُ أيضًا فقد رُفّي من مساعد إلى وكيل نيابة. فقال كمال بأسًا:

- مبارك. مبارك، أرجو أن أهتلك قريبًا بكرسي القضاء.

فقال فؤاد:

- الخطوة التالية إن شاء الله.

ربّما استباح لنفسه - عندما يصير قاضيًا - أن يبول أمام الرجل المترجّع أمامه! أمّا مدرّس ابتدائي فيظلّ مدرّسًا ابتدائيًا، وحسبه شاربه الغليظ وأطنان الثقافة التي عوّجت رأسه.

ونظر السيّد أحمد إلى فؤاد باهتمام وهو يسأل:

- وكيف حال السياسة؟

فقال فؤاد بارتياح:

- وقَعَت المعجزة! وقَعَت المعاهدة في لندن، أصغيت إلى الراديو وهو يعلن استقلال مصر وانقضاء عهد التحفّظات الأربعة فلم أصدّق أذني، من كان يصدّق هذا؟

- إذن أنت من الراضين على المعاهدة؟

فقال وهو يهزّ رأسه هزّة أصحاب الشأن:

- في الجملة نعم، للمعاهدة أعداء مخلصون وآخرون غير مخلصين، فإذا تأملنا الظروف التي تحيط بنا، وذكرنا أنّ شعبنا صبر على عهد صدقي رغم مرارته دون أن يثور عليه، فينبغي أن نعدّ المعاهدة خطوة موفّقة، أزالنا التحفّظات ومهدت الطريق لإلغاء الامتيازات الأجنبية، وحددت مدّة الاحتلال بعد قُصره على منطقة معيّنة، إنّها خطوة عظيمة بلا شك.

كان حماس السيّد أحمد للمعاهدة أقوى وإحاطته بظروفها أقلّ، وكان يودّ أن يتجاوب الآخر معه تجاوبًا أشدّ، فلما خاب ظنّه قال بعناد:

- على أيّ حال ينبغي أن نذكر أنّ الوفد قد أعاد إلى الأمة دستورها وحقّق لها الاستقلال ولو بعد حين... وفكّر كمال: كان فؤاد دائميًا «باردًا» في الناحية

السياسية، ولعلّه لم يتغيّر، ولكنّه يبدو مائلًا إلى الوفد، أمّا أنا فطالما كنت مندفعًا مع العاطفة، ثمّ انقلبت لا أومن بشيء، والسياسة نفسها لم تسلم من شكّي، النهم، ولكنّ قلبي لا يزال ينبض بالوطنية رغم عقلي. وعاد فؤاد يقول ضاحكًا:

- إنّ النيابة في عهود الانقلاب تنكمش إلى الوراء على حين يحتلّ البوليس المقدّمة، إذ إنّ عهود الانقلاب عهود بوليسية، فإذا عاد الوفد إلى الحكم رُدّت للنيابة مكانتها ولزم البوليس حدوده، ففي عهد الحكم الطبيعي يكون القانون هو الكلمة العليا.

فلعلّ السيّد على ذلك قائلًا:

- وهل يمكن أن ننسى عهد صدقي؟! لقد كان الجنود يجمعون الأهالي بالعصيّ أيام الانتخابات، وكثير من الأعيان من أصدقائنا خربت بيوتهم وأشهرها إفلاسهم ثمنا لثباتهم على مبدأ الوفد، ثمّ إذا بنا نرى «الشیطان» ضمن هيئة المفاوضات في لباس الوطنيين الأحرار!

فقال فؤاد:

- كانت الظروف توجب الاتّحاد، ولم يكن هذا الاتّحاد ليكمل دون أن ينضمّ إليه الشيطان وأعوانه، والعبرة بالخواتيم.

ولبت فؤاد في حضرة السيّد فترة غير يسيرة، احتسى في أثنائها القهوة، وجعل كمال يتفحصه بعناية فانتبه إلى بذلته الحريرية البيضاء الأنيقة، والوردة الحمراء التي تزین عروتها، وإلى الشخصية القويّة التي أضفتها عليه الوظيفة، ف شعر في أعماقه بأنّه سيسرّ - رغم كلّ شيء - إذا طلب هذا الشاب يد بنت أخته، غير أنّ فؤاد لم يطرق هذا الموضوع، وبدا عليه أنّه يرغب في الذهاب وما لبث أن قال للسيّد:

- آن وقت ذهابك إلى الدكان، سأملك بقيّة الوقت مع كمال، وسوف أزور حضرتك قبل سفري إلى الاسكندرية، حيث إنني قرّرت أن أقضي بقيّة أغسطس وبعض سبتمبر في المصيف.

ونفض قائمًا فصافح السيّد مودّعًا ثمّ غادر الحجرة يتقدّمه كمال، وصعدا معًا إلى الدور الأعلى حيث استقرا في حجرة المكتب، وجعل فؤاد يتصفّح الكتب

- ولوا...
فتساءل كمال بعينيه عن معنى هذا فعاد الآخر
يقول:
- كلانا يجري نحو الثلاثين دون أن يتزوج، جيلنا
مكتنظ بالعزّاب، جيل الأزمة، ألا زلت عند رأيك؟
- لا أتزوج...
- لا أدري لم أعتقد بأنك لن تتزوج أبدًا.
- أنت بعيد النظر طول عمرك.
فقال وهو يتبسم ابتسامة رقيقة كأنما ليعتذر بها سلفًا
عما سيقول:
- أنت رجل أناني، تأي إلا أن تستأثر بكلّ حياتك
لنفسك، يا أخي لقد تزوّج النبي ولم يمنعه ذلك من
ممارسة حياته الروحية العظيمة...
ثم مستدركًا وهو يضحك:
- لا تؤاخذني على ضرب المثل بالنبي، كدت أنسى
أنك... ولكن مهلاً، إنك لم تعد الملحد القديم،
أنت الآن تشكّ حتى في الإلحاد، وهذه خطوة كسب
للإيمان...
فقال كمال بهدوء:
- دعنا من التفلسف فإنك لا تحبه وخبرني لم تمّ
تتزوج أنت ما دام هذا هو رأيك في العزوبية؟
وشعر لتوه بأنه ما كان ينبغي له أن يطرح هذا
السؤال خشية أن يفسره الآخر بأنه استدراج إلى
الكلام في خطبة نعيمة! ولكنّ فؤاد لم يبدُ عليه أنّه فُكر
في هذا، بل ضحك ضحكة عالية وإن لم تخرج به عن
حدّ الوقار، وقال:
- أنت تعلم أنّي لم أفسد إلا متأخرًا، لم أفسد مثلك
في زمن مبكر، فأنما لم أشبع بعدا
- أتتزوج إذا شبت؟
فضرب فؤاد الهواء بظاهر يده كأنما يطرد الكذب
وقال بلهجة المعترف:
- ما دمت قد صبرت حتى اليوم فلا صبر فترة
أخرى، أصبر حتى أرقى قاضيًا مثلاً فيسعني أن أصاهر
وزيرًا إذا شئت...
يا بن جيل الحمزاوي! عروس من صلب وزير
وحاتها من المبيضة! اتحدى لينبئ أن يبرّر هذا ولو كما

المصفوفة على الأرفف باسمًا ثم تساءل:
- ألا أستطيع أن أستعير منك كتابًا؟
فقال كمال وهو يداري عدم ارتياحه:
- بكلّ سرور، ماذا تقرأ عادة في أوقات فراغك؟
- عندي دواوين شوقي وحافظ ومطران، وبعض
كتب الجاحظ والمعري، وأحبّ بصفة خاصّة «أدب
الدنيا والدين»، إلى مؤلفات كتابنا المعاصرين، هذا
إلى بعض مؤلفات ديكنز وكونان دويل، ولكنّ انكبابي
على القانون يلتهم أكثر وقتي...
ثم نهض فجال جولة استعراضية بين الكتب قارئًا
عناوينها ثم عاد وهو ينفخ قائلاً:
- مكتبة فلسفية قحّة، لا ناقة لي فيها ولا جمل، إنّي
أقرأ مجلّة الفكر التي تكتب فيها، وأتابع مقالاتك التي
تظهر تباعًا منذ سنوات، لا أزعم أنّي قرأتها جميعًا، أو
أنّي أذكر منها شيئًا، إنّ المقالة الفلسفية أثقل ما يُقرأ،
ووكيل النيابة رجل مرهق بالعمل، لماذا لا تكتب في
الموضوعات الجذّابة؟
طالما سمع بأذنه نعي مجهوده، ولكنّه لم يحزن لذلك
كثيرًا كأنما اعتاده، إنّ الشكّ يلتهم فيها يلتهم الحزن
نفسه، والشهرة ما هي؟ والجاذبية ما هي؟ ولكنّ ممّا
يسرّه حقًا ألا يجد فيه فؤاد تزجية لأوقات فراغه.
وسأله:
- ماذا تعني بالموضوعات الجذّابة؟
- الأدب مثلاً.
- قرأت لطائف منه مذ كنّا معًا ولكنني لست
أديبًا...
فضحك فؤاد قائلاً:
- إذن ابق في الفلسفة وحدك، ألست فيلسوفًا؟
ألست فيلسوفًا؟ عبارة مطبوعة في أعماقه، ارتجف
من هول وقعها قلبه، هكذا هي مذ ألقيت عليه في
شارع السرايات من ثغر عايدة! ولكي يداري جيشة
صدره ضحك ضحكة عالية، ثم ذكر الأيام التي كان
فؤاد يتودّد ويتبعه كظله، ها هو الآن يطالعه رجلاً
خطيرًا جديرًا بالتودّد والولاء! ماذا جنيت من
حياتي؟ وكان فؤاد يتفحص شارب صاحبه ثم ضحك
فجأة قائلاً:

يبرّر وجود الشرّ في الخليقة!.

- أنت تنظر إلى الزواج نظرة... .

فقاطعته قبل أن يكمل كلامه ضاحكًا:

- خير من الذي لا يعيره نظرة على الإطلاق!...

- ولكنّ السعادة... .

- لا تتفلسف! السعادة فنّ ذاتيّ، قد تجدها عند

كرمية وزير بينا لا تجد إلاّ التعاسة في وسطك، الزواج

معاهدة كالتّي وقّعها النحاس بالأمس، مساومة وتقدير

ودهاء ويُعدّ نظر وفوائد وخسائر، وفي بلدنا لا تأتي

الرفعة إلاّ عن هذا السبيل، في الأسبوع الماضي عُيّن

مستشارًا رجل لم يبلغ الأربعين من عمره، وقد أخدم

القضاء عمري مجتهدًا ناصبًا دون أن أظفر بهذا المركز

السامي!

ومعلّم ابتدائيّ ما قوله؟ في الدرجة السادسة

ينقضي عمره، ولو طُفح بالفلسفة رأسه... .

- إنّ مركزك يغنيك عن أمثال هذه المغامرات... .

- لولا هذه المغامرات ما استطاع رئيس أن يؤلّف

وزارته!

فضحك كمال ضحكة لا طعم لها وقال:

- أنت في حاجة إلى شيء من الفلسفة، تحتاج إلى

جرعة من سبنوزا... .

- اشيخ منه أنت، لكن دعنا من هذا، وخبرني عن

أماكن اللهو والشراب، في قنا كنت أختلس اللذة في

حذر، إنّ مركزنا يتجمّع علينا الانزواء ومجانبة البشر،

والصراع الأبديّ بينا وبين البوليس يوجب الحذر

أكثر، وكيل النيابة مركز خطير متعب... .

عودة إلى الحديث الذي هدّد مرارتي بالانفجار،

حياتي في ضوئك تأديب وتهذيب وأشدّ امتحانًا لفلسفتي

الخائرة في هذه الحياة... .

- تصوّر أنّ الظروف تجمعي بكثير من الأعيان، ثمّ

يدعونني إلى سراياتهم، فأجد أنّ الواجب يقضي بأنّ

أرفض دعوتهم كيلا يؤثر مؤثّر في قيامي بواجبي، ولكنّ

عقليّتهم لا تفهم هذا، فأعيان الإقليم جميعًا يرموني

بالكبر وأنا منه براء.

«بل أنت غرور وكبر وغيرة على الواجب معًا».

وقال موافقًا:

- نعم... .

- ولنفس الأسباب خسرت رجال البوليس، أنا لا

أرضى عن طرقهم الملتوية، لذلك أقف لهم بالمرصاد،

ورائي القانون، ووراءهم همجيّة القرون الوسطى، إنّ

الجميع يكرهوني ولكنّ الحقّ معي... .

الحقّ معك، هذا ما أعرفه فيك من قديم، الذكاء

والنزاهة، ولكنك لا تُحِبّ ولا يُمكن أن تُحِبّ، أنت لا

تتمسك بالحقّ لوجه الحقّ وحده ولكن لوجه الحقّ

والغرور والكبرياء والشعور بالنقص، هكذا الإنسان،

إنّي أصطدم بأمثالك حتّى في الوظائف الحقيرة،

الإنسان العذب القويّ أسطورة، ولكن ما قيمة

الحبّ؟ وما المثاليّة؟ وما أيّ شيء؟!

وهكذا طال بهما الحديث، وعندما همّ فؤاد

بالذهاب مال على أذن كمال متسائلًا:

- أنا جديد في القاهرة، طبعًا أنت تعرف بيتًا بل

بيوتًا، مستورة طبعًا؟.

فقال كمال بأسًا:

- إنّ المدرّس كوكيل النيابة يتحرّى الستر دائمًا... .

- عال. سنلتقي قريبًا، إنّي مشغول الآن بترتيب

الشقة الجديدة ولا بدّ أن نسهر كم مرّة معًا!

- اتّفقنا... .

وغادر الحجره معًا فلم يتركه حتّى أوصله إلى باب

السكّة، وعندما مرّ بالدور الأوّل في أثناء عودته التقى

بأمّه واقفة تنتظره عند المدخل، فسألته بلهفة:

- ألم يكلمك؟.

فأدرك ما تسأل عنه، وشعر لذلك بأنّ لم يشعر

بمثله، ولكنّه تجاهل الأمر وتساءل بدوره:

- عن ماذا؟

- نعيمة!...

فأجاب ممتعضًا:

- كلًّا... .

- عجيبة!...

وتبادلا نظرة طويلة، ثمّ عادت أمينة تقول:

- ولكنّ الحمزاوي كلّ أمك!.

فقال كمال وهو يداري ما استطاع من ثورة حقنه:

- لعلّه لم يكن فيما قال نائبًا عن ابنه... .

إليه بمقالاته الفلسفية، ثم مضت ستة أعوام وهما على تعاون صادق غير مأجور، والواقع أن جميع كتاب المجلة كانوا من المتعاونين في سبيل الفلسفة والثقافة لوجه الله وحده... .

وكان عبد العزيز يرحب بكافة الكتاب المتطوعين حتى المختصين - مثله - في الفلسفة الإسلامية، ومع أنه كان أزهري النشأة إلا أنه سافر إلى فرنسا حيث قضى هنالك أربعة أعوام محصلاً ومستمتعاً دون أن يحصل على درجة علمية، وكان في غنى عن السعي للرزق بعقار يملكه يدرّ عليه شهرياً خمسين جنيهًا ولكنه أنشأ مجلة «الفكر» في عام ١٩٢٣، وشابر على إصدارها بالرغم من أنها لم تكن تزيد دخله شيئاً يضاهي بعض ما يبذله فيها من جهد. وما كاد يستقر المجلس بكمال حتى دخل الحجرة رجل في مثل سنه، يرتدي بذلة من التيل الرمادي، طويل القامة، وإن كان دون كمال طولاً، نحيفاً، ولكنه أكثر امتلاء منه، مستطيل الوجه، متوسط الجبين، ممثلي الشفتين، ذو أنف دقيق وذقن مدبب أضفى على سمته طابعاً خاصاً. تقدّم خفيفاً باسم الثغر فمدّ يده إلى الأستاذ عبد العزيز فصافحه هذا ثم قدّمه إلى كمال قائلاً:

- الأستاذ رياض قلدس مترجم بوزارة المعارف، انضم حديثاً إلى جماعة كتاب «الفكر»، وقد أمدّ مجلّتنا العلمية بدم جديد بتلخيصه الشهري للمسرحيات العالمية وكتابة القصة القصيرة.

ثم قدّم كمال قائلاً:

- الأستاذ كمال أحمد عبد الجواد، لعلك من قراء مقالاته!.

فتصافح الرجلان ورياض يقول بإعجاب:

- إني أقرأ مقالاته منذ سنوات، مقالات قيمة بكل معنى الكلمة... .

فشكر كمال متلقياً ثناءه بحذر، ثم جلسا على كرسيين متقابلين أمام مكتب الأستاذ عبد العزيز الذي مضى يقول:

- لا تنتظري أستاذ رياض أن يرّد عليك بالمثل قائلاً إنه قرأ قصصك القيمة، إنه لا يقرأ قصصاً البتة... . فضحك رياض ضحكة جذابة كشفت عن أسنان

فقال أمينة غاضبة:

- هذا عبث لا يليق... ألا يدري من يكون هو ومن تكون هي؟ كان ينبغي أن يفهمه جدك حقيقة مركزه.

- إن فؤاد بريء، لعل والده أسرع دون تدبّر بحسن نية... .

- ولكن حدث ابنه دون شك فهل رفض الآخر؟ ذلك الذي جعلناه موظفاً محترماً بنقودنا... .

- لا داعي للكلام في هذا الموضوع... .

- إن هذا يا بني أمر لا يتصوره العقل، ألا يدري أن مصاهرته لا تشرفنا... .

- إذن لا تأسفي عليها... .

- لست آسفة ولكني غاضبة للإهانة... .

- لا إهانة هنالك، ليس إلا سوء تفاهم... .

وعاد إلى حجرته حزناً خجلاً، وجعل يحدث نفسه: نعيمة وردة جميلة، بيد أني رجل لم يبق لي من الفضائل إلا حب الحقيقة فينبغي أن أسأل نفسي أهى حقاً كفاء لوكيل نيابة؟. يستطيع رغم وضاعة أصله أن يشرك في حياته من هي أجل ثقافة وأعرّ محتداً وأكثر مالاً وجمالاً أيضاً، لقد تسرّع أبوه الطيب وليس هذا خطاه، ولكنه كان وقحاً في حديثه معي، وهو وقح بلا شك، إنه رجل ذكيّ نزيه كفاء وقح مغرور، وما هذا بذنبه ولكن الذنب ذنب هذه الفوارق التي تخلق فينا شتى الأمراض.

كانت مجلة «الفكر» تشغل الدور الأرضي بالعمارة رقم ٢١ بشوارع عيد العزيز، وكان حجرة صاحبها الأستاذ عبد العزيز الأسيوطي تطلّ بنافذة ذات قضبان على عطفة بركات المظلمة فكانت تضاء ليل نهار، والحق أنه كلما أقبل كمال على إدارة المجلة ذكره موضعها الأرضي ورثاة أاثانها بمكانة «الفكر» في بلده، وبمكانته هو في مجتمعه. واستقبله الأستاذ عبد العزيز بابتسامة ترحيب وود، ولا عجب فقد اتصّلت بينها أسباب المعرفة منذ عام ١٩٣٠ أي منذ بدأ كمال يبعث

نضيدة لامعة فلجاء الثبيتين ثم قال:

- ألا تحبّ الأدب إذن؟ ما من فيلسوف إلّا وله فلسفة خاصّة عن الجمال، وهي لا تتأقّق له إلّا بعد اطلاع واسع على شتى الفنون ومنها الأدب طبعاً. . .

فقال كمال في شيء من الارتباك:

- لست أكره الأدب، طالما ارتحت في جنّات شعره ونثره، ولكنّ أوقات الراحة قليلة!

- معنى ذلك أنّك قرأت ما استطعت من القصص إذ إنّ الأدب الحديث يكاد يقتصر على القصّة والتمثيلية. . .

فعاد كمال يقول:

- قرأت عدداً وفيراً منها على مدى العمر، بيد أنّي. . .

وهنا قاطعه عبد العزيز الأسيوطي قائلاً وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى:

- عليك يا أستاذ رياض من الآن فصاعداً أن تقنعه بأفكارك الجديدة، وحسبك أن تعلم الآن أنّه فيلسوف، وأنّ ولعه مركّز في الفكر.

ثمّ التفت إلى كمال متسائلاً:

- جئت بمقال الشهر؟

فأخرج كمال ظرفاً متوسطاً ووضعه في سكون أمام الأستاذ الذي تناوله بدوره فاستخرج منه أوراق المقالة ثمّ تصفّح العنوان وهو يقول:

- عن برجسون؟ . . . حسن!

فقال كمال:

- فكرة تقديم عامّة تبيّن الدور الذي لعبته فلسفته في تاريخ الفكر الحديث، وربّما ألحقته بمقالات آخر تفصيلية. . .

وكان رياض قلّس يتابع الحديث باهتمام فتساءل وهو يحدّج كمال بنظرة لطيفة:

- تتبعت مقالاتك منذ سنوات، منذ بدأت تكتب عن فلاسفة الإغريق، وهي مقالات متنوعة وأحياناً

تكون متناقضة بالقياس إلى ما تعرض من فلسفات، فادركت أنّك مؤرّخ، بيد أنّي حاولت عبثاً أن اهتدي إلى موقفك أنت ممّا تكتب، وأيّ فلسفة تنتمي إليها. . .؟

فقال عبد العزيز الأسيوطي:

- نحن حديثو عهد بالدراسات الفلسفية فيجب أن نبدأ بالعرض العام، ولعلّ الأستاذ كمال يتمخّض فيما بعد عن فلسفة جديدة، ولعلّك تكون يا أستاذ رياض من دعاة الكماليزم!

فضحكوا جميعاً، وخلع كمال نظارته وراح يجلو ناظرها، وكان سرعان ما يندمج في الحديث خاصّة إذا آنس إلى محدّثه، وبدا الجوّ صافياً عذباً، وقال كمال:

- إنّ سائح في متحف لا أملك فيه شيئاً، مؤرّخ فحسب، لا أدري أين أقف. . .

فقال رياض قلّس في اهتمام يتزايد:

- أي في مفترق الطريق، وقفت في ميدانك عهداً قبل أن أعرف وجهتي، ولكنّي أرجّح أنه موقف ذو قصّة، لأنّه عادة يكون نهاية مرحلة وبدء مرحلة جديدة، ألم تعرف ألواناً من الإيمان قبل موقفك هذا؟ نعمة هذا الحديث تعيد إليه ذكرى أغنية قديمة عالقة جذورها بالقلب، هذا الشاب وهذا الحديث، خلعت سنين ناضبة من الصداقة الروحية حتّى اعتاد أن يحدّث نفسه كلّما افتقد من محدّثه، ومنذ عهد بعيد لم يستطع أن يبعث هذا النشاط الروحيّ في صدره، لا إسماعيل لطيف ولا فؤاد الحمزاوي ولا عشرات المدرّسين، هل آن للمكان الذي خلا بذهاب حسين شدّاد أن يُشغل؟! وأعاد وضع النظارة على عينيه وابتسم قائلاً:

- لذلك قصّة طبعاً، وكالعادة كان لي إيماني الدينيّ، ثمّ إيماني بالحقيقة. . .

- أذكر أنّك عرضت الفلسفة المادّية بحماس يدعو للرية. . .

- كان حماساً صادقاً ثمّ لم ألّث أن حرّكت رأسي مرتاباً. . .

- لعلّها الفلسفة العقلية؟

- ثمّ لم ألّث أن حرّكت رأسي مرتاباً، الفلسفات تصور جميلة ولكنّها لا تصلح للسكنى. . .

فقال عبد العزيز بأساً:

- وشهد شاهد من أهلها!

فهز كمال كتفيه استهانة، أما رياض فواصل تحقيقه قائلاً:

- ألا يحتاج الحب إلى شيء من الإيمان؟
فقال رياض قلّس صاحكاً:
- كلاً، إنّ الحب كالزلازل الذي يزعج الجامع والكنيسة والمناخور على السواء...
زلازل؟ ما أصدقه من تشبيه، زلازل يهدم كلّ شيء يغرقه في صمت الموت.
- وأنت يا أستاذ قلّس، لقد أطريت الشك، فهل أنت من أهله؟
فقال عبد العزيز صاحكاً:
- إنّ ذلك نفسه!
وضجوا بالضحك، ثم قال رياض وكأنما كان يقدم نفسه:

- هنالك العلم فلعله نجا من شكك؟
- إنّهُ دنيا مغلقة حيالنا لا نعرف إلا بعض نتائجها القريبة، ثمّ أطلعت على آراء نخبة من العلماء يرتابون في مطابقة الحقيقة العلمية للحقيقة الواقعية، وآخرين ينوّهون بقانون الاحتمال، وغيرهم ممن تراجعوا عن ادّعاء الحقيقة المطلقة، فلم ألث أن حرّكت رأسي مرتاباً!
فابتسم رياض قلّس دون أن ينبس فعاد الآخر يقول:

- حتّى مغامرات الروحية الحديثة وتحضير الأرواح غرقت فيها حتّى أذني، ودار رأسي، وما زال يدور في فضاء خفيف، ما الحقيقة؟ ما القيم؟ ما أيّ شيء؟
إنّي أحياناً أشعر بتأنيب ضمير لفعل الخير كالذي أشعر به عند الوقوع في الشر...
فضحك عبد العزيز ضحكة عالية، وقال:
- لقد انتقم الدين منك، هجرته جرياً وراء الحقائق العليا فعدت صفر اليمين!
وقال رياض قلّس، وكان يبدو في قوله مجاملاً لا أكثر:

- حتّى مغامرات الروحية الحديثة وتحضير الأرواح غرقت فيها حتّى أذني، ودار رأسي، وما زال يدور في فضاء خفيف، ما الحقيقة؟ ما القيم؟ ما أيّ شيء؟
إنّي أحياناً أشعر بتأنيب ضمير لفعل الخير كالذي أشعر به عند الوقوع في الشر...
فضحك عبد العزيز ضحكة عالية، وقال:
- لقد انتقم الدين منك، هجرته جرياً وراء الحقائق العليا فعدت صفر اليمين!
وقال رياض قلّس، وكان يبدو في قوله مجاملاً لا أكثر:

- موقف الشك هذا لذيذاً لمشاهدة وتأمل وحرية مطلقة، وأخذ من كلّ شيء أخذ السائح!
فقال عبد العزيز مخاطباً كمال:
- أنت أعزب في فكرك، كما أنت أعزب في حياتك! وانتبه كمال إلى هذه الملاحظة العابرة باهتمام، ترى أعزوبته نتيجة لفكره أم العكس هو الصحيح؟ أم إنّ الاثنين نتيجة لشيء ثالث؟ وقال رياض قلّس:
- العزوبة حال مؤقتة، وربما كان الشك كذلك!
فقال عبد العزيز:

- أنت أعزب في فكرك، كما أنت أعزب في حياتك! وانتبه كمال إلى هذه الملاحظة العابرة باهتمام، ترى أعزوبته نتيجة لفكره أم العكس هو الصحيح؟ أم إنّ الاثنين نتيجة لشيء ثالث؟ وقال رياض قلّس:
- العزوبة حال مؤقتة، وربما كان الشك كذلك!
فقال عبد العزيز:
- ولكنّه فيما يبدو لن يميل إلى الزواج أبداً...
فقال رياض متعجباً:

- ما أشبه هذا الكلام بالشعر!
فتقلّب رياض تهكّم كمال بابتسامة متساحة، وقال:
- العلم يجمع البشر في نور أفكاره، والفنّ يجمعهم في عاطفة سامية إنسانية، وكلاهما يطرور البشرية ويدفعها إلى مستقبل أفضل...
يا للغرور! يكتب قصة من صفحتين كلّ شهر،

- ما الذي يحول بين الشك والحب؟ وما الذي يمنع حباً من الزواج؟، أمّا الإصرار على العزوبة فليس من الشك في شيء، الشك لا يعرف الإصرار!
فتساءل كمال، وهو غير جاذٍ في باطنه:

افترق الصديقان الجديدان عند العتبة، فعاد كمال من الموسكي والساعة تدور في الثامنة مساء، يتنفس جواً خائفاً شديد الحرارة، وتمهل عند عطفة الجوهري ثم مال إليها، ومرق من ثالث باب على يسار الداخل، ورقى في الدرج حتى الدور الثاني، ثم دق الجرس، ففتحت الشراعة عن وجه امرأة قد جاوزت الستين، حيته بابتسامة كشفت عن أسنان ذهبية، وفتحت الباب فدخل صامتاً، أما المرأة فقالت ترهب به:

- أهلاً بابن الحبيب، أهلاً بابن أخي...

وتبعها إلى صالة تتوسط حجرات، فيها كتبان متقابلتان بينهما سجادة قصيرة مزركشة وخوان ونارجيلة، وشذا بخور في الأركان، كانت المرأة بدينة، هشة من كبر، عاصبة الرأس بمنديل منمنم بترتر، مكحولة العينين تلوح فيها نظرة ثقيلة تشي بوطأة الكيف، وفي تضاعيف وجهها آثار جمال دابر واستهتار مقيم، تربعت على الكنبه أمام النارجيلة، وأومات إليه ليجلس إلى جانبها، فجلس وهو يسأل باسمًا:

- كيف حال الست جلييلة؟

فهتفت محتجة:

- قل عمتي...

- كيف حالك يا عمتي؟

- الحال معدن يا بن عبد الجواد،... (ثم بصوت مرتفع أجش)... بنت يا نظلة...

وبعد دقائق جاءت الخادم بكأسين مترعتين ووضعتهما على الخوان، فقالت جلييلة:

- اشرب، طالما قلتها لأبيك في الأيام الحلوة الماضية...

فتناول كمال الكأس، وهو يقول ضاحكًا:

- من المؤسف حقًا آتي جئت بعد فوات الأوان!

وهي تلكمه لكمة وسوست لها الأساور الذهبية التي تغطي ساعديها:

- يا عيب الشوم، أكنت تريد أن تعيث فسادًا حيث سجد أبوك؟!

ويظن أنه يطور البشرية، وأنا لست دونه ساجدة، فلأنتي ألخص فصلًا من كتاب تاريخ الفلسفة لفدنج، أطالب في أعماقي بالمساواة على الأقل بفؤاد جميل الحمزاوي وكيل نيابة الدرب الأحمر، ولكن كيف تطاق الحياة دون ذلك؟ مجانين نحن أم عقلاء أو مجرد أحياء؟ أف من كل شيء!

- وما قولك في العلماء الذين لا يشاركونك في حماسك للعلم؟

- لا ينبغي أن نفتر تواضع العلم بالعجز أو اليأس، العلم سحر البشرية ونورها ومرشدها ومعجزاتها، وهو دين المستقبل... والقصة؟

بدا رياض لأول مرة وهو يداري استيائه، فاستدرك الآخر كالمعتذر:

- أعني الفن عمومًا؟

فقال رياض قلوس متسائلًا في حماسة:

- أتستطيع أن تعيش في وحدة مطلقة؟ لا بد من النجوى، من العزاء، من المسرة، من الهداية، من النور، من الرحلة في أنحاء المعمورة والنفس هذا هو الفن...

وهنا قال الأستاذ عبد العزيز:

- خطر لي خاطر... أن نجتمع نحن وبعض الزملاء مرة كل شهر للحديث في شتى الفكر، على أن ينشر حديثنا بعنوان «محاورة شهر كذا»...

فقال رياض قلوس وهو يرمق كمال بنظرة ودية:

- إن حديثنا لن ينقطع، أو هذا ما أودّه، أنعد أنفسنا أصدقاء؟

فقال كمال بحماسة صادقة:

- بكل تأكيد، يجب أن نتقابل في كل فرصة...

شمل كمال إحساس بالسعادة لهذه «الصدافة الجديدة»، كان يشعر بأن جانبًا ساميًا من قلبه استيقظ بعد سبات عميق، فافتتح أكثر من قبل بخطورة الدور الذي تلعبه الصدافة في حياته، وبأنها عنصر حيوي لا غنى له عنه، أو يظن كالظالم المحترق في صحراء...

ثم مستدركة:

- ولكن أين أنت من أبيك؟ كان متزوجاً للمرة الثانية حين عرفته، تزوج مبكراً على عادة أهل زمان، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يرافقي زمناً كان أحلى الحياة، ثم رافق زبيدة ربنا يأخذ بيدها، ثم عشرات غيرنا ساعده الله، أما أنت فلا تزال أعزب، ولا تزور بيتي مع ذلك إلا كل ليلة جمعة، يا عيب الشوم، أين الرجلوة أين؟

أبوه الذي عرفه عن لسانها غير أبيه الذي عرفه بنفسه، بل غير أبيه الذي حدّثه عنه ياسين، رجل الغريزة، والحياة العارمة، لم تشغل هموم الفكر قلبه فأين هو منه؟ حتى ليلة الجمعة التي يزور فيها هذا البيت لا يصفو له «الحب» فيها إلا بالخمر، فلولا السكر لبدا له الجحور متجهماً باعثاً على الانهزام، وأول ليلة رمت به المقادير إلى هذا البيت ليلة لا تُنسى، رأى المرأة لأول مرة فدعته إلى مجالستها ريثما تفرغ له فتاة، وكما جرّه الحديث إلى ذكر اسمه بالكامل هتفت المرأة: أأنت ابن السيد أحمد عبد الجواد التاجر بالنحاسين؟ نعم أتعرفين أبي؟ يا ألف أهلاً وسهلاً... أتعرفين أبي... أعرفه أكثر مما تعرفه أنت... مازج عرقه عراقي... وزفت له أختك... كنت في أيامي كأم كلثوم في أيامك الكالحة... سل عني طوب الأرض، تشرفنا يا سني، اختر من بناتي من تعجبك وليس بين الخيئين حساب، هكذا فسق أول مرة في هذا البيت على حساب والده. وجعلت تنظر إلى وجهه طويلاً حتى انقبض قلبه، ولولا الأدب لأعلنت دهشتها، إذ أين هذا الرأس الغريب وذلك الأنف العجيب من الوجه البدرى المورّد؟ ثم طال الحديث كلّ مطال، فعرف عنها تاريخ أبيه السري، ميزاته وجلال أعماله ومغامراته وخفي صفاته، «وأنا من شدة الحيرة متردد أبداً بين وهج الغريزة ونسمة التصوف».

فقال كمال يحييها:

- لا تبالي يا عمتي، أنا مدرّس والمدرّس يحبّ الستر، ولا تنسي أني في العطلة أزورك كلّ أسبوع مرّات لا مرة، ألم أكن عندك أول أمس؟ إنّي أزورك كلّما...

«كلّما لجّت بي الحيرة، إنّ الحيرة تدفعني إليك قبل الشهوة».

- كلّما ماذا يا سيّد نينة؟

- كلّما فرغت من العمل...

- قل غير هذا الكلام. أفّ من زمانكم أفّ، كانت فلوسنا من الذهب وفلوسكم من الحديد والنحاس، وطربنا كان من لحم ودم وطربكم راديو، وكان رجالنا من صلب آدم ورجالكم من صلب حوّاء، عندك كلام يا خوجة البنات؟

وأخذت من النارجيلة نفساً ثم غنّت:

يا خوجة البنات علّمهم ضرب الآلات ونغمهم فضحك كمال، ومال نحوها فقبل خدّها قبله جمعت بين المودة والمداعبة، فهتفت:

- شاربك كالشوك، كان الله في عون عطية!

- إنّا تحبّ الأشواك...

- بهذه المناسبة كان عندي بالأمس ضابط النقطة على سنّ ورمح، ولا فخر، كافّة زبائني من سادة القوم، أم تظنّ أنّك تتصدّق عليّ بزيارتك؟

- يا ستّ جليّة، إنك جليّة...

- أحبك إذا سكرت، فإنّ السكر يذهب عنك وقار الخوجة ويردّك إلى شيء من أبيك، لكن خبّرني ألا تحبّ عطية؟... إنّا تحبّك!

هذه القلوب التي حجّرتها فظاظة الحياة كيف تحبّ؟ ولكن ماذا كان نصيبه من القلوب التي تجود بالحُبّ وتستطيعه؟ فإنّما أن تحبّه بنت صاحب المقلي فيعرض عن حبّها، وإنّما أن يحبّ عابدة فتعرض عن حبّه، فقاموس حياته لم يعرف للحبّ من معنى سوى الألم، ذلك الألم العجيب الذي يحرق النفس حتى تبصر على ضوء نيرانه المتقدّة عجائب من أسرار الحياة، ثم لا تخلّف وراءها إلاّ حطاماً، قال يعلّق على قولها متهمكياً:

- أحبك العافية...

- لم تعمل في المقدّر إلاّ منذ طلاقها!

- الحمد لله الذي لا يحمّد على مكروهه سواء...

- الحمد لله في جميع الأحوال.

وابتسم ابتسامة ذات معنى، فأدرّكت معناها وقالت كالمحتجّة:

والنحافة ما ارتضى أن يبتاعها بريال، فكيف كان هذا الحب؟ وكيف ظلت ذكره مصونة بالإجلال والتقديس رغم ازدرائه لكل شيء؟!

- الدنيا حرّ، أف... .

- إذا لطستنا الخمر استوى لدينا الحرّ والبرد... .

- لا تأكلني بعينيك، وارفع نظارتك!

مطلقة ذات بَين، تغطي كآبتها المعتمة بالعريضة، وتمتصّ الليالي النعمة أنوثتها وإنسانيتها دون مبالاة، يختلط في أنفاسها الوجد الكاذب بالمقت، وهي للاستعباد شرّ صورة، لذلك كانت الخمر نجاة من العذاب كما هي نجاة من الفكر!

وارتمت إلى جانبه ومدّت يدها البضة إلى الزجاجاة وأخذت تملأ الكأسين، هذه الزجاجاة تباع في هذا البيت بضعف ثمنها، كلّ شيء هنا غالٍ إلا المرأة، إلا الإنسان، ولولا الخمر ما أمكن ذلك المجلس، كي يغيب عن عين البشرية المحملقة في اشمزاز، غير أن حياتنا لا تخلو من مومسات من نوع آخر، منهم وزراء وكتاب!

وبحلول الكأس الثانية في جوفه لاحت بشائر النسيان والمسرّة. «هذه المرأة أشتهيها منذ زمن وحتى متى لا أدري، الشهوة سلطان مستبدّ أما الحب فشيء آخر، وكم يبدو في لباس عجيب إذا برئ من الشهوة، وإذا أتيح لي يوماً أن أجدها في كائن بشريّ عرفت الاستقرار المنشود، ولذلك فلن تزال الحياة تبدو لي عناصر يعوزها الانسجام، أنا أنشد «الزواج» في الحياتين العامة والخاصة، لا أدري أيها أصل الأخرى، ولكنّي متأكّد أنّي تعس رغم سلوكي في الحياة الذي ضمّن لي حظّي من مسرّات الفكر ولذات الجسد، كالقطار الذي ينطلق في قوّة ولكنّه لا يدري من أين ولا إلى أين. والشهوة حسنة طاغية سرعان ما يصرعها القرف، ويهتف القلب ناشداً في يأس اليم السعادة السرمديّة، عبثاً، لذلك فالشكوى لا تنقطع، والحياة خدعة كبرى، وينبغي أن نتجاوب مع حكمتها الخفية كي نتقبّل هذه الخدع راضين، فنكون كالممثل الذي يُعَمّي دوره الكاذب على المسرح، ولكنّه رغم ذلك يعبد فتّه».

- أتستكثر عليّ أن أنوّه بحمد الله؟. آه منك يا بن عبد الجواد، اسمع لا ابن لي ولا بنت، وقد شبت من الدنيا، وعند الله العفو.

من عجب أنّ حديث المرأة تتردّد فيه كثيراً هذه النغمة الموحية بالزهدي. وجعل يختلس إليها النظر وهو يتجرّع بقية كأسه. وكانت الخمر تأخذ في نفث سحرها معه من أول كأس. ووجد نفسه يتذكّر عهداً مضى أيام كان للكأس فرحة سواوية، ما أكثر الأفراح التي ولّت، في البدء كانت الشهوة ثورة وانتصاراً، ثم انقلبت مع الزمن فلسفة حمراء، ثم أخذ نشواتها الزمن والعادة، ولم تخل في أحيان كثيرة من عذاب التردّد بين السماء والأرض، ذلك قبل أن يسري الشك بين الأرض والسماء.

ودقّ الجرس. ودخلت عطية، بيضاء لدنة ممتلئة، لحذاثها أطيّط ولضحكتها رنين، فقبّلت يد المعلمة، ثم ألقت نظرة باسمه على الكأسين الفارغتين وهي تقول مداعبة كمال:

- ختني!

ومالت على أذن المعلمة فهمست قليلاً، ثم رمقت كمال بنظرة ضاحكة، وسارت إلى الحجرة إلى يمين مجلس المعلمة، فلكرته جلييلة قائلة:

- قم يا نور العين... .

تناول طربوشه ومضى إلى الحجرة، ولم تلبث نظلة أن لحقت به حاملة صينية عليها زجاجة وكأسان ومزة خفيفة، فقالت لها عطية:

- هاتي لنا رطلين من العجّاتي، أنا جوعانة!

خلع الجاكّة ومدّ ساقيه في ارتياح، ثم جلس يراقبها وهي تخلع حذاءها وفستانها، ثم وهي تسوي قميصها أمام المرأة وتسرح شعرها. الجسم الذي يحبه، الأبيض اللدن الممتلئ، ترى كيف كان جسم عايدة؟ كثيراً ما تبدو لذاكرته وكأنّها لم يكن لها جسم، وحتى ما يذكره من نحافتها وسمرتها ورشاقتها فلمّا تستقرّ في روحه كالمعاني المجردة، أمّا ما يلتصق عادة بالذاكرة من محاسن الأجساد كالصدور والسيقان والأرداف فلا يذكر البتّة أنّ حواسّه اتّجهت إلى شيء منها، واليوم لو عرضت له حسناء كلّ ميزاتها الرشاقة والسمرة

- مساء الخير...
فجاء الصوت الرقيق يقول:
- مساء الخير، أشكرك لأنك سمعت نصيحتي
ولبست معطفك...
فغلبه التأثر لرقتها، ذابت في حلقه كلمة أوشك أن
يجبها بها، ثم قال مدارياً ارتبأكه:
- خشيت أن تمطر السماء...
فرفعت رأسها إلى أعلى كأنها تنظر إلى السماء،
وقالت:
- ستمطر عاجلاً أو آجلاً، ليس في السماء نجم،
وقد ميّزتك بصعوبة عندما دخلت الحارة.
فاستجمع قواه المتلاطمة، وقال فيها يشبه التحذير:
- الجو بارد، وجو السلم خاصة شديد الرطوبة!
فقال الصغيرة بصراحة تعلّمتها على يديه:
- لا أشعر بالبرد في قربك!...
فلفحت وجهه حرارة منبثة من الداخل، ونمّ حاله
على أنّه سيعاود الخطأ على رغمه، وجعل يستعدي
إرادته ليتغلب على الرجفة السارية في بدنه، فسألته:
- ما لك لا تتكلّم؟
وأحسن بيدها على منكبه تضغطه برقة، فيما تمالك أن
طوّفها بذراعه، وقبّلها قبلة طويلة، ثمّ أمطرها قبلات
حتى سمع صوتها الرقيق يقول لاهثاً:
- لا أطيق البعد عنك...
فواصل عناقه متداوياً في حضنها، وهي تهمس في
أذنه:
- أتمنى لو أبقى هكذا إلى الأبد...
فشدّ عليها الوثاق قائلاً بصوت متهذج:
- يا للأسف!
فتباعد رأسها في الظلام قليلاً، وهي تتساءل:
- علام تأسف يا حبيبي؟
فقال بعد تردد:
- على الخطأ الذي نتردى فيه...
- أيّ خطأ بالله؟
تخلّص منها برقة، وراح يخلع معطفه، فطواه، ثمّ
همّ بأن يضعه على الدرازين، ولكنّه عدل عن فكرته
في اللحظة الأخيرة - لحظة هائلة - فثناه على ذراعه ثمّ

وتجرّع كأسه الثالثة دفعة واحدة حتى أغرقت عطية
في الضحك، وهي تحب السكر من صميم قلبها ولكنّه
يفعل بها الأفاعيل، فإذا لم يوقفها عند حدّها علا
صوتها فتشجّت ثمّ بكّت وتقائأت. ولعبت الخمر
برأسه فاهتزّ طرباً، ومدّ إليها بصره فانبسطت
أساريه. هي الآن امرأة فحسب لا مشكلة، وكأنّه لم
تعد ثمة مشكلة في الوجود، الوجود نفسه - أثقل
مشكلة في الحياة - لم يعد مشكلة، ولكن اشرب واغرق
في القُبَل...

- ما أطفك إذا ضحكت بلا سبب!
- إذا ضحكت بلا سبب فاعلمي أنّ الأسباب أجّل
من أن تُذكر...

١٧

عاد عبد المنعم إلى السكينة ملتقاً في معطفه، يحبك
من أن لآخر طاقته ليتقي بها برد الشتاء القارص،
وكان الظلام شاملاً رغم أنّ الساعة لم تجاوز السادسة
مساء، وما كاد يبلغ مدخل السلم حتى فتح باب الدور
الأوّل وتسلسل الشبح اللطيف الذي كان ينتظر. وخفق
قلبه وجعل يحملق في الظلام بعينين متقدتين، وتابع
شبهها وهو يرقى في السلم في خفة وحذر أن يحدث
صوتاً، فوجد نفسه موزّعاً بين رغبة تغريه بالاستسلام
وإرادة تحكّه على السيطرة على أعصابه التي تلوح
بالخيانة والانهيار. وذكر - الآن فقط! - أنّها واعدته
الليلة من قبل، وقد كان بوسعه أن يقدم موعد عودته
أو يؤخره فيتجنّب هذا اللقاء، ولكنّه نسي ذلك كلّهُ،
لشدّ ما ينسى! ولم يكن ثمة وقت للتدبّر والتذكّر،
فليترك هذا إلى حينه، عندما يخلو إلى نفسه في
حجرته، إلى تلك اللحظة التي ستشهده. امتنعوا
ظافراً أو منهزماً مغلوباً على أمره، وارتقى السلم في
أعقابها دون أن يعزم على أمر، ملقياً بنفسه في خضمّ
الامتحان، ولم يكن شيء لينسيه آلام صراعه الأبديّ.
وفوق البسطة تحيل إليه أنّ شبهها يضخم حتى ملأ
عليه المكان والزمان. وقال وهو يخفي قلقه ويضمّر
الصمود مهما كلّفه الأمر:

درسًا لك، احذري الظلام قد تكون فيه نهايتك، أنت صغيرة، فمن أين لك هذه الجراءة؟

تردد في الظلام انتحابها، ولكنه لم يرق قلبه، كان منتشياً بلذّة نصر قاسية:

- عي كلّ كلمة، ولا تغضبي، واذكري أنني لو كنت نذلًا ما ارتضيت أن أتركك قبل أن أقضي عليك، أستودعك الله...

ورقي في السلم وثبًا، انتهى من العذاب، ولن يكون طعمة لأنياب الندم، ولكن ليذكر قول أستاذه الشيخ عليّ المنوفي: إن مغالبة الشيطان لن تكون بتجاهل سنن الطبيعة. أجل ليذكر هذا. وخلع ملابسه على عجل وارتدى الجلباب، ثم قال لأخيه أحمد وهو يغادر الحجرة:

- أريد أن أدخل قليلاً إلى والدي في حجرة المكتب، فانتظر قليلاً من فضلك...

وفي طريقه إلى الحجرة رجا والده أن يتبعه، فرفعت خديجة رأسها إليه متسائلة:

- خير؟...

- سأحدث أبي أولاً، ثم يأتي دورك...

وتبعه إبراهيم شوكت صامتاً، كان الرجل قد ركب طاقم أسنانه الجديد، وعادته طمأنينته الخاملة بعد أن واجه الحياة بلا أسنان ستة أشهر كاملة. وجلسا جنباً إلى جنب والأب يقول:

- خير إن شاء الله!

فقال عبد المنعم دون تردد أو تهيد:

- أريد يا أبي أن أتزوج!

فحملق الرجل في وجهه، ثم قطب باسماً كأنه لم يفهم شيئاً، وهز رأسه في حيرة ثم قال:

- الزواج؟ كلّ شيء رهن بوقته، لماذا تحدّثني عن ذلك الآن؟

- أريد أن أتزوج الآن...

- الآن؟، ما زلت في الثامنة عشرة من عمرك، ألا تنتظر حتّى تأخذ شهادتك؟

- لا أستطيع...

وهنا فُتح الباب ودخلت خديجة، وهي تتساءل:

- ماذا يدور وراء ذلك الباب؟ هل توجد أسرار

ترجع إلى وراء خطوة. كانت أنفاسه تضطرب ولكن عزيمة اعترضت تيار استسلامه فقلبت كلّ شيء. وعادت يدها تتلمّس السبيل إلى عنقه فأمسك بها، وانتظر حتّى هدأت أنفاسه، ثم قال بهدوء:

- هذا خطأ كبير...

- أيّ خطأ؟. لست أفهم شيئاً...

صغيرة لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، أنت تعبت بها إشباعاً لرغبة لا ترحم، ولن يكون لهذا العيب من غاية، ليس إلّا عبثاً تجلب به غضب الله ومقته.

- يجب أن تفهمي، أنستطيع أن نعلن ما نفعل؟

- نعلنه؟

- انظري كيف تستنكرين! ولكن لماذا لا نعلنه إن لم يكن عبثاً مزرياً؟

وشعر بيدها تنصيده، فارتقت إلى أولى درجات السلم التالية، وكان مطمئناً إلى أنّه جاز منطقة الخطر بسلام:

- اعترفي بأننا مخطئان، فلا ينبغي أن نصرّ على الخطأ...

- عجيب أن أسمع منك هذا الكلام...

- لا عجب، إنّ ضميري لم يعد يحتمل الخطيئة، إنّها تعذبني وتفسد عليّ صلاتي.

«صامتة! أذيتها فليساعني الله، يا للآلم، ولكيّ لن أترجع، أحمد الله على أنّ الخطأ لم يدفعك إلى ما هو شرّ منه...»

- يجب أن يكون ما حصل درساً لنا فلا نعود إلى مثله، أنت صغيرة، وقد أخطأت، فلا تجري مرة أخرى وراء الخطأ.

وقالت في نبرات باكية:

- لم أخطئ... أتزوي هجري؟. ماذا تقصد؟

وكان قد نمالكت قوّته فقال:

- عودي إلى بيتك، لا تفعلي شيئاً ترين وجوب التسرّ عليه، لا تقابلي أحداً في الظلام...

فقال الصوت متهدّجاً:

- أتهجرني؟. أنسيت كلامك عن حبنا؟

- كلام من لا عقل له، أنت مخطئة، ليكن هذا

- أبداً، صدّقي، اختاري لي بنفسك...
 - وما الداعي إلى السرعة إذن؟ دعني أختار لك،
 أعطني مهلة، إنَّها مسألة عام أو عامين!
 فعلاً صوته وهو يقول:
 - أنا لا أهزل، دعيني فهو يفهمني خيراً منك!
 فسأله أبوه بهدوء:
 - ما وجه السرعة؟
 فقال عبد المنعم وهو يغضّ بصره:
 - لا أستطيع البقاء دون زواج.
 فتساءلت خديجة:
 - وآلاف الشبان أمثالك كيف يستطيعون؟
 فقال الشاب مخاطباً أباه:
 - لا أقبل أن أفعل ما يفعله الآخرون!
 فتفكر إبراهيم قليلاً، ثم قال حسناً للموقف:
 - يكفي هذا الآن، وسنعود إلى الموضوع في فرصة
 أخرى...

وهمت خديجة بالكلام ولكن زوجها منعها، وأخذها
 من يدها فغادرا الحجرة إلى مجلسهما في الصالة.
 وتحادث الزوجان مقلّبين الأمر على جميع وجوهه، وبعد
 أخذ وردّ طويلين مال إبراهيم إلى تأييد طلب ابنه،
 وتولّى بنفسه إقناع زوجته، حتّى سلّمت بالمبدأ، وعند
 ذاك قال إبراهيم:
 - عندنا نعيمة بنت أخي، فلن نتعب في البحث
 عن عروس...

فقال خديجة باستسلام:
 - أنا التي أقنعتك بالنزول عن نصيبك من ميراث
 المرحوم إكراماً لعائشة، فلا اعتراض لي على اختيار
 نعيمة زوجة لابني، إنّ سعادة عائشة تهمني جدّاً كما
 تعلم، ولكنّي أخاف تفكيرها، وأحسب ألف حساب
 للشذوذ الذي طرأ عليها، ألم نلمح أمامها مرّات عن
 رغبتنا في تزويج نعيمة من عبد المنعم؟ ومع ذلك خيّل
 إليّ أنّها كانت ترحبّ بابن جميل الحمزاوي عندما قيل
 إنّ والده طلب له يدها...

- هذا تاريخ قديم، مضى عليه عام أو أكثر،
 والحمد لله أنّه لم يتمّ، فما كان يشرفني أن يأخذ بنت
 أخي شاب مثله مهما تكن وظيفته، الأصل عندي كلّ

تحلّ لأبيك وتحرم عليّ؟
 فقطّب عبد المنعم مترفّزاً، على حين راح إبراهيم
 يقول وهو لا يكاد يفقه معنى ما يقول:
 - عبد المنعم يريد أن يتزوّج...
 فتفحّصته خديجة كأنّها تخاف عليه الجنون،
 وهتفت:
 - يتزوّج؟ ماذا أسمع؟ هل قرّرت أن تترك
 الجامعة؟

فقال عبد المنعم بصوت قويّ غاضب:
 - قلت إنّني أريد أن أتزوّج لا أن أهرب من
 المدرسة، سأواصل الدراسة متزوّجاً، هذا كلّ ما
 هنالك...

فقال خديجة وهي تردّد عينها بينه وبين أبيه:
 - عبد المنعم أنّت جاداً حقّاً؟
 فصاح:
 - كلّ الجدّ...

فضربت المرأة كفّاً على كفّ وقالت:
 - أصابتك عين، ماذا حصل لعقلك يا ابني؟
 فهض عبد المنعم غاضباً وهو يقول:
 - ما الذي جاء بك؟ كنت أريد أن أختلي بأبي أولاً
 ولكنك لا صبر لك، أصغيا إليّ، أريد أن أتزوّج،
 أسامي عامان حتّى أنتهي من دراستي، وأنت يا أبي
 تستطيع أن تعولني هذين العامين، لولا تأكّدي من
 هذا، ما عرضت طلبتي...

فجعلت خديجة تقول:
 - يا لطف الله! أكلوا عقله!
 - من هم الذين أكلوا عقلي؟
 - الله بهم أعلم... منهم الله، أنت أدري بهم،
 وسنعرفهم عمّا قليل...
 فخاطب الشاب أباه قائلاً:

- لا تصغ إليّ، إنّني لا أدري حتّى الساعة من التي
 ستكون من نصيبي، اختاروها بأنفسكم، أريد زوجة
 لائقة، أيّ زوجة!
 فسألته داهشة:

- أتعني أنّه لا توجد واحدة بالذات هي السبب في
 هذه البلوى؟

شيء، نعيمة عندنا على العين والرأس...
فقلت خديجة وهي تنتهد:

- على العين والرأس، ترى ماذا يقول أبي عن هذا
اللعب إذا علم به؟
فقال إبراهيم:

- سيرحب به دون شك، كل شيء يبدو كالعلم،
ولكن لن أندم، فإني موقن بأن تجاهل رغبة عبد المنعم
خطأ لا يغتفر، ما دام في الإمكان تحقيقها...

١٨

لم يطرأ على البيت القديم في بين القصرين أيّ تغيير
يذكر، إلا أن الجيران بما فيهم حسين الحلاق ودرويش
الفؤال والفوليّ اللبان وأبو سريع صاحب المقليّ ويومي
الشرباتلي، كل أولئك قد علموا بطريقة أو بأخرى أنّ
اليوم تزوّج حفيذة السيّد أحمد من ابن عمّها -
وخالتها - عبد المنعم. حافظ السيّد أحمد على تقاليده
القديمة فمضى اليوم كغيره من الأيام، فاقصر على
دعوة الأهل، وغاية الأمر أن أعدت العدة لوليمة
عشاء. وكان الوقت في مطلع الصيف، وقد اجتمعوا
جميعاً في حجرة الاستقبال، السيّد أحمد عبد الجواد
وأمنية وخديجة وإبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد
وياسين وزنوبة ورضوان وكرمة، ما عدا نعيمة التي
كانت تأخذ زيتنها في الدور الأعلى بمعاونة عائشة.
ولعل السيّد قد شعر بأن وجوده بينهم يلقي على
الاجتماع العائليّ ظلماً من الوقار الذي لا تستسيغه
المناسبة السعيدة، فانتقل عقب الاستقبال بقليل إلى
حجرتة، حيث لبث ينتظر حضور المأذون. وكان
السيّد قد صفى تجارته وباع الدكان مؤثراً الراحة
لشيخوخته، لا لأنه بلغ الخامسة والستين فحسب،
ولكن لأن استعفاء جميل الحمزاوي اضطرّه إلى بذل
نشاط مضاعف لم يعد يحتمله، فقرر إنهاء حياته
العملية، قائماً بما تخلف له من تصفية دكانه وما أذخر
من مال من قبل قدر أن يكفيه بقية العمر. وكان حدثاً
هاثماً في حياة الأسرة، جعل كمال يتساءل عن حقيقة
الدور الذي كان يلعبه جميل الحمزاوي في حياته عامة

وحياة أبيه خاصة، ولبت السيّد في حجرتة منفرداً،
يتأمل أحداث اليوم في صمت، كأنما لا يصدق حقاً أنّ
العريس هو عبد المنعم حفيده. ويوم فاتحه إبراهيم
شوكت في الأمر عجب، واستنكر، كيف تسمح لابنك
بأن يحدّثك بهذه الصراحة وأن يملئ إرادته عليك،
إنكم آباء خلقتكم لإفساد الأجيال، ولو في غير الظرف
الذي يدرك دقته لقال لا، ولكن كانت هناك عائشة،
فحيال تعاستها تحلّى عن عناده التقليديّ كلّ، ولم
يطلق - خاصة بعد ما ثار حول صمت فؤاد الحمزاوي
من تعليقات - أن يخيّب لها رجاء، وإذا كان زواج
نعيمة يخفف من لوعة قلبها فأهلاً به وسهلاً. هكذا
دفعه الحرج إلى أن يقول نعم، وأن يسمح للصبيان أن
يملوا إرادتهم على الكبار وأن يتزوجوا قبل أن يتجاوزوا
مرحلة التلمذة.

ودعا عبد المنعم إلى مقابلته، وطلب إليه أن يتعهد
بإتمام دراسته، فتكلّم عبد المنعم كلاماً جميلاً مريحاً
مستشهداً في أثناء ذلك بالقرآن والحديث، فترك في
نفس جدّه آثاراً متباينة من الإعجاب والسخرية،
هكذا يتزوج التلميذ اليوم على حين أنّ كمال لم يفكر
في الزواج بعد، وعلى حين رفض هو يومًا أن تعلن
خطبة المرحوم فهمي - مجرد إعلان خطبة - الذي مات
قبل أن ينجي ثمرة شبابه الغض، وهكذا يبدو أنّ العالم
قد انقلب على رأسه، وأنّ دنيا عجيبة أخرى تشبّ،
وأنا غرباء بين أهلينا، اليوم يتزوج التلاميذ ولا ندري
ماذا يصنعون غداً.

وفي حجرة الاستقبال كانت خديجة تقول من ضمن
حديث طويل:

- لذلك أخلينا الدور الثاني من سكّانه، وسيستقبل
الليلة العروسين وهو على أحسن حال.

فقال لها ياسين بلهجة غادرة:

- عندك كافّة المواهب التي تجعل منك «حمّة» لا
نظير لها، ولكنك لن تستطيعي استغلال مواهبك الفذة
مع هذه العروس!

فأدركت ما يرمي إليه، ولكنّها تجاهلته قائلة:

- العروس ابنتي وابنة أختي...

وقالت زنوبة تلطف من تعريض ياسين:

منذ تسع سنوات تحلّت بثوب جميل وعقست شعرها.
وكانت ترقب انتهائها التي تبدّت كقبضة من نور بعينين
حالمتين، فإذا غلبها الدمع أخفت عنها وجهها الشاحب
الذابل، وقد لمحت أمتها مرة وهي تبكي، فنظرت
إليها معاتبة وهي تقول:

- لا يصحّ أن تترك نعمة البيت وفي قلبها حزن!
فانتحبت عائشة قائلة:
- ألا ترينها وحيدة في هذا اليوم لا أب ولا أخ؟
فقال أمينة:

- البركة في أمها، ربنا يخليها لها، وهي ذاهبة إلى
خالتها وعمّها، ولها بعد ذلك الله خالق الملك كله...
فجففت عائشة عينيها وهي تقول:
- ذكريات الأموات الأعزاء تخمرني من طلعة
الصبح، ووجوههم تلوح لي، ثم إنني بعد ذهابها
سأبقى وحيدة...

فقال أمينة في عتاب:
- لست وحيدة...

وكانت نعمة تربّت خذّ أمها وتقول:
- كيف أستطيع أن أغيب عنك يا ماما؟
فتجيبها عائشة بحنان وهي تبسم:
- سيعلمك بيت زوجك كيف تستطيعين!
فقال نعمة بقلق:

- ستروريني كلّ يوم، كنت تتحاشين الاقتراب من
السكينة، ولكن يجب أن تتخلّي عن هذه العادة منذ
اليوم.

- طبعًا، هل تشكين في ذلك؟
وإذا بكالم يقبل عليهما قائلاً:
- استعدادًا جاء المأذون...

وعلقت عيناه بنعمة في إعجاب. يا للجمال،
والرقة، والشفافية، كيف يكون للحياة دور في هذا
الكائن اللطيف؟

ولما عرف أنّ الكتاب قد كُتب، تبودلت التهانى،
وإذا بزغوردة تقتحم على البيت وقاره وتلعلع في جوه
الصامت، فأنجّمت الرعوس في دهش إلى حيث وقفت
أم حنفي في نهاية الصالة. ولما جاء وقت الوليمة وتوارد
المدعوون إلى المائدة، انقبض صدر عائشة وتركز

- خديجة هانم سيّدة كاملة!

فشكرتها خديجة، وكانت تقابل توددها بالشكر
والاحترام إكرامًا لياسين. على الرغم من احتقارها
الباطني لها، وكانت كريمة تتألّق في سنّها العاشرة ممّا
جعل ياسين ينوّه بأنوثتها المنتظرة! أمّا عبد المنعم
فراح يحدث جدّته أمينة المعجبة بتديّنه، وكانت تقطع
حديثه بالدعاء له. وسأل كمال أحمد ممّا زحًا:

- وأنت تتزوّج في العام المقبل؟
فقال أحمد ضاحكًا:

- إلّا إذا اتّبع ستّتك يا خالي!
وكانت زُوبة تتابع حديثها، فقالت موجهة الخطاب
إلى كمال:

- لو سمح لي سيّ كمال فإنّي أعِد بأن أزوّجه في
أيّام!

فقال لها ياسين وهو يشير إلى نفسه:

- إنّي مستعدّ لأن أسمح لك عن نفسي!

فقال وهي تهزّ رأسها تهنّئًا:

- لقد تزوّجت بما فيه الكفاية، وأخذت نصيبك
ونصيب أخيك...

وانتهت أمينة إلى موضوع الحديث، فقالت
لزُوبة:

- إذا زوّجت كمال، فسأحاول أن أزغرد لأوّل مرّة
في حياتي!

وتخيّل كمال أمّه وهي تزغرد فضحك، ثمّ تخيّل
نفسه في مجلس عبد المنعم ينتظر المأذون فوجم. الزواج
يهيّج دوامة في أعماقه كما يهيّج الشتاء الربو عند
المريض، وهو يرفضه عند كلّ مناسبة، لكنّه لا
يستطيع أن يتجاهله، وهو خالي القلب ولكنّه يضيق
بخلوّه كما كان يضيق قديمًا بامتلأته، واليوم إذا أراد
الزواج فليس أمامه إلّا الطريق التقليديّ الذي يبدأ
بالخطابة، وينتهي بالأسرة والأطفال والاندماج في
ميكانيزم الحياة، فلا يكاد يجد المولع بالتأمّل موضعًا
للتأمّل، وسوف يرى الزواج دائمًا أبدًا في مركز عجيب
بين الحنين من ناحية والاشمئزاز من ناحية أخرى، أمّا
في نهاية العمر فلن يجد إلّا الوحدة والكتابة...

السعيدة حقًا في ذلك اليوم كانت عائشة، لأوّل مرّة

تفكيرها في الفراق الوشيك، فلم تنفتح نفسها للطعام، ثم جاءت أم حنفي فأبلغت أن الشيخ متوًّى عبد الصمد جالس على الأرض في الحوش، وأنه طلب عشاءه خاصة من اللحوم، فضحك السيد وأمر بأن تُهيأ له صينية وتُحمل إليه. وما لبث أن ترامى إليهم صوته صاعداً من الحوش وهو يدعو بطول العمر لحبيبه «ابن عبد الجواد» ويتساءل في الوقت نفسه عن أسماء أبنائه وأحفاده ليدعو لهم، فقال السيد بأسماً:

- يا للخسارة!... نسي الشيخ متوًّى أسماءكم، سامح الله الشيخوخة...

فقال إبراهيم شوكت:

- إنه في المائة من عمره، أليس كذلك؟

فاجاب أحمد عبد الجواد بالإيجاب، وعند ذلك تعالى صوت الشيخ مرة أخرى وهو يصيح:

- باسم الحسين الشهيد أكثروا من اللحم!

فضحك السيد قائلاً:

- سرّ ولايته قاصر اليوم على اللحوم!

وحين ساعة الوداع سبق كمال إلى الحوش ليتجنب ذلك المنظر، ومع أنه لم يزد على انتقال يسير إلى السكرية إلا أنه كان ذا وقع شديد كالصداع في قلبي الأم وابنتها. والواقع أن كمال كان ينظر إلى هذا الزواج بعين ملوّهة الشك، بالنظر إلى جدارة نعيمة للحياة الزوجية. وفي الحوش رأى الشيخ متوًّى عبد الصمد جالساً على الأرض تحت المصباح الكهربائي المثبت في جدار البيت ليضيء المكان، ماداً ساقيه، مرتدياً جلباباً أبيض باهتاً وطاقيّة بيضاء، خالغاً نعليه مستنداً إلى الجدار كالنائم ليريح جوفه ممّا امتلأ به من طعام، ورأى بين ساقيه ماء يسيل، فأدرك من النظرة الأولى أن الشيخ يبول وهو لا يشعر، وكانت أنفاسه ترتدّد فتسمع كالضحج. حذبه كمال بنظرة جمعت بين التقرّز والرثاء، ثم خطر له خاطر فابتسم على رغمه، وقال لنفسه:

- لعله كان طفلاً مدلّلاً عام ١٨٣٠ م.

السكرية، طوال الأعوام التسعة المنقضية لم تغادر البيت القديم إلا لزيارة القرافة، فيها عدا زيارات معدودات لقصر الشوق حين وفاة ابني ياسين الصغيرين. وقفت قليلاً عند مدخل السكرية تلقي على المكان نظرة شاملة، حتى غطى الدمع ناظرها. على الأرض أمام مدخل البيت التي أشبعها أقدام عثمان ومحمد جرياً ولعباً، والحوش الذي ازدان يوماً بحفل عرسها البهيج، والمنظرة التي كان يجلس فيها خليل يدخن غليون ويلاعب الطاولة والدومينو، ذلك شذا الماضي العطر المشبع بالحنان والحبّ المفقودين، وهي سعيدة، سعادة سارت مسير الأمثال، حتى قيل عنها الضاحكة المترنمة التي لا شغل لها إلا مضاحكة المرأة ومصاحبة الزينة، والزوج ينادي والأطفال يشون، تلك الأيام الماضية. وجففت عينها حتى لا تلقى العروس باكية. جففت عينين ما تزالان زرقاوين وإن تساقطت أهدابها وذبلت جفونها. ووجدت الشقة قد جُددت مرافقها وظلّيت جدرانها فبدت ثغراً بأسماً في جهاز العروس الذي أنفق عليه بسخاء. واستقبلتها نعيمة في فستان أبيض هفهاف، وقد أرسلت شعرها الذهبي حتى مسّت أهدابه باطن الساقين، رائقة عذبة وضيفة ينبعث من أردائها عرف ساحر، فتعانقتا عناقاً طويلاً حاراً، حتى قال عبد المنعم، وكان ينتظر دوره في السلام في روب جنزاريّ شمل به جلبابه الحريريّ:

- كفاية، أقلّ سلام يكفي لهذا الفراق الوهمي!

ثم عانق خالته، ومضى بها إلى مقعد وثير فأجلسها وهو يقول:

- كنّا في سيرتك يا خالتي، فقد قرّ رأينا على أن ندعوك للإقامة معنا. ١٩٠٠

فابتسمت عائشة قائلة:

- أمّا هذا فلا، سأزورك كلّ يوم فتكون فرصة للفسحة، ما أحوجني إلى الحركة!

فقال عبد المنعم بصراحته المعهودة:

- نعوّمة قالت لي إنك لا تحتملين المكوث هنا خشية

أن تطاردك الذكريات، إن الذكريات الخزينة لا تطارد

المؤمن، وذلك أمر الله وقد مضى منذ عهد بعيد،

ونحن أولادك فقد عوّضك الله!

رضوان وكرامة، تدارك نفسك بالتي هي أحسن! .
وسأله أحمد:

- بدأت العطلة المدرسية يا خالي؟
فأجاب كمال وهو ينزع طربوشه ويرنو إلى العروس الجميلة:

- لم تبقى إلا فترة يسيرة للمراقبة والتصحيح في
الابتدائية!

وغابت نعيمة لتعود مرة أخرى بصينية فضية حافلة
بشقي أنواع الحلوى، مختلفة الألوان والطعوم، فمضت
فترة لم يسمع خلالها إلا التمتط والمصمص، ثم راح
إبراهيم يحكي ذكريات فرحه، الحفل، والمغني،
والعائلة. وتابته عائشة بوجه باسم وقلب محزون،
وتابعه كمال بشغف إذ كان يعيد عليه صورًا ما زال
يذكر بعضها ويودّ لو يعرف ما فاتته منها. قال إبراهيم
ضاحكًا:

- السيد أحمد كان كما هو اليوم أو أشدّ، ولكنّ أمي
رحمها الله قالت بحزم: ليفعل السيد ما يشاء في بيته،
أما عندنا فنحن نفرح كما نشاء، وقد كان. وجاء
السيد يوم الفرح ومعه أصحابه مساهم الله بالخير
جميعًا، أذكر منهم السيد محمد عفت جدّ رضوان،
فجلسوا جميعًا في المنطرة بعيدًا عن الزياطة.

وقالت خديجة:

- أحييت الليلة جلييلة أشهر عائلة في عصرها...
وابتسم قلب كمال، وذكر البدرونة العجوز التي ما
تزال تنوّه بعهد أبيه...!

وقال إبراهيم مسترقًا النظر إلى عائشة:

- وكان لنا عائلة خصوصية لبيتنا، ولكنّ صوتها كان
أجل من العائلة المحترفة، كان يذكّرنا بصوت منيرة
المهدية في عزّها!

فتورّد وجه عائشة، وقالت بهدوء:

- سكت صوتها منذ عهد بعيد، حتّى نسيت
الغناء...

فقال كمال:

- نعيمة تغني كذلك، ألم تسمعها؟

فقال إبراهيم:

- سمعت عنها ولكنّي لم أسمعها بعد، الحقّ أنا

هذا الشاب طيّب صريح ولكنّه لا يبالي أين يقع
كلامه من القلوب الجريحة.

- طبعًا يا عبد المنعم، ولكنّي مرتاحة في بيتي، هذا
أفضل...

وإذا بخديجة وإبراهيم وأحمد يدخلون،
فيصافحونها، ثمّ تقول خديجة لعائشة:

- لو عرفت أنّ هذا الذي يعيدك إلى زيارتنا
لزوّجتهما قبل البلوغ!

فضحكت عائشة، وقالت تذكّر خديجة بالماضي
البعيد:

- المطبخ واحد؟ أم تطالب العروس بالاستقلال
من حماتها؟

فضحكت خديجة وإبراهيم معًا، وقالت خديجة
بلهجة لم تخلّ من معنى:

- العروس كأنّها لا تعنى بالسفاسف!

وقال إبراهيم ليفسر لابنيه ما غمض من تلميح
عائشة:

- بدأت المعارك بين أمكنا وأمّي بسبب مشكلة
المطبخ الذي كانت أمّي تستقلّ به، ومطالبة أمكنا
بالاستقلال المطبخي...

فقال العريس متعجبًا:

- كنت تتعاركن يا نينة بسبب المطبخ!...

فقال أحمد ضاحكًا:

- وهل من سبب للمعارك التي تدور بين الأمم إلا
هذا المطبخ؟!

فقال إبراهيم في تهكم:

- أمكنا قوية كالإنجلترا، أما أمّي فرحمة الله
عليها...

وجاء كمال، كان يرتدي بدلة بيضاء أنيقة، أما
وجهه فيتكوّن من الطاقم المألوف المركّب من جبينه
البارز وأنفه العظيم ونقارته الذهبية وشاربه المربع
الغليظ، وكان يحمل بيده لفّة كبيرة بشرت بهديّة
ممتازة، فقالت خديجة باسمه وهي تتفحص الهدية:

- حذار يا أخي، إذا لم تدارك نفسك بالزواج
فستظلّ تحيى بالهدايا دون أن يردّ لك الجميل، الأسرة
كلّها اليوم موشكة على الزواج، هذا أحد، وهناك

عرفناها شيخة لا عامة! وبالأمر قلت لها: زوجك شيخ المؤمنين، ولكن ينبغي أن تؤجلي الصلاة والعبادة إلى حين!

وضحكوا جميعاً، وقال أحمد مخاطباً أخاه:

- لا ينقص عروسك إلا أن تضمها إلى شعبة الشيخ عليّ المنوفي معك.

فقال العريس:

- إن شيعنا أول من نصحني بالزواج...

فقال أحمد مخاطباً أخاه:

- لعل الإخوان يعتبرون الزواج مادة من دستورهم السياسي!

والتفت إبراهيم إلى كمال قائلاً:

- أما أنت فكنت - أقصد أيام دخلتي - صغيراً، وكان شعرك غزيراً لا كما هو اليوم، وكنت تتهمنا بسرقة أختيك فلم تغفر لنا ذلك أبداً...

«كنت ميداناً خالياً لم تبدأ به المعارك بعد، يتحدثون عن سعادة الزواج، لو يعرفون ما يحدث به الأزواج الشاكون؟ نعمة أعز عليّ من أن يملأ مخلوق، أي شيء لا ينكشف عن خدعة في هذه الحياة؟».

فقال خديجة معلقة على قول زوجها:

- كنا نظن ذلك حباً لنا، ولكن اتضح مع الأيام أنه ليس إلا عداوة للزواج نشأت معه منذ الصغرى.

وضحك كمال كما ضحكوا جميعاً. إنه يحب خديجة، ويزيد من حبه علمه بحبها الشديد له، أما تعصب العريس فشد ما يزعجه، ولكنه من ناحية أخرى يحب

أحمد ويعجب به، وهو نافر من الزواج ولكن يطيب له أن تذكره خديجة به في كل مناسبة، وكان قلبه شديد

التأثر بجو الزواج المحيط به، فانشق قلبه وحواسه، ووجد حينئذ وإن يكن بلا هدف، ثم تساءل كأنما

يتساءل لأول مرة: ماذا يعني من الزواج؟... حياة الفكر كما كان يزعم قديماً؟. إنني أشك اليوم في

الفكر والمفكر معاً، أهو الخوف، أم الانتقام، أم الرغبة في الألم، أم رد الفعل الصادر من الحب

القديم؟. في حياتي مسوخ لأي من هذه الأسباب!

وسأل إبراهيم شوكت كمال:

- أتدري لماذا أسف على عزوبتك؟

- نعم؟...

- إنني أعتقد أنك زوج مثالي إذا تزوجت، فأنت رجل بيت بطبعك، منظم، مستقيم، موظف محترم، ولا شك أنه توجد فتاة في مكان ما من الأرض تستحقك، وأنت مضيع عليها حظها!

حتى البغال أحياناً تنطق بالحكم، فتاة في مكان ما من الأرض، ولكن أين؟ أما عن اتهمته بالاستقامة فما هو إلا كافر فاسق سكير منافق! فتاة في مكان ما من الأرض، فلعله غير بيت جليلة بعطفة الجوهري، وهذه الآلام التي تتطاحن في قلبه ما علتهها؟. والخيرة التي لا مهرب منها إلا بالخمر والشهوات!، ويقولون تزوج حتى تنجب فتخلد، وشد ما طمع إلى الخلود في شتى أشكاله وألوانه، فهل يركن يائساً في النهاية إلى هذه الوسيلة الفطرية المبتدلة؟ وثمة أمل أن يجيء الموت بلا ألم يشوه راحته الأبدية، كم بدا الموت خفيفاً

لا معنى له؛ ولكنه - بعد أن فقدت الحياة كل معانيها - يبدو اللذة الحقيقية في الحياة، ما أعجب العاكفين على العظم في معاملهم، ما أعجب الزعماء الذين يلقون بأنفسهم بالمهالك في سبيل الدستور، أما الذين يدورون حول أنفسهم في حيرة وعذاب فالرحمة لهم!

وردد بصره بين أحمد وعبد المنعم، في إعجاب مقرون بالغبطة، إن الجيل الجديد يشق سبيله العسير إلى هدف بين دون شك أو حيرة، ترى ما سرّ دائي الويل؟!

قال أحمد:

- سأدعو العروسين والدي وخالتي إلى لوج في الريحاني الخميس القادم.

فتساءلت خديجة:

- الريحاني؟

فقال لها إبراهيم مفسراً:

- كشكش بك!

فضحكت خديجة وقالت:

- كاد ياسين يطرد من بيتنا وهو عريس بسبب أخذه أم رضوان ليلة إلى كشكش!

فقال أحمد باستهانة:

- كان زمان وجبر، جذي الآن لا يمانع في ذهاب

- جمعية دينية تهدف إلى إحياء الإسلام علمًا وعملًا،
ألم تسمع بشعبها التي بدأت تتكون في الأحياء؟
- غير الشبان المسلمين؟

- نعم...

- وما الفرق؟

فأجاب وهو يشير إلى عبد المنعم شوكت:

- سَلِّ الأَخ...

فقال عبد المنعم بصوته القوي:

- لسنا جمعية للتعليم والتهديب فحسب، ولكننا
نحاول فهم الإسلام كما خلقه الله، دينًا ودنيا وشرعة
ونظام حكم...

- أهذا كلام يقال في القرن العشرين؟...

فقال الصوت القوي:

- وفي القرن العشرين بعد المائة...

- احترنا يا هوه بين الديمقراطية والفاشية
والشيوعية، هذا خازوق جديد!
فقال أحمد ضاحكًا:

- لكنّه خازوق ربّاني!

فعلت ضجّة ضحك، إلّا أنّ عبد المنعم حدّجه
بنظرة غاضبة، وكأنّ رضوان ياسين ساءه التعبير،
فقال:

- خازوق تعبير غير موقّق...

وعاد الطالب يسأل عبد المنعم:

- وهل ترجّون الناس إذا خالفوكم؟

- إنّ الشبان يتهذّبهم زيغ في العقيدة، وانحلال في
الخلق، وليس الرجم بأشدّ ما يستحقّونه، ولكننا لا
نرجم، وإنّما بالموعظة الحسنة والمشال الطيّب نهدي
ونرشّد، وآية ذلك أنّ بيتنا يضمّ، أخًا مَن يستحقّون
الرجم، وها هو يرح أمامكم، ويتطاول على خالقه
سبحانه!

فضحك أحمد، وقال حلمي عزّت غاطبًا إيّاه:

- إذا أنست من أخيك خطرًا، فإنّي أدعوك للإقامة
معي في الدرب الأحمر...

- آنت مثله؟

- كلًّا، ولكننا معشر الوفديين قوم متسامحون،

المستشار الأوّل لزعيمنّا قبّطي، هكّذا نحن...

جَدّتي إلى كشكش بك!

فقال خديجة:

- خذ العروسين وأباك، أمّا أنا فكفاية عليّ
الراديو...

وقالت عائشة:

- وكفاية عليّ أنا بيتكم...

وراحت خديجة تقصّ قصّة ياسين وكشكش بك
حتّى حانت من كمال نظرة إلى ساعته فتذكّر موعد
رياض قلّس، فنهض مستأذّنًا في الانصراف.

٢٠

- أتستطيع أن تستمتع بجمال الطبيعة حقًا بالرغم
من أنّ الامتحان لم يبق عليه إلّا أيام؟

كان السائل طالبًا، والمسئول طالبًا كذلك، في
جماعة من الطلاب افترشت العشب على هيئة نصف
دائرة فوق هضبة خضراء في أعلاها كشك خشبيّ
احتلّه طلاب آخرون، وعلى مرمى البصر تراءت
جماعات النخيل وحيضان الأزهار تتخلّلها مماشي
الفسيفساء، قال الطالب المسئول:

- كما يستمتع عبد المنعم شوكت بالحياة الزوجيّة،
رغم اقتراب الامتحان.

كان عبد المنعم شوكت جالسًا في محيط نصف
الدائرة، وكذلك أحمد شوكت، فقال عبد المنعم:

- الزواج بخلاف ما تظنّون، يهيئ للطلاب أحسن
فرصة للنجاح.

فقال حلمي عزّت، وكان يجلس لصق رضوان
ياسين في الطرف الآخر من نصف الدائرة:

- لهذا إذا كان الزوج من الإخوان المسلمين!

وضحك رضوان عن ثغره اللؤلؤيّ، رغم ما أثاره
الحديث في نفسه من غمّ، أجل إنّ سيرة الزواج تثير
قلقه، فلا يدري إن كان يقدم يومًا على هذه المغامرة
أم لا، مغامرة خفيفة بقدر ما هي ضروريّة، ولكن ما
أبعدها عن روحه وجسده! وتساءل طالب:

- وما الإخوان المسلمون؟

فأجابه حلمي عزّت:

وعاد الطالب الأول يقول:

- كيف تدعون إلى هذا الهراء في نفس الشهر الذي ألغيت فيه الامتيازات الأجنبية؟

فقال عبد المنعم متسائلاً:

- أنبطل ديننا إكراماً للأجانب؟

وإذا برضوان ياسين يقول وكأنما كان في وادٍ آخر:

- ألغيت الامتيازات، فدع الذين انتقدوا المعاهدة يتكلمون...

فقال حلمي عزت:

- هؤلاء النقاد غير مخلصين، إنها الكراهية والحسد،

إن الاستقلال الحقيقي الكامل لا يؤخذ إلا بالحرب؛

فكيف يطمعون في أن ننال بالكلام أكثر مما نلنا؟

فجاء صوت يقول في ضجر:

- دعونا نسأل عن المستقبل...

- المستقبل لا يُبحث في شهر مايو والامتحان على

الأبواب، أريحونا... لن أعود إلى الكلية بعد اليوم

حتى يتسع لي الوقت للمذاكرة...

- مهلاً، إن الوظائف لا تنتظرننا، ما مستقبل

الحقوق أو الآداب؟ التسخُّع أو الوظائف الكتابية،

تسألوا عن المستقبل إذا شئتم...

- أما وقد ألغيت الامتيازات فستفتح الأبواب!

- الأبواب؟! السُّكان أكثر من الأبواب!

- اسمعوا... النحاس أدخل الطلبة الجامعة

وكانت أبوابها مغلقة، وأتاح لهم النجاح بعد أن

أعجزهم المجموع المتعسف فهل يعجز عن توظيفنا؟

ولاح في أقصى الخديقة سرب، فانعقدت الألسنة

والتجهت نحوه الرؤوس، كان مكوّناً من أربع فتيات

قادمات من الجامعة متجهات صوب مديرية الجيزة، لم

تكد تميّزهنّ الأبصار بعد، ولكنّهنّ تقدّمن متمهلات

يسقن الأمل في رؤيتهنّ عن قرب، إذ كان الممرّ الذي

يسيرنّ فيه يعطف أمام مجلس الصحاب في مسيره نحو

الشمال. وصرنّ في مجال البصر، ورددت الألسن

أساءهنّ وأساء كلياتهنّ، واحدة من الحقوق وثلاث

من الآداب، وقال أحمد لنفسه وهو ينظر إلى إحداهنّ:

«علوية صبري»، وجذب الاسم شوارد نفسه، فتاة

ذات جمال تركي معصر، معتدلة الطول نحيلة، بيضاء

ذات شعر أسود فاحم، وعينين سوداوين واسعتين

عاليتي الجفون، مقرونة الحاجبين، ذات سمعت

أرستقراطي ولفتات رفيعة، وإلى ذلك كلّه فهي زميلة

في القسم الإعدادي، وقد علم - والباحث يظفر

بمعلومات شتى - أنها سجّلت اسمها مثله في قسم

الاجتماع، ولم تكن تهيّأت فرصة ليبادلها كلمة واحدة،

ولكنّها أثارت اهتمامه من أوّل نظرة، طالما رمت ملامح

نعمة بإعجاب ولكنّها لم تهزّ أعماقه، هذه الفتاة لها

شان، فيشتر قريباً بصداقة العقل، والقلب...!؟

قال حلمي عزت عقب توارى السرب عن

الأنظار:

- عمّا قريب تصبح كلية الآداب وكأئها كلية

بنات!

فقال رضوان ياسين وهو يردّد بصره بين طلاب

الآداب في نصف الدائرة:

- لا تثقوا بصداقة طلاب الحقوق الذين يكثرون

من زياراتكم في كليّتكم بين الحصص، فالغرض

مفوض!

ثمّ ضحك ضحكة عالية، ولكنّه لم يكن سعيداً في

تلك اللحظة، فإنّ حديث الفتيات يشير في نفسه

اضطراباً وحزناً.

- لم تقبل الفتيات على كلية الآداب؟

- لأنّ وظيفة التدريس هي أوسع الوظائف صدرًا

لهنّ...

فقال حلمي عزت:

- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فدراسة

الآداب دراسة نسائية، الروح والمانيكور والكحل

والشعر والقصص، كلّها باب واحد!

فضحكوا جميعاً حتى أحمد، وبقيّة طلاب الآداب

ضحكوا رغم توتّبهم للاحتجاج، ثمّ قال أحمد:

- يصدق هذا الحكم الجائر على الطبّ، فطالما كان

التمريض نسائيًا، أمّا الحقّ الذي لم يستقرّ بعد في

نفوسكم فهو الإيمان بالمساواة بين الرجل والمرأة.

فقال عبد المنعم بأسًا:

- لا أدري إن كان مدحًا أم ذمًا أن نقول للنساء

إنهنّ مثلنا؟

التقدمية، ما عدا ذلك فهو نوع من الفرامل الضاغطة على عجلة الإنسانية الحرة!

فقال عبد المنعم، وكان في تلك اللحظة يكره فكرة أخوة أحمد له:

- الإلحاد سهل، حلّ سهل هروبي، هروبي من الواجبات التي يلتزمها المؤمن حيال ربّه ونفسه والناس، وليس من برهان على الإلحاد يمكن أن يُعدّ أقوى من البرهان على الإيمان، فنحن لا نختار هذا أو ذاك بعقولنا بقدر ما نختاره بأخلاقنا... وتدخل رضوان قائلًا:

- لا تستسلم لعنف المناقشة، كان من الأفضل لكما كأخوين أن تكونا من حزب واحد... وإذا حلّمني عزّت يندفع قائلًا، وكان أحيانًا تعتربه نوبات ناثرة غامضة:

- إيمان... إنسانية... الغدا. كلام فارغ، النظام القائم على العلم وحده ينبغي أن يكون كلّ شيء، يجب أن تؤمن بشيء واحد هو استئصال الضعف البشري بكافة أنواعه، ومهما بدا علمنا قاسيًا، وذلك للوصول بالبشرية إلى مثال قويّ نظيف!

- أهذه مبادئ الوفاء الجديدة بعد المعاهدة! فضحك حلّمني عزّت ضحكة عادت به إلى حالته الطبيعية، وقال عنه رضوان:

- إنه حقًا وفديّ، ولكن تطوف به أحيانًا مذاهب طارئة غريبة فيدعو إلى القتل بالجملة، ورجًا دلّ ذلك على أنّه لم ينم أمس نومًا مريحًا!

وكان لشدة الخصام ردّ فعل فساد الصمت، فشرّ بذلك رضوان، وسرّح بصره فيما حوله فراح يتابع بعض الحداء المدوّمة في السماء، أو يرنو إلى أسراب النخيل، الكلّ يعلن رأيه حتّى ما يتهمّج به على الخالق، ولكّنه لا يسعه إلّا أن يكتّم ما يضطرم في أعياق نفسه، وسيظلّ سرًا مرعبًا يتهذهه، فهو كالمطاردة، أو كالغريب، من الذي قسم البشر إلى طبعي وشاذّ؟، وكيف تكون الخصم والحكم في آن؟، ولمّ نهزأ كثيرًا بالتعساء؟. قال رضوان مخاطبًا عبد المنعم:

- إذا تعلّق الأمر بالحقوق والواجبات فهو مدح لا ذمّ...

فقال عبد المنعم:

- لقد سوى الإسلام بين الرجل والمرأة فيما عدا الميراث.

فقال أحمد متهمّكًا:

- حتّى في الرقّ ساوى بينهما!

فاحتدّ عبد المنعم قائلًا:

- أنتم لا تعرفون دينكم، هذه هي المأساة!... والتفت حلّمني عزّت إلى رضوان ياسين، وسأله بأسًا:

- ماذا تعرف عن الإسلام؟

فسأله الآخر بنفس لهجته:

- وماذا تعرف أنت عنه؟

فسأل عبد المنعم أخاه أحمد:

- وأنت ماذا تعرف عنه حتّى لا تمهر بما لا تعرف؟ فقال أحمد بهدوء:

- أعرف أنّه دين، وحسيّ ذلك، لا أؤمن بالآديان!...

فتساءل عبد المنعم مستنكرًا:

- أليدك برهان على بطلان الآديان؟

- أليدك أنت برهان على حقيقتها؟

فقال عبد المنعم وقد ارتفع صوته حتّى جعل الشاب الذي يجلس بينه وبين أخيه يردّد رأسه بينهما كالمتزعج: - عندي، وعند كلّ مؤمن، ولكن دعني أسألك أولًا كيف تعيش؟

- بإيماني الخاصّ، إيماني بالعلم والإنسانية وبالغدا، وبما ألزّمه من واجبات ترمي في النهاية إلى تمهيد الأرض لبناء جديد.

- هدمت كلّ ما الإنسان إنسان به...

- بل قل بقاء عقيدة أكثر من ألف سنة آية لا على قوتها، ولكن على خطّة بعض بني الإنسان، ذلك ضدّ معنى الحياة المتجدّدة، ما يصلح لي وأنا طفل يجب أن أغتريه وأنا رجل، طالما كان الإنسان عبدًا للطبيعة والإنسان، وهو يقاوم عبوديّة الطبيعة بالعلم والاختراع، كما يقاوم عبوديّة الإنسان بالمذاهب

- لا تزعل، إنّ للدين ربّاً يحميه، أما أنت فبعد تسعة أشهر على الأكثر ستكون أباً!

- حقاً... ١٩.

فقال أحمد مداعباً أخاه ليمسح عنه آثار الحدة:

- أهون عليّ أن أتعرض لغضب الله من أن أتعرض

لغضبك!

ثم مضى أحمد يحدث نفسه: غضب أم لم يغضب فسيجد عند عودته إلى السكرية صدرًا حانيًا، أمن المستحيل أن أعود يومًا فأجد علوية صبري في الدور الأول بالسكرية؟

ونذت عنه ضحكة، ولكنّ أحدًا لم يخمّن السبب الحقيقي لضحكته...

٢١

بدا بيت عبد الرحيم باشا عيسى في حركة غير مألوفة، ففي الحديقة وقف أناس كثيرون، وفي الفراندا جلس آخرون، وكثر الداخل والخارج، فلكر حلمي عزّت ذراع رضوان ياسين وهما يقتربان من البيت، وقال له بارتياح:

- لسنا بلا أنصار كما تزعم جرائدهم...

وعندما أخذوا يشقان سبيلهما إلى الداخل، هتف بعض الشبان «يحميا التضامن» فتورد وجه رضوان تأثرًا. كان متحمسًا تأثرًا مثلهم، بيد أنّه ساءل نفسه في قلق: ترى ألا يشكّ أحد في الجانب غير السياسي من زيارته؟ وقد أفضى مرّة بمخاوفه إلى حلمي عزّت، فقال له: «إنّ الريبة لا تلحق إلّا بالخوفا! سِرْ مرفوع الرأس ثابت الأقدام، يجدر بالذين يعدّون أنفسهم للحياة العامة ألا يكثرثوا لآراء الناس أكثر مما يجب».

وكان هو الاستقبال مكتظًا بالجالسين، منهم طلبة وعيال وبعض أعضاء الهيئة الوفدية، وفي صدر المكان جلس عبد الرحيم باشا عيسى، متجهّمًا على غير عادته، جادًا صارمًا، تكتنفه هالة الرجل السياسي الخطير، وتقدّمًا إليه فنهض لاستقبالها في رزانة، وصافحها ثم أشار لهما بالجلوس. وقال أحد

الجالسين، وكان قد توقّف عن الحديث أثناء استقبال الشاين:

- شدّ ما فوجئ الرأي العامّ وهو يطلع على أساء الوزراء الجدد، فلا يجد بينهم النقراشي!

فقال عبد الرحيم باشا عيسى:

- توقّعنا عند الاستقالة أمرًا، خاصّة وأنّ الاختلاف كان قد ذاع حتّى تحدّثت به المقاهي، ولكنّ النقراشي ليس كغيره من أعضاء الوفد. لقد فصل الوفد من قبله كثيرين فلم تقم لهم قائمة، أمّا النقراشي فله شأن آخر، ولا تنسوا أنّ النقراشي معناه أحمد ماهر أيضًا، هما الوفد، الوفد المجاهد المناضل المحارب، سلوا المشائق والسجون والقنابل، وليس الخلاف هذه المرّة بالذي يشين الخارج، هي نزاهة الحكم، قضية القنابل، وإذا وقع المحذور وانشقّ الوفد، فالوفد هو الذي سيخرج لا النقراشي ولا ماهر!...

- لقد كشف مكرم عبيد عن وجهه أخيرًا...

ووقع هذا القول من أذني رضوان موقعًا غريبًا، فلم يكن ممّا يسهل تصديقه أن يهاجم قطب الوفد بهذا الأسلوب في بيئة وفدية صميّة، وإذا بأخر يقول: - مكرم عبيد هو رأس هذا الشرّ كلّ يا سعادة الباشا...

فقال عبد الرحيم باشا:

- ليس الآخرون أصفارًا...

- لكنّه هو الذي لا يطيق منافسيه، إنّه يريد أن يستحوذ على النحاس وحده دون شريك، وإذا خلا له الجوّ من ماهر والنقراشي فلن يقف في سبيله شيء...

- لو أمكنه إزالة النحاس نفسه لأزاله...

فقال شيخ من الجلوس:

- أرجوكم، لا تسرفوا في القول، قد تعود المياه إلى مجاريها.

- بعد أن تألفت الوزارة دون النقراشي؟

- كلّ شيء ممكن...

- كان من الممكن هذا على عهد سعد، أمّا النحاس

فرجل عنيد، وهو إذا ركب رأسه...

وهنا دخل البهو رجل مهرولاً، فاستقبله الباشا وسط المكان وتعانقا بحرارة والباشا يتساءل:

وراءه، وجلس ثلاثتهم حول منضدة، وسرعان ما
تحملت إليهم أقذاح الليمون، وما لبث أن تراءى عند
الباب رجل في الأربعين، عرفه رضوان في بعض
زياراته السابقة، يدعى عليّ مهرا، يعمل وكيلًا
للباشا، وكان منظره يوحى بما طُبِعَ عليه من ميل
للمزاح والمجون، وكان يصحب معه شابًا في العشرين
من عمره، جميل المَلَحِيّا، يبدو من منظر شعره الهائج
وسوالفه الطويلة وربطة عنقه العريضة أنّه من أهل
الفرّ. وقد أقبل عليّ مهرا باسم الثغر فقبّل يد
الباشا، وصافح الشابين، ثمّ قدّم الشاب قائلاً:

- الأستاذ عطية جودت، مُعَرِّفُ ناشئٍ لكُنّه موهوب،
وقد سبق أن حدّثتك عنه يا معالي الباشا!
فلبس الباشا نظارته التي كان وضعها على المنضدة،
وتفحص الشاب بعناية، ثمّ قال باسماً:

- أهلاً وسهلاً يا سيّ عطية، سمعت عنك كثيراً،
فلعلنا نسمعك هذه المرّة...
فدعا للباشا باسماً، ثمّ جلس، على حين مال عليّ
مهرا على الباشا وهو يقول:

- كيف حال عمّي؟
هكذا كان يخاطب الباشا إذا زالت دواعي الكلفة،
وأجابه الرجل باسماً:
- أحسن منك ألف مرّة!

فقال عليّ مهرا جاداً على خلاف عادته:
- يتهامسون في بار الأنجلو عن وزارة قومية قريبة
برئاسة النقراشي...!

فابتسم الباشا ابتسامة سياسية وتمتم:
- لسنا من المستوزرين!...
وتساءل رضوان باهتمام وقلق:
- على أيّ أساس؟ طبعاً لا أستطيع أن أنصوّر أن
يقوم النقراشي بانقلاب سياسيّ كمحمّد محمود أو
إسماعيل صدقي؟!!

فقال عليّ مهرا:
- انقلاب! كلّا، المسألة تنحصر الآن في إقناع
أكثريّة الشيوخ والنواب بالانضمام إلينا، ولا تنس أن
الملك معنا، فعليّ ماهر يعمل بحكمة وأناة!
وعاد رضوان يتساءل في كآبة:

- متى عدت؟ كيف الحال في الإسكندرية؟
- عال... عال، استقبل النقراشي في محطّة سيدي
جابر استقبلاً شعبياً منقطع النظير، هتفت له الجماهير
المثقفة من الأعماق، الجميع غاضبون، الكلّ ثائر
لنزاهة الحكم، هتفوا: يحيا النقراشي النزيه... يحيا
النقراشي ابن سعد... وهتف كثيرون يحيا النقراشي
زعيم الأُمّة...

وكان الرجل يتكلّم بصوت مرتفع، فردّد هتافه
كثيرون حتّى اضطرّ عبد الرحيم باشا أن يلوح لهم
داعياً إلى التزام الهدوء. وعاد الرجل يقول:

- الرأي العامّ ساخط على الوزارة، غاضب لإخراج
النقراشي منها، لقد خسر النحاس خسارة لا تعوّض،
وارتضى أن يؤيّد الشيطان ضدّ الملاك الطاهر...
وهنا قال عبد الرحيم باشا:

- نحن الآن في أغسطس، وفي أكتوبر تفتح
الجامعة، فليكن افتتاح الجامعة موقعة فاصلة، يجب أن
نستعدّ منذ الآن للمظاهرات فإنّما أن يشوب النحاس
إلى رشده، وإمّا فليذهب إلى الهاوية...

فقال حلمي عزّت:
- أستطيع أن أوكد أنّ مظاهرات الجامعيين ستندفع
على بيت النقراشي...!

فقال عبد الرحيم باشا:
- كلّ شيء يحتاج إلى التنظيم، اجتمعوا بأنصارنا
من الطلبة وأعدّوا العدة، وفضلاً عن هذا فإنّ الأخبار
التي عندي تؤكّد أنّ كثرة لا تصلّق من النواب
والشيوخ سينضمّون إلينا...

- النقراشي هو خالق لجان الوفد، لا تنسوا ذلك،
إنّ تلغرافات الولاء تتسابق إلى مكتبه صباح مساء...

وتساءل رضوان ماذا يحدث في الدنيا؟ ترى أينقسم
الوفد مرّة أخرى؟ وهل يتحمّل مسئولية ذلك حقّاً
مكرم عبيد؟ وهل تتفق مصلحة الوطن وانقسام
الحزب الذي نهض برسائله ثمانية عشر عاماً؟ وطال
الأخذ والردّ، وبحث المجتمعون اقتراحات شتى خاصّة
بالدعاية وتبدير المظاهرات، ثمّ أخذوا في الانصراف
حقّق لم يبق في البهو إلّا الباشا ورضوان وحلمي
عزّت، وعند ذاك دعاهما للجلوس في الفراندا، فمضيا

- انتظر حتى أصلي العشاء! ...
فتساءل مهران باسمًا في خبث:
- ألم ينقض سلامنا وضوءك؟!

٢٢

غادر أحمد عبد الجواد بيته، ناقلاً خطاه على مهل، متوكئًا على عصاه، لم يعد اليوم كالأمس، فمنذ أن صفى دكانه لم يكن ليغادر بيته إلا مرة واحدة في اليوم، كي يعفي نفسه ما استطاع من الجهد الذي يتحمّله قلبه عند ارتقاء السلم. ومع أن الوقت لم يعد سبتمبر إلا أنه رأى أن يرتدي الملابس الصوفية، إذ إن الجسم النحيل لم يعد يطيق الجو اللطيف الذي كان يمرح فيه الجسم البدن القوي الذي كان. والعصا التي صاحبته منذ الصغر رمزًا للرجولة وآية على الأناقة باتت متوكّاه في مشيته المتمهلة، التي لا يطبقها قلبه إلا بجهد ومشقة، ولكن بقي له رونقه وأناقته، فما زال يحرص على انتقاء الأزياء الفاخرة، ويتطيب بالعطر الفواح متمتعًا بجبال الشيخوخة ووقارها، وعندما اقترب من الدكان مالت نحوه عيناه بحركة لا إرادية. رفعت السلاطة التي حملت اسمه واسم أبيه أعوامًا وأعوامًا، وتغير مظهر الدكان ومخبره، فانقلب دكان طرابيش للبيع والكي، وتقدمه الوابور والقوالب النحاسية، وتنايلت لعينيه لافتة وهمية، لم ترها عين سواه، عائلته بأن زمانه قد ولّى، زمان الجدّ والكفاح والمسرات، وما هو في ركن المعاش ينزوي، يستدبر دنيا الآمال ويستقبل دنيا الشيخوخة والمرض والانتظار، وتقبض القلب الذي طالما - وما زال - يهيم بحب الدنيا وأفراحها، حتى إن الإيمان نفسه لم يكن في نظره إلا مسرة من مسراتها ودافعًا إلى أحضانها، فلم يعرف - حتى اليوم - العبادة الزاهدة التي تدير الظهر للدنيا وتطلّع إلى الآخرة وحدها. لم يعد الدكان دكانه ولكن كيف تمحى ذكره من ذهنه وهو الذي كان مركز النشاط، ومحط الأنظار، وملتقى الأصحاب والأحباب، ومبعث العزة والجاه؟. «ولك أن تعزي نفسك فتقول: زوّجنا البنات، وربّينا الصبيان، ورأينا

- أنكون في النهاية من رجال السراي؟
فقال عبد الرحيم باشا:
- العبارة واحدة، ولكن المعنى تغير، فاروق غير فؤاد، والظروف غير الظروف، الملك شابّ وطيّ متحمّس، وهو مجني عليه أمام هجمات النحاس الجائرة!.

ففرق عليّ مهران يديه في حبور وهو يقول:
- ترى متى نهىّ الباشا بالوزارة؟ وهل تختارني وكيلاً لوزارتك كما اخترتني وكيلاً لأعمالك؟
فقال الباشا ضاحكًا:
- بل أعينك مديرًا عامًا للسجون، إن مكانك الطبيعي هو السجن.
- السجن؟. لكنهم يقولون إن السجن للجدعان!
- ولغيرهم، فليطمئنْ بالك!
ثم ركب الضجر فجأة فهتف:
- حشبنّا سياسة، غيروا الجو من فضلكم! ...
والتفت نحو الأستاذ عطية متسائلًا:
- ماذا تُسمعنّا؟
فأجاب عنه عليّ مهران:
- الباشا سميع وابن حظّ، وإذا رُقّت في نظره فتفتحت لك أبواب الإذاعة ...
فقال عطية جودت برقة:
- لحنت أخيرًا أغنية «شيكوي وشيكوه» وهي من تأليف الأستاذ مهران!
فرمق الباشا وكيه، وسأله:
- منذ متى تؤلف أغاني؟
- ألم أجاور في الأزهر سبع سنوات، غرقت فيها في مفاعيل وفعلاتن؟
- وما للأزهر وأغانيك الخليفة؟، شيكوي وشيكوه!
من هو يا حضرة المجاور؟
- المعنى يا معالي الباشا في ذقن الباشا!
- يا ابن الهرمة! ...
ونادى عليّ مهران السفرجي، فسأله الباشا:
- لماذا تناديه؟
- ليهيئ لنا مجلس الطرب! ...
فقال الرجل وهو ينهض:

- تأخّرتُم عن ميعادكم، سامحكُم الله...
 بأنّ ضجر الرقاد في عينيه، فلم يعد يعرف الابتسام
 إلّا ساعة اجتماعه بهم، وجعل يقول:
 - لا عمل لي طول اليوم إلّا الاستماع إلى الراديو،
 ماذا كنت أصنع لو تأخّر استعماله في مصر حتّى اليوم!
 كلّ ما يذيعه يطيب لي حتّى المحاضرات التي لا أكاد
 أفهمها، ومع ذلك فلم نكبر إلى الحدّ الذي يستوجب
 هذا العذاب، أجدادنا كانوا يتزوّجون في مثل
 أعمارنا!...

فغلبت روح الفكاهة أحمد عبد الجواد، فقال:
 - فكرة! ما رأيكم في أن نتزوّج من جديد، لعلّ
 ذلك يحدّد شبابنا وينفضّ عنا الأمراض؟!
 فابتسم عليّ عبد الرحيم - كان يتجنّب الضحك أن
 تدركه نوبة السعال فتؤذي قلبه - وقال:
 - معكم! اختاروا لي عروسا، ولكن صارحوها بأنّ
 العريس لا يستطيع الحركة، وعليها الباقي...
 وهنا خاطبه الفار وكأنّما تذكر أمرًا فجأة:
 - أحمد عبد الجواد سيسبقك إلى رؤية وليد حفيدته،
 ربّنا يحدّ في عمره!

- مبارك مقدّمًا يا بن عبد الجواد!...
 ولكنّ السيّد أحمد تجهّم قائلاً:
 - نعيمة حبلى حقًّا ولكنّي غير مطمئنّ، ما زلت أذكر
 ما قيل عن قلبها يوم مولدها، طالما حاولت أن أنسى
 ذلك عبثًا...
 - يا لك من رجل جاحدا منذ متى تؤمن بنبوءات
 الأطباء؟...

فضحك السيّد أحمد قائلاً:
 - منذ باتت اللقمة التي أتناولها على غير مشورتهم
 تؤرّقني حتّى مطلع الفجر...
 فتساءل عليّ عبد الرحيم:
 - ورحمة ربّنا؟!...
 - الحمد لله ربّ العالمين.
 ثمّ مستدركًا:

- لست بالغافل عن رحمة الله، ولكنّ الخوف يبعث
 على الخوف، والحقّ فإنّ نعيمة لا تهتمّني بقدر ما تهتمّني
 عائشة يا عليّ، عائشة هي مركز القلق في حياتي،

الأحفاد، ولنا مال موفور يسترنا حتّى الموت، وذقنا حلو
 الدنيا سنين - سنين حقًّا؟ - وأنّ لنا أن نشكر، والشكر
 لله واجب، دائمي أبدًا، ولكن آه من الحنين، وسامح
 الله الزمن، الزمن الذي مجرّد حياته - حياته التي لا
 تتوقّف لحظة - خيانة وأيّ خيانة للإنسان. لو أنّ
 الأحجار تنطق لسألت هذه الأماكن أن تحدّثني عن
 الماضي، لتخبرني أحقًا كان هذا الجسم يحدّ الجبال؟،
 وهذا القلب المريض لا يكفّ عن الخفقان؟، وهذا
 الثغر لا يمكّ عن الضحك؟، وهذا الشعور لا يعرف
 الألم؟، وهذه الصورة معلقة في كلّ قلب؟ ومرة أخرى
 سامح الله الزمن!...

وعندما انتهى به المسير الوئيد إلى جامع الحسين،
 خلع حذاءه ودخل وهو يتلو الفاتحة، ومضى إلى المنبر
 حيث وجد في انتظاره محمّد عفت وإبراهيم الفار
 فصلّوا المغرب جميعًا، ثمّ غادروا المسجد متّجهين نحو
 الطمبكشية لزيارة عليّ عبد الرحيم، كان ثلاثهم قد
 اعتزلوا العمل ليتفرّغوا لمقاومة الأمراض، غير أنّهم
 كانوا أحسن حالًا من عليّ عبد الرحيم الذي لم يعد
 بوسعه أن يفارق الفراش، وقال السيّد أحمد متنبّهًا:
 - يتّيل إليّ أيّ عمّا قريب لن أستطيع الذهاب إلى
 الجامع إلّا راکبًا...
 - الحال من بعضه...
 فعاد الرجل يقول في قلق:

- شدّ ما أخاف أن أضطرّ إلى ملازمة الفراش
 كالسيّد عليّ، إني أدعو الله أن يكرمني بالموت قبل أن
 يدركني العجز...
 - ربّنا يكفيك ويكفيّا كلّ سوء...
 فبدأ كالحائف وهو يقول:

- غنيم حميدولبت مشلولًا في الفراش زهاء العام،
 وصادق الماوردي عانى العذاب شهورًا، فاللّهم أكرمنا
 بالنهاية السريعة إذا حمّ القضاء.
 فضحك محمّد عفت قائلاً:

- إذا غلبتكَ الأفكار السوداء انقلبت امرأة، وحّد
 الله يا أخي!...
 ولما بلغوا بيت عليّ عبد الرحيم أدخلوا إلى حجّرتة،
 فبادرهم يقول في جزع:

التعيسة المسكينة، سأتركها إذا تركتها وحيدة في هذه الدنيا...

فقال إبراهيم الفار:

- ربنا موجود، وهو الراعي الأكبر...

وساد الصمت ملياً، حتى قطعه صوت عليّ عبد

الرحيم قائلاً:

- وسأتي دوري بعدك في رؤية وليد حفيدتي...

فضحك السيد أحمد قائلاً:

- سامح الله البنات، فإِنَّهُنَّ يَكْبُرْنَ أَهْلَهُنَّ قَبْلَ الْأَوَانِ.

فهتف محمد عفت:

- يا عجوزاً اعترف بالكبر وكفالك مكابرة...

- لا ترفع صوتك خشية أن يسمعك قلبي فيسوق

العوج، أصبح قلبي كالطفل المدلل...

فقال إبراهيم الفار وهو يهز رأسه أسفاً:

- يا له من عام ذلك العام الماضي، كان علينا

شديداً، فما ترك واحداً منا سليماً كأننا كنا على ميعدا.

- على رأي عبد الوهاب: لنعيش سوا لنموت

سوا...

فضحكوا معاً، وإذا بعليّ عبد الرحيم يغير لهجته

ويتساءل جاداً:

- أهذا يصح؟ أعني ما فعله النقراشي؟

فتجهّم وجه أحمد عبد الجواد وقال:

- كم أملنا أن تعود المياه إلى مجاريها، أستغفر الله

العظيم...

- أخوة الجهاد والعمر ضاعت هباءاً.

- في هذا الزمن كلّ جميل يضيع هباء...

وعاد أحمد عبد الجواد يقول:

- لم أحزن لشيء كما حزنت لخروج النقراشي، ما

كان ينبغي أن يذهب به الخصام إلى هذا الحد...

- ترى ما هي النهاية التي تنتظره؟

- النهاية المحتومة، أين الباسل والشمسي؟ لقد

قضى الرجل المجاهد على نفسه وأخذ في رجله أحمد

ماهر.

وهنا قال محمد عفت متفرّفاً:

- دعونا من هذه السيرة! أنا أكاد أطلق السياسة!

وخطر للفار خاطر، فتساءل بأسفاً:

- لو اضطررنا - لا سمح الله - إلى ملازمة الفراش

كالسيد عليّ، فكيف نتقابل ونتحدث؟

فتمتم محمد عفت:

- فال الله ولا فالك...

فضحك أحمد عبد الجواد وقال:

- لو وقع المحذور نتخاطب بالراديو، كما يخاطب

بابا «سخام» الأطفال...

وضحكوا جميعاً، وأخرج محمد عفت ساعته ونظر

فيها، ولكنّ عليّ عبد الرحيم جنح وقال:

- ستبقون معي حتى يحضر الطبيب لتسمعوا ماذا

يقول، ملعون أبوه، وأبو أيامه...

٢٣

كانت الغوريّة تغلق أبوابها، فقلّت السابلة

واشدّت البرودة، وكان الزمن في أواسط ديسمبر،

ولكنّ الشتاء جاء متعجلاً هذا العام. ولم يكن كمال قد

وجد صعوبة في جذب رياض قلّدس إلى حيّ

الحسين، أجل كان الشاب غريباً عن الحيّ، ولكنّه

وجد من نفسه شوقاً للتقلّب في أنحائه، والجلوس في

مقاهيه. وكان قد مضى على تعارفهما في مجلّة الفكر أكثر

من عام ونصف عام، لم يمرّ أسبوع خلاه دون أن

يتقابلا مرة أو مرتين، بخلاف العطلة التي تجمع بينهما

كلّ مساء على وجه التقريب في مجلّة الفكر، أو بيت

بين القصرين، أو بيت رياض بمنشيّة البكري، أو

مقاهي عماد الدين، أو قهوة الحسين الكبرى التي لجأ

إليها كمال بعد أن أتت المعاول على قهوة أحمد عبده

التاريخيّة فمحتها من الوجود إلى الأبد. كانا سعيدين

بصداقتهما، وقد قال كمال لنفسه مرة «جعلت أفنقد

حسين شذاد أعراماً، وظلّ مكانه شاغراً، حتى ملأه

رياض قلّدس» ففي محضره تستيقظ روحه وتستشعر

ذلك الانبشاق الذي يبلغ نشوته في عناق الفكر

المتبادل، هذا على الرغم من أنّها لم يكونا شيئاً واحداً،

وإن كانا متكاملين فيما بدا. وظلّت صداقتهما شعوراً

متبادلاً في صمت، لم ينوّها به، فلم يقل أحدهما للآخر

فقال رياض دون تردّد:

- إنّ الأقباط جميعًا وفديون، ذلك أنّ الوفد حزب القومية الخالصة، ليس حزبًا دينيًا تركيًا كالحزب الوطني، ولكنه حزب القومية التي تجعل مصر وطنًا حرًا للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم، أعداء الشعب يعلمون ذلك، ولذلك كان الأقباط هدفًا للاضطهاد السافر طوال عهد صدقي، وسيعانون ذلك منذ اليوم...

ورحب كمال بهذه الصراحة التي تشهد لصداقتها بالكمال، غير أنّه راق له أن يتساءل في دعابة:
- ها أنت تتحدّث عن الأقباط! أنت الذي لا يؤمن إلّا بالعلم والفنّ!...

فلاذ رياض بالصمت. وكنا قد بلغنا شارع الأزهر حيث يتدافع الهواء البارد في شيء من العنف. ثمّ مرّا في طريقهما بدكان بسبوسة فدعاه كمال إلى تناول شيء منها، وما لبث أن أخذ كلّ منهما طبقًا صغيرًا وانتحيا ناحية ياكلان، وعند ذلك قال رياض:

- إنّني حُرّ وقبطي في آن، بل إنّني لا ديني وقبطي معًا، أشعر في أحيان كثيرة بأنّ المسيحية وطني لا ديني، وربما إذا عرضتُ هذا الشعور على عقلي اضطربت. ولكن مهلًا، أليس من الجبن أن أنسى قومي؟ شيء واحد خلّيق بأن ينسبني هذا التنازع، ألا وهو الفناء في القومية المصرية الخالصة كما أرادها سعد زغلول، إنّ النحاس مسلم دينًا، ولكنه قومي بكلّ معنى الكلمة أيضًا، فلا نشعر حياله إلّا بأننا مصريون لا مسلم ولا قبطي، بوسعي أن أعيش سعيدًا دون أن أكدر صفوي بهذه الأفكار، ولكنّ الحياة الحقّة مسئولية في الوقت نفسه.

كان كمال يتملّق ويفكر وصدرة يجيش بالعواطف، كانت سحنة رياض المصرية الصميّة التي تذكّره بالصور الفرعونية تثير تأملات شتى في نفسه. «إنّ موقف رياض له وجاهته التي لا تجحد، وأنا نفسي - بين عقلي وقلبي - شخص يعاني انقسام الشخصية، فكذلك هو، كيف يتأتّى لأقلية أن تعيش وسط أغلبية تضطهدها؟ وجدارة الرسائل السامية تقاس عادة بما تحقّقه من سعادة للبشر تتمثّل أوّل ما تتمثّل في الأخذ

«أنت الصديق» ولا قال له «لا أتصوّر الحياة بدونك» ولكن كان ذلك كذلك، وعلى برودة الجوّ لم تفتّر رغبتها في السير، فقرّرا أن يسيرا على الأقدام حتّى قهوة عماد الدين. ولم يكن رياض قلّس سعيدًا ذلك المساء، كان يقول بانفعال شديد:

- انتهت الأزمة الدستورية هزيمة الشعب، فليست إقالة النحاس إلّا هزيمة للشعب في نضاله التاريخي مع السراي...

فقال كمال في أسف:

- ثبت الآن أنّ فاروق كأيّ...

- فاروق ليس المشلول وحده، ولكن دبرها أعداء الشعب التقليديون، فهذه يد عليّ ماهر ومحمّد محمود، ومن المبكي أن ينضمّ إلى أعداء الشعب اثنان من أبنائه، ماهر والنقراشي، ولو تطهّر الوطن من الخونة لما وجد الملك من يحمّنه من هضم حقوق الشعب... ثمّ استطرد بعد صمت قليل:

- ليس الإنجليز اليوم في الميدان، ولكنّ الشعب والملك وجهًا لوجه، الاستقلال ليس كلّ شيء، هنالك حقّ الشعب المقدّس في أن يتمتّع بسيادته وحقوقه، لبيحيا حياة الإنسان لا حياة العيد...

لم يكن كمال غارقًا في السياسة كرياض، أجل لم يستطع الشكّ أن يدمرها فيما دمّر فلبثت حيّة في عواطفه، كان يؤمن بحقوق الشعب بقلبه، وإن كان عقله لا يدري أين المفرّ. عقله يقول حينًا «حقوق الإنسان» وحينًا آخر يقول «بل البقاء للأصلح وما الجماهير إلّا قطع» وربما قال «والشيوعية أليست تجربة جدّيرة بالاختبار؟». أمّا قلبه فلم يتخلّص من عواطفه الشعبية التي صاحبت منذ صباه ممترجة بذكرى فهمي، أمّا رياض فكانت السياسة جوهرًا أصيلًا في نشاطه الذهنيّ. وعاد رياض يقول:

- أيمكن أن ننسى الإهانة التي تلقّاها مكرم في ميدان عابدين؟. وهذه الإقالة المجرمة، سبّ وقذف وبصقة في وجه الأمة؟. والخذ الأعى يجعل البعض يهّلون، واحسرتاه...

فقال كمال مداعبًا:

- أنت غاضب لمكرم!

بيد المضطهدين». قال:

- لا تؤاخذني، فقد عشت حتى الآن دون أن أصطدم بمشكلة العنصرية، فمذ البدء لَقِنتني أمي أن أحب الجميع، ثم شبيت في جو الثورة المطهر من شوائب التعصب، فلم أعرف هذه المشكلة.

فقال رياض وهما يستأنفان المسير:

- المرجو ألا تكون ثمة مشكلة على الإطلاق، يوسفني أن أصارحك بأننا نشأنا في بيوت لا تخلو من ذكريات سود محزنة، لست متعصبًا، ولكن من يستهين بحق إنسان في أقصى الأرض - لا في بيته - فقد استهان بحقوق الإنسانية جميعًا...

- جميل هذا القول، لا عجب أن رسالات الإنسانية الحقة كثيرًا ما تنبثق من أوساط الأقلية، أو من رجال مشغولي الضائير بالأقلّيات البشرية، ولكن ثمة متعصبون دائمًا...

- دائمًا وفي كل مكان، الإنسان حديث والحيوان قديم، وهم عندكم يعتبروننا كفارًا ملاعين، وهم عندنا يعتبرونكم كفارًا مغتصبين، ويقولون عن أنفسهم إنهم سلالة من ملوك مصر الذين استطاعوا أن يحافظوا على دينهم بدفع الجزية...

فضحك كيال ضحكة عالية، وقال:

- هذا قولنا وذاك قولكم، ترى الأصل في هذا الخلاف الدين أم الطبيعة البشرية المتطلعة أبدًا إلى الخصام؟ لا المسلمون على وفاق، ولا المسيحيون على وفاق، وستجد نزاعًا مستمرًا بين الشيعي والسني، وبين الحجازي والعراقي، كالذي بين الوفدي والدستوري، وطالب الآداب وطالب العلوم، والنادي الأهلي والترسنة، ولكن رغم ذلك كله فشذ ما نحزن إذا ما طالعنا في الصحف خبر زلزال باليابان! اسمع، لماذا لا تعالج ذلك في قصصك؟

- مشكلة الأقباط والمسلمين...

فصمت رياض قلدس مليًا، ثم قال:

- أخاف سوء الفهم...

ثم مستطردًا بعد فترة صمت أخرى:

- ثم لا تنس أننا رغم كل شيء في عصرنا الذهبي،

كان الشيخ عبد العزيز جاويش يقترح في الماضي أن

يصنع المسلمون من جلودنا أحذيتهم...

- وكيف نستأصل هذه المشكلة من جذورها؟

- من حسن الحظ أنها ذابت في مشكلة الشعب كله، مشكلة الأقباط اليوم هي مشكلة الشعب، إذا اضطهد اضطهدنا وإذا تحرّر تحرّرنا...

«السعادة والسلام... ذلك الحلم المنشود، قلبك يحيا بالحب وحده، فمتى يعرف عقلي سبيله؟ متى أقول بلهجة ابن أختي عبد المنعم «نعم. نعم»، إن صداقتي لرياض علّمتني كيف أقرأ قصصه، ولكن كيف أومن بالفن، في الوقت الذي وجدت الفلسفة نفسها قصورًا غير صالحة للسكنى؟»

وسأله رياض فجأة، وهو يسترق إليه النظر:

- فيم تفكر الآن؟... أصدقني!

وفطن إلى ما وراء سؤاله، فأجاب بصراحة:

- كنت أفكر في قصصك.

- ألم تتألم لصراحتي؟

- أنا، ساعحك الله...

فضحك كالمعتذر، ثم سأل:

- أقرأت قصتي الأخيرة؟

- نعم، وهي لطيفة، ولكن يخيل إلي أن الفن نشاط غير جذبي، مع ملاحظة أيهما أخطر في حياة الإنسانية: الجذ أم اللهو؟، أنت مثقف ثقافة علمية عالية، ولعلك أدري «غير العلماء» بالعلم، ولكن نشاطك كله يضيع في كتابة القصص وإني لأتساءل أحيانًا: ماذا أفدت من العلم؟

فقال رياض قلدس في حماسة:

- أخذت من العلم للفن عبادة الحقيقة، والإخلاص لها، ومواجهتها بشجاعة مهما تكن مرة، والنزاهة في الحكم، والتسامح الشامل مع المخلوقات...

كلمات ضخمة، ولكن ما علاقتها بملهاة القصص؟ ونظر رياض قلدس إليه، فقرأ الشك في وجهه، فضحك عاليًا ثم قال:

- أنت تسبى الظن بالفن، ولكن عزائي أن شيئًا في الدنيا لا يمكن أن يسلم من شكك، نحن نرى بعقولنا ولگننا نعيش بقلوبنا، أنت مثلاً - رغم موقفك

خاليًا من مآسي الخلافات العنصرية والدينية
والمنازعات الطبقيّة، بيد أن الاهتمام الأوّل مركّز في
فني... .

فقال كمال وكان في صوته دعاية:

- ولكنّ الإسلام قد خلق هذا العالم الذي تتحدّث
عنه منذ أكثر من ألف عام... .
- لكنّه دين، الشيوعية علم أمّا السدين
فأسطورة... .

ثمّ مستدركًا وهو يتسم:

- ونحن نتعامل مع المسلمين لا الإسلام... .
وجدا شارع فؤاد كثير الزحام رغم شدّة البرودة،
فتوقّف رياض فجأة وهو يتساءل:
- ما رأيك في عشاء من المكرونة والنبيل الجيّد؟
- لا أشرب في الأماكن المأهولة، فلنذهب إلى قهوة
عكاشة إذا شئت... .

فضحك رياض قلّلس قائلاً:

- كيف تطيق هذا الوقار كلّ؟ نظارة وشارب
وتقاليد! حرّرت عقلك من كلّ قيد، أمّا جسمك فكأنّه
قيود، أنت خلقت - بجسمك على الأقلّ - لتكون
مدرّسًا... .

وذكره تنويه رياض بجسمه بحادثة اليمّة، فقد
اشترك في حفل ميلاد أحد زملائه، وشربوا جميعًا حتّى
سكروا، وهناك تحلّ أحدهم عليه معرّضًا برأسه وأنفه
حتّى أضحك الجميع. وإذ ذكر أنفه أو رأسه فقد ذكر
عايدة، وتلك الأيام، عايدة خالقة أنفه ورأسه، ومن
عجب أن يغيض الحبّ فيمسي لا شيء، ثمّ تبقى هذه
الرواسب المؤلمة... .

وجذبه رياض من ذراعه وهو يقول:

- هلّمّ نشرب نبيلًا ونتحدّث عن فنّ القصّة، ثمّ
نذهب بعد ذلك إلى بيت الستّ جلييلة بعطفة
الجوهريّ، وإذا كنت تقول لها يا عمّتي، فسأقول لها يا
خالتي... .

الشكّي - تحبّ وتتعامل وتشارك مشاركة ما في حياة
بلدك السياسيّة، ووراء كلّ ناحية من هذه النواحي
مبدأ شعوريّ أو لا شعوريّ لا يقلّ عن الإيمان قوّة،
الفنّ هو المعبر عن عالم الإنسان، وإلى هذا فمن الأدباء
من أسهم بفنّه في معركة الآراء العالميّة، فانقلب الفنّ
على يديه عدّة من عُدّد الكفاح في ميدان الجهاد
العالميّ، لا يمكن أن يكون الفنّ نشاطًا غير جدّي... .

دفاع عن الفنّ أم عن قيمة الفنّان؟ لو أنّ لبائع
اللّب قدرة على الجدل لدلّل أنّه يلعب دورًا خطيرًا في
حياة البشر، ولا يبعد أن يكون لكلّ شيء قيمة ذاتيّة،
ولا يبعد كذلك ألا يكون لشيء قيمة البتّة، كم مليونًا
من البشر يلفظون أنفسهم في هذه اللحظة؟ في
الوقت نفسه يرتفع صوت طفل بالبكاء على فقد لعبة،
أو صوت عاشق يبكيّ الليل والكون متاعب قلبه،
أضحك أم أبكى؟ قال:

- لمناسبة ما قلت عن معركة الآراء العالميّة، دعني
أخبرك بأنّها تنعكس على صورة مصغّرة في أسرتنا، لي
ابن أخت من الإخوان، والآخر من الشيوعيين!
- ينبغي أن يكون لها صورة في كلّ بيت، عاجلاً أو
آجلاً، لم نعد نعيش في قمقم، وأنت ألم تفكّر في هذه
الأمور؟

- قرأت عن الشيوعية ضمن دراساتي للفلسفة
المادّيّة، كما قرأت كتبًا عن الفاشستيّة والنازيّة... .

- تقرأ وتفهم، مؤرّخ بلا تاريخ، أرجو أن تعدّ يوم
خروجك من هذا الموقف يوم عيد ميلادك السعيد.
فاستاء كمال لهذه الملاحظة، لأنّها نقد لاذع من
ناحية، ولأنّها لا تخلو من حقّ من ناحية أخرى، ثمّ
قال متهمّاً من التعقيب عليها:

- كلّ من الشيوعي والإخواني في أسرتنا على غير
علم مكنين بما يؤمن به!

- الإيمان إرادة لا علم، إنّ أنفه مسيحيّ اليوم
يعرف عن المسيحيّة أضعاف ما عرف الشهداء، كذلك
عندكم في الإسلام... .

- وهل تؤمن بمذهب من هذه المذاهب؟

- لا شكّ في احتقاري للفاشيّة والنازيّة وكافة النظم
الديكتاتوريّة، أمّا الشيوعيّة فخليقة بأن تخلق عالمًا

- كانت شقة عبد المنعم شوكت، ففي حجرة النوم اجتمعت حول فراش نعيمة أمينة وخديجة وعائشة وزئوبة والحكيمة المولدة، أما في حجرة الاستقبال فقد جلس مع عبد المنعم والده إبراهيم وأخوه أحمد وياسين وكمال، وكان ياسين يداعب عبد المنعم قائلاً:
- اعمل حسابك أن تكون الولادة القادمة في غير هذا الوقت الذي تستعد فيه للامتحان...
- كانوا في أواخر إبريل، وكان عبد المنعم متعباً بقدر ما كان مبهجاً، بقدر ما كان قلقاً. وكان صوت الطلق يترامى من وراء الباب المغلق حاداً يحمل كل معاني الألم، فقال عبد المنعم:
- إنَّ الحمل أتبعها جدّاً، وبلغ بها درجة من الضعف لا يتصورها عقل، وكان وجهها لم تعد به نقطة دم واحدة...
- فتجشأ ياسين في ارتياح، ثم قال:
- هذه أمور عادية، وكلهن سواء...
- وقال كمال بأسياً:
- ما زلت أذكر ولادة نعيمة، كانت ولادة عسيرة عانت منها عائشة ما عانت، وكنت متألماً، وكنت واقفاً في هذا المكان مع المرحوم خليل...
- فتساءل عبد المنعم:
- هل أفهم من هذا أن عسر الولادة وراثي؟
- فقال ياسين وهو يشير بأصبعه إلى فوق:
- عنده اليسر...
- فقال عبد المنعم:
- جئنا بحكيمة معروفة في الحيّ كله، كانت أمي تفضّل إحضار الداية التي ولّدتها، ولكنّي أصرت على الحكيمة، فهي أنظف وأمهر بلا ريب.
- فقال ياسين:
- طبعاً، ولو أنّ الولادة بجملتها بأمر الله وعنايته.
- فقال إبراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة:
- جاءها الطلق في الصباح الباكر، والساعة تدور الآن في الخامسة مساءً، مسكينة، إنّا رقيقة كالخيال، ربّنا يأخذ بيدها.
- ثمّ وهو يردّد عينيه الخاملتين في الجالسين عامّة، وابنيه عبد المنعم وأحمد خاصّة:
- آه لو تذكر الآلام التي تتحمّلها الأم!
- فقال أحمد ضاحكاً:
- كيف تطالب الجنين بأن يتذكّر يا بابا؟
- فقال الرجل موبّخاً:
- إذا أردت أن تعترف بالجميل فلا تعتمد على الذاكرة وحدها...
- وانقطع الطلق، وخيم على الحجرة المغلقة السكون فأنجّحت الرؤوس إليها، ومّرت فترة فنقد صبر عبد المنعم فقام ماضياً إلى الباب ونقره، ففتح ربع فتحة عن وجه خديجة المكتنز، فطالعها بعينين متسائلتين، وهمّ بإدخال رأسه، ولكنّها صدّته براحتيها وهي تقول:
- لم يأذن الله بالفرج بعد...
- طال الوقت، ألا يكون طلقاً كاذباً؟
- الحكيمة أدري بذلك منّا، اطمئنّ وادعُ لنا بالفرج...
- وأغلقت الباب، فعاد الشاب إلى مجلسه بجوار أبيه الذي علّق على قلقه بقوله:
- اعذروه فإنّه محدث ولادة.
- وأراد كمال أن يتسلّى، فأخرج من جيبه جريدة البلاغ حيث كانت مطوية فيه وراح يتفحصها، فقال أحمد:
- أعلنت في الراديو النتائج الأخيرة للمعركة الانتخابية... (ثمّ وهو يتسم في سخرية)... ويا لها من نتائج مضحكة!
- فتساءل والده دون اكتراث:
- ما مجموع الناجحين من الوفدّيين؟
- ثلاثة عشر على ما أذكر!
- ثمّ قال أحمد موجّهاً خطابه إلى خاله ياسين:
- لعنك مسرور يا خالي إكراماً لسرور رضوان؟!.
- فقال ياسين وهو يهزّ منكبيه باستهانة:
- لا هو وزير ولا هو نائب، فماذا يهمني من الأمر كله؟
- وقال إبراهيم شوكت ضاحكاً:
- كان الوفدّيون يظنون أنّ عهد الانتخابات المزورة قد انتهى، ولكنّ شهاب الدين أضرب من أخيه!...

فقال أحمد في امتعاض:

- الظاهر أن الاستثناء هو القاعدة في مصر!

- حتى النحاس ومكرم قد سقطا في الانتخابات،

ليس هذا هزلًا؟

وهنا قال إبراهيم شوكت في شيء من الحدة:

- لكن لا ينكر أحد أنها أساء الأدب حيال الملك،

إن للملك مقامهم، وليس على ذلك النحو تساس

الأمور...

فقال أحمد:

- إن بلادنا في حاجة إلى جرعات قوية من قلة

الأدب حيال الملوك، حتى تفيق من إغائها

الطويل...

فقال كمال:

- ولكن الكلاب يعيدونها إلى الحكم المطلق، تحت

ستار برلمان مزيف، وفي نهاية التجربة ستجد فاروق في

قوة فؤاد واستبداده أو أشد، كل هذا يرتكب بأيدي

بعض أبناء الوطن...

فضحك ياسين، وقال وكأنه يفسر ويوضح:

- كمال ولو أنه كان على صباه من محبي الإنجليز

كشاهين وعدلي وثروت وحيدر، إلا أنه انقلب وفديًا

بعد ذلك...

فقال كمال جادًا، وهو ينظر إلى أحمد خاصة:

- انتخابات مزورة، كل شخص في البلد يعلم بأنها

مزورة، ومع ذلك يُعترف بها رسميًا وتحكم بها البلاد،

ويعني هذا أن يستقر في ضمير الشعب أن نوابه

لصوص سرقوا كراسيهم، وأن وزراءه لصوص سرقوا

بالتالي مناصبهم، وأن سلطاته وحكومته مزيفة مزورة،

وأن السرقة والتزيف والتضليل مشروعة رسميًا، أفلا

يُعد الرجل العادي إذا كفر بالبدائي والخلق وآمن

بالزيف والانتهازية؟

فقال أحمد متحمسًا:

- دعهم يحكمون، في كل شر جانب خير، ومن

الأفضل لشعبنا أن يسام الخسف من أن يُخدَّر بحكم

يحبه ويثق به دون أن يحقق له - هذا الحكم - آماله

الحقيقية، طالما فُكِّرت في هذا حتى انقلبت أرحب

بحكم الطفلة من أمثال محمد محمود وإسماعيل

صدقي...

ولاحظ كمال أن عبد المنعم لا يشترك في الحديث

كعادته، فأراد أن يجزه إليه فقال:

- لماذا لا تحدثنا عن رأيك؟

فابتسم عبد المنعم ابتسامة لا معنى لها، وقال:

- دعني اليوم أستمع...

فضحك ياسين قائلًا:

- فرفش حتى لا يبدك المولود واجبًا، فيفكر في

العودة من حيث أتى...

ونذت عن ياسين حركة أدرك كمال منها أنه يهيم

بانتحال عذر للذهاب، أجل جاء وقت القهوة، ونظام

«السهر» عنده لا يمكن أن يغيره شيء، وفكر كمال في

الخروج معه حيث لا ضرورة لوجوده، وجعل يراقبه

متوثبًا، وإذا بصرخة تنطلق من حجرة نعيمة عيفة

قاسية تحمل في طياتها أنغام الأعماق البشرية، وتتابع

الصرخات في عنف، وتطلعت العين نحو باب

الحجرة، وساد بينهم صمت، حتى همس إبراهيم في

رجاء:

- لعله الطلق الأخير إن شاء الله...

حقًا؟ بيد أنه تواصل حتى وجوا، وامتنع لون عبد

المنعم، ثم عاد الصمت مرة أخرى ولكن إلى حين،

ورجع الطلق ولكنه كان خواء، تقذف به حنجرة

بُحَّت وصدر تصدع فكأنه النزع. ودلت حال عبد

المنعم على أنه في حاجة إلى تشجيع، فقال له ياسين:

- كل ما تسمع أحوال مألوفة في الولادة

العسيرة...

فقال عبد المنعم بصوت متهدج:

- العسيرة! العسيرة! ولكن لماذا كانت عسيرة؟

وفُتح الباب فخرجت زئوبة ثم أغلقت، فتطلَّعوا

إليها، فاقتربت حتى وقفت أمام ياسين وقالت:

- كل شيء على ما يرام، غير أن الحكمة زيادة في

الحيلة ترجو أن تحضروا الدكتور سيد محمد...

فوقف عبد المنعم قائلًا:

- لا شك أن الحال استوجبت إحضاره، خبرني عما

بها؟

فقال زئوبة بصوت هادئ مؤكد:

- كل شيء على ما يرام، وإذا أردت أن تزيدنا اطمئناناً فأسرع في إحضار الطبيب...

ولم يُضِغ عبد المنعم وقته فمضى إلى حجرته ليستكمل ملابسه، ومضى في أثره أحمد، ثم خرجا معاً ليأتيا بالدكتور، وعند ذاك قال ياسين:

- ماذا هناك؟

فقال زئوبة، وقد نمَّ وجهها لأول مرة عن قلق:

- تعبانة المسكينة كان الله في عونها.

- والحكيمة ألم تقل شيئاً؟

فقال زئوبة بتسليم:

- قالت إنها تريد الدكتور...

وعادت زئوبة إلى الحجرة تاركة وراءها ظلاً ثقيلاً من القلق...

تساءل ياسين:

- أهذا الطبيب بعيد؟

فأجابه إبراهيم شوكت:

- في العمارة التي فوق قهوتك بالعتبة.

ودوّت صرخة فانعقدت الألسن، هل عاد الطلق الأليم؟ ومضى يحضر الطبيب، ودوّت الصرخة مرة أخرى، فازداد التوتر، وإذا بياسين يهتف مرتاعاً:

- هذا صوت عائشة!

فأرهفوا السمع، وعرفوا صوت عائشة، فقام إبراهيم في الحجرة ونقر الباب، ففتحت زئوبة بوجه باهت، سألتها بلهفة:

- ما لكم؟ مال عائشة هانم؟ أليس من المستحسن أن تغادر الحجرة؟...

فقال زئوبة وهي تزدد ريقها:

- كلاً... الحال شديدة يا سي إبراهيم...

- ماذا حدث؟!

- فجأة، إنها... انظر...

في أقل من ثانية كان الرجال الثلاثة على باب الحجرة ينظرون. كانت نعيمة مغطاة حتى الصدر، خاليتها وجدتها والحكيمة حولها في الفراش، أمها واقفة وسط الحجرة تحملك في بنتها من بعيد بعينين زائغتين وكأنها فقدت الوعي، وكانت نعيمة مغمضة العينين،

صدرها يعلو وينخفض كأنما قد أفلت زمامه من بقية الجسد الساكن، أما الوجه فأبيض باهت كالسوت.

هتفت الحكيمة: «الدكتور!». وجعلت أمينة تهتف:

«يا رب!»، وخديجة تنادي بصوت مذعور «نعيمة ردي علي»، أما عائشة فلم تنطق كأن الأمر لا يعينها في شيء. تساءل كمال «ماذا هنالك؟» وسأل أخاه في

ذهول: «ماذا هنالك؟» ولكنّه لم يجبه، أيّ ولادة

عسيرة؟، ودار بصره بعائشة وإبراهيم وياسين فتقهقر قلبه في صدره، ليس هنالك إلا معنى واحد...

ودخلوا الحجرة جميعاً، لم تعد حجرة ولادة وإلا ما

دخلوا، وكانت عائشة في حال بالغ الشدة ولكن أحداً

لم يوجّه إليها كلمة، وفتحت نعيمة عينيها فبدتا

مظلمتين، وأتت حركة كأنما تريد أن تجلس فأجلستها

جدتها وحوتها في حضنها، شهقت الفتاة، ونذت عنها

آهة عميقة، ثم بغتة هتفت كأنما تستغيث:

- ماما... أنا ذاهبة... أنا ذاهبة...

ثم سقط رأسها على صدر جدتها، وضجت الحجرة

بالصوات، ولطمت خديجة خديها، وتشهدت أمينة في

وجه الفتاة، أما عائشة فرمت بناظرها من النافذة

المطلّة على السكّرية، وثبتت عينيها على ماذا؟ ثم تردّد

صوتها كالخشخشة:

- ما هذا يا ربّي؟ ما هذا الذي تفعله؟، لماذا؟،

لماذا؟، أريد أن أفهم...

واقترب منها إبراهيم شوكت ومدّ لها يده، فأبعدتها

بحركة عصبية وهي تقول:

- لا يلمسني منكم أحد، دعوني، دعوني...

ثم ردّت بصرها بينهم قائلة:

- اخرجوا من فضلكم، لا تكلموني، هل عندكم

كلام يجدي؟ لن ينفعني الكلام، ماتت نعيمة كما

ترون، كانت كل ما تبقى لي فلم يبق لي شيء في

الدنيا، اذهبوا من فضلكم...

كان الظلام حالاً عندما مضى ياسين وكمال في

طريقهما إلى بين القصرين، وكان ياسين يقول:

- ما أثقل أن أبلغ والدك الخبر!

فأجاب كمال وهو يحقّف عينيه:

- نعم...

الأمر الذي لم يُتَّخَ له هذا العام في زحمة طلبة القسم الإعدادي. على أنه لم يسبق له أن وجدها هكذا قريبة منه دون كثرة من الرقباء، فحذنته نفسه بأن يمضي إلى رفوف المراجع كأنما ليطلع على أحدها، ثم يجيئها في طريقه! وألقى نظرة على ما حوله فرأى عددًا من الطلاب منتشرين هنا وهناك لا يتجاوز عددهم أصابع اليد، فقام دون تردد وسار في الممر بين المقاعد، وعندما مرَّ بها التقت عيناهما فحنى رأسه تحية مؤدبة، فبدا في ملاحها وقع المفاجأة، ولكنها ردت تحيته برأسها ونظرت فيها أمامها. وتساءل ترى هل أخطأ؟. كلاً لئنا زميلة منذ عام طويل، ومن واجبه أن يجيئها إذا التقيا هكذا وجهًا لوجه في مكان يكاد يكون خاليًا. وواصل مسيره إلى خزانة الكتب الحاسوبية لدائرة المعارف، ثم اختار مجلدًا وراح يقلِّب صفحاته دون أن يقرأ كلمة. كان سروره برِّد التحية عظيمًا فزايله التعب واهتز صدره نشاطًا. يا لها من حسناء ملأت عليه جوانب نفسه إعجابًا وانجذابًا حتى صارت شغله الشاغل. إنَّ كافة أحوالها تدلُّ على أنها من «أسرة» كما يقولون، وأخشى ما يخشاه أن يكون لها من كبرياء الطبقة نصيب يخفيه أدها الجَم، وإنه يستطيع أن يعترف لها - صادقًا - بأنه من أسرة كذلك إذا دعا الأمر، أليس آل شوكت «أسرة»؟. بلى... وذات ملك، فسيكون له يومًا ريع ومرتب معًا. وافتّر ثغره عن ابتسامة ساخرة، ريع... مرتب... أسرة! إذن فأين مبادؤه؟. وشعر بشيء من الحجل. إنَّ القلب في أهوائه لا يعرف المبادئ، فالناس يحبون ويتزوجون خارج دائرة مبادئهم ودون مراعاة لها، وعليهم أن يخلقوا أنصافهم الجميلة خلقًا جديدًا، كمن يدخل بلدًا غريبًا فعليه أن يتكلَّم بلغته حتى يبلغ ما يريد. ثم إنَّ الطبقة والملكية حقيقتان واقعتان لم يخلقهما هو ولا أبوه ولا جدّه، فليس هو بالمسئول عنها، والعلم والجهاد هما الكفيلان بمحو هذه السخافات التي تفرق بين البشر. من الممكن ربَّما أن يغيّر نظام الطبقات، ولكن كيف يستطيع أن يغيّر الماضي وهو أنه من أسرة موفورة الدخل؟. وهيئات أن تتعارض المبادئ الشعبية مع الحب الأرستقراطي، وكارل ماركس نفسه تزوج

- لا تبك، أعصابي لم تعد تتحمل...
فقال كمال متنهَّدًا:
- كانت عزيزة جدًا عليّ، أنا حزين جدًا يا أخي، وعائشة المسكينة...
- هذه هي الكارثة! عائشة! سننسى جميعًا إلا عائشة...
«سننسى جميعًا؟ لا أدري. إنَّ وجهها لا يغيب عني مدى العمر، ولو أن لي مع النسيان تجربة فلذة، هو نعمة كبرى، ولكن متى يجود ببلسمه؟». وعاد ياسين يقول:
- كنت متشائمًا عند زواجها، ألا تدري؟ لقد تنبأ لها الدكتور يوم مولدها بأن قلبها لن يسعها على الحياة بعد العشرين! والدك يذكر هذا في الغالب...
- لا أدري شيئًا، أكانت عائشة تدري؟
- كلاً، إنه تاريخ قديم، وقضاء الله لا بد منه...
- ما أتعسك يا عائشة!...
- أجل ما أتعسها المسكينة!...

٢٥

كان أحمد إبراهيم شوكت جالسًا في قاعة المطالعة بمكتبة الجامعة، مكبًا على متابعة كتاب بين يديه. لم يكن بقي على الامتحان إلا أسبوع، وكان الجهد قد نال منه كل منال، وشعر بأن شخصًا قد دخل القاعة وجلس خلفه فالتفت إلى الوراء مستطلعًا فرأى علوية صبري! نعم هي، ولعلها جلست تنتظر كتابًا استعارته، وعند تلك الالتفاتة التقت عيناه بالعينين السوداوين، ثم أعاد رأسه إلى وضعه الأول منتشي القلب والحواس. ما من شك في أنها باتت تعرف شكله، كما تعرف أنه مغرم بها، فمثل هذه الأمور لا تخفى، إلى أنها كلما التفتت هنا أو هناك - سواء في فصول المحاضرات أم حديقة الأورمان - وجدته مسترقًا إليها النظر. وقد حال حضورها بينه وبين متابعة ما يقرأ، ولكن فرحته فاقت حتى ما كان يقدر. وكان - منذ أن علم بأنها ستتخصّص في الاجتماع مثله - يؤمل أن يتم التعارف بينها في غضون العام الدراسي المقبل،

- بكل سرور، ولكن معذرة، ستجدين أكثر الدراسات بقسم الاجتماع بالإنجليزية... فتساءلت وهي تداري مؤلدة ابتسامة:
- أتعرف أنني اخترت قسم الاجتماع؟
ابتسم كأنها ليداري حياءه، ولم يكن ثمة حياء ولكنّه شعر بأنّه «وقع» ولكنّه قال ببساطة:
- نعم!
- لمناسبة أية مصادفة!
فقال بجرأة:
- بل سألت فعلت...
وضغطت شفيتها القرمزيتين، ثم قالت وكأنها لم تسمع جوابه:
- غداً نتبادل المذكرات...
- صباحاً...
- إلى اللقاء وشكراً...
فبادرها:

- إني سعيد بالتعرّف إليك، إلى اللقاء.
لبث واقفاً حتّى واراها الباب ثمّ جلس. ولحظ أنّ البعض كان ينظر مستطعاً نحوه، ولكنّه كان ثملاً بالسعادة. ترى أكان حديثها استجابة لما بدا من إعجابها بها، أم لحاجتها الملحة إلى مذكراته؟ لم تسنح قبل الساعة فرصة للتعارف. كان يجدها دائماً بصحبة الأتراب. هذه أوّل فرصة، وقد فاز بما تمنى طويلاً فيها يشبه المعجزة. إنّ كلمة من ثغر نحبّه خليقة بأن تجعل من كلّ شيء كلا شيء...

٢٦

بدا ياسين قلقاً رغم إرادته. وكان قد تظاهر طويلاً بأنّه لا يهتمّ شيء، لا الدرجة ولا الماهية ولا الحكومة نفسها، لا أمام زملائه الموظفين فحسب ولكن حيال نفسه أيضاً. إنّ الدرجة السادسة - إذا رُقي إليها - ستزيد مرتبته جنهين لا غيراً. ويا ما ضييع ياسين! ويقولون إنّها ستجعل منه رئيس قلم بعد مراجع، ولكن متى كان يكثر ياسين للرياسات؟ بيد أنّه كان قلقاً، خاصّة بعد أن استدعى مدير الإدارة محمّد

من جيني فون وستفال حفيده الدوق برونشويك، وكانوا يسمونها «الأميرة الساحرة» و«ملكة الرقص»، وها هي أميرة ساحرة أخرى ولو رقصت لكانت ملكة الرقص. وأعاد المجلّد إلى موضعه ثمّ رجع، وجعل يملأ ناظره بما بدا من قامتها، جانب من أعلى الظهر، وصفحة العنق الرقيق، والقدال المزدان بالشعر المعقوص، ما أجمل المنظر، ومزّ بها خفيفاً إلى مقعده وجلس. ولم تمض دقائق حتّى سمع وقع أقدامها الخفيفة، فنظر إلى وراء أسفاً وهو يظنّها منصرفة ولكنّه رآها قادمة، فلمّا حادثته وقفت بشيء من الارتباك، وهو لا يصدّق عينيه، وقالت:

- لا مؤاخذه، هل أجد عندك محاضرات التاريخ؟
نهض كالجنديّ، وبادر يقول:
- بكل تأكيد...
فقالت كالمعتذرة:

- لم أستطع متابعة الأستاذ الإنجليزي كما يجب، ففانني تقييد كثير من النقط الهامة، وأنا لا أرجع إلى المراجع إلّا في المواد التي سأخصّص فيها فيما بعد، ولا يتسع الوقت للمراجعة في سائر المواد...

- مفهوم... مفهوم...
- وقد علمت أنّ مذكراتك مستوفاة، وأنت أعرتها لكثيرين لينقلوا منها ما فاتهم؟...
- نعم، ستكون تحت أمرك غداً...
- متشكّرة جداً (ثمّ وهي تبسم) لا تسظنّ بي الكسل، ولكنّ إنجليزيّتي متوسطة...
- لا بأس، أنا بدوري دون المتوسط في الفرنسيّة، ولعلّه نتاح لنا الفرص للتعاون، ولكن معذرة تفضلي بالجلوس، قد يهّمك الاطلاع على هذا الكتاب، مدخل الاجتماع لها كنز...

ولكنّها قالت:
- متشكّرة، لقد رجعت إليه مرّات، قلت إنّك دون المتوسط في الفرنسيّة، فلعلّك في حاجة إلى مذكرات السيكلوجي؟

فأجاب دون تردّد:
- أكون شاكراً لو تفضّلت...
- غداً نتبادل المذكرات؟

- تولد تزحق، كل واحد وقسمته...
 - والكفاءة؟...
 فقال ياسين منفعلًا:
 - الكفاءة؟ هل نقيم جسرًا أو ننشئ محطات كهربائية؟ كفاءة! ماذا يتطلب عملنا الكتابي من كفاءة؟ كلانا بالابتدائية، فضلًا عن ذلك فانا رجل مثقف...
 فضحك إبراهيم أفندي ضحكة ساخرة، وقال:
 - مثقف؟ أهلاً يا سي مثقف!... أنتظر نفسك مثقفًا بالشعر الذي تحفظه؟ أو بالإنشاء الذي تكتب به خطابات الإدارة كأنك تؤدي امتحان الابتدائية من جديد؟... أنا تارك أمري لله...
 وافترق الرجلان على أسوأ حال، وعاد ياسين إلى مكتبه، كانت الحجرة كبيرة، صُفَّت بها المكاتب متقابلة على الجانبين، وغطت الجدران بالرفوف المكتظة بالملفات. وكان البعض مكبًا على الأوراق والآخرين يتحدثون ويدخنون؛ على حين ذهب وجاء عدد من السعاة بالملفات، قال جار ياسين له:
 - ستأخذ ابني البكالوريا هذا العام، وسألحقها بمعهد التربية فأرتاح من ناحيتها، لا مصروفات ولا تعب قلب في البحث عن وظيفة بعد التخرج.
 فقال ياسين:
 - خير ما تفعل...
 فسأله الرجل مجادلًا:
 - وماذا أعددت لكريمة؟ كم بلغت من العمر على فكرة؟
 فابتسمت أسرار ياسين زغم انفعاله، وقال:
 - في الحادية عشرة، وسوف تأخذ الابتدائية في الصيف القادم إن شاء الله (وهو يعدُّ على أصابعه): نحن في نوفمبر فيبقى سبعة أشهر بالتمام والكمال...
 - ما دامت تنجح في ابتدائي فستنجح في ثانوي، البنات أضمن اليوم من الصبيان...
 ثانوي؟ هذا ما تريده زقوبة. كلا إنه لا يطيق أن يرى ابنته تسير في الطريق ونهداها يهترآن. ثم المصروفات؟...

أفندي حسن - زوج زينب أم رضوان - لمقابلة وكيل الوزارة، وذاع بين موظفي المحفوظات أنَّ الوكيل استدعاه لسمع رايه في موظفيه للمرة الأخيرة قبل توقع الكشف الخاص بالترقيات. محمد حسن؟
 خليفته اللدود الذي لولا السيد محمد عفت لبطش به من زمن بعيدا. أيمكن أن يشهد له هذا الرجل شهادة طيبة؟ وانتهاز فرصة خلو حجرة المدير فهرع إلى التليفون، وطلب كتيبة الحقوق، وكان يتصل بها ذلك اليوم للمرة الثالثة، مستدعيًا رضوان ياسين...
 - آلو، رضوان؟ أنا والدك.
 - أهلاً وسهلاً، كل شيء عال.
 كان صوته ينم عن ثقة، الابن واسطة للأب...
 - الحركة رهن التوقيع الآن؟
 - اطمئن، الوزير نفسه هو الذي أوصى بك، كلمه نواب وشيوخ ووعدهم بكل خير.
 - ألا تحتاج المسألة لتوصية أخيرة؟
 - أبداً، الباشا هتاني هذا الصباح كما أخبرتك، اطمئن جداً.
 - أشكرك يا ابني، سلام عليكم.
 - وعليكم السلام يا بابا، مبارك مقدماً...
 ووضع السماعة وغادر الحجرة، فالتقى بإبراهيم أفندي فتح الله - زميله ومنافسه في الدرجة - قادماً يحمل بعض الملفات، فتبادلا التحيّة في تحفظ، وعند ذلك قال ياسين:
 - ليكن بيننا مباراة رياضية يا إبراهيم أفندي، ولتقبل النتيجة أيًا كانت بشهامة...
 فقال الرجل في امتعاض:
 - على شرط أن تكون مباراة شريفة!
 - ماذا تعني؟
 - أن يكون الاختيار لوجه الله لا لوساطة...
 - غريب رأيك! وهل يوجد رزق بدون وساطة في هذه الدنيا؟ اسع كما تشاء وأسعى كما أشاء، وسيأخذ الدرجة صاحب القسمة والنصيب...
 - أنا أقدم منك...
 - كلانا موظف قديم، سنة لا تقدّم ولا تؤخّر!...
 - في سنة تولد نفوس وتزحق نفوس!

- لو صَحَّتْ هُذِهِ النُّظَرِيَّةُ، لاسْتَحَقَّ عَمَّ حَسَنِينَ
فَرَّاشَ مَكْتَبِنَا أَنْ يَكُونَ وَزِيرَ الْمَعَارِفِ! ...
وَضَرَبَ إِبْرَاهِيمَ فَتَحَ اللَّهُ كَفًّا بِكَفِّ، وَقَالَ مَسَائِلًا
زَمَلَاءَهُ جَمِيعًا:

- يَا إِخْوَانُ، هَذَا الرَّجُلُ (مَشِيرًا إِلَى يَاسِينَ) طَيِّبٌ
وَعَظِيمٌ وَابْنُ حَلَالٍ، وَلَكِنْ هَلْ يَشْتَغِلُ بِمَلِيمٍ؟ ... أَنَا
رَاضٍ بِدُمْتِكُمْ! ...
فَقَالَ يَاسِينَ هَازِنًا:

- دَقِيقَةُ عَمَلٍ مِثِّي تَسَاوِي شُغْلَ يَوْمٍ مِنْكَ! ...
- الْحِكَايَةُ أَنَّ الْمَدِيرَ يَتَرَفَّقُ بِكَ، وَأَنْتَ تَتَوَكَّلُ عَلَى
ابْنِكَ فِي هَذَا الْعَهْدِ الْأَغْبَرِ! ...
فَقَالَ يَاسِينَ مَلْجَأًا فِي إِغَاظَتِهِ:

- وَفِي كُلِّ عَهْدٍ وَحَيَاتِكَ، ابْنِي فِي هَذَا الْعَهْدِ، فَإِذَا
جَاءَ الْوَفْدُ عِنْدَكَ ابْنُ أَخِي وَأَبِي، قُلْ مِنْ عِنْدِكَ
أَنْتَ؟

فَقَالَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّقْفِ:

- عِنْدِي رَيْنَا! ...

- وَهُوَ سَبَحَانَهُ عِنْدِي أَيْضًا، أَلَيْسَ بِرَبِّ الْجَمِيعِ؟

- وَلَكِنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْ زَبَائِنِ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ! ...

- وَهَلْ يَرْضَى عَنْ مَدْمَنِي الْأَفْيُونِ وَالْمَنْزُولِ؟

- لَيْسَ أَبْشَعُ فِي الْوُجُودِ مِنَ السُّكْرِ! ...

- الْخَمْرُ شَرَابُ الْوُزَرَاءِ وَالسُّفَرَاءِ، أَلَا تَرَاهُمْ فِي

الْصُحُفِ وَهُمْ يَشْرَبُونَ الْأَنْخَابَ؟ وَلَكِنْ هَلْ رَأَيْتَ

سِيَاسِيًّا يَقْدِمُ قِطْعَةً أَفْيُونٍ فِي حَفْلِ سِيَاسِيٍّ فِي صَحَّةٍ

عَقْدَ مَعَاهِدَةٍ مِثْلًا؟!

فَقَالَ جَارُ يَاسِينَ وَهُوَ يَغَالِبُ الضُّحْكَ:

- هَسْ يَا جَمَاعَةَ، وَإِلَّا قَضَيْتُمْ مَدَّةَ خِدْمَتِكُمْ فِي

السُّجْنِ!.

فَبَادَرَ يَاسِينَ مَشِيرًا إِلَى غَرْمِهِ:

- كَانَ يَقْرَفُنِي فِي السُّجْنِ وَحَيَاتِكَ، وَيَقُولُ لِي أَنَا

أَقْدَمُ مِنْكَ! ...

وَإِذَا بِمُحَمَّدٍ حَسَنٍ يَعُودُ مِنْ مُقَابَلَةِ وَكِيْلِ الْوِزَارَةِ،

فَسَادَ الصَّمْتُ وَتَطَلَّعَتْ نَحْوُهُ الرُّعُوسُ.

وَأَتَتْهُ الرَّجُلُ نَحْوَ حَجَرَتِهِ لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ،

فَتَبَادَلُوا النُّظَرَاتِ مُتَسَائِلِينَ. لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ

الْمُتَخَاصِمِينَ الْآنَ رَئِيسَ قَلَمٍ، وَلَكِنْ مَنْ صَاحِبِ الْحَقِّ

- نَحْنُ لَا نُلْحَقُ بِنَاتِنَا بِالثَّانَوِيِّ، وَلِمَذَا؟ ... إِنَّمَا
لَنْ تَتَوَكَّفَ! ...

فَسَالَ ثَالِثٌ:

- أَهَذَا يُقَالُ فِي عَامِ ١٩٣٨؟

- يُقَالُ فِي أَسْرَتِنَا وَلَوْ فِي عَامِ ١٢٠٣٨.

فَضَحِكَ رَابِعٌ وَهُوَ يَقُولُ:

- قُلْ إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْفِقَ عَلَيْهَا وَعَلَى نَفْسِكَ
مَعًا. قَهْوَةُ الْعَتَبَةِ وَخَمَارَةُ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ، وَحُبُّ الْبَنَاتِ
الْبَكَارِي هَذِهِ مِثِّي الْحَلِيلُ. هَذِهِ هِيَ الْحِكَايَةُ ...

فَضَحِكَ يَاسِينَ ثُمَّ قَالَ:

- رَيْنَا سَاتَرَهَا. ... وَلَكِنْ كَمَا قُلْتَ لَكَ نَحْنُ لَا
نَعْلَمُ الْبَنْتَ أَكْثَرَ مِنَ الْابْتِدَائِيَّةِ ...

وَتَعَالَتْ سَعْلَةٌ مِنَ الرُّكْنِ الْقَصِيِّ فِيمَا يَلِي مَدْخَلَ
الْحَجَرَةِ، فَالْتَفَتَ يَاسِينَ إِلَى صَاحِبِهَا، ثُمَّ وَقَفَ وَكَأَنَّهُ
تَذَكَّرُ أَمْرًا هَامًا، فَمَضَى إِلَى مَكْتَبِهِ حَتَّى شَعَرَ الرَّجُلُ بِهِ
لُفْرَعَ نَحْوَهُ رَأْسَهُ، فَمَالَ يَاسِينَ فَوْقَهُ قَائِلًا:

- وَعِدْتَنِي بِالْوَصْفَةِ ...

فَمَدَّ الرَّجُلُ أُذُنَهُ مُتَسَائِلًا:

- نَعَمْ؟ ...

فَتَضَايَقَ يَاسِينَ مِنْ أُذُنِ الرَّجُلِ الثَّقِيلَةِ، وَاسْتَحْيَى
أَنْ يَرْفَعَ مِنْ صَوْتِهِ وَإِذَا بِصَوْتٍ يَجِيءُ مِنْ وَسْطِ الْحَجَرَةِ
عَالِيًا وَهُوَ يَقُولُ:

- أَرَاهَنْ عَلَى أَنَّهُ يَسْأَلُكَ عَنِ الْوَصْفَةِ، وَصَفْتِكَ الَّتِي
سَتَذْهَبُ بِهَا جَمِيعًا إِلَى الْقَبْرِ ...

وَتَرَاوَجَعَ يَاسِينَ مُتَبَرِّمًا إِلَى مَكْتَبِهِ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ
دُونَ مَبَالَاةٍ بِإِحْرَاجِهِ، وَبِصَوْتٍ سَمِعْتَهُ الْحَجَرَةُ كُلُّهَا:

- أَنَا أَقُولُ لَكَ عَنْهَا: هَاتِ قَشْرَ مَانْجُو، اغْلِهِ غَلِيًّا
شَدِيدًا، وَدَاوِمِ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَصِيرَ سَائِلًا لَزَجًا
كَالْعَسَلِ، وَخُذْ مِنْهُ مَلْعَقَةً عَلَى غِيَارِ الرِّيقِ ...

وَضَحِكُوا جَمِيعًا، غَيْرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ فَتَحَ اللَّهُ قَالَ
مَتَهَكِّمًا:

- فَايِقْ وَرَائِقْ، أَنْتَظِرْ حَتَّى تَأْخُذَ الدَّرَجَةَ السَّادِسَةَ
وَهِيَ تَشْدُ حَيْلَكَ؟ ...

فَتَسَاءَلَ يَاسِينَ ضَاحِكًا:

- وَهَلْ تَنْفَعُ الدَّرَجَةُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؟ ...

فَقَالَ جَارُ يَاسِينَ ضَاحِكًا أَيْضًا:

فاستاء ياسين بالتعريض بسيرته، وقال:
- لا أقبل أن يمسّ إنسان سلوكي الخاص بكلمة،
أنا حرّ خارج الوزارة! ...
- ودخلها؟
- سأعمل ما يعمل رؤساء الأقسام، أنا اشتغلت في
ماضي ما يكفي طوال العمر ...
عاد ياسين إلى مكتبه متكلفاً الابتسام رغم جيشان
صدره بالغضب، وذاع النبأ فتلقّى التهاني ...
وكان إبراهيم فتح الله يميل على أذن جاره هامساً في
حقن:
- ابنه! ... هذه هي الحكاية! عبد الرحيم باشا
عيسى ... فهمت؟! ... اسفخص! ...

٢٧

كان السيّد أحمد عبد الجواد جالساً على كرسيّ كبير
في المشريّة ينظر إلى الطريق حيناً، وحيناً في جريدة
الأهرام المبسوطة على حجره، وكانت ثقبوب المشريّة
تعكس على جلبابه الفضفاض وطاقيته نقطاً من
الضياء، وقد ترك باب حجرته مفتوحاً ليتمكن من
سماع الراديو القائم في الصالة، غير أنّه بدا ناحلاً
ضامراً، كما لاحت في عينيه نظرة ثقيلة تنم عن
استسلام حزين. وكان كأنما يكتشف الطريق - من
مجلسه بالمشريّة - لأوّل مرّة في حياته، فلم يسبق له أن
رأه من هذه الزاوية في أيّام حياته الماضية، إذ إنّ لم
يمكث في البيت إلّا ساعات النوم على وجه التقريب،
أمّا اليوم فلم تعد له من تسليّة - بعد الراديو - إلّا هذه
الجلسة في المشريّة، ينظر من ثقبوبها شمالاً وجنوباً،
وإنّه لطريق حيّ، مسلّ لطيف، وله إلى هذا طابعه
الذي يميّزه عن طريق النحاسين الذي ألف رؤيته من
دكانه - السابق - زهاء نصف قرن من الزمان، وهذه
دكاكين حسنين الحلاق ودرويش الفؤال والفولي اللبان
ويومي الشرباتي وأبو سريع صاحب المقلي، تقوم في
الطريق كالكسبات في الوجه حتّى عُرف بها وعُرفت به،
أيّ عشرة وأيّ جوار، ترى ما أعمال هؤلاء الناس؟
حسين الحلاق مدمج الخلق، من نوع قلّ أن يبدو

السعيد؟! - وفتح باب المدير، وظهر رأسه الأصلع وهو
ينادي بصوت جاف «ياسين أفندي». فنهض ياسين
بجسمه الضخم، ومضى نحو الحجره وقلبه يخفق،
وتفتحصر المدير بنظرة غريبة ثمّ قال:
- رُقيت إلى الدرجة السادسة! ...
فقال ياسين وقد انشرح صدره:
- شكراً يا أفندم! ...
فقال الرجل بلهجة لا تخلو من جفاف:
- من الإنصاف أن أصارحك بأنّه يوجد من هو
أحقّ بها منك ... ولكنّها الوساطة!
فغضب ياسين، وكان كثيراً ما يغضب حيال هذا
الرجل، وقال:
- الوساطة! ما لها؟ هل تتمّ حركة كبيرة أو صغيرة
دون وساطة؟ هل ترقّى مخلوق في هذه الإدارة، في هذه
الوزارة، بما فيهم حضرتك، دون وساطة؟
فكظم الرجل غيظه، ثمّ قال:
- لا يأتي من ناحيتك إلّا وجع الدماغ، تترقى
بدون وجه حقّ، ثمّ تثور لأقلّ ملاحظة عادلة، ما
علينا، مبارك، مبارك يا سيدي، فقط أرجو أن تشدّ
حيلك، أنت الآن رئيس قلم! ...
فتشجّع ياسين بتراجع المدير، وقال دون أن يخفّف
من حدّته:
- أنا موظّف منذ أكثر من عشرين عاماً، وعمرى
اثنان وأربعون عاماً، فهل تستكثر عليّ الدرجة
السادسة؟ إنّ الغلمان يعيّنون فيها بمجرد تخرّجهم من
الجامعة! ...
- المهمّ أن تشدّ حيلك، أرجو أن أعتمد عليك
كبقيّة زملائك، فقد كنت وأنت ضابط مدرسة
النحاسين مثال الموظّف المجّد، ولولا تلك الحادثة
القديمة ...
- شيء قديم فلا داعي لذكره الآن، وكلّ واحد له
أخطاؤه ...
- أنت الآن في سنّ الرجولة الناضجة، فإذا لم
يستقم سلوكك تعدّ عليك أن تقوم بواجبك، كلّ
ليلة سهر، فبأيّ مخّ تعمل في الصباح؟ أريد أن
تنهض بالإدارة، هذا كلّ ما هنالك ...

المصحف، واسمع الراديو وانعم بأسرتك، ويوم الجمعة زر الحسين راكباً، حسبك هذا!»، الأمر لصاحب الأمر، متولي عبد الصمد لا يزال يتخبط في الطرقات!، ويقول وانعم بأسرتك! لم تعد أمينة تمكث في البيت، انقلبت الآية، أنا في المشربية وأمينة تحول في القاهرة من مسجد إلى مسجد، كمال يجالسني خفيفاً كالضيف، عائشة؟ آه يا عائشة، أمن الأحياء أنت أم من الأموات؟ ثم يريدون من قلبي أن يسبراً ويستريح!...

- سيدي...

والتفت إلى الراء صوب الصوت، فرأى أم حنفي حاملة صينية صغيرة عليها قارورة الدواء وفنجان قهوة فارغ وكوب ماء مملوء لنصفه.

- الدواء يا سيدي...

رائحة المطبخ تتطاير من ثوبها الأسود، هذه المرأة التي صارت مع الزمن واحدة من أسرتنا. وتناول الكوب وملاً الفنجان حتى نصفه، وفوض سداد القارورة ونقط منها أربع نقط في الفنجان، وقلص وجهه قبل أن يتقلص من طعم الدواء، ثم تجرعه.

- بالشفأ يا سيدي...

- متشكر، أين عائشة؟

- في حجرتها، الله يصبر قلبها!

- ناديا يا أم حنفي...

في حجرتها، أو على السطح، ثم ماذا؟. وكان الراديو ما زال يذيع أغانيه ساخراً من حزن البيت الصامت ولم يكن السيد اضطرراً إلى ملازمة البيت إلا منذ شهرين، وكان قد مضى على وفاة نعيمة عام وأربعة أشهر، فاستأذن الرجل في سماع الراديو لحاجته الملحة إلى التسلية، فقالت له عائشة: «طبعاً يا بابا، ربنا يكفيك شرّ قعدة البيت». وسمع خفيف ثوب فالتفت فراها قادمة في ثوب أسود، متشحة بخمار أسود رغم حرارة الجو، تشوب بشرتها البيضاء زرقة غريبة، عنوان التعاسة يا ابنتي، قال برقة:

- هاتي الكرسي واجلسي معي قليلاً.

ولكنها لم تتزحزح عن موقفها قائلة:

- مرتاحة هكذا يا بابا.

عليه أثر الزمن، لم يكد يتغير منه شيء إلا شعره، ولكنه جاوز الخمسين بلا ريب، من لطف الله بهؤلاء الناس أنه يحفظ عليهم صحتهم! ودرويش؟. أصلح، هكذا كان دائماً، ولكنه في الستين، ما أقوى جسمه! كذلك كنت أنا في الستين، ولكنني أمسيت في السابعة والستين فيا له من عمرا. وأعدت تفصيل ثيابي لتناسب ما تبقى من جسدي، وإذا نظرت إلى هذه الصورة المعلقة في حجرتي أنكرت نفسي. الفولي أصغر من درويش، ذلك الأعمش المسكين، ولولا غلامه ما عرف كيف يبتدي إلى سبيله، أبو سريع رجل عجوز، عجوز؟! ولكنه ما زال يعمل، لم يفارق واحد منهم دكانه، ألا إن فراق الدكان لشديد! ثم لا يبقى لك إلا هذا المجلس، والقبوع في البيت ليل نهار، لو استطيع أن أخرج ساعة واحدة كل يوم! ولكن علي أن أنتظر يوم الجمعة، ثم لا بد من العصا، ولا بد من كمال ليصحبني، الحمد لله رب العالمين، بيومي أصغرهم وأسعدهم حظاً، من أم مريم بدأ، أما أنا فعندها انتهيت، وهو اليوم مالك أحدث عمارة في الحى، هكذا كان مصر بيت السيد رضوان، أنشأ هذا المشرب المضاء بالكهرباء، حظ رجل يبدأ بخداع امرأة، سبحان العاطي وجلت حكمته! كل شيء يتجدد، الطريق مهّد بالأسفلت، وأضيء بالمصابيح، أتذكر ليالي عودتك آخر الليل في الظلام الدامس؟ لكن أين مَيّ هاتيك الليالي؟ وفي كل دكان كهرباء وراديو، كل شيء جديد، إلا أنا، عجوز في السابعة والستين، لا يستطيع مغادرة داره إلا يوماً واحداً في الأسبوع وهو يلهث. القلب! كله من القلب، القلب الذي طالما عشق وطالما ضحك وطالما انبسط وغنى، يقضي اليوم بالعود ولا راد لقضائه. قال الطبيب «خذ الدواء والزم البيت واتبع نظامي الغذائي»، حسن، ولكن هل يعيد ذلك إلي قوتي؟... أعني بعض قوتي؟ فأجاب الطبيب «حسبنا أن نمنع المضاعفات، ولكن الجهد أو الحركة شيء خطير... (ثم ضاحكاً)... لماذا تريد أن تسترد قوتك؟ أجل لماذا؟ إنه لشيء محزن مضحك معاً، ومع ذلك قال «أريد أن أذهب وأجيء» فقال الطبيب «لكل حال مسراتها، جلسة هادئة، اقرا

معطفاً، وعلى وجهها بيشة، وتنقل خطاها في بطاء.
شدّ ما ركبها الكبرا. كان يُحسن الظنّ بصحتها متذكراً
أمها المعمرة، ولكنّها هي تبدو أكبر من سنّها - اثنين
وستين عاماً - بعشرة أعوام على الأقلّ، ومزّ وقت غير
قصير قبل أن تدخل عليه وهي تتساءل:

- كيف حال سيّدي؟

فقال بصوت مرتفع نفخ فيه نبرات الحدة المطلوبة:
- كيف حالك أنت! ما شاء الله! من طلعة الصبح
يا وليّة!

فابتسمت قائلة:

- زرت سيّدتك، وزرت سيّدك، ودعوت لك
وللجميع...

عاودته بعودتها طمأنينة وسلام، وشعر بأنّه يستطيع
الآن أن يطلب ما يشاء دون حرج:

- أصبح أن تركبني وحدي كلّ هذا الوقت!

- أنت أذنت لي يا سيّدي، لم أغب طويلاً، ولكنّها
الضرورة يا سيّدي، ما أحوجنا إلى الدعاء، توسّلت
إلى سيّدي أن يرّد إليك صحتك حتّى تروح وتغدو كما
تشاء، كما دعوت لعائشة وللجميع...

وجاءت بكرسيّ وجلست، ثمّ سألته:

- هل تناولت الدواء يا سيّدي؟ أنا نُبّهت على أمّ
حنفي...

- لينك نُبّهتها على شيء أحسن!

- بالشفّا يا سيّدي، سمعت في المسجد درساً جيّلاً
من الشيخ عبد الرحمن، تحدّث يا سيّدي عن الكفّارة
عن الذنب وكيف تمسح السيّئات، كلام جميل جدّاً يا
سيّدي، ليتني أستطيع أن أحفظ كأيّام زمان!...

- وجهك شاحب من المشي، كلّها كم يوم
وتصبحين من زبائن الدكتور!...

- ربّنا الحافظ، أنا لا أخرج إلّا لزيارة آل البيت،
فكيف يقع لي سوء؟!

ثمّ متداركة:

- آه يا سيّدي، كدت أنسى، يتحدّثون في كلّ
مكان عن الحرب، يقولون إنّ هتلر هجم!...

تساءل الرجل باهتمام:

- متأكّدة؟...

علّمتها الأيّام الأخيرة ألاّ يحاول أن يعدل بها عن
رأي.

- ماذا كنت تفعلين؟

فقال دون أن ينمّ وجهها عن أيّ معنى:

- لا شيء أفعله يا بابا.

- لماذا لا تخرجين مع نيتك لتزوري الأضرحة

المباركة، أليس هذا أفضل من بقائك هنا وحدك؟

- ولماذا أزور الأضرحة؟

وكأنّها فوجئ بقولها، بيد أنّه قال بهدوء:

- تتوسّلين إلى الله أن يصبر قلبك.

- الله هنا معنا في البيت!

- طبعاً، أقصد أن تركب هذه العزلة يا عائشة،

زوري أخذك، زوري الجيران، روّحي عن
نفسك...

- لا أستطيع أن أرى السكّرية، ولا معارف لي، لم

يعد لي معارف، لا أطيق زيارة أحد...

قال الرجل وهو يولي عنها رأسه:

- أحبّ أن تنصّري، وأن تهتمّي بصحتك...

- صحتي!...

قالتها فيها يشبه العجب، فقال بتوكيد:

- نعم، ما فائدة الحزن يا عائشة؟...

فقالت وكانت رغم حالها تحافظ على الأدب الذي
تعوّدت أن تلتزمه حياله:

- وما فائدة الحياة يا بابا؟

- لا تقولي هذا، إنّ أجرك عند الله عظيم!...

فحنّت رأسها لتخفي عينيها الدامعتين، وقالت:

- أوّد أن أذهب عنده لأنال هذا الأجر، ليس هنا يا
بابا!...

ثمّ انسحبت برّقة، وقبل أن تغادر الحجرة توقّفت
قليلاً كأنّها تذكّرت أمراً، فسألته:

- كيف صحتك اليوم؟

فابتسم قائلاً:

- الحمد لله، المهّمّ صحتك أنت يا عائشة...

وغادرت الحجرة، من أين تأتيه الراحة في هذا

البيت؟ وراح يرّد بصره في الطريق حتّى ثبت على

أمانة وهي راجعة من جولتها اليومية، كانت ترتدي

الدرجة السادسة، على حين يتعين خزيجو الجامعات في
الدرجة الثامنة الكتائبية، وقد حصل عبد المنعم على
الليسانس في نفس التاريخ، ولكنه لم يكن يدري ما
المصير، قالت خديجة باسمه، وكانت تشعر بشيء من
الغيرة:

- رضوان صديق الحكام، ولكن العين لا تعلق على
الحاجب...

فقال ياسين في سرور لم يفلح في مداراته:
- ألم تروا صورته مع الوزير في أهرام أمس؟...
بتنا لا ندري كيف نكلمه!...

فأشار إبراهيم شوكت إلى عبد المنعم وأحمد قائلاً:
- هذان الولدان خائبان، ضيعة عمرهما في مناقشات
حادة لا معنى لها، وكان خير من عرفا من رجالات
البلد الشيخ علي المنوفي ناظر مدرسة الحسين الأوليّة،
وسخام البرك عدلي كريم صاحب مجلة الضوء أو
الهاب لا أدري!

وكان أحمد ساخطاً وإن بدا طبيعياً. أثاره زهو خاله
ياسين كما أثاره تعليق والده، أما عبد المنعم فقد غطى
ما كان ينتظره من وراء هذه الزيارة الجامعة على
الغضب الذي كان خليقاً أن يشتعل في صدره في
ظروف أخرى. وكان يسترق النظر في وجه رضوان
متسائلاً عما وراءه، غير أن قلبه استبشر خيراً بالزيارة،
فلعلها لم تكن تقع لولا أنها تحمل البشري. وعاد
ياسين يقول معلقاً على كلام إبراهيم:

- لو سألتني عن رأيي لقلت لك نعم الولدان! ألم
يقولوا في الأمثال: السلطان من ابتعد عن باب
السلطان؟

كلما لم يفلح ياسين في مداراة سروره، كما لم يفلح
في إقناع أحد بإيمانه بما قال، غير أن خديجة قالت
مشيرة إلى رضوان:

- ربنا يطعمه خيرهم ويكفيه شرهم...

وأخيراً التفت رضوان إلى عبد المنعم قائلاً:

- أرجو أن أهتلك عما قريب...

فتطلع إليه عبد المنعم متسائلاً وقد تورّد وجهه،
فعاد رضوان يقول:

- وعدني الوزير بأن يعينك في إدارة التحقيقات...

- سمعتها بدل المرة مائة مرة، هتلر هجم... هتلر
هجم...

فقال الرجل ليفهمها أنها لم تسبقه بالأخبار:

- كان هذا متوقعاً من لحظة لأخرى...

- بعيد عتاً إن شاء الله يا سيدي؟...

- قالوا هتلر فقط؟ وموسوليني؟ ألم تسمعي هذا
الاسم؟...

- اسم هتلر فقط...

- ربنا يلفظ بناء، إذا سمعتم نداء عن ملحق
البلاغ أو المقطم فاشترؤوه...

فالت المرأة:

- كأيام غليم وزبلن، أتذكر يا سيدي؟ سبحانه
من له الدوام!...

٢٨

كانت زيارة جامعة وذات معنى كما قالت خديجة فيما
بعد، فعندما فُتح باب الشقة ملا فراغه ياسين في بدلة
بيضاء من تيل المحلّة، تتقدّمه الوردة الحمراء والمنشّة
العاجية، يكاد جسمه الضخم يدفع الهواء بين يديه،
وتبعه ابنه رضوان في بدلته الحريرية آية في الأناقة
والجمال، ثم زئوبة في ثوب سنجابي تعلوها الحشمة
التي صارت جزءاً لا يتجزأ منها، وأخيراً كريمة في
فستان أزرق بديع كشف عن أعلى النحر والذراعين،
وقد تبلورت أنوثتها المبكرة - لم تكن تزيد عن الثالثة
عشرة - فبدت جاذبيتها صارخة. وضمتهم حجرة
الاستقبال مع خديجة وإبراهيم وعبد المنعم وأحمد،
وسرعان ما قال ياسين:

- أسمعتم عن شيء كهذا من قبل؟ ابني سكرتير
الوزير الذي أنا في وزارته مجرد رئيس قلم في
المحفوظات، تنهّد له الأرض إذا سار، وأنا لا يكاد
يشعر بي إنساناً!

كان مدلول كلامه الاحتجاج، ولكن لم يخف على
أحد ما انطوت عليه نفسه من تيه وفخار بابنه. وفي
الحق قد حصل رضوان على الليسانس في مايو من هذا
العام، وما لبث أن تعين في يونيه سكرتيراً للوزير، في

- قعدة البيت لعنة، إلّا مَنْ كان صاحب ملك فهو سلطاناً...!

فقال أحمد وفي عينيه بسة خبيثة:

- خالي ياسين صاحب ملك، ولكنّه صاحب وظيفة أيضاً...!

فضحك ياسين ضحكة عالية، وقال:

- صاحب وظيفة وبس من فضلك، أمّا الملك! كان يا ما كان، كيف يحتفظ بملكه مَنْ كان له أسرة كاسري؟!

فهتفت زُئوبة في ارتياح:

- أسرتك؟!

والتفت رضوان - قاطعاً الحديث الذي لا يحبّه - إلى أحمد قائلاً:

- إن شاء الله نمجدنا في خدمتك في العام المقبل عندما تأخذ الليسانس...!

فقال أحمد:

- أشكرك جداً، لكنني لن أتوظّف!...

- كيف؟...

- الوظيفة خليقة بقتل أمثالي، مستقبلي في الميدان الحرّ!...

وهمت خديجة بالاحتجاج، ولكنها أثرت تأجيل العراك إلى حينه، أمّا رضوان فقال بأساً:

- إذا غيّرت رأيك فستجدني في خدمتك!

فرفع أحمد يده إلى رأسه شاكراً. وجاءت الخادم بأكواب الليمون المثلّجة، وفي فترة الصمت التي جعلوا فيها يحتسون، حانت التفاتة من خديجة نحو كريمة فكأنما كانت تراها لأول مرّة منذ إفاقتها من مسألة عبد المنعم، فقالت برقة:

- كيف حالك يا كريمة؟

فأجابتها الفتاة بصوت فيه رخامة:

- بخير يا عمّتي، متشكّرة...!

وكادت خديجة تأخذ في إطرأ جملها، ولكنّ شيئاً - كالخذر - أوقفها. الواقع أنّها لم تكن أوّل مرّة تحييها بها زُئوبة معها مذ حجّزت في البيت بعد أخذها الابتدائية. وقالت خديجة لنفسها إنّ هذه الأمور تُسمّ

كانت أسرة خديجة تتربّ على لطف هذا التقرير، فركّزت أبصارهم في رضوان، طالبة المزيد من التأكيد، فمضى الشاب يقول:

- أوّل الشهر القادم على أكثر تقدير...!

وقال ياسين معقّباً على قول ابنه:

- إنّها وظيفة قضائية، لقد عيّنّ عندنا في إدارة المحفوظات شابّان من حملة الليسانس في الدرجة الثامنة بثمانية جنيهاً!

وكانت خديجة هي التي طلبت من ياسين أن يكلم ابنه بشأن عبد المنعم، فقالت في امتنان:

- الشكر لله ولك يا أخي (ثمّ وهي تلتفت إلى رضوان) وطبعاً جميل رضوان فوق رءوسنا...!

وأمن إبراهيم على قولها قائلاً:

- طبعاً، إنّهُ أخوه، ونعم الأخ.

وقالت زُئوبة باسمه، لكي تخرج من هامش الجلسة:

- رضوان أخو عبد المنعم وعبد المنعم أخو رضوان، ما في ذلك كلام.

وتساءل عبد المنعم الذي كان يشعر بحياء لم يشعر به من قبل حيال رضوان:

- أعطاك كلمة جدّية؟

فقال ياسين باهتمام:

- كلمة وزيراً...! إني متتبّع المسألة!

وقال رضوان:

- وأنا من ناحيتي سأدّلك لك الصعاب في إدارة المستخدمين، ولي فيهم أصدقاء كثيرون، ولو أنّ موظفي المستخدمين لا صديق لهم! فقال إبراهيم شوكت وهو يتنهد:

- الحمد لله. لقد أراحنا الله من الوظيفة والموظفين!...

فقال ياسين:

- عشت ملكاً يا أبا خليل...!

ولكنّ خديجة قالت متهمّة:

- ربّنا لا يحكم على أحد بقعدة البيت!...

وتدخلت زُئوبة مجاملة كعادتها، فقالت:

أبيها، وهكذا كانت تخاطب عمّتك جدّك! .
 فقالت خديجة متهكّمة:
 - المسألة تتوقّف على الآباء حقاً! ...
 فبادرتها زُتوبة قائلة:
 - البنت معذورة، آه لو سمعت حديثه بين أولاده! .

فقالت خديجة:
 - أنا عارفة وفاهمة! ...
 فقال ياسين:
 - أنا رجل له آراؤه في التربية، أنا الأب الصديق، لا أحب أن يرتعد أبنائي خوفاً في محضري، أنا حتّى اليوم يتتابني الارتباك أمام أبي! ...
 فقال إبراهيم شوكت:
 - الله يقوّيه ويصبره على قعدة البيت! السيّد أحمد جيل وحده، وليس مثله أحد في الرجال ...
 فقالت خديجة منتقدة:
 - قل له! .

فقال ياسين كالمعتذر:
 - أبي جيل وحده، وا أسفاه أصبح هو وأصحابه قعيدي بيوتهم، ولم تكن الدنيا لتسعهم على رحابتها! ...

وكان رضوان يقول لأحمد في حديث جانبيّ مستقلّ:
 - بدخول إيطاليا الحرب أصبح الموقف بالنسبة لمصر شديد الخطورة ...

- ربّما تحوّلت هذه الغارات الإسميّة إلى غارات فعليّة ...

- ولكن هل لدى الإنجليز قوّة كافية لصدّ الزحف الإيطاليّ المتوقّع؟ لا شك أنّ هتلر سيترك مهمّة الاستيلاء على قناة السويس لموسوليني ...

فتساءل عبد المنعم:
 - هل تقف أمريكا متفرّجة؟
 فقال أحمد:

- مفتاح الموقف الحقيقيّ في يد روسيا! .
 - لكنّها حليفة هتلر! ...

- الشيوعيّة عدوّ النازيّة، ثمّ إنّ الشرّ الذي يتهدّد

في الهواء شيئاً! . وإنّ كريمة إذ كانت ابنة زُتوبة فهي في الوقت نفسه ابنة ياسين، ومن هنا نجيء دقّة المسألة! .
 ولم يكن عبد المنعم يوفي كريمة حقّها من النظر لانشغاله بموضوعه، ولكن كان يعرفها حقّ المعرفة، على أنّه لم يكن قد برا كلّ البرء من أثر وفاة زوجها، أمّا أحمد فلم يكن في فؤاده متّسع! وقال ياسين:
 - كريمة ما زالت آسفة على عدم التحاقها بالمدرسة الثانويّة.

فقالت زُتوبة مقطّبة:
 - وأنا آسفة أكثر ...
 فقال إبراهيم شوكت:

- لآني أشفق على البنات من جهد الدراسة، ثمّ إنّ البنت في النهاية لبيتها، فلن يمضّر عام أو آخر حتّى تزفّ كريمة إلى صاحب القسمة السعيد ...

يا مقطوع اللسان، هكذا قالت خديجة لنفسها، يفتح المواضيع الخطيرة وهو في غفلة عن نتائجها، يا له من موقف! . كريمة ابنة ياسين وأخت رضوان صاحب الفضل، لعلّه لا يكون لهذا القلق من سبب إلّا الوهم، ولكن لماذا تكثر زُتوبة من زيارتنا جازّة في يدها كريمة؟ . ياسين لا يسمح له وقته بالتفكير والتدبير، أمّا ربيبة التخت! ...
 وقالت زُتوبة:

- هذا الكلام كان يقال في الزمن الماضي، أمّا اليوم فالبنات كلّهنّ يذهبن إلى المدارس ...
 فقالت خديجة:

- في حارتنا بنشان في المدارس العالية، ولكنّ شكلها والعباذ بالله! ...

فسأل ياسين أحمد:

- أليس في بنات كليتك جمال؟

وخفق قلب أحمد، وتمثّلت لعينيه الصورة المعشّشة في قلبه، ثمّ أجاب:

- حُبّ العِلْم ليس قاصراً على الدميّات ...

فقالت كريمة باسمّة، وهي تنظر صوب أبيها:

- المسألة تتوقّف على الآباء.

فضحك ياسين قائلاً:

- عفّارم يا ابنتي! هكذا تتحدّث البنت الطيّبة عن

التي كانت من سگان المعادي. وألقى نظرة على الحديقة فرأى مائدة طويلة ممتدة في أرض فضاء معشوشبة، تكتنفها من الجانبين أشجار الصفصاف والنخيل، وقد صُفّت فوقها أبريق الشاي وأوعية اللبن وأطباق الحلوى. ثم سمع طالبًا يتساءل:
- نلتزم بالأداب الإنجليزِيَّة أم نقضُ على المائدة كالنور؟

فأجابه آخر فيما يشبه الأسف:
- آه لو لم توجد لادي فورستر!
كان الوقت أصيلًا، ولكنَّ الجوَّ كان لطيفًا رغم شخصيَّة يونيه الثقيلة، ثمَّ ما لبث أن لاح السرب المنتظر عند مدخل الفيلا. جئن معًا كأنهنَّ على ميعاد، وكنَّ أربعًا هنَّ جملة الطالبات بالقسم وبدأت علويَّة صبري وهي تخطر في فستان ناصع البياض مهفُف، جعل من كائنات اللطيف لوتًا واحدًا بديعًا فيسا عدا الشعر الأسود الفاحم، وعند ذاك شعر أحمد بقُدَم هازئة تحتكَّ بقدمه كأنما تنبهه إن كان في حاجة إلى مَنْ ينهيه، وكان سرُّه قد ذاع من زمن. . . وتابعهنَّ حتَّى استقرَّ بهنَّ المجلس في ركن أخلي هنَّ بالفراندا، ثمَّ جاء مسر فورستر وزوجه، وقالت الزوجة موجَّهة الخطاب إلى الطلبة، وهي تشير إلى الفتيات:

- هل تحتاجون إلى تعارف؟
فارتفع الضحك، وقال الأستاذ وكان ذا شخصيَّة فائقة رغم مشاركته الخمسين:

- الأجدر أن تعرّفهم بي أنا!
وضجُّوا بالضحك مرَّة أخرى، حتَّى عاد مسر فورستر يقول:

- في مثل هذا الوقت من كلِّ عام كنَّا نغادر مصر إلى إنجلترا لقضاء العطلة، هذه المرَّة لا ندرى إن كنَّا سنرى مصر مرَّة أخرى أم لا! . . .
فقاطعت زوجته قائلة:

- ولا حتَّى إن كنَّا سنرى إنجلترا! . . .
وأدركوا أنَّها تلمح إلى خطر الغواصات، فقال لها أكثر من صوت:
- حظَّ سعيد يا سيديتي . . .
وعاد الرجل يقول:

العالم بانتصار الألمان أضعاف ما يتهدَّده بانتصار الديموقراطيات . . .
فقالت خديجة:

- أظلموا لنا الدنيا يظلم عيشتهم، وما هذه الأشياء التي لم نعرفها من قبل؟ . . . صفارات إنذار! . . . مدافع مضادة . . . كشافات، مصائب تشيَّب الإنسان قبل الأوان!

فقال إبراهيم في سخرية هادئة:
- على أيِّ حال الشيب في بيتنا ليس قبل الأوان . . .

- هذا عندك أنت وحدك!
كان إبراهيم في الخامسة والستين، ولكنَّه يبدو بالقياس إلى السيّد أحمد - الذي لم يكن يكبره إلَّا بثلاث سنوات - كأنما يصغره بعشرات السنين.
وعند انتهاء الزيارة، قال رضوان لعبد المنعم:
- زرني في الوزارة.

ولما أغلق الباب وراء الداهيين، قال أحمد لعبد المنعم:
- خذ بالك أن تدخل عليه دون استئذان، ادرس كيف تزور سكرتير وزير!
فلم يجبه ولم ينظر ناحيته . . .

لم يجد أحمد مشقَّة تُذكر في الاهتداء إلى فيلا مسر فورستر - أستاذ علم الاجتماع - بالمعادي. وقد أدرك حال دخوله أنَّه جاء متأخِّرًا بعض الوقت، وأنَّ كثيرًا من الطلبة الذين دُعوا مثله إلى الحفل الذي أقامه الأستاذ لمناسبة سفره إلى إنجلترا قد سبقوه إليه، واستقبله الأستاذ وحرمه، وقد قدَّمه إليها باعتبارها طالبًا من خير طلبة القسم، ثمَّ مضى الشاب إلى حيث جلس الطلبة في الفراندا، كان المجلس يتكوَّن من طلبة قسم الاجتماع كافَّة، وكان أحمد ضمن القلَّة المنقولة للسنة النهائية، يشاركونهم ذلك الشعور بالامتياز والتفوق. ولم تكن واحدة من الطالبات قد حضرت، ولكنَّه كان مطمئنًا إلى مجيئهنَّ، أو إلى مجيء «صديقه»

الشاي بعد!
ومال مستر فورستر على أذن أحمد - وكان يجلس إلى يساره - وسأله:

- كيف تمضي العطلة؟ أعني ماذا تقرأ؟
- كثيرًا في الاقتصاد وقليلًا في السياسة، وأكتب بعض المقالات في المجلات.
- أنصحك بأن تقدّم في الماجستير بعد الليسانس.
فقال أحمد بعد الانتهاء ممّا في فيه:
- ربّما فيما بعد، سأبدأ بالعمل في الصحافة، هذه خطّتي من قديم.
- حسن!

الصديقة العزيزة تحدث لادي فورستر بطلاقة، ما أسرع ما أتقنت الإنجليزية، والورد والأزهار تنضج بالحرمة والألوان كما ينضج القلب بالحبّ، في عالم الحرّة يزدهر الحبّ كالأزهار، الحبّ لا يكون عاطفة صحيحة طبيعيّة إلّا في بلد شيوعيّ. وقال مستر فورستر:

- من المؤسف أنّي لم أستكمل دراستي للغة العربية، كنت أودّ أن أقرأ مجنون ليلي دون مساعدة أحد منكم!

- المؤسف أنّك ستقطع عن دراستها!...

- إلّا إذا سمحت الظروف فيها بعد...

وربّما وجدت نفسك مضطّرًا إلى تعلّم الألمانية، ألا يكون مضحكًا لو شهدت لندن مظاهرات تطالب بالجلاء وتهتف له؟ في أخلاق الإنجليز الشخصية فتنة، أمّا فتنة الصديقة العزيزة فمن نوع لا مثيل له، عمّا قليل تغيب الشمس فيجمعنا الليل في مكان واحد لأوّل مرّة، وإذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام عليّ! وسأل أستاذه:

- وماذا أنت فاعل عقب وصولك إلى لندن؟

- دُعيت للعمل في الإذاعة.

- إذن لن ينقطع عنّا صوتك.

«مجاملة تُغتفر في هذا المجلس الذي تزينه صديقتي، إنّنا لا نسمع هنا إلّا الإذاعة الألمانية، شعبنا يحبّ الألمان ولو على سبيل الكراهية للإنجليز، والاستعمار أعلى مراحل الرأسماليّة، اجتمعنا بأستاذنا يخلق موقفًا

- ساحل معي ذكريات جميلة من حياتنا المشتركة في كلّيّة الآداب، وعن مقاطعة المعادي الهادئة الجميلة، وعنكم أنتم الذين سأعتر حتى بهذركم!

فقال أحمد مجاملًا:

- أمّا ذكراك فستبقى في نفوسنا دوائًا، وتنمو بنمو عقولنا...

- شكرًا... (ثمّ مخاطبًا زوجه وهو يتبسّم)...
أحمد شابّ جامعيّ كما ينبغي، وإن تكن له آراء ممّا تسبّب المتاعب عادة في بلده!
فقال زميل موضحًا:
- يعني أنّه شيوعيّ!

فرفعت السيّد حاجبيها باسمه، أمّا مستر فورستر فقال بلهجة ذات معنى:

- لم أقل أنا ذلك، ولكنّ زميله الذي قال!

ثمّ نهض الأستاذ وهو يقول:

- أن وقت الشاي، يجب ألا يسرقنا الوقت، وسوف نجد بعد ذلك متسعًا للسمر واللهو...

وكان عمّال جروبي قد أعدّوا المائدة ووقفوا متأهبين للخدمة... وتوسّطت لادي فورستر جانب المائدة الذي جلس إليه الفتيات، على حين توسّط الأستاذ

الجانب الآخر، وهو يقول معلقًا على نظام الجلوس:

- كنا نودّ أن تكون الجلسة أكثر اختلاطًا، ولكنّا

راعينا الآداب الشرقيّة، أليس كذلك؟

فاجابه طالب بلا تردّد:

- للأسف هذا ما لاحظناه يا سيّدي!

وصبّ الخادم الشاي واللبن وبدأت المأدبة. لاحظ أحمد اختلاصًا أنّ علويّة صبري كانت أبرع زميلاتها ممارسة لآداب المائدة وأقلهنّ ارتباكًا، بدت ألفة للحياة الاجتماعيّة، كأنّها في بيتها، وشعر بأنّ ملاحظة تناوّلها للحلوى ألذّ من الحلوى نفسها، هذه صديقتها العزيزة التي تبادلته الصداقة والمودة دون أن تشجّع على عبور حدودهما، وقال لنفسه: إن لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام عليّ! وعلا صوت لادي فورستر وهي تقول:

- أرى ألاّ تؤثّر قيود الحرب في تناولكم للحلوى!

فعلّق طالب على قولها قائلاً:

- من المصادفات السعيدة أنّ الرقابة لم تفرض على

بالتقدم لخطبتك؟

فارتفع رأسها الجميل كرد فعل لوقع المفاجأة،
ولكن لم يندب عنها صوت كأنها لم تجد ما تقوله، وكان
الطريق خاليًا وأضواء المصابيح متوارية خلف الطلاء
الأزرق، فعاد يسألها:

- أسمحين لي؟

فقالت بصوت خافت لم يخل من عتاب:

- هذه طريقتك في الكلام وما لها من طريقة،

الواقع أنك أذهلتني!

فضحك ضحكة خفيفة، وقال:

- اعتذر عن ذلك، وإن كنت أظن أن تاريخ

صداقتنا الطويل لا يجعل من قولي مفاجأة تذهل.

- تعني صداقتنا وتعاوننا الثقافي؟

فلم يرتج لقولها، ولكنه قال:

- أعني عاطفتي غير الخفية التي اتخذت شكل

الصداقة والتعاون الثقافي كما قلت...

فتساءلت في صوت باسم غير خال من اضطراب:

- عاطفتك الخفية؟

فقال بعناد وإخلاص:

- أعني حبي! الحب لا يخفى، إنما عادة لا نتكلم

لنعلنه، وإنما لنسعد بساع إعلاننا له...

فقالت بملاحظة حتى تسترد هدوءها:

- الأمر كله مفاجأة لي...

- يؤسفني أن أسمع هذا.

- لماذا تأسف؟ الواقع أنني لا أدري ماذا أقول...

ضاحكًا:

- قولي «أسمح لك» ودعي الباقي لي...

- ولكن، ولكن... أنا لا أعرف شيئًا، معذرة،

كنّا أصدقاء حقًا ولكنك لم تحدّثني عن... أعني لم

تسمح الظروف بأن تحدّثني عن شخصك...

- ألم تعرفيني؟

- عرفتك طبعًا، ولكن ثمة أمور أخرى ينبغي أن

تعرف...

أتعني هذه الأمور التقليدية؟ يا لها من أسئلة خليقة

بقلب لم يأسره الحب! وشعر بامتعاض، بيد أنه ازداد

عنادًا فقال:

جديرًا بالتأمل، نبّره بالروح العلمية ولكن ثمة ارتطام
بين حبنا لأستاذنا وبغضنا لجنسه، والمأمول أن تقضي
الحرب على النازية والاستعمار معًا، هنالك أخلص
للحب وحده».

ثم عادوا إلى مجالسهم بالفراندا التي أضيئت

مصابيحها، ولم تلبث لادي فورستر أن قالت:

- إليكم البيانو فليفضل أحدكم بإساعنا لحنا.

فرجأها طالب قائلاً:

- تفضلي أنت بإساعنا...

فنهضت في رشاقة الشباب الذي جاوزته بأعوام،

ثم جلست إلى البيانو وفتحت النوبة وراحت تعزف

لحنا، لم يكن أحد منهم ذا إلمام بالموسيقى الغربية أو

تذوق لها، ولكنهم أنصتوا في اهتمام بدافع الأدب

والمجاملة. وحاول أن يستمد من حبه قوة سحرية

يفتح لها مغاليق اللحن، ولكنه نسي اللحن في استراق

النظر إلى وجه فتاته، والتقت عيناهما مرة، فتبادلا

ابتسامة لم تغب عن كثيرين، وفي نشوة الفرحه قال

لنفسه: «أجل، إذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام

علي»، وعلى أثر فراغ لادي فورستر من عزفها، عزف

طالب لحنا شرقياً، ثم خلصوا للسمر وقتاً غير قصير،

وحوالى الساعة الثامنة مساء ودّعوا أستاذهم وأخذوا في

الانصراف. ولبد أحمد عند منصرف طريق في ليل بالغ

في جماله وحنانه، تحت مظلة من الأشجار الباسقة،

حتى رآها قادمة وحيدة في طريقها إلى مسكنها، فبرز لها

من المنعطف قاطعاً عليها الطريق، فتوقفت في دهش

وقالت:

- ألم تذهب معهم؟

فنفض فيها يشبه التهنيد ليخفف صدره من جيشانه،

وقال بهدوء:

- تخلفت عن القافلة لأقابلك!

- ترى ماذا يظنون بتخلفك؟

فقال باستهانة:

- هذا شأنهم!

وسارت في ببطء وسار إلى جانبها، ثم تمخض صبر

الأيام الطويلة عنه وهو يقول:

- أريد أن أسألك قبل عودتي: هل تسمحين لي

متفقون على هذا، لن أشتغل.
 وكان قد بردت عواطفه واستغرقه البحث، فقال:
 - ليكن، أشتغل أنا...
 فقالت بصوت كأنها تعمّدت أن يكون رقيقاً فوق
 العادة:
 - أستاذ أحمد، فلنؤجل الحديث، أعطني مهلة
 للتفكير...
 فضحك ضحكة فاترة، وقال:
 - قلبنا الأمر على كافة وجوهه، ولكنك في حاجة
 إلى مهلة لتدبري الرفض!
 فقالت بصوت حيي:
 - ينبغي أن أحادث والدي.
 - هذا بدهي، ولكن كان من الممكن أن ننتهي إلى
 رأي قبل ذلك!
 - مهلة ولو قصيرة!...
 - نحن في يونيو، وستسافرين إلى المصيف، ولن
 نلتقي إلا في أكتوبر القادم في الكلية؟
 قالت بإصرار:
 - لا بدّ من مهلة للتفكير والتشاور!
 - إنك لا تريدين أن تتكلمي...
 وإذا بها تتوقّف عن المسير فجأة، وتقول في دأب
 وعزم معاً:
 - أستاذ أحمد، إنك تأبى إلا أن تحملني على
 الكلام، أرجو أن تتقبّل كلامي بصدر سمح، لقد
 فكرت في موضوع الزواج من قبل كثيراً، لا بالقياس
 إليك ولكن بصفة عامة، وانتهيت منه - ووافقتي على
 ذلك والدي - بأن حياتي لن تستقيم، وإنني لن أحافظ
 على مستواي، إلا إذا تهيأت لي ما لا يقلّ عن خمسين
 جنيهاً شهرياً...
 وتجرّع خيبة مريّة لم يتوقّع - على أسوأ الفروض -
 أن تبلغ مرارتها هذه الدرجة، وتساءل:
 - وهل يملك موظّف - أعني في سنّ الزواج - هذا
 المرتّب الضخم؟
 ولكنها لم تنبس، فعاد يقول:
 - إنك تريدين زوجاً ثرياً!
 - آسفة جداً، ولكنك أجبرتني على مصارحتك برأيي.

- سيجيء كلّ شيء في حينه...
 فتساءلت، وكانت قد ملكت زمام نفسها:
 - أليس الآن حينه؟
 فابتسم ابتسامة فاترة، وقال:
 - لك حقّ، تعين المستقبل؟
 - طبعاً!
 وأحنقته «طبعاً». أمل أن يسمع أغنية فسمع
 محاضرة معادة! ولكن يجب ألاّ تخونه ثقته في نفسه
 مهما يكن الأمر. العزيزة الباردة لا تدري كم يسعده
 إسعادها!
 - سأجد بعد تخرّجي عملاً...
 ثمّ بعد لحظات من الصمت:
 - وسيكون لي يوماً دخل لا بأس به!
 فتمتعت في حياء:
 - كلام عام...
 فقال وهو يداري ألمه بالهدوء:
 - سيكون المرتّب في الحدود المعروفة، أمّا الدخل
 فحوالي عشرة جنيهاً...
 وساد الصمت. لعلّها تزن الأمور وتفكر. هذا هو
 التفسير المادّي للحب! كان يحلم بالجنون العذب
 ولكن أين منه هذا؟ هذا البلد عجيب يندفع في
 السياسة وراء العاطفة، ويتبع في الحبّ دقّة
 المحاسبين. وأخيراً جاء الصوت الرقيق قائلاً:
 - لندع الدخّل جانباً، فلا يحتمل أن ترتّب حياتك
 على أساس تقدير اختفاء الأعزّاء من حياتك...
 - أردت أن أقول لك إنّ والدي من ذوي
 الأملاك...
 فقالت بجهد برّ فترة التردّد التي سبقته:
 - فلنكن واقعيين...
 - قلت إنّني سأجد عملاً، وستجدين من ناحيتك
 عملاً أيضاً...
 فضحكت ضحكة غريبة:
 - كلّاً لن أشتغل، لم أذهب إلى الجامعة لأتوظّف
 كسائر الزميلات...
 - ليس العمل عيباً...
 - طبعاً، ولكن والدي... الواقع أننا جميعاً

فضحك رياض قلدس، وقال مخاطبًا إسماعيل لطيف، وكانت هذه ثاني مقابلة بينهما في مدى تعارف عام:

- أنت تخاطب رجلًا لا يشعر بمسئولية الزوج!
فسأله إسماعيل متهمًا:
- وهل تشعر بها أنت؟
- حقًا أنا أعزب مثله، غير أنني لست عدوًا للزواج...

كانوا يسرون في شارع فؤاد الأول، في مطلع الليل، في ظلام لم تحفقه الأضواء الضئيلة التي تسرب من أبواب المحال العامة، وكان الشارع رغم ذلك مكتظًا بالنساء والرجال والجنود البريطانيين على اختلاف أنواعهم. وكان الحريف يبعث أنفاسًا رطبة، ولكن أكثر الناس مضوا في الملابس الصفية. ونظر رياض قلدس إلى جماعة من الجنود الهنود وقال:

- من المحزون أن يتعد الإنسان عن وطنه هذه المسافة المديدة، ليقتل في سبيل غيره!

فقال إسماعيل لطيف:
- ترى كيف يتأق هؤلاء التعساء أن يضحكوا؟
فقال كمال ممتعضًا:
- كما نضحك نحن في هذه الدنيا الغريبة، الخمر والمخدرات والياس.

فضحك رياض قلدس قائلًا:
- إنك تعاني أزمة فريدة، كل ما عندك مزعزع الأركان، عبث وقبض الريح، نضال اليم مع أسرار الحياة والنفس، وملل وسقم، إنني أرثي لك.

فقال إسماعيل لطيف ببساطة:
- تزوج، إنني مررت بهذا الملل قبل زواجي...
فقال رياض قلدس:

- قل له! ...
فقال كمال، وكأنما يخاطب نفسه:
- الزواج هو التسليم الأخير في هذه المعركة الفاشلة...

«أخطأ إسماعيل في المقارنة، إنّه حيوان مهذب، ولكن مهلاً لعلّه الغرور، فيم الغرور وأنت ترقد فوق تلّ من الخيبة والفشل، إسماعيل لا يدري شيئاً عن

فقال بصوت غليظ:
- هذا أفضل على أيّ حال...

فعدت تغمغم:
- أسفة! ...
وثار غضبه، ولكنّه بذل جهدًا صادقًا كيلا يخرج عن حدود الأدب، ثم وجد رغبة لا تقاوم في أن يصارحها برأيه فتساءل:

- أتمسحين لي أن أصارحك برأيي؟
فبادرته قائلة:

- كلاً، إنني أعرف الكثير عن آرائك، وأرجو أن تبقى صديقين كما كنّا! ...

ورثى رغم غضبه لحالها، هذه هي الحقيقة العارية قبل أن يلففها الحب. التي تهرب مع خادمها امرأة طبيعية وإن عدت - بعين التقاليد - شاذة. في المجتمع المختل يبدو الصحيح مريضًا والمريض صحيحًا، إنّه غاضب ولكنّ تعاسته أكبر من غضبه، إنّه على أيّ حال يتحدث رأيه وفي هذا عزاء، ومدّت يدها للمصافحة فتلقاها بيده، ثم أبقاها فيها حتى وسعه أن يقول:

- قلت إنك لم تدخل الجامعة لتتوظفي، قول جميل في ذاته، ولكن إلى أيّ مدى انتفعت بالجامعة؟
وارتفع ذقنها كالمثسالة، لكنّه قال بلهجة لم تخل من سخرية:

- معذرة عن سخاوتي، لعلّ المسألة أنك لم تحبّي بعد، مع السلامة...
ودار على عقبه، ثم ولى مسرعًا.

٣٠

قال إسماعيل لطيف:
- لعلّي أخطأت بحمل زوجي إلى القاهرة كي تلد فيها، كل ليلة تنطلق صفارة الإنذار، أمّا طنطا فلم تكن نعرف شيئاً عن أهوال هذه الحرب.
فقال كمال:

- إنّه غارات رمزية لو أرادوا بنا شرًا ما منعهم قوّة!

يتضاعف شقاء العالم تحت أقدامها الحديدية...
فقال إسماعيل:
- ليكن ما يكون، المهم أن نرى الإنجليز في نفس
الموضع الذي فرضوه على العالم الضعيف!...
وقال كمال:

- ليس الألمان بخير من الإنجليز...
فقال رياض قلّدت:
- ولكننا انتهينا مع الإنجليز إلى برّ، والاستعمار
البريطانيّ يوغل في الشيخوخة، ولعلّه قد تَلَفّف ببعض
المبادئ الإنسانية، ولكننا سنتعامل غداً مع استعمار فيّ
مغرور شرّه غنى حرب، فما العمل؟
فضحك كمال ضحكة تحمل نغمة جديدة، وقال:
- نشرب كأسين ونحلم بعالم واحد تسيطر عليه
حكومة واحدة!...
- سنحتاج حتّى إلى أكثر من كأسين...
ووجدوا أنفسهم أمام حانة جديدة لم يروها من
قبل، لعلّها من الحانات «الشيطنية» التي تخلّقها ظروف
الحرب بين يوم وليلة، وحانت من كمال نظرة إلى
داخلها فرأى امرأة بيضاء ذات جسم شرقيّ تقوم على
إدارة الحانة، ثمّ جمدت قدماء فلم يتحرّك من موقفه،
أو بالأحرى لم يستطع أن يتحرّك حتّى اضطّرّ صاحبه
أن يتوقّف عن المسير وينظر إلى حيث ينظر...
مريم! لم تكن إلّا مريم دون غيرها، مريم الزوجة
الثانية لياسين، مريم جارة العمر، في هذه الحانة بعد
اختفاء طويسل، مريم التي ظنّ بها أنّها لحقت
بأمّها!...

- أتريد أن نجلس ها هنا؟ هلمّ فليس بالداخل
إلّا أربعة جنود...
وتردّد مليّاً، ولكنّ شجاعته لم تواته فقال وكما يفق
من ذهوله:
- كلّاً...

وألقي نظرة على المرأة التي ذكرته بأمّها في أيّامها
الأخيرة، ثمّ انطلقوا في طريقهم، متى رآها آخر
مرّة؟ منذ ثلاثة أو أربعة عشر عاماً على الأقلّ، إنّها
معلم من معالم الماضي الذي لا يُنسى، ماضيه...
تاريخه... ماهيته... كلّ أولئك شيء واحد، وقد

دنيا الفكر، ولكنّ السعادة المستمّدة من العمل
والزوجة والأولاد، أليست سعادة جدية بأن تسخر من
احتقاركها؟ قال رياض:
- إذا قرّرت يوماً أن أوّلّف رواية، فستكون أحد
أبطالها!

فأنجّه كمال نحوه في اهتمام صبيانيّ، وسأله:
- ماذا ستصنع منّي؟
- لا أدري، ولكن ينبغي أن توطّن نفسك على ألا
تزعل، فإنّ كثيرين تمّن قراؤا أنفسهم في أفاصيصي قد
زعلوا...
- لماذا؟...
- لعلّه لأنّ لكلّ إنسان فكرة عن شخصه من خلقه
هو، فإذا جرّده الروائيّ منها أبى وغضب!...
فتساءل كمال في قلن:
- أليديك فكرة عنيّ غير ما تعلن؟
فبادره في توكيد قائلاً:

- كلّاً، ولكنّ الروائيّ قد يبدأ من شخص ثمّ ينسائه
كلّيّة وهو بصدد خلق نموذج بشريّ جديد، لا صلة
بينه وبين الأصل إلّا الإيماء، وإنّك توحى إلى
بشخصيّة الرجل الشرقيّ الحائر بين الشرق والغرب،
الذي دار حول نفسه كثيراً حتّى أصابه الدوار.
«يتكلّم عن الشرق والغرب، ولكن من أين له أن
يعرف عايده؟ قد تكون التعاسة متعدّدة الجوانب».

وقال إسماعيل لطيف في بساطة مرّة أخرى:
- طول عمرك تخلّق لنفسك المتاعب، الكتب في
نظري أساس بلواك، لماذا لا تجرّب الحياة الطبعيّة؟
وبلغوا في مسيرهم منعطف عماد الدين فمالوا إليه،
وقد اعترضهم جماعة كبيرة من الإنجليز فتفادوا منها،
وقال إسماعيل لطيف:

- إلى جهنّم، من أين لهم بهذا الأمل؟! ترى هل
يصدّقون أنفسهم؟

فقال كمال:
- يخيّل إليّ أنّ نتيجة الحرب قد تقرّرت غايتها
الربيع القادم...

فقال رياض قلّدت متمعضاً:
- النازيّة حركة رجعيّة غير إنسانيّة، وسوف

فقال له كمال مداعباً:

- قد لا تتمكّن من العبث بشخصي في روايتك...
فضحك ضحكة عصبية وقال وهو يومي إلى
الناس:

- البشرية ممثلة بنسبة عادلة في هذا المخبأ...
فقال كمال متهكئاً:

- لو اجتمعوا على خير كما يجتمعون على
الخوف!...

وهتف إسماعيل متنفزاً:

- زمان زوجي نازلة على السلم تتلمس طريقها في
الظلام، إني أفكر جدّياً في العودة إلى طنطا غداً...
- إن عشنا.

- مساكين حقاً أهل لندن!

- لكنهم أصل البلاء كله...

وكان وجه رياض قللس يزداد شحوباً، ولكنّه
دارى اضطرابه بالكلام فسأل كمال:

- سمعتك تتساءل مرّة أين محطة الموت لأغادر
مركبة الحياة المملّة، فهل يهون عليك أن تنسفنا قبله
الآن؟

فابتسم كمال، وكان يرهف السمع في قلق متزايد
متوقّفاً بين لحظة وأخرى أن ينطلق مدفع فيصكّ
الأذان، وأجاب:

- كلاً... (ثمّ كالمستأثر)... لعلّه الخوف من
الأم؟

- أم ثمة أمل غامض في الحياة ما زال يضطرب في
أعماقك؟

لماذا لم ينتحر؟ ولم يبدو ظاهر حياته كأنه يمثّل
حاساً وإيماناً؟ طالما نازعته النفس إلى النقيضين: وكر
الشهوات والتصوّف، ولكنّه لم يكن ليطبق حياة
خالصة للدعة والشهوات، ومن ناحية أخرى كان ثمة
شيء في أعماقه ينفر من فكرة السلبية والهروب،
ولعلّه - هذا الشيء - الذي حال بينه وبين الانتحار،
وفي ذات الوقت فإنّ استمساكه بحبل الحياة المضطرب
في يديه مناقض لصميم شكّه القاتل، والخالصة في
كلمتين: حيرة وعذاب!

وفجأة انطلقت المدافع كالطرر، لا تتيح للصبر

استقبلته في قصر الشوق في آخر زيارة لهذا البيت قبل
طلاقها، وما زال يذكر كيف شكت إليه اعوجاج أخيه
وارتداده إلى حياة العريضة والمجون، شكوى لم يكن
يقدر عواقبها وقد انتهت بها إلى ذلك الدور الذي تلعبه
في هذه الحانة «الشيطنية»، ومن قبل ذلك كانت كريمة
السيد محمد رضوان، وكانت صديقه وملهمة أحلامه
في الصبا الأوّل، في ذلك الزمان الذي شهد البيت
القديم عامراً بالأفراح والسلام، كانت مريم وردة
وكانت عائشة وردة ولكنّ الزمن عدو لدود للورود،
وربما كان من المحتمل أن يعثر عليها في بيت من هذه
البيوت كما عثر بالسّت جليّة، ولو وقع هذا لكان وجد
نفسه في مأزق وأيّ مأزق، هكذا بدأت مريم
بالإنجليز وانتهت بالإنجليز...

- أتعرف هذه المرأة؟

- نعم...

- كيف؟

- امرأة من هاتيك النسوة، ولعلّها نسيتهن!...

- أوه، الحانات ملأى بهنّ، مومسات قديمات،
وخادِمات متمرّدات، ومن كلّ لون...

- نعم...

- ولمّ لم تدخل فلعلّها كانت ترخّب بنا إكراماً
لك...؟

- لم نعد في طور الشباب ولدينا أماكن أفضل...
تقدّم به العمر وهو لا يدري، منتصف الحلقة
الرابعة، وكأنّما قد استهلك نصيبه من السعادة، وإذا
قارن بين تعاسته الراهنة وتعاسته الماضية لم يدر أيّهما
أشدّ، ولكن ماذا يهمّ العمر وقد ضاق بالحياة؟ حقّاً إنّ
الموت لذّة الحياة، ولكن ما هذا الصوت؟

- غارة!...

- أين نذهب؟...

- إلى مخبأ قهوة ركس...

لم يجدوا في المخبأ مكاناً خالياً للجلوس فوقفوا،
وكان ثمة أفنديّة وخواجات وسيدات وأطفال، وكان
الكلام يدور بشقّي اللغات واللهجات. وأصوات
رجال المقاومة المدنيّة في الخارج تهتف «أطفئ النور»،
وبدا وجه رياض شاحباً، وكان يمقت دويّ المدافع،

الآخرين، وما زالت أمينة أول من يستيقظ، فتوقظ بدورها أم حنفي، ثم تتوضأ وتصلّي، وتهض أم حنفي - وكانت نسيباً خير الجميع صحّة - فتقصد حجرة الفرن، وتفتح عائشة عينين ثقيلتين فتقوم لتحسو أقذاح القهوة تباعاً وتحرق السجائر الواحدة تلو الأخرى حتى إذا دُعيت للفقور تناولت لقيات. وقد اضمحلّت أيّما اضمحلال، وانقلبت هيكلًا عظيمًا كسي جلدًا باهتًا، وأخذ شعرها في السقوط حتى اضطرت إلى اللجوء إلى الطبيب قبل أن يدركها الصلع، وتكالتب عليها العلل حتى أشار عليها الطبيب بالتخلّص من أسنانها، فلم يبق من شخصها القديم إلّا الاسم. ولم تكن أقلعت عن عادة النظر في المرآة، لا لتأخذ زينة، ولكن بحكم العادة من ناحية، ولإلمعان في الحزن من ناحية أخرى، وربما بدت أحياناً وكأنّها أذعنت للمقادير في استسلام لطيف، فتطيل من جلستها مع أمّها، وتشارك في الحديث الدائر، وربما افترت شفتاها الذابلتان عن ابتسامة، أو تزور والدها لتسأل عن صحّته، أو تتمشّي في حديقة السطح وترمي بالحبّ إلى الدجاج، هناك تقول أمّها برجاء:

- كم أسعدت قلبي يا عائشة، ليتني أراك دائماً على هذه الحال!

على حين تحجّف أم حنفي عينيها قائلة:
- فلنذهب إلى حجرة الفرن لنصنع شيئاً جيلاً!
ولكن عند منتصف الليل استيقظت أمّها على صوت بكاء آت من حجرتها، فهرعت إليها محاذرة أن توقظ الرجل النائم، فوجدتها جالسة في الظلام تتحب، وكما شعرت بدنو أمّها تعلّقت بها هاتفة:

- لو تركت لي ما كان في بطنها ظلماً منها يداي فارغتان، والدنيا لا شيء فيها...

فاحتضنتها أمّها وهي تقول:

- إني أعلم الناس بحزنك، حزن يجلّ عن العزاء، ليتني كنت فداهم، ولكنّ الله جلّ وعلا حكّمته، وما جدوى الحزن يا مسكينة؟!...

- كلّما نمت حلمت بهم، أو حلمت بالحياة الأولى...

متنفّساً، وزاغت الأبصار، وضلّت الألسن، ولكنّ الضرب لم يستمرّ أكثر من دقيقتين بالحساب الزمنيّ، وتوقّع الناس عودة بغیضة إلى الدويّ المرعب، واستبدّ الفرع بالنفوس، غير أنّ الصمت ساد وعمق، وتساءل إسماعيل لطيف:

- إني أتخيّل حال زوجي الآن، ترى متى تنتهي الغارة؟

فتساءل رياض قلّس:

- متى تنتهي الحرب؟

وما لبث أن انطلقت صفّارة الأمان فنذ عن المخبأ تنهّد عميق، وقال كيال:

- ليست إلّا مداعبة إيطاليّة!...

وغادروا المخبأ في الظلام كالحفافيش، ولفظت الأبواب أشباحاً وراء أشباح، ثمّ تساقط الضوء الباهت متتابعاً من النوافذ، وملأت الضجّة الأركان... يبدو أنّ الحياة - في هذه اللحظة السريعة المعتمة - ذكّرت كلّ غافل بمدى قيمتها الذي لا يُقاس به شيء في الوجود...

٣١

اتخذ البيت القديم مع الزمن صورة جديدة تندر بالانحلال والتدهور. انفرط نظامه وتقوّض مجلسه، وكان النظام والمجلس روحه الأصيل. ففي نصف النهار الأوّل يغيب كيال في المدرسة، وتضفي أمينة إلى جولتها الروحيّة ما بين الحسين والسيدة، وتنزل أم حنفي إلى حجرة الفرن، ويتمدّد السيّد على الكنبّة في حجرته أو يجلس على كرسيّ في المشريّة، وتهيم عائشة على وجهها ما بين السطح وحجرتها، ويظلّ الراديو في الصالة يهتف وحده، وعند الأصيل تجتمع أمينة وأم حنفي في الصالة، وتلبث عائشة في حجرتها، أو تمكث معهما بعض الوقت ثمّ تذهب، أمّا السيّد فلا يغادر حجرته، وكيال إن عاد من الخارج مبكراً فيلّكي يقبع في الدور الأعلى في مكتبه. وكان اعتكاف السيّد أول الأمر محزناً، ثمّ صار عادة عنده وعند الآخرين، وكان حزن عائشة مفاجئاً ثمّ صار عادة عندها وعند

- لن أغادر حجرتي...
وقالت الأم:
- إنَّها غارات آمنة ومدافع كالصواريخ...
أما أبوه فجاء صوته من الداخل وهو يقول:
- لو أنَّ بي قدرة على الذهاب إلى المخبأ لذهبت إلى
الجامع أو إلى بيت محمد عفت...
ويومًا جاءت عائشة من السطح مهرولة وهي تلهث
وقالت لأمها:
- حدث شيء عجيب...
فنظرت إليها أمها في استطلاع مشوب بالرجاء،
فعدت تقول وهي ما تزال تلهث:
- كنت في السطح أراقب غروب الشمس، وكنت
على حال من اليأس لم أشعر بمثلها من قبل، وفجأة
فتحت في السماء نافذة من نور بهيج فصحَّت بأعلى
صوتي «يا رب».
اتسعت عينا الأم في تساؤل، أهي الرحمة المنشودة
أم هاوية جديدة من الأحزان؟ وتمتمت:
- لعلها رحمة ربنا يا ابنتي...
فقالت ووجهها يتهلل بشراً:
- نعم، صحت يا رب، وكان النور يملأ الدنيا...
وراحوا جميعاً يفتخرون في الأمر ويراقبون الحال في
قلق بالغ. أما عائشة فكانت تقف الساعات بموقفها
من السطح مترقبة النور أن يومض مرة أخرى، حتَّى
قال كمال لنفسه «ترى أهي النهاية التي يهون إلى جانبها
الموت؟» ولكن من حسن الحظ - حفظ الجميع - أنَّها
تناست الأمر مع الأيام ولم تعد تذكره، ثمَّ لم تزل توغل
في دنيا خاصَّة خلقتها لنفسها، وعاشت فيها وحدها،
وحدها سواء أكانت منفردة في حجرتها أو جالسة
بينهم، إلَّا ساعات متباعدة تثوب فيها إليهم كالعائدة
من سفر، ثمَّ لا تلبث أن تواصل الرحيل. والتصقت
بها عادة جديدة هي محادثة نفسها، خاصَّة حين
انفرادها، وشدَّ ما أثارت بذلك القلق، غير أنَّها كانت
تخاطب أمواتاً وهي مدركة لحال موتهم، ولم تتخيَّل
أمواتاً أو أشباحاً، وفي ذلك كان عزاء المحيطين
بها...

- وحَّدي الله، ذقت ما تعانين طويلاً، أنسيت
فهمي؟ ولكنَّ المؤمن المصاب مطالب بالصبر، أين
إيمانك؟
فهمت في امتعاض:
- إيماني...
- نعم، اذكري إيمانك، وتوسَّلي إلى ربِّك تنزل
عليك الرحمة من حيث لا تدريين...
- الرحمة!... أين الرحمة أين؟
- رحمته وسعت كلَّ شيء، طاوعني وتعالى معي إلى
الحسين، ضعي يدك على الضريح واتلي الفاتحة تتحوَّل
نارك إلى برد وسلام كنار سيِّدنا إبراهيم...
ولم يكن موقفها حيال صحتِّها دون ذلك اضطراباً،
فحيناً تتردَّد على الأطباء في مثابة وانتظام حتَّى يظنَّ بها
العودة إلى الاستمساك بأهداب الحياة، وحيناً تهمل
نفسها وتزدري كافَّة النصائح لدرجة الانتحار. أما
زيارة القرافة فهي التقليد الوحيد الذي لم تشدَّ عنه مرَّة
واحدة، وكانت تنفق فيها بسخاء وتبها عن طيب
خاطر كلَّ ما ملكت يمينها من ميراث زوجها وابنتها
حتَّى استحال حول المقبرة حديقة غناء موشاة بالأزهار
والرياحين. ويوم جاءها إبراهيم شوكت لإتمام
إجراءات الميراث ضحكت ضحكة مجنونة وقالت
لأمها:
- هنَّيني على ميراثي من نعيمة...
وكان كمال يصرُّ بها كلياً أنس منها استقراراً،
فيجالسها ملياً ملاطفاً متودِّداً. كان يتأملها طويلاً
صامتاً، ويتخيَّل عزونها الصورة الذاهية التي أبدع الله
صنعها، ثمَّ يتفحص ما آلت إليه. لم تكن هزيلة
فحسب، ولا مريضة فحسب، ولكنَّ محزنة بكلِّ ما
تحمل هذه الكلمة من معنى، ولم يغب عنه ما بينها من
أوجه الشبه في الحظ، فهي قد فقدت ذرِّيَّتها وهو قد
فقد آماله، وانتهت إلى لا شيء كما انتهى إلى لا شيء،
بل كان أبناؤها لحماً ودماً أما آماله فكانت كذباً
وأوهاماً! وقال لهم يوماً:
- أليس من الأفضل أن تذهبوا إلى المخبأ إذا
أطلقت صفارة الإنذار؟
فقالت عائشة:

طريقه إلى مخدعه، هكذا انطوى حبيب العمر. وعليّ عبد الرحيم الذي احتضر ثلاثة أيّام كاملة، سعال حادّ متقطع حتّى فزعنا إلى الله أن يحسن خاتمته ويربّحه من الألم، واختفى من دنياي أليف الروح عليّ عبد الرحيم، وقد ودّع هذين الحبيين أمّا إبراهيم الفار فلم يودّعه، كان اشتداد المرض قد أقعده في فراشه ومنعه عن عيادته فنعاه إليه خادمه، وحتّى الجنّازة لم يشيّعها فشيّعها عنه ياسين وكمال. فلى رحمة الله يا لطف الناس طرّاً، ومن قبل هؤلاء مات حميدو والحمزاوي وعشرات من المعارف والأصحاب، تركوه وحيداً كأنّه لم يعرف من الناس أحداً، لا زائر له ولا عائده، وجنازته لن يشيّعها صديق، حتّى الصلاة حيل بينه وبينها، وهل يتمتّع بالطهر إلّا ساعات عقب استحمام لا يجود به أولياء الأمر إلّا مرّة كلّ أشهر؟ فحرم من الصلاة وهو أشدّ ما يكون حاجة إلى مناجاة الرحمن في هذه الوحدة الموحشة. هكذا تمضي الأيّام، الراديو يتكلّم وهو يسمع، وأمينة تذهب ونجيء، وشدّ ما ركبها الوهن، غير أنّها لم تعد الشكوى، إنّها عمّرضته وأخوف ما يخاف أن يحتاج غذاً إلى من يمرضها، وهي كلّ ما بقي له، أمّا ياسين وكمال فيمكثان عنده ساعة ثمّ يذهبان، ودّ لو لم يفارقاه، ولكنّها أمانة لا يستطيع أن يعلنها ولن يستطيع أن يحقّقها، أمانة وحدها التي لا تملّ، وإذا ذهبت لزيارة الحسين فلكي تدعو له، والعالم بعد ذلك فراغ. وإنّ يوم زيارة خديجة له ليوم يستحقّ الانتظار، نجيء وفي صحبتها إبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد، فتمسّلى الحجرة بالأحياء وتنبّد وحشتها، وقليلًا ما يتكلّم هو أمّا هم فيتكلّمون كثيرًا، ومرة خاطبهم إبراهيم قائلاً: «أريحوا السيّد من ثرثرتك»، فقال له معاتبًا: «دعهم يتكلّموا... أريد أن أسمعهم!». ودعا لابنته بالصحة وطول العمر ودعا لزوجها وابنيها، وكان يعلم بأنّها توّد لو تسهر على راحته بنفسها، وكان يطالع في عينيها حنانًا ما وراءه حنان، ويومًا سأل ياسين في شوق واستطلاع بأسًا:

- أين تمضي سهراتك؟

فقال في حياء:

- اليوم الإنجليز في كلّ مكان كأيّام زمان...

ما أقسى البرد هذا الشتاء! يذكر بشتاء قديم ظلّ الناس يؤرّخون به جيلاً، شتاء أيّ عام يا ترى؟ ربّاه أين الذاكرة التي تعي ذلك أين؟ غير أنّ القلب العجوز يحنّ إليه في مجهوله، فهو جزء من الماضي الذي نتيج ذكره الدموع في مكامنها، الماضي الذي كان يستيقظ فيه مبكّرًا فيستحمّ تحت الدشّ غير مبالي برد الشتاء ثمّ يملأ بطنه وينطلق إلى دنيا الناس، دنيا الحركة والحرّيّة التي لا يعرف اليوم عنها شيئًا اللهمّ إلّا ما يجود به الرواة، وكأنّهم يحدثون عن عالم في أقصى الأرض. كانت له الحرّيّة والقدرة على أن يجلس على الكنبّة في الحجرة أو على الكرسيّ في المشربيّة وكان مع ذلك يضيّق بسجن البيت، وكان يذهب حين الحاجة إلى الحمام أو يغيّر ملابسه بنفسه ومع ذلك لعن قعدة البيت، وكان له يوم في الأسبوع يستطيع أن يغادر البيت متوكّئًا على عصاه أو راكبًا عربة فيزور الحسين أو بيت أحد الأصدقاء ومع ذلك فطالما دعا الله أن ينقذه من محبس البيت. أمّا اليوم فلم يسعه أن يغادر الفراش، ولم تعد حدود عالمه تتجاوز أطراف هذه الحشّية، حتّى الحمام ينجي إليه ولا يذهب هو إليه، قدّارة لم تكن في الحسبان، حتّى استقرّ الامتعاض على شفّتيه، وأسكنت المرارة في لعابه، على هذه الحشّية يرقد نهارًا وينام ليلاً ويتناول طعامه ويقضي حاجته. وهو من كان يُضرب بأنافته المثل ويسير الشدا الطيّب بين يديه، وفي هذا البيت الذي استكان عمره لإرادته المطلقة غدا ينظر فلا يلقى إلّا نظرات الرثاء أو يرجو فيعاتب كالأطفال، وذهب الأحباب في فترات متقاربة من الزمن كأنّهم كانوا على معياد، ذهبوا وتركوه وحيدًا، عليك رحمة الله يا محمّد يا عفت، كان آخر العهد به سهرة من ليالي رمضان في السلامك المطلّ على الحديقة، ثمّ ودّعه ومضى وضحكته العالية توصله إلى الباب، وما كاد يأوي إلى حجرته حتّى طرق الباب طارق وهرع إليه رضوان وهو يقول «جدي مات يا جدي»، يا سبحان الله... متى؟ وكيف؟... ألم يضاحكنا منذ دقائق؟ ولكنّه سقط على وجهه وهو في

أن يكون مدرّساً أعزب «قعيداً مقطوعاً» في حجرته .
وكان يتجنّب أن يثقل عليه بسيرة الزواج أو الدروس
الخصوصية، كما كان يدعو الله أن يكفيه مدّخره من
النقود حتّى الرمق الأخير كيلا يكون يوماً عالة عليه،
ويوماً سأل:

- هل تعجبك هذه الأيام؟

فابتسم كمال ابتسامة حائرة، وتردّد في الجواب،
فاستطرد الرجل قائلاً:

- الأيام الحقيقية كانت أيامنا! كانت يسراً ورجداً،
وصحّة وعافية، شهدنا سعد زغلول، وسمعنا سي
عبد، ماذا في أيامكم؟!

فأجاب كمال مأخوذاً بتداعي معاني الحديث
فحسب:

- لكلّ زمان محاسنه ومعاييه...

فهزّ الرجل رأسه المستند إلى مخدّة مكسورة وراء
ظهره وقال:

- كلام يقال ليس إلّا...

ثمّ بعد فترة صمت ودون تمهيد:

- عمّزي عن الصلاة يحزّ في نفسي حزاً، فالعباد
عزاء الوحدة، ومع ذلك تمرّ بي أوقات غريبة أنسى فيها
كافة وجوه الحرمان التي أعانيها من مأكّل ومشرب
وحرّيّة وعافية، تصفو نفسي صفاء عجباً حتّى يخيّل إليّ
أني متّصل بالسّوات، وأنّ ثمة سعادة مجهولة تزري
بالحياة وما فيها...

فتمتم كمال:

- ربّنا يمدّ في عمرك ويردّ إليك العافية...

فهزّ رأسه مرّة أخرى في استسلام، وقال:

- هذه ساعة طيبة، لا ألم في الصدر، ولا ضيق في
التنفّس، وورم ساقي آخذ في الزوال، وموعداً في
الراديو مع ما يطلبه المستمعون...

ولذا بصوت أمينة يقول:

- سيدي بخير؟

- الحمد لله.

- هل آتي بالعشاء؟

- العشاء؟! أما زلت تسمّينه العشاء؟! هاتي

سلطانيّة اللبن!...

أيّام زمان! أيّام القوّة والبأس، والضحك الذي تهنّز
له الجدران، وسهرات الغوريّة والجمالية، والناس
الذين لم يبق منهم إلّا أسماء، زبيدة وجليّة وهنية،
ترى ألا تذكر أمك يا ياسين؟ وما هي زنوبة وكريمة
تجلسان إلى جانب والدها، ودواماً ستطلب الرحمة
والغفران...

- من بقي من معارفنا القدامى في وزارتك يا
ياسين؟

- أحيلوا جميعاً إلى المعاش، ولم أعد أدري عنهم
شيئاً!

ولا هم يدرون عنّا شيئاً، أصدقاء القلب ماتوا فما
لنا نسأل عن المعارف، ولكن ما أجل كريمة! فاقت
أمّها في زمانها، ومع ذلك لم تُعدّ الرابعة عشرة، ونعيمة
الم تكن آية في الجمال؟!

- ياسين إن استطعت أن تُقنع عائشة بزيارتك
فافعل، انتشلوها من وحدتها فإني أخاف عليها
منها...

فقال زنوبة:

- طالما دعوتها لزيارة قصر الشوق ولكّنها... كان
الله في عونها!...

ولاحت في عيني الرجل نظرة قائمة، ثمّ إذا به يسأل
ياسين:

- ألا تصادف في طريقك الشيخ متوّلي عبد
الصمد؟

فقال ياسين بأساً:

- أحياناً، إنّه لا يكاد يعرف أحداً، ولكّنه ما زال
يسير على قدمين قويّتين!...

يا للرجل! ألم تنازعه نفسه مرّة إلى زيارتي؟ أم
نسيني كما نسي أبناي من قبل؟!

ولما ذهب الأصدقاء اتّخذ الرجل من كمال صديقاً،
ولعلّه فاجأه بصداقته، لم يعد الأب الذي عهد، وغدا
صديقاً يناجيه ويتشوّق إلى مناجاته، وكان يقول عنه
أسفاً: «أعزب في الرابعة والثلاثين من عمره، يعيش
أكثر حياته في حجرة مكتبه، كان الله في عونّه»، ولم
يكن يعدّ نفسه مسئولاً عمّا صار إليه أمره، فقد أبى من
أول الأمر أن يصنع نفسه بنفسه، وانتهى به الحال إلى

فقال كمال في لهجة ساخرة:

- كفاه الله شر مهنة التدريس!

فقال خديجة في انزعاج:

- وهل يسرك أن يشتغل جورنالجيًا؟

وهنا قال عبد المنعم ملطفًا الجوّ:

- لم تعد الوظيفة بالمطلب السعيد!

فقال أمّه بحدة:

- لكنك موظف يا سي عبد المنعم...

- في كادر ممتاز، ولكنّي لا أرضى له وظيفة كتابيّة،

وها هو خالي كمال يستعيد في مهنته...

- في أي نوع من الصحافة تريد أن تعمل؟

- الأستاذ عدلي كريم موافق على قبولي في مجلّته

تحت التمرين لأقوم بالترجمة أولاً ثمّ بالتحرير فيما

بعد...

- ولكنّ «الإنسان الجديد» مجلّة ثقافيّة محدودة الموارد

والمجال؟...

- هي خطوة أولى للتمرين حتّى يتيسّر لي عمل

أهمّ، وعلى أيّ حال ففي وسعي أن أنتظر دون أن

أجوع...

فنظر كمال إلى خديجة قائلاً:

- دعي الأمور تجري كما يشاء، إنّه راشد مثقّف

وأدرى بما يفعل.

ولكنّ خديجة لم تسلّم بالهزيمة بسهولة، وعادت

تحاول إقناع ابنها بقبول الوظيفة حتّى علا صوتها واحتدّ

فتدخل كمال ليخلص بينهما، ثمّ تكذّر جوّ المجلس

وساد صمت ثقيل حتّى قال كمال ضاحكًا:

- جئت طامعًا في شرب الشربات فكانت هذه

العكنة نصيبي.

وفي أثناء ذلك ارتدى أحمد ملاپسه ليغادر البيت،

فاستأذن كمال وخرجا معًا، وسارا في شارع الأزهر،

وقد صارع أحمد خاله بأنّه ماضٍ إلى مجلّة «الإنسان

الجديد» ليتسلّم عمله كما وعده الأستاذ عدلي كريم،

فقال له كمال:

- افعل ما تشاء ولكن تجنّب إيذاء والديك...

فقال أحمد ضاحكًا:

- إنّي أحبهما وأجلّهما ولكن...

بلغ كمال بيت أخته بالسكّريّة حوالى العصر

فوجد الأسرة مجتمعّة في الصالة بكامل هيئتها،

فصافحهم وهو يقول مخاطبًا أحد:

- مبارك الليسانس...

فأجابته خديجة بلهجة خالية من معاني الابتهاج:

- مبارك عليك، ولكن تعال اسمع آخر خبر، البك

لا يريد أن يتوظّف...

وقال إبراهيم شوكت:

- ابن خاله رضوان مستعدّ لتوظيفه إذا وافق ولكنّه

يصرّ على الرفض، كلّمه يا أستاذ كمال لعلّه يقتنع

برأيك أنت...

خلع كمال طربوشه، ونزع - من شدّة الحرّ - الجاكّة

البيضاء فألبسها مسند كرسي، ومع أنّه كان يتوقّع

معركة إلّا أنّه قال بأسًا:

- حسبت أنّ اليوم سيكون خالصًا للتهنئة، ولكنّ

هذا البيت لا يسلو النزاع أبدًا!

فقال خديجة بلهجة أسيفة:

- قسمتي، الناس كلهم حال ونحن وحدنا حال.

وخاطب أحمد خاله قائلاً:

- الأمر بسيط، ليس أمامي إلّا وظيفة كتابيّة،

فقد أخبرني رضوان أنّه يمكن تعييني الآن في وظيفة

كتابيّة خالية بإدارة المحفوظات عند خالي ياسين،

واقترح عليّ أن أنتظر ثلاثة أشهر حتّى بدء العام

الدراسيّ الجديد لعلّي أعيّن مدرّس لغة فرنسيّة في

إحدى المدارس، ولكنّي لا أريد الوظيفة أيّا كان

نوعها!

فهتفت خديجة:

- قل له ماذا تريد؟

فأجاب الشاب ببساطة وحزم:

- سأعمل في الصحافة.

ففنخ إبراهيم شوكت قائلاً:

- جورنالجي! كنّا نسمع هذا الكلام فنظّنه ضحكًا

وعبثًا، يابى أن يكون مدرّسًا مثلك ويسعى إلى أن

يكون جورنالجيًا...

في العقد الأخير من الشباب، وكان مظهره ينم عن الحذق والذكاء. ورمى ببصره إلى سوسن حمّاد وهو يسائل نفسه ترى هل تذكره؟. ولم يكن رآها منذ أوّل مقابلة عام ١٩٣٦. والتقت عيناها فسالها بأسئما مدفوعاً برغبة في الخروج عن صمته:

- قابلت حضرتك هنا منذ خمس سنوات...

فلاح التذكّر في عينيها اللامعتين فاستدرك قائلاً:

- كنت أسأل عن مصير مقالة تأخّر نشرها!

فقالت باسمه:

- أكاد أذكرك، وعلى كلّ فقد نشرنا منذ ذلك

التاريخ مقالات كثيرة!...

فقال يوسف الجميل معلّقاً:

- مقالات تنمّ عن روح تقدّمية طيبة...

وقال إبراهيم رزق:

- إنّ الوعي اليوم غيره بالأمس، كلّما نظرت في الطريق قرأت على الجدران عبارة «الحيز والحريّة» هذا شعار الشعب الجديد.

فقالت سوسن حمّاد باهتمام:

- ما أجمله من شعار، خاصّة في هذا الوقت الذي

أطبق فيه الظلام على العالم!...

وأدرك أحمد ما يعنيه قولها فاستجابت نفسه سريعاً-

وفي حماس وسرور- للجرّ المحيط به وقال:

- الظلام يطبق على العالم حقاً، ولكن ما دام هتلر

لم يهجم على بريطانيا فثمة أمل في النجاة.

فقالت سوسن حمّاد:

- إني أنظر إلى الموقف من زاوية أخرى، ألا ترى

أنّ هتلر لو هاجم بريطانيا فمن المحتمل أن يهلكاً معاً

أو في الأقلّ أن ينتقل مركز القوّة إلى روسيا؟...

- وإذا حدث العكس؟ أعني أن يحتاج هتلر الجزيرة

ويبلغ ذروة القوّة؟!...

فقال يوسف الجميل:

- كان نابليون كهتلر غازي أوروبا ولكنّ روسيا

كانت مقبرته.

ووجد أحمد نشاطاً وحاساً لم يشعر بمثلها من قبل.

هذا الهواء النقيّ، وهؤلاء الزملاء الأحرار، وهذه الزميلة المستتيرة الحسناء. ولداعٍ أو لآخر ذكر علويّة

- ولكن...؟

- من الخطأ أن يكون للإنسان والدان!

كيال ضاحكاً:

- كيف هان عليك أن تقول ذلك؟

- لا أعني حرفيته، ولكن ما يرمز إليه الوالدان من

تقاليد الماضي، فالأبوة على وجه العموم قرمّلة، وما

حاجتنا في مصر إلى الفرامل ونحن نسير بأرجل مكبّلة

بالأغلال!؟

ثمّ مواصلاً الحديث بعد تفكير:

- إنّ مثلي لن يعرف الكفاح بمعناه المرّ ما دام لي

بيت ولاي دخل، ولا أنكر أنّي مطمئنّ بذلك ولكن في

الوقت نفسه خجل منه!

- متى ينتظر منك أن تؤجّر على عملك؟

- لم يحدّد الأستاذ وقتاً...

وعند العتبة الخضراء افترقا، فمضى أحمد إلى مجلّة

«الإنسان الجديد»، وقد استقبله الأستاذ عدلي كريم

مشجعاً، وذهب معه إلى حجرة السكرتارية حيث

خاطب من فيها قائلاً:

- زميلكم الجديد الأستاذ أحمد إبراهيم شوكت...

ثمّ قدّم إليه زملاءه قائلاً:

- آنسة سوسن حمّاد، الأستاذ إبراهيم رزق،

الأستاذ يوسف الجميل... وصافحوه مرّتين، ثمّ

قال إبراهيم رزق مجاملاً:

- اسمه معروف في مجلّتنا...

وقال الأستاذ عدلي كريم بأسئما:

- إنّهُ الابن البكر للإنسان الجديد... (ثمّ وهو

يشير إلى مكتب يوسف الجميل)... ستعمل على هذا

المكتب فإن عمل صاحبه في الخارج إلّا فينا ندر...

وغادر عدلي كريم الحجرة فدعا يوسف الجميل

أحمد إلى الجلوس على كرسيّ قريب من مكتبه، وانتظر

حتّى جلس ثمّ قال:

- ستوجّهك الأنسة سوسن إلى العمل الذي سيناط

بك، ولا بأس الآن أن تشرب فنجان قهوة...

وضغط على زرّ الجرس على حين راح أحمد يتصفّح

الوجوه والمكان، كان إبراهيم رزق كهلاً مهتماً يبدو

أكبر من سنّه بعشرة أعوام، أمّا يوسف الجميل فكان

صبري، وعام العذاب الذي صار فيه الحب الخائب حتى صرعه، حين كان يصبح ويمسي وهو يلعن الحب من صميم قلبه حين تطاير في الهواء تاركاً في أعماق النفس آثاراً من الامتعاض والتمرد لا تزول. إنها الآن في بيتها في المعادي تنتظر زوجاً ذا خمسين جنيهاً شهرياً على الأقل، أما هذه الفتاة التي تدعو بالنصر لروسيا فإذا تنتظر يا ترى؟...

وإذا بسوسن تلوح برزمة أوراق في وجهه وهي تقول برقة:
- تسمع!...
فنهض، ثم مضى إلى مكتبها باسمًا لبدء عمله الجديد...

٣٤

لم يكن يوسف الجميل يمرّ بالمجلة إلا يومًا في الأسبوع أو يومين إذ كان جلّ نشاطه موجّهًا للإعلانات والاشتراكات، كذلك إبراهيم رزق لم يمكث في السكرتارية أكثر من ساعة ثم يدور على بقية المجالات التي يعمل بها، فكان أكثر الوقت يمضي وهما منفردان. أحمد وسوسن. ومرة جاء رئيس عمال المطبعة ليأخذ بعض الأصول في راعه إلا أن يسمعها وهي تدعو «أي!». وعلم بعد ذلك أن ثمة صلة قرى تربط الأستاذ عدلي كريم نفسه برئيس عمال المطبعة. كان ذلك مفاجئًا ومثيرًا، وراعه أكثر من سوسن مشايرتها على العمل، كانت محور التحرير ومركز نشاطه، بيد أنها كانت تعمل أكثر مما يستوجبه تحرير المجلة، فما تزال تقرأ أو تكتب. وبدت جادة حادة شديدة الذكاء، وشعر من أول الأمر بقوة شخصيتها، حتى كان يخيل إليه بعض الأحيان - رغم عينيها السوداوين الجذابتين وجسمها الأنثوي اللطيف - أنه حيال رجل قوي الإرادة حسن التنظيم، ثم تأثر بنشاطها فشاير على عمله بهمة لا تعرف الكلل أو الملل، وقد أخذ على عاتقه ترجمة المختارات من مجلات العالم الثقافية، إلى ترجمة بعض المقالات ذات الشأن، وقد قال لها يومًا:

- إن الرقابة تقف لنا بالمرصاد...
فقلت بصوت يدلّ على الخلق والازدراء:
- أنت لم تر شيئاً بعد، مجلّتنا «مشبوهة» في الدوائر العليا. ولها الشرف!
فقال أحمد باسمًا:
- تذكرين طبعًا افتتاحيات الأستاذ عدلي كريم قبل الحرب؟

- لقد عطلت مجلّتنا مرة في عهد عليّ ماهر بسبب مقال عن ذكرى الثورة العرابية اتهم فيه الأستاذ الخديو توفيق بالخيانة.

ويومًا سأله ضمن حديث عابر:
- لماذا اخترت الصحافة؟...

فتفكّر قليلاً، إلى أيّ درجة يجوز له أن يكشف عن ذات نفسه لهذه الفتاة التي تبدو طرازاً وحدها بين من عرف من بنات جنسها:

- لم أدخل الجامعة لأتوظّف، ولكن عندي أفكار أريد التعبير عنها ونشرها وما من سبيل إلى ذلك خير من الصحافة...

فقلت باهتمام سرّ له من أعماقه:

- أمّا أنا فلم أدرس في الجامعة، أو بالحرى لم تتح لي فرصة (سرّته صراحتها كذلك وإن أكثدت في نفسه مخالفتها لبنات جنسها)... إني متخرّجة في مدرسة الأستاذ عدلي كريم، وهي ليست دون الجامعة منزلة، درست عليه منذ حصولي على البكالوريا، وأصارحك بأنك أحسنت تعريف الصحافة، أو الصحافة التي نعمل فيها، بيد أنك تنفّس عن أفكارك - حتى الآن - عن طريق غيرك، أعني بالترجمة، ألم تفكّر في اختيار الشكل الذي يناسبك من أشكال الكتابة؟

فصمت مفكّرًا كأنما أغلق عليه المعنى المقصود ثم تساءل:

- ماذا تعنين؟

- المقالة، الشعر، القصّة، المسرحيّة؟

- لا أدري، المقالة أوّل ما يتبادر إلى الخاطر...

فقلت بلهجة ذات معنى:

- نعم، ولكنّها لظروفنا السياسيّة، لم تعد مطلبًا يسيرًا، لذلك يضطرّ الأحرار إلى إذاعة آرائهم

فقلت سوسن في حماس:

- هذا مناقض لما تكتب، فأراهن على أنك متأثر بالوفاء لخالك! عندما يكون الإنسان متأثراً يركز اهتمامه في إزالة أسباب الألم، مجتهداً متأثراً جداً فيجب أن نزيل الألم قبل كل شيء، ولنا بعد ذلك أن نلهو ونفلسف! ولكن تصوّر إنساناً يتفلسف لاهياً وبه جرح ينزف لا يعيره أدنى التفات، ماذا تقول عن مثل هذا الإنسان؟

أهذا خاله حقاً؟ لكن فليقر بأن كلامها يلقي تجاوباً كاملاً في نفسه، وبأن عينها جيلتان، وبأنها رغم غرابتها و«جذبتها» جذابة... جذابة...
- الواقع أن خالي لا يعير هذه الأمور التفاتاً جذياً، لقد حدثته كثيراً عنها فوجدته إنساناً يدرس النازية كما يدرس الديمقراطية أو الشيوعية، ولكنه لا هو بارد ولا هو حار، ولم أستطع أن أتبين موقفه...

قالت باسمه:

- لا موقف له، إن موقف الكاتب لا يمكن أن يخفى، إنه مثل من المثقفين البورجوازيين يقرأ ويستمتع ويتساءل، وقد تمجده في حيرة أمام «المطلق»، وربما بلغت به الحيرة حد الألم، ولكنه يمر سادراً بالمتألمين الحقيقيين في طريقه...

فقال ضاحكاً:

- ليس خالي كذلك...
- أنت أدري، كذلك قصص رياض قلّدت ليست بالقصص المنشودة، إنها واقعية وصفية تحليلية، ولا تتقدم عن ذلك خطوة، لا توجيه بها ولا تبشيراً
ففكر أحمد قليلاً ثم قال:

- ولكنه كثيراً ما يصف حال الكادحين من العمال والفلاحين، ومعنى هذا أنه يهب مسرح البطولة في أقاصيصه للطبقة الكادحة!

- ولكنه يقتصر على الوصف والتحليل، إنه لعمل سلبى بالنسبة للمعركة الحقيقية!...

يا لها من فتاة تروم العراك! شديدة الجِد فيبدو، ولكن أين المرأة؟

- وكيف تريدني أن يكتب؟

- أفراحت شيئاً عن الأدب السوفيتي الحديث، بل

بالمشورات السرية، المقالة صريحة ومباشرة ولذلك فهي خطيرة، خاصة وأن الأعين محمقة فينا، أما القصة فذات جيل لا حصر لها، إنها فنّ ماهر، وقد غدت شكلاً أدبياً شائعاً سوف ينتزع الإمامة في عالم الأدب في وقت قصير، ألا ترى أنه ما من كبير من شيوخ الأدب إلا وهو يثبت وجوده في مجال نشاطها ولو بمؤلف واحد؟

- نعم، قرأت أكثر هذه المؤلفات، ألم تقرئي للأستاذ رياض قلّدت الكاتب بمجلة الفكر؟
- هذا واحد من كثيرين، وليس خيراًهم!
- ربما، لقد لفتني إليه خالي الأستاذ كمال أحمد عبد الجواد الكاتب بنفس المجلة...
فقلت باسمه:

- هو خالك؟ قرأت له مرّات، ولكن...

...؟

- معذرة إنّه من الكتاب الذين يهيمون في تيه الميتافيزيقا!

فتساءل فيما يشبه القلق:

- ألم يعجبك؟

- الإعجاب شيء آخر، إنّه يكتب كثيراً عن الحقائق القديمة: الروح... المطلق... نظرية المعرفة، هذا جميل، ولكنه - فيما عدا المتعة الذهنية والترف الفكرى - لا يفضي إلى غاية، ينبغي أن تكون الكتابة وسيلة محدّدة الهدف، وأن يكون هدفها الأخير تطوير هذا العالم والصعود بالإنسان في سلم الرقي والتحرر، الإنسانية في معركة متواصلة والكاتب الخليل بهذا الاسم حقاً يجب أن يكون على رأس المجاهدين، أمّا وثبة الحياة فلنذعها لبرجسون وحده...

- ولكن كارل ماركس نفسه بدأ فيلسوفاً ناشئاً يهيم في تيه الميتافيزيقا.

- وانتهى بعلم الاجتماع العلمي، فمن هنا نبدأ لا من حيث بدأ.

لم يرتج أحمد إلى نقد خاله على هذا النحو، فقال بغية الدفاع عنه قبل كل شيء:

- الحقيقة جديرة دائماً بأن تعرف، مهما تكن، ومهما

يكن الرأي في آثارها...

أفراة مكسيم جوركي؟

فصمت بأسماً، لا داعي للخجل، كان طالب اجتماع لا طالب أدب، ثم إنها تكبره بسنوات، ترى ما عمرها؟ ربما كانت في الرابعة والعشرين أو أكثر. وعادت تقول:

- هذا ما ينبغي أن تقرأ من ألوان الأدب، سأعيرك بعضه إذا شئت...

- بكل سرور...

فابتسمت قائلة:

- ولكن الإنسان «الحر» لا يكفي أن يكون قارئاً أو كاتباً! إن المبادئ تتعلق بالإرادة قبل كل شيء، الإرادة أولاً وقبل كل شيء.

مع ذلك رأها أنيقة، أجل ليس في وجهها زواق، ولكن عنايتها بمظهرها وأناقتها ليست دون غيرها من بنات جنسها، هذا الصدر الحي مؤثر كغيره من الصدور الفاتنة، ولكن مهلاً هل يختلف هو عن غيره من الرجال بما يعتنق من مبدأ؟ طبقتنا غريبة تأبى أن تنظر إلى المرأة إلا من زاوية خاصة...

- إني مسرور بمعرفتك، وأرى أنه أمامنا أكثر من مجال للعمل معاً كيد واحدة...

فقلت باسمه، وكانت عند الابتسام تبدو أنثى قبل كل شيء:

- هذا إطرأ!

- إني مسرور بمعرفتك حقاً...

أجل إنه كذلك، ولكن ينبغي ألا يسيء فهم ما يفعل به صدره فلعله الاستجابة الطبيعية لمراهق مثله، واصطنع الحذر حتى لا ترمي بنفسك إلى مثل موقفك بالمعادي، فإن الحزن لم ينجح بعد من صفحة قلبي...

٣٥

- مساء الخير يا عمّي.

وتبع جلييلة إلى مجلسها المختار في الصالة، وما استقرّ بهما المجلس فوق الكنبة حتى نادى المرأة خادمتها فجاءت حاملة الشراب وجعلت ترقيها وهي تعدّ الخوان حتى فرغت من مهمتها وذهبت، وعند ذاك

التفتت جلييلة إلى كمال قائلة:

- يا ابن أخي، أقسم لك أنني لم أعد أشرب إلا معك، كل ليلة جمعة، كما كان يحلوي أن أشارك أبك في الزمن القديم، ولكن في ذلك الزمن أشارك الكثيرين أيضاً...

وقال كمال في نفسه: «ما أحوجني إلى الشراب، لا أدري ماذا كانت تكون الحياة بدونه!» ثم قال يحاورها:

- ولكنّ الويسكي اختفى يا عمّي، وكذلك كافة المشروعات النظيفة، ويقال إن الغارة الألمانية الأخيرة على اسكتلندا أصابت مخزن خمر عالمي حتى سالت الوديان بالويسكي الأصيل...

- يا روجي على غارة من هذا النوع! ولكن خبرني قبل أن تسكر كيف حال السيد أحمد؟

- لا تقدّم ولا تأخر، يعز عليّ يا ست جلييلة مرقده، ربنا يلف به...

- يا ما نفسي أزوره، ألا تجد الشجاعة فتبلفه عني السلام؟

- يا خبر! لم يبق إلا هذا حتى تقوم الساعة!

فضحكت العجوز ثم قالت:

- اتحسب أنّ رجلاً مثل السيد أحمد يمكن أن يتصور البراءة في إنسان خاصة إذا كان من صلبه؟

- ولو يا زين الستات!... صحتك...

- صحتك... ربما تأخرت عطية إذ إنّ ابنها مريض...

فقال كمال في شيء من الاهتمام:

- في آخر مرة لم يكن بها شيء!...

- نعم ولكنّ ابنها مريض يوم السبت الماضي، روحها المسكينة في ابنها، وإذا مسّه سوء طارت أبراج عقلها...

- يا لها من امرأة طيبة عائرة الحظ، طالما أقنعتني

أحوالها بأنّها لا تمارس هذه الحياة إلا مضطرة...

فقلت جلييلة باسمه أو ساخرة:

- إذا كان مثلك يضيق بمهنته الشريفة فكيف ترضى

هي بمهنتها؟

ومرت الخادم بمجمرة تنفث بخوراً لطيفاً، وكان جو

- وهل تحسبني أشرب الآن؟ مضى ذلك الزمان، لا طعم لها اليوم ولا أثر، كالقهوة لا أكثر ولا أقل، في الزمان الأول سكرت مرة في فرح ببيرجوان حتى اضطرت التخت أن يحملني إلى عربتي آخر الليل، ربنا يكفيك شرها!...

«لكنها خير من لا خير له»...

- وذروة النشوة هل عرفتوها؟ كنت أبلغها بكأسين، اليوم يلزمني ثمانية كئوس كي أبلغها، ولا أدري كم غداً، ولكنها ضرورية يا عمّي، فعندها يرقص القلب المكلوم طرباً...

- قلبك طروب يا بن أخي دون الحاجة إلى الخمر...

قلبه طروب! وهذا الحزن الصديق؟ والرماد المتخلف من محترق الآمال؟ لم يبق للملوك إلا الامتلاء بالخمر، في هذه الصالة أو في تلك الحجرة إذا جاءت التي تدأوي ابنها، هو وهي في موضع واحد من الحياة، حياة من لا حياة لهم.

- أخشى ألا نحيي عطية!...

- ستحيي حتماً، أليس المرض في حاجة إلى النقود؟ يا له من جواب! بيد أنها لم تمكّنه من التفكير إذ مالت نحوه في اهتمام، ونظرت إليه ملياً، ثم قالت بصوت منخفض:

- لم يبق إلا أيام!...

فقال دون أن يدرك حقيقة مرادها:

- ربنا يطول عمرك ولا يجرمني منك!

فقلت باسمه:

- سأهجر هذه الحياة!

فانتصب نصفه الأعلى في دهشة وهتف:

- ماذا قلت؟!

فضحكت ثم قالت بلهجة لم تخل من سخرية:

- لا تخف، ستذهب بك عطية إلى بيت آمن كهذا

البيت...

- ١٩...

- ولكن ماذا حدث؟

- كبرت يا ابن أخي، وأغواني الله فوق حاجتي،

وبالأمس ضُبط بيت قريب وسيقت صاحبتة إلى

الخريف يهفو رطباً من نافذة في نهاية الصالة، وكانت الخمر شديدة المرارة ولكنها قوية الأثر، غير أنّ كلام جلييلة عن المهنة ذكره بأمور كاد ينساها فقال:

- كدت أنقل من مصر يا عمّي، ولو وقع المحظور

لكنت الآن أعدّ الحقائق للسفر إلى أسبوط!...

فضربت جلييلة صدرها بكفها وقالت:

- أسبوط يا بلح! أسبوط في عين عدوك، وماذا

حصل؟

- سليمة والحمد لله!

- معارف والدك يملأون الدواوين كالنمل...

فهزّ رأسه كالموافق دون تعليق. إنَّها ما زالت ترى أباه في حالة المجد القديم، لا تدري أنّه - حين أخبره عمّا تقرّر عن نقله - قال محزوناً أسفاً «لم يعد يعرفنا أحد، أين أصدقاؤنا أين؟»، وقبل ذلك مضى إلى صديقه القديم فؤاد جميل الحمازوي لعلّه يعرف أحداً من كبار رجال المعارف ولكنّ القاضي الخطير قال له «إنّي أسف جداً يا كمال فأنا بصفتي قاضياً لا أستطيع أن أرجو أحداً». وأخيراً لجأ إلى رضوان ابن أخيه وهو يتعثر بخجله، وفي نفس اليوم عدل عن نقله! «يا له من شاب خطيراً كلاهما موقّظ في وزارة واحدة وفي درجة واحدة رغم أنّه في الخامسة والثلاثين والشاب في الثانية والعشرين، ولكن كيف ينتظر من خروجة ابتدائي أفضل من هذا؟» ولم يعد من الممكن أن يتعرّى بالفلسفة أو يدعيها، فليس الفيلسوف من ردّد قول الفلاسفة، كالبيغاء، واليوم كلّ متخرج في كلية الآداب يستطيع أن يكتب كما يكتب هو أو أحسن، وقد كان هناك ثمة أمل في أن يجمع ناشر مقالاته في كتاب، ولكن لم يعد لثل هذه المقالات التعليمية من قيمة تذكر، وما أكثر الكتب هذه الأيام، وهو في هذا الخضم لا شيء، وقد ملّ حتى طفح بالملل. فمتى يدرك قطاره محطة الموت؟. ونظر إلى الكأس في يد عمته، ثم إلى وجهها الناطق بعمرها المديد فلم يسعه إلا الإعجاب بها، ثم تساءل:

- ماذا تجددين في الشراب يا عمّي؟

فافتّر فوها عن أسنان ذهبية وهي تقول:

- ساعحك الله، هذا بيتك ما دام بيتي، وكل بيت أحل فيه فهو بيتك يا ابن أخي...

أثمة لعنة قديمة مجهولة قُضي عليه بأن يكفر عنها؟ كيف المخرج من هذه الحيرة التي تغشى حياته؟ حتى جلييلة تفكر جادة في تغيير حياتها فلم لا يتخذ منها أسوة؟ لا بد للغريق من صخرة يلوذ بها أو فليغرق، وإذا لم يكن للحياة معنى فلم لا نخلق لها معنى؟...

- ربما كان من الخطأ أن نبحث في هذه الدنيا عن معنى بينما أن مهمتنا الأولى أن نخلق هذا المعنى...

وحديثه جلييلة بنظرة غريبة فانتبه بعد فوات الوقت إلى ما بدر منه دون شعور. وضحكت جلييلة متسائلة: - سكرت بهذه السرعة؟

فدارى ارتباكها بضحكة عالية، وقال:

- خمر الحرب كالسم، لا تؤاخذيني، ترى متى تأتي عطية؟

٣٦

غادر كمال بيت جلييلة عند منتصف الساعة الثانية صباحاً، كان كل شيء غارقاً في الظلام، وكان الظلام غارقاً في الصمت، وسار على مهل نحو السكة الجديدة ثم مال إلى الحسين. حتى متى يعيش في هذا الحي المقدس الذي لم يمت إليه بصله؟. وابتسم ابتسامة فاترة، لم يكن بقي من الخمر إلا خمارها، أما الجسد فقد خمدت لواعجه، فنقل خطاه في إعياء وكسل. عادة في مثل هذه اللحظة الخاملة يصرخ شيء في أعماقه - لا هو التوبة ولا الندم - ناشداً التطهر، ملتصقاً الخلاص من قبضة الشهوات إلى الأبد، كأن موجة شهواته تنحصر عن صخور تقشّف كاملة. ورفع رأسه إلى السماء، كأنما ليستأنس بالنجوم فانطلقت في السكون صفارة الإنذار. ودق قلبه دقة عنيفة ثم حلفت عيناه النائمات، ثم بدافع غريزي مال إلى أقرب جدار وسار بحذائه، ونظر إلى السماء مرة أخرى فرأى أضواء الكشافات الكهربائية تسمح صفحاتها في سرعة شديدة، تلتقي أحياناً ثم تتفرق في جنون.

القسم، حسبي، إنّي أفكر في التوبة، ينبغي أن أقابل ربّي على غير ما أنا عليه!

أتى على بقية كأسه، وملاه كأنما لم يصدق ما سمعه:

- لم يبق إلا أن تستقي السفينة إلى مكة!

- ربّنا يقدرني على فعل الخير...

وتساءل ولما يفق من دهشته:

- أجا هذا كله فجأة؟!

- كلاً، إنّي لا أبوح بسرّ إلا عند العمل، طالما

فكرت في هذا من زمن...

- جد؟!

- كلّ الجدّ، ربّنا معنا!

- لا أدري ماذا أقول، ولكن ربّنا يقدرك على فعل

الخير.

- آمين...

ثم ضاحكة:

- ولكن اطمئن فلن أغلق هذا البيت حتى اطمئن

على مستقبلك...

فضحك ضحكة عالية وقال:

- هيهات أن أجد بيتاً أرتاح فيه كهذا البيت!

- لك عليّ أن أوصي بك البدرونة الجديدة ولو كنت

في مكة!

كل شيء يبدو مضحكاً ولكنّ الخمر ستظلّ قبله المحزون، وتتغير الأوضاع فيعلو فؤاد جميل الحمزاوي ويسفل كمال أحمد عبد الجواد، ولكنّ الخمر ستظلّ بشاشة المكروب، ويوماً يحمل كمال رضوان على كتفه ليدلّه ثم يجيء يوم فيحمل رضوان كمال ليقيله من عثرته ولكنّ الخمر ستظلّ نجدة الملهوف، وحتى الست جلييلة تفكر في التوبة في الوقت الذي يبحث هو عن ماخور جديد ولكنّ الخمر ستظلّ الماوى الأخير، ويملّ السقيم كل شيء حتى يملّ الملل ولكنّ الخمر ستظلّ مفتاح الفرّج.

- يسعدني أن أسمع عنك دائماً ما يسرّ.

- الله يهديك ويسعدك...

- إذا كان وجودي يضايقك؟...

وسدّت فاه بأصبعها، وقالت:

لم يجب أبوه، وكان ملقياً بظهره في إعياء إلى جدار القبور بين الأم وعائشة، أما الأم فقالت:

- كمال؟. الحمد لله، شيء فظيع يا بني، ليست ككل مرة، خيل إلينا أن البيت سينقض فوق رؤوسنا، وربنا شد حيل أبليك فنفض وجاء بيننا، لا أدري كيف جاء ولا كيف جئنا...
وغمغمت أم حنفي:

- عنده الرحمة، ما هذا الهول؟. ربنا يلفظ بنا...

وفجأة هتفت عائشة:

- متى تسكت هذه المدافع؟.

وخيل إلى كمال أن صوتها ينذر بانفجار عصبي فاقرب منها وأمسك بكفها بين يديه وكأنه قد استرد بعض وعيه المفقود عندما وجد نفسه حيال من هم في حاجة إلى تشجيعه. وكانت المدافع ما تزال تنطلق في غضبها الجنوبي، غير أن وطأتها أخذت تخف بدرجة غير محسوسة، ومال كمال نحو أبيه وسأله:

- كيف حالك يا أبي؟

فجاء صوته وهو يهمس في خور:

- أين كنت يا كمال؟. أين كنت حين وقعت الغارة؟...

فقال يطمئنه:

- كنت على مقربة من القبو، كيف حالك؟

فأجاب بصوت متقطع:

- الله أعلم... كيف غادرت فراشي وهولت في الطريق؟. الله أعلم... لم أشعر بشيء... متى تعود الحال إلى الهدوء؟

- أأخلع لك جاكيتي لتجلس عليها؟

- كلا، أنا قادر على الوقوف، ولكن متى تعود الحال إلى الهدوء؟...

- الغارة انتهت فيما يبدو، أما قيامك المفاجئ فلا تحفه. إن المفاجآت كثيرًا ما تصنع المعجزات مع المرض!...

وما كاد ينتهي من قوله حتى زلزلت الأرض بثلاثة انفجارات متتابعة فثار جنون المدافع المضادة مرة أخرى وضج القبو بالصراخ:

وحث خطاه دون أن يفارق الجدران وقد شعر شعورًا موحشًا بوحدته كأن وجه الأرض قد خلا إلا منه!.

وإذا بصفير مبحوح يتهاوى لم يطرق أذنه من قبل، يعقبه انفجار شديد ارتجت له الأرض تحت قدميه، قريب أم بعيد؟ ولم يتسع له الوقت لمراجعة معلوماته

عن الغارات، إذ تتابعت الانفجارات بسرعة تكتم الأنفاس، وانطلقت المدافع المضادة جماعات جماعات،

والتمع الجو بأضواء كالبرق لم يعرف مصدرها ولا كنهها فخيّل إليه أن الأرض تتطاير. وانطلق يعدو بسرعة لا

يلوي على شيء صوب درب قرمز ملتصًا في قبوها التاريخي خبأ. وكانت المدافع تنطلق في غضب جنوبي،

والقنابل تدك مراميها دكًا، والأرض تميد. وفي ثوانٍ من الفزع بلغ القبو، وكان يكتظ بخلق كثيرين

تكاثفت بهم ظلمته، فاندس بينهم وهو يلث. وكان جوّه يسوده الرعب ويمتلئ بهمهمات الفزع في ظلام

دامس، أما مدخل القبو وخرجه فيضيان من أن لآخر بانعكاسات الإشعاعات المنطلقة في الفضاء، وقد

توقف سقوط القنابل أو هذا ما خيّل إليهم، أما المدافع فلم يخف جنوبها ولم يكن رجوعها في النفوس

دون رجوع القنابل، واختلطت أصوات صراخ وبكاء وزجر وانتهاز صادرة عن نسوة وأطفال ورجال.

- هذه غارة جديدة وليست كالسابقات...

- وهذا الحي القديم هل يتحمل الغارات الجديدة؟.

- اعفونا من هذه الثثرة وقولوا يا رب!.

- كلنا يقول يا رب!...

- اسكتوا... اسكتوا يرحمكم الله!.

وكان كمال يلاحظ الضوء الذي ينير مخرج القبو حين رأى جماعة جديدة قادمة فخيّل إليه أنه لمح هيئة

أبيه بينها، وخفق قلبه، أ يكون حقًا أباه؟ وكيف استطاع أن يقطع الطريق إلى القبو؟ بل كيف استطاع

أن يغادر فراشه؟ وشق طريقًا إلى نهاية القبو مخترقًا الكتل البشرية المضطربة، فتبين على التماع الضوء

أسرته جميعًا، أباه وأمه وعائشة وأم حنفي! واتجه نحوهم حتى وقف بينهم وهو يهمس:

- أنا كمال! كلكم بخير؟

الأطفال عقب مدافع الأعياد، وضجّ المكان وما حوله بحركة ما لها من آخر. صفقات أبواب ونوافذ، هدير كلام عصبيّ، ثم تتابع انصراف المنحشرين في القبو، وقال كمال وهو يتنهد:

- فلنعد...

وضع الأب ذراعًا على كتف كمال والأخرى على كتف الأم وسار بينهما خطوة خطوة. وبدءوا يتساءلون عن الرجل، كيف هو، وماذا أصابه أثر مغامرته الخطيرة. غير أنّ الأب توقّف عن المشي وهو يقول بصوت ضعيف:

- أشعر بأنّي يجب أن أجلس...

فقال له كمال:

- دعني أحملك.

فقال في إعياء:

- لن تستطيع...

ولكنّ كمال أحاطه بذراع من وراء ظهره ووضع الأخرى تحت ساقيه، ورفع. لم يكن حملًا خفيفًا ولكنّ ما بقي من أبيه كان على أيّ حال هينًا. وسار في ببطء شديد، والآخرى يتبعونه مشفقين. وانتحبت عائشة فجأة فقال الأب بصوت متعب:

- لا داعي للفضيحة!

فكتمت فاهما بيدها، وكما بلغوا البيت عاوت أم حنفي في حمل السيّد، فصعدا به السلم على مهل وحذر، وكان مستسلمًا ولكنّ همهمته الاستغفار المتواصلة ثمت عن حزنه وضيقه، حتّى طرّحاه بعناية على فراشه، وكما أضيء نور الحجر بدا وجه الأب شديد الشحوب كأنّ الجهد قد استصفى دمه، وكان صدره يعلو وينخفض بعنف، فأغمض عينيه إعياء، ثمّ راح يتأوّه، ولكنّه غالب ألمه حتّى استطاع أخيرًا أن يلوذ بالصمت. وكان الجميع يقفون صفًا بإزاء فراشه ويتطلّعون إليه في وجل وإشفاق، وأخيرًا تساءلت أمينة بصوت متهدّج:

- سيدي بخير؟

ففتح عينيه، وجعل ينظر في الوجوه مليًا، وبدأ لحظات كأنّه لا يعرفها، ثمّ تنهد وقال بصوت لا يكدّ يسمع:

- إنّها فوق رؤوسنا!

- وُحّد الله...

- أسكتوا هذا الشؤم!

وترك كمال يد عائشة ليأخذ يدي أبيه بين يديه، وكان يفعل ذلك لأول مرّة في حياته، وكانت يدا الرجل ترتجفان، وكانت يدا كمال ترتجفان كذلك، أمّا أم حنفي فقد انبطحت على الأرض وهي تولول. وعاد الصوت العصبيّ يصبح في هياج:

- إيّاكم والصراخ، سأقتل الصارخ!...

وعلا الصراخ، وتلاحقت طلقات المدافع، واشتدّت توقّر الأعصاب، في توقّع زلازل جديدة، ولكنّ المدافع استمرت تنطلق وحدها، وظلّ توقّع انفجارات جديدة يخنق الأرواح.

- انتهت القنابل!

- إنّها تغيب ثمّ تنفجر...

- إنّها بعيدة، لو كانت قريبة ما سلمت البيوت من حولنا!

- بل سقطت في النحاسين!

- هكذا يخيّل إليك ولعلّها في الأورنس!

- انصتوا يا هو، ألم تخفّ المدافع؟

بلى خفّت طلقاتها، ثمّ لم تعد تُسمع إلّا من بعيد، ثمّ متقطّعة ثمّ متباعدة، ثمّ بين الطلقة والأخرى دقيقة كاملة، ثمّ أناخ الصمت، وامتدّ، وطال وعمق، ثمّ انعقدت الألسن، حتّى مضت تتعالى همسات الأمل الباكي، وأخذ كثيرون يتذكّرون أشياء وأشياء، ويحيون من جديد، ويتنهدون في ارتياح حذر مشوب بالإشفاق، وعبثًا حاول كمال أن يرى وجه أبيه بعد أن عادت التباغات الضوء الخافت وخيم الظلام...

- أبي، ستعود الحال إلى الهدوء...

فلم يجب الرجل ولكنّه حرّك يديه بين يدي ابنه كأنّما ليقلّعه بأنّه ما زال حيًّا...

- هل أنت بخير؟...

فحرّك يديه مرّة أخرى، وشعر كمال بحزن أوشك

أن يهيج دموعه.

وانطلقت صفارة الأمان...

وأعقبها صياح تهليل من جميع الأركان كصياح

- الحمد لله ...

- ثم يا سيدي ... ثم كي تستريح ...

وترامى إليهم رنين الجرس الخارجي فمضت أم حنفي لتفتح الباب، وتبادلوا نظرات متسائلة فقال كمال:

- لعل أحداً من السكربة أو قصر الشوق قد جاء ليطمئن علينا.

وصدق حدسه فيما لبث أن دخل الحجرة عبد المنعم وأحمد ثم تبعهما ياسين ورضوان فأقبلوا على فراش الأب وهم يحيون الموجودين، فوجه إليهم الرجل نظرات فاترة، وكأن الكلام لم يسعفه فاكتمى برفع يده النحيلة تحية، وقصص عليهم كمال في اقتضاب ما عاناه والده في ليلته المزعجة، ثم قالت أمينة همساً:

- ليلة فظيعة ربنا لا يعيدها ...

وقالت أم حنفي:

- الحركة أعنته قليلاً ولكنه سيسترده بالراحة عافيته ...

ومال ياسين فوق أبيه وهو يقول:

- ينبغي أن تنام، كيف حالك الآن؟

فرنا الرجل إليه ببصر خاب وغمغم:

- الحمد لله ... أشعر بتعب في جنبي الأيسر ...

فسأله ياسين:

- أحضر لك الطبيب؟

فاشار بيده في ضجر ثم همس:

- كلاً خير لي أن أنام ...

فاشار ياسين إلى الموجودين بالخروج، وتراجع إلى وراء قليلاً فرفع الرجل يده النحيلة مرة أخرى. وغادروا الحجرة واحداً في إثر واحد فلم يبق فيها مع الرجل إلا أمينة، ولما جمعتهم الصالة سأل عبد المنعم خاله كمال:

- ماذا فعلتم؟ أما نحن فقد هرعنا إلى المنظرة في الحوش.

وقال ياسين:

- ونحن نزلنا إلى شقة الدور الأرضي عند جيراننا ...

فقال كمال في قلق:

- ولكن التعب قد أنهك قوى بابا ...

فقال ياسين:

- ولكنه سيسترده صحته بالنوم ...

- وما عسى أن نفعل به إذا وقعت غارة أخرى؟ ...

ولم يجز أحد جواباً فساد صمت ثقيل حتى قال أحمد:

- بيوتنا قديمة ولن تتحمل الغارات ...

وعند ذاك أراد كمال أن يبدد سحب الكتابة المخيمة التي أرهقت أعصابه فقال متترعاً من شففيه ابتسامة:

- إذا هدمت بيوتنا فحسبها شرفاً أن هدمها سيكون بأحدث أساليب العلم الحديث ...

٣٧

أوصل كمال زوار آخر الليل حتى الباب الخارجي، ولم يكده يعود إلى باب السلم حتى ترامت إليه من فوق ضجة مريبة، وكانت أعصابه ما تزال متوترة فداخلته كتابة ورقي السلم وثبات. وجد الصالة خالية، وحجرة الأب مغلقة، وخليطاً من الأصوات يعلو خلف بابها المغلق، فهرع إلى الحجرة ودفع الباب ثم دخل، وكان يتوقع شراً أبى أن يفكر في كنهه. كان صوت الأم المبحوح يهتف «سيدي»، وكانت عائشة تنادي بصوت غليظ «بابا» على حين تسمرت أم حنفي عند رأس الفراش فداهمه شعور بالفرح واليأس والاستسلام الحزين؛ رأى نصف أبيه الأسفل مطروحاً على الفراش، ونصفه الأعلى ملقى على صدر الأم التي تربعت وراء ظهره، وصدره يعلو وينخفض في حركة آلية تنذ عنها حشرة غريبة ليست من أصوات هذا العالم، وعينيه مفتوحتين عن نظرة مظلمة جديدة لا ترى ولا تعي ولا تملك أن تحبر عما يعتلج وراءها، فتسمرت قدماه وراء شباك السرير، وانعقد لسانه، وتحجرت عيناه، لم يجد شيئاً يقوله أو شيئاً يفعله، وعانى شعوراً قاهراً بالعجز المطلق، واليأس المطلق والتفاهة المطلقة وكأنه فقد الوعي لولا إدراكه أن أباه يودع الحياة. ورددت عائشة بصراً زائفاً بين وجه أبيها

وجه كمال ثم هتفت:

- أبي، هذا كمال يريد أن يحدثك!

وخرجت أم حنفي عن غمغمتها المتصلة قائلة في نبرات ممزقة:

- أحضروا الطبيب!...

فأنت الأم في حزن غاضب:

- أي طبيب يا حمقاء!؟

ثم نذت عن الأب حركة كأنما يحاول الجلوس، وازداد صدره تشنّجاً واضطراباً، ومدّ سبابة يمينه ثم سبابة يسراه، فلما رأت الأم ذلك تقلص وجهها من الألم ثم مالت على أذنه وتشهدت بصوت مسموع وكوّرت ذلك حتى سكنت يدها. وأدرك كمال أنّ أباه لم يعد يستطيع النطق وأنه دعا الأم لتشهد نيابة عنه، وأنّ كنه هذه الساعة الأخيرة سيبقى سرّاً إلى الأبد، وأنّ وصفه بالألم أو الفزع أو الغيوبة رجم بالغيب، ولكنّه على كلّ حال لا ينبغي أن تطول، إنّها أجل وأخطر من أن تبتذل، أما أعصابه فقد انهارت حيالها، وخجل من نفسه إذ نزعت لحظات إلى تحليل الموقف ودراسته، كأنّ احتضار أبيه يجوز أن يكون زاداً لتأمله ومادة لمعرفته، وضاعف ذلك من حزنه ومن ألمه، وقد اشتدت حركة الصدر وعلت حشرجته، ثم ما هذا؟ أيهم بالقيام؟ أم يحاول الكلام؟ أم يخاطب شيئاً مجهولاً؟ أينألم؟ أم يفزع؟... آه...!

وشهق الأب شهقة عميقة ثم ارتقى رأسه على صدره.

صرخت عائشة من الأعياق: «يا أبي... يا نعيمة... يا عثمان، يا محمد» فهرعت إليها أم حنفي ودفعتها أمامها برقة إلى الخارج، ورفعت الأم وجهها الشاحب إلى كمال وأشارت إلى الخارج، ولكنّه لم يتحرك، فهمت في يأس:

- دعني أقم بواجبي الأخير نحو أبيك...

فتحوّل عن موقفه ومضى خارجاً، وكانت عائشة مرتقية على الكنية وهي تعول، فمضى إلى الكنية المقابلة لها وجلس، أما أم حنفي فذهبت إلى الحجرة لتساعد سيّدها وأغلقت الباب وراءها. ولم يعد بكاء عائشة ممّا يُحتمل فقام واقفاً وراح يقطع الصالة ذهاباً وإياباً دون

أن يوجّه إليها خطاباً، وكان من حين لآخر يرنو إلى باب الحجرة المغلق ثم يضغط على شفتيه بشدة، وتساءل لم يبدو لنا الموت بهذه الغرابة؟. وكان كلّما جمع أفكاره ليتأمل تشنّت وغلبه الانفعال. كان الأب - حتى بعد انزوائه - يملأ هذه الحياة، فلن يكون غريباً إذا وجد غداً البيت غير البيت الذي عهد، والحياة غير الحياة التي ألفها، بل عليه منذ اللحظة أن يعدّ نفسه لدور جديد. واشتدّ ضيقه بنحيب عائشة وهمّ مرةً بأن يُسكتها ولكنّه لم يفعل، وعجب من أين لها بهذا الشعور وقد كانت تبدو جامدة غريبة عن كلّ شيء. وعاد يفكر في اختفاء أبيه من هذه الحياة فكبر عليه تصوّر هذا، ثم ذكر حاله الأخير فأكل الحزن شغاف قلبه. وذكر صورته القديمة الماثلة في خاطره، وهو في تمام أبهته وقوّته، فشر برثاء عميق للكائنات جميعاً، ولكن متى يسكت نحيب عائشة!؟... ألا تستطيع أن تبكي - مثله - بغير دموع!؟

وفتح باب الحجرة وخرجت منه أم حنفي، وتراعى إليه من خلال الباب قبل أن يغلق نحيب الأم، فأدرك أنّها فرغت من أداء واجبها وخلصت للبكاء، وتقدّمت أم حنفي من عائشة وقالت لها بصوت غليظ:

- كفاية بكاء يا سيّدي...

ثم تحوّلت إليه قائلة:

- الفجر لاح يا سيّدي، نم ولو قليلاً فأمامك غد

عصيب...

ثم أفحمت في البكاء، ثم غادرت المكان وهي تقول في صوت بالّ:

- سأذهب إلى السكّرية وقصر الشوق لإبلاغ الخبر الأسود!...

وجاء ياسين مهرولاً تتبعه زنوبة ورضوان، ثم تراعى إليهم من الطريق الصامت صوات خديجة. ويوصل خديجة استعرت النار في البيت جميعاً فاختلطت الصوات بالصراخ والبكاء. وتعدّر على الرجال البقاء في الدور الأوّل فصعدوا إلى المكتبة في الدور الأعلى وجلسوا واجمين، وغشيم الصمت والوجوم حتى قال إبراهيم شوكت:

كان الأب في الساعة الخامسة اليوم في فراشه يتابع الراديو أما في نفس الساعة غداً... إلى جانب فهمي وابني ياسين الصغيرين، ترى ماذا تبقى من فهمي؟ لم يخفّف العمر من رغبته القديّة في التطلّع إلى جوف القبر، ترى هل كان الأب حقاً يرغب في قول شيء كما تمهّياً له؟ ماذا كان يريد أن يقول؟ والتفت ياسين إليه متسائلاً:

- هل شهدت احتضاره؟

- نعم، عقب انصرافك مباشرة.

- تألم؟

- لا أدري، من يدري يا أخي؟ ولكنه لم يستغرق

أكثر من خمس دقائق...

تمهّد ياسين ثمّ تساءل:

- ألم يقل شيئاً؟

- كلاً، والغالب أنّه فقد النطق...

- ألم يتشهد؟

فقال كمال وهو يغضّ بصره ليداري تأثيره:

- قامت أُمّي بذلك نيابة عنه...

- ليرحمه الله...

- آمين...

وساد الصمت ملياً حتّى خرّقه رضوان قائلاً:

- يجب أن يكون السرداق كبيراً ليتّسع

للمعزين...

فقال ياسين:

- طبعاً، أصدقاؤنا كثيرون... (ثمّ وهو ينظر نحو

عبد المنعم)... وهناك شعبة الإخوان المسلمين!...

ثمّ متنبّهاً:

- لو كان أصحابه أحياء لحملوا النعش على

أكتافهم!...

ثمّ كانت الجنّازة كما رسموا، وكان أصدقاء عبد

المنعم أكثر عدداً، أما أصدقاء رضوان فكانوا أعلى

مقاماً، ولفت نفر منهم الأنظار بشخصياتهم المعروفة

لقراء الجرائد والمجّلات، وكان رضوان بهم مزهواً حتّى

كاد يغطّي زهوه على حزنه. وشيّع أهل الحيّ «جار

العمر» حتّى الذين لم يصلهم به سبب من أسباب

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله، قضت عليه الغارة، رحمه الله رحمة واسعة كان رجلاً ولا كلّ الرجال...

ولم يتمالك ياسين نفسه فبكى، وعند ذاك انفجر كمال باكياً، فعاد إبراهيم شوكت يقول:

- وحّدوا الله، لقد ترككم رجالاً...

وكان رضوان وعبد المنعم وأحمد يتطلّعون إلى

الرجلين الباكيين في حزن ووجوم وشيء من الدهش.

وسرعان ما جفّف الرجلان دمعهما ولاذا بالصمت،

فقال إبراهيم شوكت:

- الصباح قريب، فلنفكّر فيما يجب عمله...

فقال ياسين في اقتضاب حزين:

- لا جديد في الأمر فقد جرّيناه مرّات...

فقال إبراهيم شوكت:

- يجب أن تكون الجنّازة جدّيرة بمقامه...

فقال ياسين بتوكيد:

- هذا أقلّ ما يجب!

وهنا قال رضوان:

- الشارع أمام البيت ضيّق لا يتّسع للسرداق

المناسب فلنقم سرداق العزاء في ميدان بيت

القاضي...

فقال إبراهيم شوكت:

- ولكنّ العادة جرت بأن يقام سرداق العزاء أمام

بيت المتوفّى!...

فقال رضوان:

- ليس هذا بالمكان الأوّل من الأهميّة خاصّة وأنّه

سيؤمّ السرداق وزراء وشيوخ ونواب!

وأدرك المستمعون أنّه يشير إلى معارفه هو فقال

ياسين دون مبالاة:

- نقيمه هناك...

وكان أحمد يفكّر في الدور المنوط به فقال:

- لن نتمكّن من نشر النعيّ في جرائد الصباح...

فقال كمال:

- جرائد المساء تصدر حوالى الساعة الثالثة بعد

الظهر فلنجعل ميعاد الجنّازة في الساعة الخامسة...

- ليكن، القرافة قريبة على أيّ حال...

وتأمّل كمال مجرى الحديث في شيء من العجب.

التعارف الشخصي، فلم تكذب الجنازة تخلو إلا من أصدقاء المرحوم نفسه الذين سبقوه إلى الدار الآخرة. وعند باب النصر ظهر الشيخ متولي عبد الصمد في الطريق، وكان يترنح من الكبر فرفع رأسه نحو النعش وهو يضيق عينيه ثم سأل:

- من هذا؟

فأجابه رجل من أهل الحي:

- المرحوم السيد أحمد عبد الجواد!

فجعل وجه الرجل يهتز بينة ويسرة في ارتعاش، وملاحه تتساءل في حيرة، ثم إذا به يسأل:

- من أين؟...

فأجابه الرجل وهو يهز رأسه في شيء من الحزن:

- من هذا الحي، كيف لا تعرفه! ألا تذكر السيد

أحمد عبد الجواد؟...

ولكن لم يبد عليه أنه تذكر شيئاً، وألقى نظرة أخيرة على النعش ثم سار في سبيله...

٣٨

خلا البيت من سيدي فليس هو البيت الذي عاشته أكثر من خمسين عاماً، والجميع يكون حولي، وخديجة لا تفارقني فهي قلبي العامر بالحزن والذكريات وهي قلب كل قلب بل هي ابنتي وأختي وأمي أحياناً، وأكثر بكائي خلصة حين أدخلو إلى نفسي إذ ينبغي أن أشجعهم على النسيان فما يهون علي أن يحزنوا أو- لا قدر الله- أن ينال منهم الحزن أي منال. أما إذا خلوت إلى نفسي فلا أجد عزاء إلا في البكاء فأبكي حتى تحف دموعي، وأقول لأم حنفي إذا تسللت إلى وحدتي الباكية دعيني وشأني يرحمك الله. فتقول لي كيف أتركك وأنت على هذه الحال؟ أنا عارفة بحالك... ولكنك ست مؤمنة بل أنت ست المؤمنين فعندك نتعلم العزاء والتسليم لقضاء الله... قول جميل يا أم حنفي ولكن أنى للقلب المحزون أن يفقه معناه، ولم يعد لي شأن في هذه الدنيا ولم يعد لي عمل وكل ساعة من ساعات يومي مرتبطة بذكرى من ذكريات سيدي... لم أعرف الحياة إلا وهو محورها

الذي تدور حوله فكيف أطيقها ولم يعد له فيها ظل؟ وأنا أول من اقترح تغيير معالم الحجرة العزيرة... ما حيلني ما داموا لا يدخلونها حتى تتعلق أبصارهم بمكانه الخالي ويجهشون بالبكاء... وسيدي يستحق الدموع التي تسيل من أجله، ولكني لا أطيق بكاءهم وأخاف على قلوبهم الغضة فأعزيم بما تعزيني به أم حنفي وأطالهم بالتسليم لله وقضائه، ولذلك أخليت الحجرة من أثائها القديم وانتقلت إلى حجرة عائشة، ولكيلا تهجر الحجرة وتستوحش نقلت إليها أثاث الصالة فانقل إليها مجلس القهوة حيث نجتمع حول المجرمة نتحدث كثيراً وتقطع أحاديثنا الدموع، ولا يشغلنا شيء كما يشغلنا الإعداد للقرافة وأشرف بنفسي على تجهيز الرحمة فلعله الواجب الأوحى الذي لم أنخل عنه لأم حنفي كما تخلت لها عن كل شيء، تلك المرأة العزيرة الوفيّة التي دخلت بجدارة في صميم أسرتنا، فنحن نعدّ الرحمة معاً ونبكي معاً ونتذكر الأيام الجميلة معاً فهي دائماً معي بروحها وذاكرتها، وأمس جرّ الحديث إلى ذكر ليالي رمضان فبادرت تحدث عن سيرة سيدي في رمضان منذ ساعة استيقاظه في الضحى حتى حين عودته إلينا عند السحور، فذكرت بدوري كيف كنت أهرع إلى المشربّة لأرى الخططور الذي يعيده وأستمع إلى ضحكات راكميه أولئك الذين ذهبوا تبعاً إلى رحمة الله كما ذهب الأيتام الحلوة وكما ذهب الشباب والصحة والعافية فاللهم متّع الأبناء بطول العمر وقرّ أعينهم بأفراح الحياة، ولهذا الصباح رأيت قفطنا تشتم الأرض تحت الفراش حيث كانت ترضع فلذات كبدها التي أهديناها إلى الجيران فقطع قلبي منظرها الحائر الحزين وهتفت من أعماق قلبي الله يصبرك يا عائشة... عائشة المسكينة التي هاج موت أبيها حزنها فهي تبكي أباه وابنتها وابنيها وزوجها فما أحرّ الدموع وأنا التي تجرعت مرارة التكل قديماً حتى سأل قلبي دماً واليوم ألتجع بوفاء سيدي وتخلو حياتي منه وكان ملء حياتي جيماً ولا يبقى لي من الواجبات إلا أن أعد له الرحمة أو ألتقاه من السكّرية وقصر الشوق فهذا كل ما بقي لي، كلاً يا بني، اختر لنفسك هذه الأيام مجلساً غير مجلسنا الحزين حتى لا تسري إليك عدواه... لماذا

الملايس إلى سعاة ديوانه وفراشي مدرسة كمال فليس
أحق بها من الفقراء أمثالهم الذين سيدعون له بالرحمة
في مقره الأخير، أما المسبحة العزيزة فلن تفارق يدي
حتى أفارق الحياة، والقبر كم يبدو حلو المزار على ما
يثير من شجن ولم أكن انقطعت عنه منذ انتقل إليه
الشهيد الغالي، ومنذ ذلك الوقت وأنا اعتبره حجرة من
بيتنا لكتها في أطراف حينا، ويجمعنا القبر جميعا كما كان
يجمعنا مجلس القهوة في الزمن الخالي، وتنوح خديجة
حتى ينال منها الإعياء ثم نؤمر بالسكوت تادبا لاستماع
القرآن، ثم يشغلهم الحديث حينا فأسر بما يصرف
أعزائي عن الحزن، ويشترك رضوان وعبد المنعم
وأحمد في نقاش طويل وتنضم إليهم كريمة أحيانا فذاك
ما يغري كمال بمشاركتهم الحديث ويلطف من كآبة
المقام، ويسأل عبد المنعم عن خاله الشهيد فيقص
ياسين القصص فتنبعث الحياة في الأيام القديمة ويعود
غائب الذكريات ويخفق قلبي فلا أدري كيف أداري
دموعي، وكثيرا ما أرى كمال واجبا فأسأله عما به فيقول
لي إن صورته لا تفارقني خاصة منظر الاحتضار فلو
كانت نهايته أخفأ. فقلت له برقة عليك أن تنسى
هذا كله. فتساءل كيف يكون النسيان؟ فقلت له
بالإيمان فابتسم ابتسامة حزينة وقال: كم كنت أخافه
في مطلع حياتي ولكنه تكشف لي في عهده الأخير عن
إنسان جديد بل صديق حبيب. ألا ما كان أظرفه
وأرقه وألطفه، لم يكن في الرجال مثله. وياسين يبكي
كلما أهاجته الذكرى... كمال حزنه في صمته الواجم
أما ياسين الضخم فيبكي كالأطفال ويقول لي إنه
الرجل الوحيد الذي أحببته في حياتي، أجل كان أباه
وكان أمه ولم ينعم بالعطف والحنان والرعاية إلا في
كفنه حتى شيدته كانت رحمة ولن أنسى يوم عفا عني
وردني إلى بيته فصدق فراسة أمي رحها الله التي ما
انفكت تقول لي إن السيد ليس بالرجل الذي يقطع أم
أولاده، وكان يجمعنا حبه فاليوم تجمعنا ذكراه، أما بيتنا
فلا يخلو من الزوار غير أن قلبي لا يسكن حتى أجد
خديجة وياسين وألها حولي... حتى زئوبة فما أصدق
حزنها، وقالت لي كريمة الصغيرة الجميلة: يا جدتي
تعالي عندنا فهذه أيام مولد الحسين وتحت بيتنا تقام

أنت واجم؟. الحزن لم يُخلق للرجال فالرجل لا
يستطيع أن يحمل الأعباء والأحزان معاً... اصعد إلى
حجرتك وتسل بالقرأة والكتابة كما تفعل أو انطلق إلى
أصحابك فاسهر، ومن بدء الخليفة فالأعزاء يفارقون
ذوهم، فلو كان الاستسلام إلى الحزن هو المتبع لما بقي
على ظهر الأرض حي... لست حزينة كما تتوهم وما
ينبغي لمؤمن أن يحزن، وسوف نعيش إذا أراد الله
وسوف ننسى ولا سبيل إلى العزيز الذي سبق إلا حين
يشاء الله، هكذا أقول له ولا آلو أن أتكلف ما ليس بي
من التصبر والتجملد إلا إذا هلت خديجة قلب بيتنا
الحي وذرفت الدموع بلا حساب هنالك لا أملك أن
أجهش في البكاء، وقالت لي عائشة إنها رأت أباه في
المنام قابضا على ساعد نعيمة بيد وعلى ساعد محمد بيد
حاملا عثمان على كتفه وقال لها إنه بخير وإتهم بخير
فسألته عن سر النافذة التي نورت لها في السماء ثم
توارت إلى الأبد فتجلت في عينيه نظرة عتاب ولم
ينس. ثم سألتني عن معنى الحلم. يا حيرة أملك يا
عائشة... غير أنني قلت لها إن العزيز مات وهو
مشغول القلب بها ولذلك زارها في الحلم وجاءها
بأولادها من الجنة لتقر برؤيتهم عينا فلا تنقصي عليهم
صفوهم باستسلامك للحزن، ليت عائشة الزمان
الأول تعود ولو ساعة، ليت الذين حولي يبرءون من
حزنهم حتى لا يشغلني شاغل عن واجب الحزن
العميق، وجعت ياسين وكمال وقلت لهما: هذه
المخلفات العزيزة ماذا نفعل بها؟ فقال ياسين: آخذ
الخاتم فإنه على قد أصبعي، ولك الساعة يا كمال أما
السبحة فلك أنت يا نينة... والجيب
والقفاطين؟... وذكرت من توي الشيخ متولي عبد
الصمد الذكرى الباقية من عهد العزيز فقال ياسين:
لقد انتهى الرجل فهو في غيبوبة ولا يُعرف له مقر،
وقال كمال مقطبا: لم يعرف أبي!... نسي اسمه وتولى
عن الجنائز دون اكتراث. فانزعجت وأنا أقول: يا
للعجب متى حدث هذا؟ كان سيدي يسأل عنه حتى
أيامه الأخيرة وكان دائما يحبه ولم يره إلا مرة أو مرتين
مد زار بيتنا ليلة دخلة نعيمة، ولكن رباه أين نعيمة
وأين ذلك التاريخ كله؟ ثم اقترح ياسين أن تهدي

دلّت على أنّه لم يفاجأ بالخبر، على حين تركت خديجة الشال الذي تطرّزه وحدجته بنظرة غريبة غير مصدّقة ثمّ نظرت إلى زوجها وهي تتساءل:

- ماذا قال؟

فعاد عبد المنعم يقول:

- سأتوكّل على الله وأخطب كريمة بنت أخيك...

فبسطت خديجة يديها في حيرة وقالت:

- هل أفلسك الدنيا من الذوق؟ أهذا الوقت مناسب لحديث الخطبة حتّى مع صرف النظر عن المخطوبة؟

فقال عبد المنعم باسمًا:

- كلّ الأوقات مناسبة للخطبة...

فهزّت رأسها في حيرة وهي تتساءل:

- وجذّك؟! ... (ثمّ وهي تردّد عينيها بين أحمد وإبراهيم)...

هل سمعتم عن شيء كهذا من قبل؟

فقال عبد المنعم في شيء من الحذّة:

- خطبة لا زواج ولا فرح، وقد انقضى على وفاة

جذّي أربعة أشهر كاملة...

وقال إبراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة:

- كريمة ما زالت صغيرة، مظهرها أكبر من سنّها فيما

أعتقد...

فقال عبد المنعم:

- هي في الخامسة عشرة ولن يُكتب الكتاب قبل

عام...

فقال خديجة في تهكم ومرارة:

- هل أطلعتك زُنوبة هانم على شهادة الميلاد؟

فضحك إبراهيم شوكت، وضحك أحمد، أمّا عبد

المنعم فقال جادًا:

- لن يتّم شيء قبل عام، وبعد عام سيكون قد

مضى على وفاة جذّي حوالى العام والنصف وتكون

كريمة قد بلغت سنّ الزواج...

- ولماذا توجع دماغنا الآن؟

- لأنّه لا بأس من إعلان الخطبة في الوقت الحاضر.

فتساءلت خديجة في سخرية:

- وهل تحمّض الخطبة إذا أُجلت عامًا؟

- أرجوك... أرجوك أن تكفّي عن المزاح...

الأذكار وأنت تحيّن ذلك، فقبّلتها شاكرة وقلت لها: يا بنتي جدّتك لم تمتد البيات خارج بيتها... إنّها لا تدري شيئًا عن آداب بيت جدّها في تلك الأيام التي خلت. ما أجل ذكراها والمشريّة آخر حدود دنياي حيث أنتظر عودة سيّدي آخر الليل وهو من قوّته يكاد يهذّ الأرض عند مغادرته للحنطور ثمّ يملأ الحجره بطوله وعرضه والعافية تكاد تثب من وجهه أمّا اليوم فلا يعود ولن يعود وقبل ذلك ذبل وانزوى ولزم الفراش ورقّ جسمه ونحفّ وزنه حتّى تُمل بيد واحدة. يا حزني الذي لن يذهب! وقالت عائشة في غضب إنّ هؤلاء الأحفاد لم يمزّنوا على جدّهم، إنّهم لا يمزّنون، فقلت لها بل حزنوا ولكنّهم صغار ومن رحمة الله بهم ألا يغرقوا في الحزن، فقلت: انظري إلى عبد المنعم لا ينتهي نقاشه، وهو لم يمزّن على ابنتي وسرعان ما نسيها كأنّها شيء لم يكن. فقلت لها: بل حزن عليها طويلاً وبكى كثيرًا وحزّن الرجال غير حزن النساء وقلب الأمّ غير القلوب جميعًا، ومنذا الذي لا ينسى يا عائشة، ونحن ألا نتسلّى بالحديث أو يدركنا الابتسام أحيانًا وسوف يأتي يوم لا يكون فيه دموع، ثمّ أين فهمي أين؟. وقالت لي أمّ حنفي: لماذا امتنعت عن زيارة الحسين؟ فقلت: نفسي فاترة عن كلّ شيء أحبّته وسأزور سيّدي عندما يبرأ الجرح. فقلت لي: وهل يبرأ الجرح إلّا بزيارة سيّدك؟ هكذا ترعاني أمّ حنفي وهي ربّة بيتنا ولولاها ما كان لنا بيت، إنّك يا ربّي ربّ الجميع أنت القاضي ولا رادّ لقضائك ولك أصليّ، وددت لو أبقيت على سيّدي قوّته حتّى النهاية فما ألمني شيء كما ألمني رقاذه، هو الذي كانت الدنيا تضيق عن مراحه... حتّى الصلاة عجز عنها وما عاناه قلبه الضعيف وعودته محمولًا على الأيدي كالطفل لذلك تسيل دموعي ويتكاثف حزني...

- سأتوكّل على الله وأخطب كريمة بنت خالي...

رفع إبراهيم شوكت عينيه إلى ابنه في شيء من

الدهش، أمّا أحمد فأحنى رأسه وهو يبتسم ابتسامة

الدعوات المتتابعة إلى ولائم قصر الشوق، وإذا بك
تقع كالجرذل!

فرّد عبد المنعم عينيه غاضبًا بين أبيه وأخيه ثم
تساءل:

- أهذا الكلام يليق بنا؟ أسمعاني رأيكما...

فقال إبراهيم شوكت مثائبًا:

- لا داعي لكثرة الكلام، عبد المنعم سيتزوج إن
اليوم أو غدًا، وأنت تؤدّن هذا، وكرمة ابنتنا، وهي
بنت جميلة ولطيفة، لا داعي للشوشرة...
وقال أحمد:

- أنت يا نينة أول من يؤدّ إرضاء خالي ياسين!

فقال خديجة محتدة:

- كلّمكم ضدّي كالعادة، ولا حجة لكم إلّا خالي
ياسين، ياسين أخي، وكان خطوه الأول أنّه لم يعرف
كيف يتزوج، وعنه ورث ابن أخته هذا المزاج
الغريب!...

فتساءل عبد المنعم في عجب:

- أليست امرأة خالي صديقتك؟ من يراكها وأنتما
تتناجيان يظنّكما شقيقتين!...

- ما حيلتي في امرأة سياسيّة مثل اللّبي؟ لكن لو
ثُرّك لي الأمر أو لو لم أَرع خاطر ياسين ما سمحت لها
بدخول بيتي، وماذا كانت النتيجة؟... أكلت مخك
بالولائم المغرّضة، وعليه العوض؟
عند ذاك قال أحمد مخاطبًا أخاه:

- اخطبها وقتما تشاء، نينة لسانها كثير الكلام ولكنّ
قلبها طيّب...

فضحكت ضحكة عصبية وقالت:

- عفارم يا ولدا! تختلفان في كلّ شيء... في الدين
والملّة والسياسة، أمّا عليّ فتتحدان!...

فقال أحمد في مرح:

- خالي ياسين أغلّ الناس عندك، وسوف ترخّين
بكرمته كأحسن ما يكون الترحيب، الحكاية أنّك
تؤدّن عروسًا غريبة حتّى تتمكّني - كحماة - من
اضطهادها، حسن، عليّ أنا أن أحقّق لك هذا الأمل،
سوف أجيئك بالعروس الغريبة لتشفي غليلك!

فصاحت خديجة:

- لو وقع هذا لكان فضيحة.

فقال عبد المنعم في هدوء ما استطاع:

- دعي جدّتي لي، ستفهمني خيرًا منك، إنّها جدّتي
وجدّة كريمة على السواء.

فقال بخشونة:

- ليست جدّة لكريمة...

فسكت عبد المنعم وقد تجهم وجهه فبادره أبوه
قائلًا:

- المسألة مسألة ذوق فيحسن أن تنتظر قليلًا...

فهمت خديجة حانقة:

- يعني أنّه لا اعتراض لك إلّا على الوقت؟

فتساءل عبد المنعم متغايًا:

- هل ثمة اعتراض آخر؟

فلم تجب خديجة وعادت تتشاغل بتطريز الشال
فاستطرد عبد المنعم قائلًا:

- كريمة ابنة ياسين أخيك أليس كذلك؟

فتركت خديجة الشال وقالت بمرارة:

- هي ابنة أخي حقًا ولكن كان ينبغي أن تذكر أمّها
أيضًا!

وتبادلوا النظرات في إشفاق، ثمّ اندفع عبد المنعم
قائلًا في حدة:

- أمّها زوجة أخيك كذلك!

فارتفع صوتها وهي تقول:

- أعلم هذا، وهو ممّا يؤسف له!

- ذلك الماضي المنسي! من يذكره الآن؟ لم تعد إلّا
سيّدة محترمة مثلك!

فقال بصوت غليظ:

- ليست مثلي ولن تكون مثلي أبدًا!

- ماذا يعيها؟! عرفناها منذ صغرنا سيّدة محترمة
بكلّ معنى الكلمة، والإنسان إذا تاب واستقام محبت
صفحة سوابقه فلا يذكّر بها بعد ذلك إلّا...

وأمسك، فقامت وهي تهزّ رأسها في أسف:

- نعم؟ صِفْني! سبّ أمك إكرامًا لهذه المرأة التي
عرفت كيف تأكل مخك، طالما تساءلت عمّا وراء

وكان إسماعيل لطيف يقول:
 - أنا في إجازة للاستعداد ومن ثم أسافر...
 فتساءل كمال في أسف:
 - ستغيب عنا ثلاثة أعوام؟
 - نعم، لا بدّ من المغامرة، مرتّب ضخم لا أتخيل
 أن أناله يوماً هنا، ثم إنّ العراق بلد عربيّ لا يختلف
 عن مصر كثيراً...
 سيخلف وحشة، لم يكن صديق الروح ولكنّه
 صديق العمر، وتساءل رياض قلّلس ضاحكاً:
 - ألا يحتاج العراق إلى مترجمين؟
 فسأله كمال:
 - أتسافر إذا سنحت لك فرصة كفرصة إسماعيل؟
 - لو حدثت في الماضي ما تردّدت أمّا اليوم فلا...
 - وما الفرق بين الماضي والحاضر؟
 فقال رياض قلّلس ضاحكاً:
 - بالنسبة لك لا شيء، أمّا بالنسبة لي فهو كلّ
 شيء، الظاهر أنّي سأنضمّ قريباً إلى جماعة المتزوجين!
 دهش كمال للخبر الذي وقع عليه دون تمهيد وقد
 ساوره قلق لم يدرك كنهه:
 - حقاً؟ لم تُثبّر إلى ذلك من قبل!
 - بل، جاء بغتة، في آخر مقابلة، في آخر مقابلة
 بيننا لم يكن في البال شيء!
 ضحك إسماعيل لطيف في ظفر، أمّا كمال فتساءل
 وهو يحاول أن يتشّمس:
 - كيف؟

- كيف؟ كما يحدث كلّ يوم، مدرّسة جاءت لزيارة
 أخيها في إدارة الترجمة فأعجبتني، فجسست النبض
 فوجدت من يقول: «تفضّل»...
 تساءل إسماعيل ضاحكاً وهو يتناول خرطوم
 النارجيلة من كمال:
 - ترى متى يحسّ هذا (مشيراً إلى كمال) النبض؟
 هكذا إسماعيل لا يفوّت فرصة أبداً لإثارة هذا
 الموضوع المعاد، ولكن ثمة أمر أخطر من هذا، فجميع
 الأصدقاء المتزوجين يقولون إنّ الزواج «زنزانة»، فمن
 المحتمل جداً ألا يرى رياض - إذا تزوّج - إلا في
 القليل النادر، وربما تغيّر وتبدّل فيصبح صديقاً

- لا عجب إن جئتني غداً براقصة! علام
 تضحكون؟! هذا شيخ الإسلام سيصاهر عالمه فإذا
 أتوقع منك أنت المتهم في دينه والعياذ بالله؟!
 - نحن في حاجة إلى راقصة بالفعل!
 وإذا بخديجة تقول وكأنما تذكّرت أمراً خطيراً:
 - وعائشة يا ربّي ترى ماذا تقول عنا؟!
 فقال عبد المنعم محتجاً:
 - ماذا تقول؟ لقد توفّيت زوجتي منذ أربع سنوات
 كاملة فهل تودّ أن أبقى أرمل مدى العمر؟
 فقال إبراهيم شوكت في ضجر:
 - لا تخلقوا من الحجة قبة، المسألة أبسط من هذا
 كلّ، كريمة ابنة ياسين، ياسين أخو خديجة وعائشة،
 حسبنا هذا. أف. كلّ شيء عندهم نقار حتّى
 الأفراح؟!
 واختلس أحمد من أمّه نظرة باسمه، وجعل يراقبها
 حتّى قامت كالغاضبة وغادرت الصالة، وراح يقول
 لنفسه: هذه الطبقة البورجوازية كلّها عقّد، تحتاج إلى
 محلّ نفسانيّ بارع ليشفيها من كافّة عللها، محلّ له
 قوّة التاريخ نفسه! لو هادني الحظّ لسبقت أخي إلى
 الزواج ولكنّ البورجوازية الأخرى اشترطت مرتّباً لا
 يقلّ عن خمسين جنيهًا، هكذا تُجرّح قلوب لأمر لا
 شأن لها بالقلوب، ترى ماذا يكون رأي سوسن حماد لو
 علمت بمغامرتي الفاشلة؟!.

٤٠

كان الجوّ شديد البرودة، ولم يكن خان الخليلي
 الرطب ممّا يؤثر شتاءً، ولكنّ رياض قلّلس نفسه الذي
 أشار ذلك المساء بالذهاب إلى قهوة خان الخليلي التي
 شيّدت مكان قهوة أحمد عبده فوق سطح الأرض، أو
 كما قال: «علمني كمال عليّ آخر الزمن أن أكون من
 غواة الغرائب». كانت قهوة صغيرة، بابها يفتح على
 حيّ الحسين، ثمّ تمتدّ طويلاً في شبه ممّر تصفّ على
 جانبيه الموائد وينتهي بشرفة خشبيّة تطلّ على خان
 الخليلي الجديد. جلس الأصدقاء في جناح الشرفة
 الأيمن يحسّون الشاي ويدخّنون نارجيلة المناوبة.

- دعونا من حديث الزواج، لقد انتهت منه وعقبى لك، على أن ثمة أحداثاً سياسية هامة هي التي ينبغي أن تستأثر اليوم باهتمامنا.

وكان كمال يشاركه مشاعره هذه غير أنه لم يستطع أن يفوق من المفاجأة فتلقى دعوة الآخر بفتور ظاهر ولم ينس، أما إسماعيل لطيف فقال ضاحكاً:

- عرف النحاس كيف ينتقم لإقالة ديسمبر سنة ١٩٣٧ فاقترح عابدين على رأس الدبابات البريطانية! وترث رياض قليلاً ليعطي كمال فرصة للرد غير أن هذا لم ينشط للكلام، فقال رياض في لهجة متجهمّة: - انتقام! إن خيالك يصور لك المسألة على وجه هو أبعد ما يكون عن الحقيقة...

- فما الحقيقة؟

وألقي رياض نظرة على كمال كأنما يحثّه على الكلام فلما لم يستجب استطرد قائلاً:

- ليس النحاس بالرجل الذي يتأمر مع الإنجليز في سبيل العودة إلى الحكم، إن أحمد ماهر مجنون، هو الذي خان الشعب وانضمّ إلى الملك، ثم أراد أن يغطي مركزه المضطرب بتصريحه الاحق الذي أعلنه أمام الصحفيين.

ثم نظر إلى كمال مستطعلاً رأيه، وكان حديث السياسة قد جذب أخيراً بعض اهتمامه غير أنه شعر برغبة في معارضة رياض ولو بعض الشيء فقال:

- لا شك أن النحاس قد أنقذ الموقف، ولست أشك في وطنيته مطلقاً، إن الإنسان لا ينقلب في هذه السن إلى خائن ليتولى وظيفة تولّاها خمس مرّات أو ستاً من قبل، ولكن هل كان تصرفه هو التصرف المثالي؟...

- أنت شكك لا نهاية لشكك، ما الموقف المثالي؟ - أن يصّر على رفض الوزارة حتى لا يخضع للإنذار البريطاني وليكن ما يكون.

- ولو عزل الملك وتولّى أمر البلاد حاكم عسكري بريطاني؟

- ولوا...

تنهّد رياض في غيظ وقال:

- نحن نلهو بالحديث أمام النارجيلة، أما السياسي

بالمراسلة، وهو وديع رقيق فما أسهل هضمه، ولكن كيف تمضي الحياة بدونها؟ وإذا جعل الزواج منه شخصاً جديداً كإسماعيل فسلام على كافّة مسرّات الحياة! وسأله:

- ومتى تنزوّج؟

- في الشتاء القادم على أبعد الفروض.

كأنما قضي عليه أن يفقد دائماً صديقاً لروحه المعبّدة:

- عند ذاك ستكون رياض قلّس آخر!

- له!... أنت واهم جداً...

فقال وهو يداري قلقة بابتسامة:

- واهم! رياض اليوم شخص لا يُشبع روحه شيء ويقنع جيبه بلا شيء، أما الزوج فلن يشبع جيبه أبداً ولن يجد فرصة لمتاع الروح...

- يا له من تعريف جريح للزوج! ولكنّي لا أوافقك عليه...

- كإسماعيل الذي اضطرّ إلى الهجرة إلى العراق، لست أسخر من هذا، فهو طبيعيّ فوق أنه بطولة، ولكنّه في الوقت نفسه بشع، تصوّر أن تغرق حتى قمة رأسك في هموم الحياة اليومية، ألا تفكر إلا في مشكلات الرزق، أن يحسب وقتك بالقروش أو الملاليم، أن تسمي شاعريّة الحياة ضياع وقت!

فقال رياض في استهانة:

- أوهاهم مبعثها الخوف!

وقال إسماعيل لطيف:

- آه لو تعرف الزواج والأبوة! لقد فاتك حتى اليوم أن تعرف حقيقة الحياة...

لا يبعد أن يكون الصواب رأيه، ولو صحّ هذا فحياته مأساة سخيفة، ولكن ما السعادة وماذا يروم على وجه التحقيق؟ غير أن الذي يكرهه الآن أنه بات مهتداً بالوحدة المرعبة مرّة أخرى، كما عانى عقب اختفاء حسين شذاد من حياته، لو كان من الممكن أن يجد زوجة لها جسم عطية وروح رياض! هذا ما يروم حقاً، جسم عطية وروح رياض في شخص واحد يتزوّجه فلا يتهدّد الشعور بالوحدة حتى الموت، هذه هي المشكلة، وإذا برياض يقول في ضجر:

فأمامه مسئولية خطيرة، في هذه الظروف الحربية الدقيقة كيف يقبل النحاس أن يعزل الملك ويحكم البلاد حاكم عسكري إنجليزي؟ وإذا انتصر الحلفاء - ويجب أن نفترض هذا أيضًا - فنكون في صفوف الأعداء المهزومين، السياسة ليست مثالية شعرية ولكنها واقعية حكيمة...

- لا زلت أومن بالنحاس، ولكن لعله أخطأ، لا أقول تأمر أو خان...

- المسئولية تقع على العائنين الذين مالوا الفاشست من وراء ظهور الإنجليز كأن الفاشست سيحترمون استقلالنا، أليس بيننا وبين الإنجليز معاهدة؟ وأليس الشرف يقضي علينا باحترام كلمتنا؟ ثم ألسنا ديموقراطيين يهمن أن تنتصر الديموقراطية على النازية التي تضعنا في جدول الأمم والأجناس في أحط طبقة وتثير شحناء الجنسية والعنصرية والطائفية؟...

- معك في هذا كله، ولكن الخضوع للإنذار البريطاني جعل من استقلالنا وهماً...
- احتج الرجل على الإنذار ونزل الإنجليز عند رايه...

فضحك إسماعيل عاليًا ثم قال:

- يا عيني على الاحتجاج الانجلو أجيشيانا...

غير أنه سرعان ما قال جادًا:

- إني أقره على ما فعل، ولو كنت مكانه لفعلته، رجل أبعد رغم أغليته وأهين فعرف كيف ينتقم لنفسه، والواقع أنه ليس هنالك استقلال ولا كلام فارغ، ففي سبيل أي شيء يعزل الملك ويحكمنا حاكم عسكري إنجليزي؟

وازداد وجه رياض تجهيًا، أما كمال فابتسم قائلاً في هدوء بدا غريبًا:

- أخطأ الآخرون وتحمل النحاس نتيجة الخطأ، لا شك أنه أنقذ الموقف، أنقذ العرش والبلاد، ثم إن العبرة بالخاتمة، فإذا ذكر له الإنجليز صنيعه بعد الحرب فلن يذكر أحد ٤ فبراير!...

إسماعيل هازئًا وهو يصفق طالبًا جرات للنارجيلة:
- إذا ذكر الإنجليز صنيعه! وأنا أقول لك من الآن بأنهم سيقبلونه قبل ذلك!

فقال رياض بإيمان:

- الرجل تقدم لحمل أكبر مسئولية في أخرج الظروف...

فقال كمال باسمًا:

- كما ستتقدم لحمل أكبر مسئولية في حياتك!... فضحك رياض، ثم نهض قائلاً «عن إذكم» ومضى في اتجاه دورة المياه، وعند ذاك مال إسماعيل نحو كمال وقال وهو يتبسم:

- في الأسبوع الماضي زار والدتي «جماعة» لا شك أنك تذكرهم!

فنظر كمال إليه مستطلعًا وهو يتساءل:

- من؟...

فقال الآخر وهو يتبسم ابتسامة ذات معنى:

- عايدة!

وقع الاسم من أذنيه موقعًا غريبًا، فغطت غرابية موقعه على كافة الانفعالات التي كان حريًا بأن يثيرها، وبدا حينًا كأنما هو صادر من أعماقه هو لا من لسان صاحبه، وكل شيء كان متوقعًا إلا هذا، ومضت لحظات وكأن الاسم ليس له معنى، من عايدة؟ أي عايدة؟ يا للتاريخ! كم عامًا مضى دون أن يطرق هذا الاسم مسامعه منذ ١٩٢٦، أو ١٩٢٧؟ ستة عشر عامًا أو عمر شاب يافع بالكمال لعله أحب ومني بالإخفاق! لقد طعن في السن حقًا، عايدة؟ ترى ماذا أصابه بهذه الذكرى؟ لا شيء! ليس إلا اهتمامًا عاطفيًا مشوبًا بشيء من الانفعال كمن تمس يده موضع عملية جراحية ملتئم من قديم فيذكر ما اكتنفها من ظرف خطير مضى وانقضى، وتتم متسائلًا:

- عايدة؟

- نعم، عايدة شداد ألا تذكرها؟ أخت حسين

شداد!...

وشعر بمضايقة تحت عيني إسماعيل فقال متهزئًا:

- حسين! ترى ما أخبار حسين؟

- من يدري؟

وشعر بسخف تهربه، ولكن ما حيلته وقد أحس بوجهه يسخن رغم برودة فبراير الشديدة؟ وبدا له الحب على مثال غريب بعض الشيء... كالطعام!

وعاد رياض إلى مجلسه فخاف كمال أن يقطع
إسماعيل حديثه ولكنه واصله قائلاً:

- وسألو عنك!

ردّ رياض نظره بينهما فأدرك أنّ حديثاً خاصاً يدور
بينهما فعدل عنها إلى النارجيلة، أمّا كمال فقد شعر بأنّ
جملة «سألو عنك» توشك أن تودي بقوة مناعته كاشد
الميكروبات فتكاً، وتساءل وهو يبذل أقصى ما يملك من
قوة ليبدو طبيعياً:

- لماذا؟

- سألو عن فلان وعلان من أصحاب زمان ثم
سألو عنك فقلت مدرّس بمدرسة السلحدار وفيلسوف
كبير ينشر مقالات لا أفهمها في جملة الفكر التي لا
افتحها فضحكوا ثم سألو «هل تزوج؟» فقلت
كلّاً...

فوجد نفسه يسأل:

- ماذا قالوا؟

- لا أذكر ماذا حولنا عن هذا الحديث؟

إنّ المرض الكامن يهدّد بالانفجار، والذي مرض
قديماً بالسلّ يجب أن يحذر البرد، أمّا جملة سألو عنك
فما أشبهها بأنغام الصبا في بساطة معناها وشديد نفاذها
في النفس، وقد يطرأ ظرف فتعبر النفس حال عاطفية
مندثرة بكامل قوتها الماضية ثم تنقطع... كالسطر في
غير أوانه، على ذلك شعر في هذه اللحظة العابرة بأنّه
انقلب ذلك العاشق القديم، وأنّه يعاني الحبّ حيناً
بكافة أنفاسه السائرة والحزينة، ولكنّ الخطر لم يكن
يتهدّد بصفة جدّية فهو كالحالم المكروب الذي يداخله
شعور ملطّف بأنّ ما يراه حلم لا حقيقة، لكنّه تمثّى في
تلك اللحظة لو تقع معجزة من السماء فيلقاها ولو
لبضع دقائق فتعترف له بأنّها بادلته عاطفته يوماً أو
بعض يوم وأنّ فارق السنّ أو غيره هو الذي فرّق
بينهما لو وقعت هذه المعجزة لعزّته عن كافة آلامه
قديماً وحديثاً ولعدّ نفسه سعيداً في الخلق وأنّ الحياة
لم تمض عبثاً، بيد أنّها صحوة كاذبة كصحوة الموت،
والأحرى به أن يقع بالنسيان، وهو نصر ولو انطوى
على هزيمة، وليكن عزّاه أنّه ليس الوحيد في البرّ الذي
مُنّي بخيبة الحياة، وتساءل:

تشعر به بقوة وهو على المائدة، ثمّ وهو في المعدة، ثمّ
وهو في الأمعاء على نحو ما، ثمّ وهو في الدم على نحو
آخر، حتّى يستحيل خلايا ثمّ تتجدّد الخلايا بمرور
الزمن فلا يبقى منه أثر، لكن ربّما بقي منه صدى في
الأعماق هو ما نسمّيه بالنسيان، وقد يعرض للإنسان
«صوت» قديم فيدفع بهذا النسيان إلى قريب من
منطقة الوعي فيسمع الصدى على وجه ما، ولأفما
هذا الاضطراب؟ أم لعلّه الحنين إلى عابدة لا باعتبارها
المحبوبة التي كانت - فقد انتهى هذا إلى غير رجعة -
ولكن باعتبارها رمزاً للحبّ الذي كان كثيراً ما
يستوحش غيبته الطويلة، مجرد رمز كالخربة المهجورة
التي تثير ذكريات تاريخية جليّة.

وعاد إسماعيل يقول:

- وتحدّثنا طويلاً - أنا وعابدة وأمي وزوجي - فروت
لنا كيف هربت هي وزوجها بل وجميع ممثلي الدول
السياسيين أمام الجيوش الألمانية حتّى لاذا بأسبانيا،
وأنتها نقلاً أخيراً إلى إيران؛ ثمّ رجعنا إلى أيام زمان
وضحكنا كثيراً...

مهما يكن من أمر الحبّ الذي مات فقلبه يبعث
حينئذ مسكراً، وأوتار الأعماق التي تهتكت أخذت
تصعد أنغاماً بالغة في الخفوت والحزن، وتساءل:

- ما شكلها الآن؟

- لعلّها في الأربعين، كلّاً أنا أكبر منها بعامين،
عابدة في السابعة والثلاثين، وامتلأت قليلاً عيّا كانت،
لكنّها ما زالت محتفظة برشاقتها، ووجهها هو هو تقريباً
فيما عدا نظرة عينها التي أصبحت توحى بالجلد
والرزانة، وقالت إنّها أنجبت ابناً في الرابعة عشرة وبنّاً
في العاشرة...

هذه هي عابدة إذن، لم تكن حلماً ولم يكن تاريخها
وهماً، فقد تمرّ لحظات فيبدو ذلك الماضي كأنّه لم يكن،
وهي زوجة وأمّ وتذكر الماضي وتضحك كثيراً، ولكن
ما حقيقة صورتها؟ وماذا بقي من هذه الحقيقة في
الذاكرة؟ فلشّد ما تتغيّر المناظر في أثناء حفظها
بالذاكرة، وهو يؤدّ أن يلقي نظرة ثابتة على هذا الكائن
البشريّ لعلّه يقف على السرّ الذي مكّنه قديماً من أن
يفعل به الأفاعيل.

- متى يسافرون إلى إيران؟

- سافروا أمس أو هذا ما أخبرني به في زيارتها...

- وكيف تلقت كارثة أسرتها؟

- تجنبت هذا الحديث بطبيعة الحال ولم تشر هي إليه!

وإذا برياض قلّس يهتف مشيرًا أمامه «انظروا» فنظروا إلى الجناح الأيسر من الشرفة فرأوا امرأة غريبة الشكل، كانت في الحلقة السابعة، نحيلة الجسد، حافية القدمين، ترتدي جلبابًا مّا يرتدي الرجال، وتضع على رأسها طاقية لا يبدو تحت حافتها أي أثر للشعر فهي صلعاء أو قرعاء، أما وجهها فبدا غارقًا في أصباغ الزواق على هيئة مزربة مضحكة معًا، ولم يكن فيها ناب واحد على حين راحت عينها ترسلان في جميع الجهات نظرات تودّد واستعطاف بايسم. تساءل رياض باهتمام:

- شحاذة؟

فقال إسماعيل:

- مجذوبة على الأرجح!

وقفت تنظر إلى المقاعد الخالية في الجناح الأيسر ثم اختارت مقعدًا وجلست، عند ذاك انتبهت إلى أعين المحدثين فيها فابتسمت ابتسامة عريضة وقالت:

- مساء الخير يا رجال!

فرحب رياض بتحيّتها وقال بحرارة:

- مساء الخير يا حاجة!

فندّت عنها ضحكة ذكّرت إسماعيل - على حدّ قوله - بالأزبكية في عزّها... وقالت:

- حاجة! نعم أنا كذلك إن كنت تقصد المسجد «الحرام»!

وضحكوا ثلاثتهم فتشجعت وقالت بإغراء:

- اطلبوا لي الشاي والنارجيلة ولكم الأجر عند الله...

فصقّ رياض بحماس ليطلب لها ما أرادت ومال على أذن كمال هامسًا «هكذا تبدأ بعض القصص» أما العجوز فقد ضحككت في سرور وقالت:

- هذا كرم أيام زمان!... أغنياء حرب يا أولادي؟...

فقال كمال ضاحكًا:

- نحن فقراء حرب، أي موظفين يا حاجة...

وسألها رياض:

- ما الاسم الكريم؟

فارتفع رأسها في كبرياء مضحك وقالت:

- السلطانة زبيدة على سنّ ورمح!

- السلطانة؟

- نعم... (ثم وهي تضحك)... ولكنّ رعيتي ماتوا!

- الله يرحمهم!

- الله يرحم الأحياء أمّا الأموات فحسبهم أنّهم بين يدي الله...، خبروني من أنتم؟

وجاء النادل بالنارجيلة والشاي وهو يبتسم، ثم اقترب من مجلس الأصحاب وسألهم:

- تعرفونها؟

- من هي؟

- زبيدة العالة، أشهر عالة في زمانها، ثم انتهت بها العمر والكوكاين إلى ما ترون!

خيّل إلى كمال أنّه لا يسمع هذا الاسم للمرّة الأولى أمّا رياض قلّس فقد ارتفع اهتمامه إلى الدرّوة فجعل يبحث أصحابه على أن يعرفوها بأنفسهم كما طلبت حتّى تنفتح نفسها للكلام فقال إسماعيل مقدّمًا نفسه:

- إسماعيل لطيف.

فقال ضاحكًا وهي ترشف الشاي قبل أن يبرد:

- عاشت الأسماء ولو أنّه اسم لا معنى له...

فضحكوا، وفي ذات الوقت سبّها إسماعيل بصوت لم تسمعه، أمّا رياض قلّس فقال:

- رياض قلّس.

- كافر؟! عشقني واحد منكم كان تاجرًا في الموسكي اسمه يوسف غطّاس، كان قدّ الدنيا، وكنت

أصلبه على السرير حتّى يطلع الصبح...

وشاركتهم ضحكهم وقد لاحت الغبطة في وجهها ثمّ اتّجه بصرها إلى كمال فقال:

- كمال أحمد عبد الجواد.

وكانت تقرب قدح الشاي من فيها فتوقّفت يدها في يقظة طارئة ثمّ حملت في وجهه متسائلة:

الزياط فالباب من هنا...
فلاذت بالصمت حتى ذهب الرجل، ثم نظرت
إليهم باسمه، ثم سألت كمال:
- وأنت كأيك أم لا...؟
وأنت بيدها حركة شاذة فضحك الأصدقاء وقال
إسماعيل:
- إنه لم يتزوج بعدا...
فقلت في لهجة ارتياب عابث:
- الظاهر أنك ابن أونطة...
فضحكوا، ثم نهض رياض، ومضى إليها فجلس
إلى جانبها وهو يقول:
- حصل لنا الشرف يا سلطنة، ولكني أود أن
أسمع لك وأنت تحدثنا عن أيام السلطنة...
٤١

لم يبق إلا ثلاث ساعة ثم تلقى المحاضرة، أما قاعة
إيوارت فقد قاربت الامتلاء، إن مستر روجر - كما قال
رياض قلديس - أستاذ خطير، وهو كأخطر ما يكون
حين يتكلم عن شكسبير. أجل قيل إن المحاضرة لن
تخلو في النهاية من نوع من الدعاية السياسية ولكن ماذا
يهم في ذلك ما دام المحاضر هو مستر روجر والموضوع
هو وليم شكسبير. غير أن رياض كان مفتئنا واجما،
ولولا أنه هو الذي دعا كمال إلى سماع المحاضرة
لتخلف عن شهودها، وكان حزينا كما ينبغي لرجل
مثله تستأثر السياسة باهتمامه كل هذا الاستئثار. وكان
يهمس في أذن كمال بانفعال غير خاف:
- يُفصل مكرم من الوفد! كيف تقع هذه الخوارق؟!
ولم يكن كمال قد أفاق من الخبر كذلك فهز رأسه في
وجوم دون أن ينبس:
- إنها كارثة قومية يا كمال، ما كان ينبغي أن
تتهوى الأمور حتى هذا الخضيض...
- نعم، ولكن من المسئول؟
- النحاس! قد يكون مكرم عصييا، ولكن الفساد
الذي تسرب إلى الحكومة أمر واقع ولا يصح السكوت
عليه.

- قلت ماذا؟
فأجاب عنه رياض قلديس:
- كمال أحمد عبد الجواد.
فأخذت نفسا من النارجيلة وقالت وكأنها تخاطب
نفسها:
- أحمد عبد الجواد! ولكن ما أكثر الأسماء!
كالفروش أيام زمان... (ثم مخاطبة كمال)... والدك
تاجر النحاسين؟
فدهش كمال وقال:
- نعم.

فقامت من مجلسها واقرت منهم حتى وقفت أمامه
ثم ضحكت ضحكة عالية أقوى من هيكلها بأجيال
وهتفت:
- أنت ابن عبد الجواد! يا ابن الرفيق الغالي!
ولكنك لا تشبهه! هذا أنفه حقًا، ولكنه كان كالبدر في
ليلته، ما عليك إلا أن تذكره بالسلطنة زبيدة وهو
يحدثك عني بما فيه الكفاية!

أغرق رياض وإسماعيل في الضحك، على حين
ابتسم كمال وهو يغالب ما ركب من ارتباك، وهنا فقط
تذكر حديث ياسين في الزمن الخالي، بل أحاديثه عن
أبيه وزبيدة العالة! وعادت تسأله:
- كيف حال السيد؟ انقطع من زمن طويل عن
حكيم الذي نبذني، أنا الآن من أهل الإمام، ولكني
أحن إلى الحسين فأزوره كل حين ومين، وكنت مريضة
وطال بي المرض حتى ضاق بي الجيران فلولا الملام
لرموني في القبر حيّة، كيف حال السيد؟

فقال كمال في شيء من الوجوم:
- توفي منذ أربعة أشهر...
فقطبت قليلا وقالت:
- إلى رحمة الله، يا خسارة، كان رجلاً ولا كل
الرجال...
ثم عادت إلى مجلسها، وبغنة ضحكت ضحكة
عالية، وما لبث أن ظهر صاحب القهوة عند مدخل
الشرفة وهو يقول لها منذراً:
- كفاية ضحك، سكتنا له دخل بحماره، كثر خير
البكوات على إكرامهم لك، ولكن إن عدت إلى

فقال كمال بأسًا:

- دعنا من الفساد الحكومي، ثورة مكرم ليست على الفساد بقدر ما هي لضياح النفوذ...

فتساءل رياض في شيء من التسليم:

- أبيع مكرم المجاهد بعاطفة زائلة؟...

فلم يتمالك كمال أن ضحك قائلاً:

- لقد بعث نفسك أنت بهذه العاطفة الزائلة!...

ولكن رياض قال دون أن يبتسم:

- أجبني!...

- مكرم عصبي، شاعر ومغنون! عنده أن يكون كل شيء أو لا يكون شيئاً على الإطلاق، وجد نفوذه الماثور يتقلص فثار، ثم وقف لهم وقفته في مجلس الوزراء منذاً علانية بالاستثناءات فاستحال التفاهم أو التعاون، حدث يؤسف له!

- والنتيجة؟

- هناك السراي تبارك ولا شك هذا الانشقاق الجديد في الوفد، وستحتضن مكرم في الوقت المناسب كما احتضنت غيره من قبل، سنرى من الآن فصاعداً مكرم وهو يلعب دوره الجديد مع الأقليات السياسية ورجال السراي، إما هذا وإما العزلة، لعلهم يكرهونه كما يكرهون النحاس أو أكثر، ومنهم أناس لم يكرهوا الوفد إلا كراهة في مكرم ولكنهم سيحتضنونه ليهدموا به الوفد، أما عن المصير بعد ذلك فلا يمكن التنبؤ به...

فعبس رياض وقال:

- صورة بشعة، أخطأ الاثنان، النحاس ومكرم، إن قلبي متشائم من هذه الحركة...

ثم بصوت أشد انخفاضاً:

- سيجد الأقباط أنفسهم بلا مأوى، أو يأوون إلى حصن عدوهم اللدود «الملك» وهو مأوى لن يدوم لهم طويلاً، وإذا اضطهدنا الوفد كما تضطهدنا الأقليات فكيف يكون الحال؟

فتساءل كمال متغابياً:

- لماذا تدفع بالأمر خارج حدود الطبيعة؟ مكرم ليس الأقباط والأقباط ليسوا مكرم، إنه شخص ذهب أما مبدأ الوفد القومي فلن يذهب...

فهز رياض رأسه في أسف ساخر وقال:

- هذا ما قد يكتب في الجرائد، أما الحقيقة فهي ما أعني، لقد شعر الأقباط بأنهم طردوا من الوفد، وهم يتلمسون الأمان وأخشى ألا يظفروا به أبداً، لقد جاءتني السياسة أخيراً بعقدة جديدة كعقدة الدين، فكما كنت أنبذ الدين بعقلي وأميل إليه بقلبي بصفته رابطة قومية فكذلك سأنبذ الوفد بقلبي وأميل إليه بعقلي، إذا قلت إنني وفدي فقد كذبت قلبي وإذا قلت إنني عدو للوفد خنت عقلي، إنها كارثة لم تخطر لي على بال، والظاهر أنه مقضي علينا نحن الأقباط بأن نعيش في شخصيات منقسمة أبداً، لو كانت مجموعتنا فرداً واحداً لجن!...

شعر كمال بامتعاض وألم، وبدت له لحظتذاك جماعات البشر وكأنها تمثل مهزلة ساخرة ذات نهاية مفاجئة، ثم قال في صوت لا ينم عن إيمان:

- عسى أن تكون مشكلة وهمية، إذا نظرتم إلى مكرم كرجل سياسي لا الأمة القبطية جميعاً!... هل ينظر إليه المسلمون أنفسهم على هذا النحو؟ - هكذا أنظر إليه أنا!

فابتسمت شفتا رياض رغم كآبته وقال:

- إنني أتساءل عن المسلمين لما دخلك أنت؟

- أليس موقفنا واحداً أعني أنا وأنت؟

- بلى مع فارق بسيط، وهو أنك لست من الأقلية... (ثم وهو يبتسم) لو عشت في عصر الفتح الإسلامي وتكشف لي الغيب لدعوت الأقباط جميعاً إلى الدخول في دين الله!...

ثم في شيء من الاحتجاج:

- إنك لا تصغي إليّ!...

أجل! كانت عيناه مصوّبتين نحو مدخل القاعة، ونظر رياض إلى حيث ينظر فرأى فتاة في مقتبل العمر، ترتدي فستاناً رمادياً بسيطاً، في هيئة الطالبات، وقد جلست في المقاعد الأمامية المخصصة للسيدات.

- تعرفها؟...

- لا أدري!...

وانقطعت فرصة الكلام إذ ظهر الأستاذ المحاضر على المنصة ودوت القاعة بالتصفيق الحاد، ثم ساد

الصمت الذي تبدو فيه السعلة كالذنب الفاضح، ثم قدّمه مدير الجامعة الأمريكية بكلمة مناسبة، ثم بدأ الرجل في إلقاء محاضراته. وظلّ كمال أكثر الوقت متّجه العينين نحو رأس الفتاة في تساؤل واهتمام. وكان قد رآها مصادفة عند دخولها، فدهمه منظرها، وانزعته بقوة من تيار أفكاره، ثم قذفت به في الماضي عشرين عامًا ثم استردته إلى الحاضر وهو يلهث. خيّل إليه أوّل الأمر أنّه يرى عابدة، غير أنّها لم تكن عابدة دون ريب... هذه الفتاة التي لا يمكن أن تتجاوز العشرين، ولم يتح له وقت كافٍ كي يتفحص قسماها ولكنّ جملة منظرها كان فيه الكفاية، هيئة الوجه والقامة والروح ومجئ العينين، أجل لم ير هاتين العينين في غير وجه عابدة من قبل. أتكون شقيقتها؟ خطر له هذا الرأي أوّل ما خطر، بدور، ولم يغب عنه الاسم هذه المرة، وسرعان ما ذكر صداقتها له في الماضي البعيد، ولكن هيهات - أن تكون حقًا هي - أن تتذكّره، المهمّ أنّ صورتها أيقظت قلبه، ردّته ولو إلى حين إلى شيء من تلك الحياة الغامرة التي اكتظّ بها زمنًا، فهو في اضطراب، يسمع إلى الأستاذ المحاضر دقائق ثم ينظر إلى رأس الفتاة أكثر الوقت، ثم يغرق في موجة الذكريات، مستشعرًا في أناة جملة المشاعر التي تتلاحم وتصطبرع في وجدانه. فلا تتبعها لأعرف حقيقتها، لا غاية لي ولكنّ ألكول منشاء، إني أتوق لأيّ شيء قد يمسح عن روحي الصدا المتكاثف فوقها. وتربّص مبيتًا هذه النية، ترى أطالت المحاضرة أم قصرت؟ لا يدري. ولكنّه عند انتهائها أفضى بغرضه إلى رياض ثم ودّعه وسار في أثر الفتاة. تابع بعناية مشيتها، مشية رشيقة، قامة هيفاء، لا يستطيع أن يقارن بين المشيتين لأنّ الأخرى لم يعد متوكّدًا منها، أمّا القامة فأغلب الظنّ أنّها هي هي، وكان شعر الأخرى «الاجرسون» أمّا هذا الشعر فغزير معقوص، ولكنّ اللون الأسود واحد في الحالين ما في ذلك شكّ، ولم يستطع أيضًا أن يتفحص وجهها على محطّة الترام لزدحامها بجمهور المستمعين، ولكنّها استقلّت الترام رقم ١٥ الذاهب إلى العتبة وانحشرت في الحريم فاستقلّه وراءها وهو يتساءل ترى أمي في طريقها إلى العباسية أم إنّ ما

يفترضه ليس إلّا أضغاث أحلام؟. عابدة لم تستقلّ ترامًا في حياتها قطّ، كان رهن أمرها سيّارتان، أمّا هذه المسكينة...! ودخله حزن كحزنه يوم استمع إلى قصّة إفلاس شدّاد بك وانتحاره. وأفريغ الترام أكثر حمولته في العتبة فاختار موقفًا غير بعيد منها فوق طوار المحطّة، وجعلت تنظر صوب الناحية التي تترقّب مجيء الترام منها فرأى جيدها الطويل النحيل، ذلك العهد القديم، ثم لاحظ أنّ بشرتها قمحية اللون مع ميل إلى البياض، ليست خمرة كالصورة الذهبية، ف شعر لذلك بأوّل أسف منذ تبعها، كأنّما تبعها ليرى الأخرى. ثم جاء ترام العباسية فتأهّبت للركوب. وكما وجدت الحريم مزدحمة استقلّت عربة الدرجة الثانية، ولم يتردّد فكان في أعقابها، وجلست فجلس إلى جانبها، ثم امتلأت المقاعد على الصّفين، ثم امتلأ ما بينهما بالواقفين. ووجد لتوفيقه في الجلوس إلى جانبها ارتياحًا لا مزيد عليه، غير أنّ جلوسها بين جمهور الدرجة الثانية أحزنه مرّة أخرى، ربّما لما يحدثه ذلك من تباين عند مطابقة الصورتين، القديمة الخالدة والمائلة إلى جانبه. وكان منكبه يلامس منكبها ملاسة خفيفة كلّما ندّ عن الترام حركة مفاجئة خاصّة عند القيام والوقوف، وجعل يلاحظها كلّما أمكن ويتفحصها ما استطاع. هاتان العينان السوداوان الساجيتان، والحاجبان المقرونان، والأنف السويّ اللطيف، والوجه البديّ، كأنّه ينظر إلى عابدة. حقًا؟ كلًّا، ثمّة تباين في لون البشرة، ولمسة اختلاف هنا أو هناك، لا يذكر إن كانت إلى الزيادة هي أم إلى النقصان، ومع أنّ تباينها كان يسيرًا إلّا أنّ إحساسه به كان خطيرًا فهو كدرجة الحرارة الواحدة التي قد تكون فاصلًا بين الصّحة والمرض، ولكنّه كان في الوقت نفسه حيال أقرب مثال إلى عابدة التي خيّل إليه أنّه بات يذكرها أوضح من أيّ وقت مضى على ضوء هذا الوجه الجميل. والجسم لعلّه هو هو، ما أكثر ما تساءل عنه، فلعلّه الآن يراه، وهو رشيق نحيل، صدره آية في الحياء، كذلك هو في جملة، لا يمتّ بسبب إلى جسم عطية البضّ المدملج الذي يتعشّقه! فهل فسد ذوقه على مرّ الأيام؟ أو إنّ حبّه القديم كان نائزًا على غريزته

انحدرت إلينا نحن جمهور الدرجة الثانية، ألا تذكرين صديقك الذي كنت تتعلقين بعنقه وتبادلينه القبل؟ كيف تعيشين اليوم يا صغيرتي؟ وهل تعملين مثلي في النهاية مدرّسة في إحدى المدارس الابتدائية؟ ومرّ الترام بمكان القصر القديم الذي قام في موضعه بناء ضخّم جديد، وقد رآه قبل ذلك في المرّات القلائل التي زار فيها العباسيّة منذ انقطاعه التاريخيّ عنها خاصّة في العهد الأخير وهو يتردّد على بيت فؤاد جميل الحمزاوي. العباسيّة نفسها تغيّرت كبيتكم يا صغيرتي، اختفت قصورها وحدائقها التي عاصرت حبّي وحزني، وقامت مكانها العمارات الضخمة المكتسّلة بالسكّان والخوانيت والمقاهي والسينات، فليسرّ بذلك أحد المفتون بمتابعة صراع الطبقات أمّا أنا فكيف أشمت بالقصر وآله على حين أنّ قلبي مطمور في أنقاضه؟ أو كيف أحترق المخلوق البديع الذي لم يذق نكد العيش ولا زحمة الشعب إذ كان يخطّر كالمعنى الجميل وقلبي له ساجد؟

وعندما توقّف الترام في المحطّة التالية لقسم الوايلي غادرته فتبعها ووقف على طوار المحطّة يراقبها، فرآها وهي تعبر الطريق إلى شارع «ابن زيدون» الذي يواجه المحطّة مباشرة. كان شارعاً ضيقاً تقوم على جانبيه بيوت قديمة من بيوت الطبقة الوسطى وتغطّي وجهه الممهّد بالأسفلت الأتربة والحصى والأوراق المبعثرة وقد دخلت ثالث بيت إلى اليسار من باب ضيق تلاصقه دكان كوّاء. ووقف ينظر إلى الطريق والبيت في صمت واجم، ذلك المكان الذي تقيم فيه اليوم سنيّة هانم حرم شدّاد بك! وهذه الشقّة لا يزيد إيجارها على ثلاثة جنيهات، وليت سنيّة هانم تخرج إلى الشرفة ليلقي عليها نظرة ويقيس ما حاق بها من تغيّر لا شك أنّه خطير، ولعلّه لم ينس بعد منظرها النفيس حين كانت تغادر السلالمك متأبّطة ذراع زوجها إلى حيث تنتظر السيّارة، كانت تختال عجباً في معطفها الوثير وتلقي على ما حولها نظرات مليئة بالسؤدد والطمأنينة، ولن يميّ الإنسان بعدوً أشدّ فتكاً من الزمن. في هذه الشقّة نزلت عايده في أثناء إقامتها بالقاهرة، ولعلّها جلست بعد العصارى في هذه الشرفة البالية، ولعلّها قاسمت

الكامنة؟. بيد أنّه كان حبّاً سعيّداً حالماً ثمل القلب بنشوات الذكريات، وكانت ملامساته المتقطّعة لها تزيده نشوة وإغراقاً في التأمّلات، أنّه لم يسّر عايده، كان يراها أبداً مستحيلة المنال، أمّا هذه الصغيرة فهي تسير في الأسواق وتجلس في تواضع بين جمهور الدرجة الثانية، فما أشدّ حزنه! وذلك التباين الطفيف الذي أحقّقه وخيّب أمله، وقضى على حبّه القديم بأن يبقى لغزاً إلى الأبد. وجاء الكمساري منادياً «التذاكر والأبونيّهات» فتفتحت حقيبتها وأخرجت تذكرة الاشتراك وانتظرت حتّى يصل الرجل إليها. فاسترق إلى التذكرة النظر حتّى عثر على اسمها «بدور عبد الحميد شدّاد... طالبة بكلّيّة الآداب»، لم يعد ثمة شكّ، إنّ قلبي يخفق أكثر ممّا ينبغي، لو أستطيع أن أنشل هذا الاشتراك كي أحفظ بأقرب صورة لعايده، آه لو كان في الإمكان هذا، مدرّس في السادسة والثلاثين ينشل طالبة بكلّيّة الآداب! يا له من عنوان مثير تتمنّاه الجرائد، فيلسوف فاشل في حدود الأربعين! ترى ما سنّ بدور؟ لم تكن تجاوز الخامسة عام ١٩٢٦ فهي في الواحدة والعشرين من عمرها السعيد، السعيد! لا قصر ولا سيّارة ولا خدم ولا حشم، ولم تكن دون الرابعة عشرة حين حلّت الكارثة بأسرتها، وهو عمر حرّ بأن يدرك معنى الكارثة ويذوق الألم، تألّت المسكينة وذعرت، ابتليت بهذا الشعور القاسي الذي أصبحت به جدّ خير، جمعنا الألم على تفاوت في الزمن كما جمعنا الصداقة القديمة المنسيّة، وجاءها الكمساري فسمعها وهي تقول له «تفضّل» ثمّ ناولته التذكرة. وطرق الصوت مسمعه كنغمة قديمة محبوبة طواها النسيان دهرًا طويلاً ثمّ انبعثت في السمع بكلّ حلاوتها وجميع ذكرياتها فأحيت فترة ساوّة من الزمن، دوّمت أذنه في مملكة الطرب الإلهيّة مستهدفة أحلام الزمان الغابر، هذه النغمة الدافئة الرخيمة المفعمّة بسحر الطرب. أسمعيني صوتك وما هو بصوتك، يا صديقتي القديمة السيّئة الخطّ، من حسن الخطّ أنّ صاحبة هذا الصوت الأصليّة ما زالت تنعم بمثل حياتها الأولى، لم ترتق إليها الأحزان التي أغرقت أسرتها، أمّا أنت فقد

طريق محفوف بالتزمّت والتقاليد من ناحية، وبالسبب المتوتّب للسخرية من ناحية أخرى. كان غارقاً في اليأس والملل فجرى ملهوفاً وراء هذا الشيء الذي لا يشكّ في أنّه تسليّة وأيّ تسليّة، وحياة وأيّ حياة، وبحسبه أنّه انقلب يبتّم بالزمن وينشد الأمل ويأمل في المسرة، بل وما هو قلبه يخفق وكان قبل ذلك ميّناً، وكان يشعر بضيق الوقت، فالعام الدراسيّ يشارف نهايته المحتومة، بيد أنّ نهايته لم تضع هباء، فبدور قد رآته كما رآه الجميع، ولعلّها شاركت فيها يدور من همس حوله، إلى أنّ عينيها قد تلاقيا أكثر من مرّة، ولعلّها طالعت في عينيها ما يضطرم في ذاته من الاهتمام والإعجاب، من يدري؟ وفضلاً عن هذا كلّ فعند العودة يستقلّان ترام الجيزة معاً ثمّ ترام العباسيّة، وكثيراً ما يجلسان في مكان واحد، فباتت تعرفه جيّداً، وهو نجاح لا بأس به لشخص بعيد عن حيّتها كلّ، خاصّة إذا كان مدرّساً حريصاً على مظاهر مهنته وما تقتضيه من استقامة ووقار. أمّا عن غايته من هذا كلّ فلم يشقّ على نفسه في تحقيقها، لقد دبّت فيه الحياة بعد موات فتهالك عليها، وهو تواق بكلّ قوّة نفسه المعذّبة إلى أن يعود ذلك الإنسان الذي تعتلج في وجدانه المشاعر وتهيم في عقله الحواطر وتنجلي في حواسّه المناظر، وأن ينسى بهذا السحر ضجره وسقمه وحيرته أمام الغاز لا تحلّ، كأنّها الخمر ولكنّها أعمق متاعاً وألطف عاقبة. وفي الأسبوع الماضي حدث شيء تأثّر له قلبه أيّما تأثّر، فقد عاقه إشرافه على النشاط الرياضيّ بمدرسة السلحدار عن الوصول إلى الكليّة في الوقت المناسب، فدخل حجرة الدرس متأخّراً، والتقت عيناها عند دخوله وهو يسير على أطراف أصابعه أن يحدث صوتاً، التقت عيناها التقاء خاطفاً سحريراً وسرعان ما أرخت جفونها فيها يشبه الحياة. لم تكن إذن مجرد نظرة تلتقي فيها عيناها محايّدتان، وبات مرجّحاً أنّها استشعرت شيئاً من الحياة، فهل كان يقع هذا لو كان نشاط عينيها قد ضاع عبثاً؟! الصغيرة باتت تستحي من نظراته فلعلّها أخذت تدرك أنّها ليست بالنظرات البريئة التي توجّهها المصادفة، وأثار ذلك في نفسه جملة من الذكريات واستدعى كثيراً من الصور،

أتمّها وأختها فراشهما الواحد ما في ذلك ريب، فليتي علمت بوجودها في الوقت المناسب، وليتي رأيتهما بعد ذلك التاريخ الطويل، كان ينبغي أن أراها وأنا متحرّر من استبدادها، كي أعرفها على حقيقتها، وبالتالي كي أعرف نفسي أنا ولكن ضاعت هذه الفرصة النادرة...

٤٢

جلس كمال بين طلبة وطالبات قسم اللغة الإنجليزيّة بكلّيّة الآداب يصغي إلى الدرس الذي يليه الأستاذ الإنجليزيّ، لم تكن أوّل مرّة يحضر فيها هذا الدرس ولا آخر مرّة فيها بدا له، ولم يكن قد وجد صعوبة تذكر عند الاستئذان في الحضور - كمستمع - لمتابعة الدروس المسائيّة التي تلقى ثلاث مرّات في الأسبوع، وأكثر من هذا فإنّ الأستاذ قد رحّب به عندما علم أنّه مدرّس لغة إنجليزيّة. أجل كان غريباً بعض الشيء أن يعنى بمتابعة هذه الدروس في أواخر العام الدراسيّ ولكنّه علّل ذلك أمام الأستاذ أنّه يقوم ببحث استدعى متابعة هذه المحاضرات رغم ما فاتته منها، وكان قد علم بوجود بدور في هذا القسم عن طريق رياض قلّس الذي عرفه بدوره عن طريق صديقه سكرتير الكليّة. وبدا منظره، ببذلته الأنيقة ونظّارته الذهبيّة وطوله ونحوه وشاربه الغليظ وشعيراته البيض التي تلتصق في سوائله إلى رأسه الضخم وأنفه الكبير، بدا كلّ أولئك ملفّفاً للأنظار خاصّة وهو يجلس بين عدد محدود من الشباب الغضّ، فكّم بدوا كالمستأثّلين وكم حدجوه بنظرات لم يرتح لها، حتّى خيّل إليه أنّه يسمع ما يدور في نفوسهم من ملاحظات وتعليقات هو أدري بها وأخبراً. هو نفسه كان يعجب لهذه الخطوة الخارقة التي أقدم عليها دون مبالاة على ما جسّمته من جهد وحرص، ما بواعثها الحقيقيّة وما هدفها؟ لا يدري شيئاً على وجه التحقيق ولكنّه ما إن رأى بارقة نور في ظلمة حياته الداكنة حتّى انزلق يتسوّته وهو لا يلوي على شيء مدفوعاً بقوى هائلة من اليأس والأشواق والأمل، غير مبالٍ بما قد يعثر به في

مع أختها بهذه الجراءة، ولكنها كانت الكبرى وكان الصغير الساذج.

- حضرتك من العباسية فيها اعتقد؟

- نعم...

لا تريد أن تدفع الحديث من ناحيتها!

- من المؤسف أنني لم أتابع المحاضرات إلا أخيراً...

- نعم...

- أرجو أن أعوض ما فاتني في المستقبل...

فابتسمت دون أن تنبس، «زيدني من سماع صوتك فإنك النعمة الوحيدة من الماضي التي لم يغيرها الزمن»...

- ماذا تنوين بعد الليسانس؟ معهد التربية؟

فقلت باهتمام لأول مرة:

- لا حاجة بي إلى ذلك لأن الوزارة محتاجة إلى مدرّسات ومدرّسين بسبب ظروف الحرب والتوسع الجديد في التعليم...

طمع في نعمة واحدة فوهب لحناً كاملاً!

- إذن ستعملين مدرّسة!

- نعم، لم لا؟

- إننا مهنة شاقة، سليبي عنها.

- حضرتك مدرّس فيها سمعت؟

- نعم، أوه، نسيت أن أقدم نفسي، كمال أحمد عبد الجواد.

- تشرفنا...

فقال باستيا:

- ولكنك لم تشرفيني بعد؟

- بدور عبد الحميد شذّاد!

- تشرفنا يا أفندم...

ثم مستدرّكاً كمن فوجئ بشيء فريد:

- عبد الحميد شذّاد! ومن العباسية؟ حضرتك أخت حسين شذّاد؟

فلمعت عينها في اهتمام وقالت:

- نعم.

فضحك كمال كأنما يضحك عجباً من غرابية

المصادفات وقال:

حتى وجد نفسه يتذكّر عابدة ويتخيّلها، ولكنه لم يدري لماذا، فإن عابدة لم تغضّ الطرف حياء حياله قطّ، فلعلّ شيئاً آخر الذي ذكره بها، لفنة أو رنوة أو ذلك السرّ الساحر الذي ندعوه بالروح. وأوّل أمس حدث شيء آخر له خطورته كذلك، انظر كيف ردّت الحياة إليك! قبل ذلك لم يكن لشيء خطورة قطّ، أو لم تكن تضفي الخطورة إلا على هذه الألبان العقيمة كالإرادة عند شوبنهور أو المطلق عند هيجل أو وثبة الحياة عند برجسون، كانت الحياة كلّها صمّاء لا خطر لها، انظر اليوم كيف أنّ رنوة أو لفنة أو ابتسامة قد تنزل لها الأرض جميعاً! حدث ذلك وهو ماضٍ إلى الكلية قبل الخامسة مساءً مخترقاً حديقة الأورمان، فيما يدري إلا وبدور وثلاث فتيات يطالعهن على أريكة ينتظرن عليها ميعاد الدرس، والتقت عينهما التقاء عميقاً كما وقع في حجرة الدرس، وكان يودّ أن يخبّهن عند الاقتراب ولكنّ المشي الذي يسير فيه عرج به بعيداً عنهنّ كأنه أبى أن يشترك في هذه المؤامرة العاطفية المرجّلة، ولما ابتعد قليلاً التفت وراءه فرأهنّ يهمنّ في أذنها باسبات وهي مسندة رأسها إلى راحتها كأنما تخفي وجهها! ما هذا المنظر البديع؟! لو كان رياض معه لأحسن تحليله وتفسيره، ولكنه لا يحتاج إلى براعة رياض، لا شك أنّهنّ يهمنّ لها عنه حتى أخفت وجهها حياء! هل ثمة معنى غير هذا؟ فلعلّ الصبّ فضحته عيونه، ولعلّه جاوز المدى وهو لا يدري حتى صار أحدىته، وماذا يكون من أمره لو انقلب الحمس تعريضاً يتأزج به الطلبة الشياطين؟! وفكر جاداً في الانقطاع عن الكلية، ولكنه وجدها تجلس إلى جانبه في ترام العباسية ذلك المساء كما حدث أوّل يوم تبعها فيه! وترصدّ التفاتها ناحيته ليحبّيها وليكن ما يكون، فلمّا طال انتظاره بعض الشيء التفت هو ثمّ تظاهر بأنّه فوجئ بجلوسها لصقه فهمس في أدب:

- مساء الخير...

فنظرت نحوه كالداهشة - لم تترك له عابدة ذكرى تصنع أنثوي من أي نوع كان - ثم همست:

- مساء الخير...

زميلان يتبادلان التحية ولا غبار على ذلك، لم يكن

الذكريات وعلبة الملبس التي أهديت إليه ليلة الزفاف. ثم جاش صدره بالحنين حتى تساءل ترى أيمكن أن يقع الإنسان في الحب وهو يحسن فهمه ويلم بعناصر تركيبه البيولوجية والاجتماعية والنفسية؟ ولكن هل بقي الكيميائي علمه بالسموم من أن يموت بها كضحاياها الآخرين؟ أو فلماذا يجيش صدره هذا الجيشان؟ رغم ما مُني به من خيبة الأمل، رغم الفارق الكبير بين الماضي والحاضر، رغم أنه لا يدري إن كان من أهل الماضي أم من أهل الحاضر، رغم هذا كله فصدره جياش وقلبه يخفق...

٤٣

هنا حديقة الشاي، ساوًا أفرع وغصون ريانة، ومرتاد النظر البط السابح في البحيرة الزمرديّة، والجبلاية فيما وراء ذلك، واليوم عطلة مجلّة الإنسان الجديد، وها هي سوسن حمّاد تبدو رائعة في فستان أزرق خفيف كشف عن ذراعيها السمراوين، وهي آخذة زيتنها ولكن في لباقة وحذر، وكان قد مضى على زمالتها عام فجلسا متقابلين يضيء وجهيهما ابتسام التفاهم، بينهما مائدة عليها دورق ماء وكأسا دندورمة لم يبق فيهما إلّا ذوب ثالثة الحليب المورّد بالفراولا، «إنها أعزّ شيء لديّ في هذه الدنيا، أدين لها بمسراتي جميعًا وهي قبلة آمالي أيضًا، ونحن زميلان مخلصان، لم ينطق الحب بيننا ولكنني لا أشك في أننا متحابان، ومتعاونان كأحسن ما يكون التعاون، بدأنا رقيقين في ميدان الحرّة، وعملنا يدًا واحدة، وكلانا مرشّح للسجن، وكنت كلّما نُوّهت بجهاها حلقت في وجهي محتجّة وزجرتني مقبّبة كأنّ الحب شيء لا يليق بنا فأبتسم وأعود إلى ما كنّا فيه من عمل، ويومًا قلت لها: «إني أحبك... إني أحبك... فافعلي ما بدا لك»، فقالت لي: «هذه الحياة هي الجّد كلّ الجّد وأنت تعبت»، فقلت لها: «إني مثلك أرى أنّ الرأسمالية في طور الاحتضار وأنها استنفدت كافّة أغراضها، وأنّ على الطبقة العاملة أن تطلق إرادتها لتدور آلة التطوّر إذ إنّ الثمرة لن تسقط وحدها، وإنّ

- يا سلام! كان أعزّ أصدقائي، وقضينا معًا أيّامًا سعيدة جدًّا، ربّاه! أنت أخته الصغيرة التي كانت تلعب في الحديقة؟

فحدجته بنظرة استطلاع. هيهات أن تتذكّره! «في ذلك العهد كنت مغرمة بي كما كنت مغرّمًا بأختك».

- لا أذكر شيئًا طبعًا...

- طبعًا، هذا تاريخ يرجع إلى عام ١٩٢٣ وما بعده حتى عام ١٩٢٦، تاريخ سفر حسين إلى أوروبا، ماذا يفعل الآن؟

- في فرنسا في القسم الجنوبيّ الذي انتقلت إليه الحكومة الفرنسيّة عقب الاحتلال الألمانيّ...

- وكيف حاله؟ من زمن طويل انقطعت عني أخباره ورسائله...

- بخير...

نطقت بها في لهجة تمتّ عن رغبة في الخوض في الموضوع أكثر من ذلك، وتساءل كيال والترام يرمّ بمكان القصر القديم: ترى ألم يخطئ بكاشفتها بصداقته القديمة لأخيها؟ أليس في ذلك حدًّا من حرّيته فيها هو بسبيله؟ وكما جاءت المحطّة التالية لقسم الوايلي حيث غادرت الترام، فلبث في مكانه كأنما نسي نفسه. كان طوال الطريق يتفحصها كلّما سنحت فرصة لعلّه يتندي إلى السرّ الذي سحره قديمًا، ولكنّه لم يجده وإن شعر مرارًا بأنّه منه قريب. وكانت تبدو لطيفة وديعة، وكانت تبدو قريبة المنال، وهو الآن يشعر كأنما يعاني خيبة أمل غامضة وحزنًا غير بيّن الأسباب، لو أراد الزواج من هذه الفتاة ما اعترضه عائق جدّي. أجل إنّها تبدو مستجيبة ملّية، رغم فارق السنّ المحسوس أو بسبب فارق السنّ! ثمّ إنّ التجارب قد علّمت أنّ شكله لن يعوقه عن الزواج إذا أراد. وهو إذا تزوّجها انتقل بقدره قادر إلى عضويّة أسرة عابدة، ولكن ما كنه هذا الخيال السخيف؟ وما عابدة الآن بالنسبة إليه؟ الحقّ أنّه لا يريد عابدة، ولكنّه لا يكفّ عن التطلّع إلى معرفة سرّها، لعلّه يقتنع في الأقلّ بأنّ أزهى عصور العمر لم يضع هباء. ووجد رغبة - طالما ألحّت عليه على فترات من العمر - في مراجعة كراسة

الإخوانية فكرة تقدمية تزري بالاشتراكية المادية...
- قد يكون في الإسلام اشتراكية، ولكنها اشتراكية خيالية كالتي بشر بها توماس مور ولويس بلان وسان سيمو، إنه يبحث عن حلّ للظلم الاجتماعي في ضمير الإنسان بينما أنّ الحلّ موجود في تطوّر المجتمع نفسه، إنه لا ينظر إلى طبقات المجتمع ولكن إلى أفرادها، وليس فيه بطبيعة الحال آية فكرة عن الاشتراكية العلمية، وفضلاً عن هذا كله فتعاليم الإسلام تستند إلى ميتافيزيقا أسطورية تلعب فيها الملائكة دوراً خطيراً، لا ينبغي أن نبحت عن حلول لمشكلات حاضرها في الماضي البعيد، قل هذا لأخيك...

فضحك أحمد في سرور غير خافٍ وقال:
- أخي شاب مثقف وقانوني ذكي، إني أعجب كيف يتحمس أمثاله للإخوان!
فقال بازدرأ:

- الإخوان يصطنعون عملية تزييف هائلة، فهم حيال المثقفين يقدمون الإسلام في ثوب عصري، وهم حيال البسطاء يتحدثون عن الجنة والنار، فينتشرون باسم الاشتراكية والوطنية والديمقراطية.

حبيبتي لا تملّ الحديث عن مبادئها، قلت حبيبتي؟ نعم فمذ القبله التي اختلستها دأبت على أن أدعوها بحبيبتي وكانت تحتجّ بالكلام تارة وبالإشارة تارة أخرى ثم جعلت تتجاهله كأنها قد يشست من إصلاحها، وعندما قلت لها إني تواق إلى سماع كلمات الحب من ثغرها المشغول بالاشتراكية وبُختني قائلة باحتقار: «هذه النظرة البورجوازية العتيقة إلى المرأة... هه؟» فقلت لها جزعاً: إن احترامك لك فوق كلّ كلام وإني لأعترف بأنّي تلميزك في أنبل ما صنعت في حياتي ولكنني أحبك كذلك وما في ذلك من بأس. فذهب غضبها فيما شعرت ولكنها استبقت مظهره فيما رأيت، واقتريت منها مضمرًا تقييلها فلا أدري كيف حذرت غرضي فدفعتني في صدري ولكنني رغم ذلك لثمت خذها وما دام المحذور قد وقع - وقد كان بوسعها منعه جدًّا - فقد اعتبرتها راضية، وإنها لكائن بديع جميل العقل والجسم معاً رغم إغراقها في السياسة، وعندما دعوتها للنزهة في الحديقة قالت: «على شرط أن نأخذ

علينا أن نخلق الوعي ولكن بعد ذلك أو قبل ذلك أحبك» فقطبت تقطيعاً متكلفاً بعض الشيء وقالت: «إنك تصرّ على إسبامي ما لا أحب»، وشجّعني خلّو حجرة السكرتارية فهويت إلى وجهها فجأة ولثمت خذها فحدجنتي بنظرة قاسية وأكبّت على ترجمة ما تبقى من الفصل الثامن من كتاب نظام الأسرة في الاتحاد السوفييتي الذي كنّا نترجمه معاً.

- هذا الحرّ كله في يونيه فكيف إذا جاء يوليو وأغسطس يا عزيزتي؟
- يبدو أنّ الإسكندرية لم تخلق لأمثالنا.
فضحك قائلاً:

- ولكنّ الإسكندرية لم تعد مصيفاً، كانت كذلك قبل الحرب أمّا اليوم فالإشاعات قد جعلتها خراباً...
- الأستاذ عدلي كريم يؤكّد أنّ أغلبية سكّانها قد هجروها وأنّ طرقاتها ملأى بالقطط الهائمة على وجهها!

- هي كذلك، وعمّا قليل يدخلها رومل بجيوشه...
ثمّ بعد صمت قصير:

- وسوف يلتقي في السويس بالجيوش اليابانية الزاحفة على آسيا ويعود العهد الفاشستي كما كان في العصر الحجري!

فقلت سوسن في شيء من الانفعال:
- روسيا لن تهزم، وإنّ آمال البشرية مصونة خلف جبال الأورال...

- نعم لكنّ الألمان على أبواب الإسكندرية!
تساءلت وهي تنفخ:
- لماذا يحبّ المصريون الألمان؟

- كراهة في الإنجليز، وسوف يمتقونهم في الغد القريب، إنّ الملك يبدو اليوم كالسجين ولكنه سينطلق من سجنه ليستقبل رومل ثمّ يشربان معاً نخب وأد الديموقراطية الناشئة في بلادنا، ومن المضحك أنّ الفلاحين يظنون أنّ رومل سيوزع الأرض عليهم!
- أعداؤنا كثيرون، الألمان في الخارج، والإخوان والرجعية في الداخل وكلاهما شيء واحد...

- لو سمعك أخي عبد المنعم لثار على رأيك، يعتبر

فقال بلهجة لم تخل من حدة:

- أنت مخطئة يا ظالمة! لا يعيبي ما ورثته، فكما أن
الفقر لا يعيبك فالغنى لا يعيبي، أعني الدخيل القليل
الذي عاشت به أسرنا عيشة التناوب، لا يعيب أحدًا
أن يجد نفسه بورجوازيًا، ولا عيب إلا في الجمود
والتخلف عن روح العصر...
فقلت وهي تبسم:

- لا تغضب، كلانا ظاهرة طبيعية علمية، لا نسأل
عما وجدنا أنفسنا عليه ولكننا مسئولون عما نعتق
ونفعل، إني أعتذر إليك يا إنجلز، ولكن خبرني هل
أنت على استعداد لمواصلة إلقاء المحاضرات على العمال
مهما تكن العواقب؟
فقال بإدلال:

- لقد حضرت حتى أمس خمس مرّات، وحرّرت
منشورين خطيرين، ووّزعت عشرات المنشورات،
وللحكومة دين في عنقي جاوز العامين سجنًا...
- ولها في عنقي أضعاف ذلك...
مدّ يده في خفة فوضعها على يدها السمراء البضة

في حنان وإعجاب. نعم إنه يحبها، ولكنه لا يندفع في
جهاده باسم الحب، ترى ألم تبتدأ أحيانًا وكأنتا تشكّ
فيه؟ أهي مداعبة من المداعبات أو توجس خيفة من
البورجوازية التي تحسبها كامنة فيه؟ إنه مؤمن بالمبدأ
كما إنه مغرم بها، لا غنى له عن هذا ولا ذاك، «أليس
من السعادة أن تحظى بشخص يفهمك حتى الفهم
وتفهمه حتى الفهم؟ وألا يحول بينك وبينه أي نوع من
المكر؟ إني أعبدتها إذ قالت «لقد دقت الفقر طويلاً»،
هذا القول الصريح الذي سبها عن بنات جنسها
جميعًا ومزجها بنفسي، لكننا محبون غافلون والسجن
يتربص بنا، وبوسعنا أن نتزوج وأن نتجنب المتاعب
ونقنع برغد العيش، ولكنها تكون حياة بلا روح، لشدّ
ما يبدو لي المبدأ أحيانًا كأنه لعنة مصوبة علينا من
القضاء والقدر، إنه دمي وروحي، كأنني المسئول
الأول عن الإنسانية جميعًا...
- أحبك...
- ما المناسبة لهذا؟
- في كلّ مناسبة وبلا مناسبة...

معنا الكتاب لنواصل الترجمة» قلت لها: بل للفرجة
والمساجاة وإلا كفرت بالاشتراكية جميعًا! ولعله ممّا
يزعجني كثيرًا حيال نفسي المشتبهة بالسكينة أنني ما
زلت أنظر أحيانًا إلى المرأة بالعين التقليدية البورجوازية
فيخيل لي في بعض ساعات التقهقر والخسوف أنّ
الاشتراكية عند المرأة التقدمية ليست إلا نوعًا من الفتنة
كضرب البيانو والتبرّج ولكن من المسلم به كذلك أنّ
العام الذي زاملت فيه سوسن قد غيّرني كثيرًا وطهرني
لدرجة محمودة من البورجوازية المستوطنة في
أعماقي!...

- من المؤسف أنّ زملاءنا يُعتقلون بلا حساب!...
- نعم يا حبيبي، الاعتقال موضوعة تشيع أيام
الحروب وأيام الإرهاب على السواء، غير أنّ القانون لا
يرى بأسًا في اعتناق المبدأ إذا لم يقرن بالدعوة إلى
العنف...
فضحك أحمد وقال:

- سيلقى القبض علينا إن آجلًا وإن عاجلاً
إلا...
فمدجته بنظرة متسائلة فعاد يقول:

- إلا إذا أدبنا الزواج!
فهزت منكبيها في ازدراء وقالت:
- من أدراك بأنني أوافق على الزواج من رجل
مزيف مثلك؟
- مزيف؟!

ففكرت قليلاً ثم قالت باهتمام جدّي:
- لست من طبقة العمال مثلي! كلانا يحارب عدوًا
واحدًا ولكنك لم تخبره كما خبرته، لقد دقت الفقر
طويلاً، ولست آثاره الكريمة في أسرتي، وغالبته أخت
لي حتى غلبها فهائت، أمّا أنت فلست... لست من
طبقة العمال!
فقال بهدوء:

- ولا كان إنجلز من هذه الطبقة...
فضحكت ضحكة قصيرة بعثت أنوثتها وقالت:
- كيف أدعوك؟ البرنس أحمدوف؟! هه لا أنكر
عليك مبدأك، ولكن بك بقايا بورجوازية عتيقة، يخيل
لي أنك تُسرّ أحيانًا لكونك من آل شوكت!

- إنك تتحدث عن الجهاد ولكن قلبك يتغنى بالهناء...
- التفريق بين هذين سخف كالنفريق بيني وبينك...
- ألا يعني الحب الهناء والاستقرار وكراهة السجن؟
- ألم تسمعي عن النبي الذي كان يجاهد ليل نهار دون أن يمنعه من أن يتزوج تسعاً؟...
ففرقت بأصابعها هاتفة:
- ها هو أخوك قد أعارك فاه، أي نبي يا هذا؟ فقال ضاحكاً:
- نبي المسلمين!
- دعني أحدثك عن كارل ماركس الذي عكف على تأليف «رأس المال» تاركاً زوجه وأولاده للجوع والبهذلة!
- كان متزوجاً على أي حال...
كان ماء البركة عصير زمرد، وهذه النسمة اللطيفة تهفو في خلصة من يونه، والبط يسبح مسدداً منقاره لالتقاط فتات الخبز، وأنت سعيد جداً، والحبوبة المتعبة ألد من الطبيعة، يخيل لي أن وجهها تورد، فلعلها تناست السياسة قليلاً وأخذت تفكر في...
- كان المأمول يا زميلي العزيزة أن نحظى في هذه الحديقة بحديث عذب!
- أعذب مما كنا نتحدث به؟
- أعني حبنا...
- حبنا؟...
- نعم وأنت تعلمين!
وساد الصمت ملياً حتى غصت عينيها متسائلة:
- ماذا تريد؟
- قولي إننا نريد شيئاً واحداً!
ف قالت كأنما لتطليعه فحسب:
- نعم، ولكن ما هو؟
- حسبنا لف ودوران!
كانها تفكر، فما أمر الانتظار على قصره، وإذا بها تقول:
- ما دام كل شيء واضحاً فلم تعذبني؟
- فتنهّد في ارتياح عميق وقال:
- ما أبهج حبي!
وساد الصمت مرة أخرى كاللزمة بين النغمة والنغمة، ثم قالت:
- يهمني شيء واحد.
- أفندم!
- كرامتي!
فقال كالمنزعج:
- هي وكرامتي شيء واحد!
ف قالت بامتعاظ:
- أنت أدري بتقاليد أناسك! ستسمع كثيراً عن الأصل والفصل...
- كلام فارغ، أتظنني طفلاً؟
وتردّدت قليلاً ثم قالت:
- لا يهّدنا إلا شيء واحد هو «العقلية البورجوازية»...
فقال بقوة جعلته في تلك اللحظة أشبه ما يكون بأخيه عبد المنعم:
- لست منها في شيء!
- هل تدرك مدى خطورة قولك؟... لقد عنيت أشياء تخص علاقة الرجل بالمرأة في صميمها الشخصي والاجتماعي!
- مفهوم جداً.
- سوف تطالب بقاموس جديد عند الكشف عن الكلمات الماثورة مثل: حب، زواج، غيرة، الوفاء، الماضي...
- نعم...
قد يعني هذا لا شيء، وقد يعني كل شيء، وكمن من مرة خطرت له أفكار، ولكن الموقف يتطلب شجاعة فائقة، ما هو إلا امتحان لعقليته الموروثة والمكتسبة جميعاً، امتحان رهيب، خيل إليه أنه أدرك ما تعني، ولعل الأمر لا يعدو أنها تمتحنه، ولكن حتى لو كان الذي أدركه فلن يتراجع، لقد اعتراه ألم ودبت في أعماقه الغيرة ولكنه لن يتراجع...
- إني مسلم بما تعنين، ولكن دعيني أصرحك بأثني كنت أمل أن أحظى بفتاة عاطفية لا يفكر بحاسب مدقق!

عقلك وحده؟!
- أبداً، والمشورة جائزة في كل شيء إلا الزواج فهو كالطعام سواء بسواء! ...
- الطعام! ... إنك لا تتزوج من فتاة فحسب ولكن من أسرتها كلها، ونحن - أهلك - نتزوج بالتبعية معك ...

فضحك أحمد ضحكة عالية وقال:
- كلكم! هذا أكثر مما يُحتمل، خالي كمال لا يريد أن يتزوج، وخالي ياسين يودّ لو يتزوجها وحده ...
وضحكوا جميعاً إلا خديجة، ثم قال ياسين قبل أن تزايل وجهه هيئة الضحك:

- إذا كان في هذا فضّ المشكلة فأنا على أتم استعداد للتضحية.
فهتفت خديجة:

- اضحكوا، إنه يتشجّع بضحككم، خير من ذلك أن تصارحوه بآرائكم، فما رأيكم فيمن يرغب في الزواج من «كريمة» عامل المطبعة التي يعمل بمجلتها؟ إنه يعزّ علينا أن تعمل بالمجلة «جورنالجي» فكيف وأنت تريد أن تصاهر عمّالها! أليس لك رأي يا سي إبراهيم؟

فرفع إبراهيم شوكت حاجبيه كأنما يريد أن يقول شيئاً، ولكنه سكت، فعادت تقول:
- لو وقعت هذه المصيبة فسيمتلئ بيتك ليلة الزفاف بعمّال المطبعة والعنابر والحوذات، والله أعلم بما نخفي! ...

فقال أحمد بتأثر:
- لا تتكلّمي هكذا عن أهلي!
- يا ربّ السماوات، أتتكر أنّ هؤلاء هم أهلها؟
- سأنتزوجها هي وحدها، إني لا أتزوج بالجملة ...

فقال إبراهيم شوكت في ضجر:
- لن نتزوجها وحدها، الله يتعبك كما تتعبنا!
فقال خديجة متشجعة بمعارضة زوجها:
- ذهبت لزيارة بيتها كما تقضي العادة، قلت أرى عروس ابني، فوجدتهم يقيمون في بدروم في شارع كله يهود على الصّفين، وأمّها لا تفرق في هيئتها عن

فتساءلت وعيناها تتابعان البطّ السايح:
- لتقول لك أحبك وأوافق على الزواج منك؟!
- نعم! ...
ضحكة:
- وهل تراني كنت أدخل في التفاصيل ما لم أكن موافقة على المبدأ؟!

فضغط على راحتها في رقّة، فعادت تقول:
- وأنت تعرف كل شيء، ولكنك تودّ سماعه!
- ولا أمل سماعه! ...

٤٤

- إنها سمعة أسرتنا جميعاً، وهو على أيّ حال ابنكم، وأنتم بعد ذلك أحرار فيما ترون! ...
كانت خديجة تخطب وعيناها تنتقلان بسرعة وقلق من وجه إلى وجه، من زوجها إبراهيم الذي جلس إلى يمينها إلى ابنها أحمد في الناحية المقابلة من الصالة، مارتين بياسين وكمال وعبد المنعم ...
وقال أحمد مداعباً وهو يقلّد لهجتها:
- انتبهوا جميعاً، إنها سمعة أسرة، وأنا على أيّ حال ابنكم!

فقال له بصوت متشكّ مليء بالمرارة:
- ما هذا البلاء يا ابني؟ أنت لا ترضى أن يحكمك أحد ولو كان أبك، وتأبى المشورة ولو كانت في صالحك، دائماً أنت على صواب والناس جميعاً على خطأ، تركت الصلاة قلنا ربّنا يهديه، رفضت أن تدخل الحقوق كأخيك قلنا المستقبل بيد الله، قلت اشتغل جورنالجي قلنا اشتغل عربجي! ...
فقال بأسياً:

- والآن أريد أن أتزوج!
- تزوّج، كلنا يسرّ لهذا، ولكنّ الزواج له شروط ...

- ومن يضع شروطه؟
- العقل السليم.
- عقلي اختار لي ...
- ألم تثبت لك الأيام بعد أنّه لا يصحّ الاعتماد على

عن نفسه، أنا لم يستقرّ بي بيت إلا بزّوبة كما تعلمين!
فحسبي أن يكون الخير فيها اختار، ثمّ إنّنا لا نعقل
بالكلام ولكن بالتجارب.

ثمّ مستدرّكاً وهو يضحك:

- ولو أنّه لا الكلام ولا التجارب عقلنتي!

وعلق كمال على قول ياسين قائلاً:

- الحقّ فيما قال أخي...

فحدّثته بنظرة عتاب قائلة:

- أهذا كلّ ما عندك يا كمال؟ إنّهُ يحبك فلو أنّك
حدّثته على انفراد...

فقال كمال:

- إنّني خارج معه وسأحدّثه، ولكن كفيّ عن
الشجار، إنّهُ رجل حرّ، ومن حقّه أن يتزوّج ممّن
يشاء، أنستطيعين منعه أم تنوين مقاطعته؟

وقال ياسين بأساً:

- الأمر بسيط يا אחتي، يتزوّج اليوم ويطلق غداً،
نحن مسلمون لا كاثوليك...

فضيّقت عينها الصغيرتين وقالت بضم شبه مغلق:

- طبعاً، من محامٍ غيرك يدافع عنه؟ صدق من قال
إنّ الولد لخاله!

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال:

- الله يسامحك، لو ترك النساء تحت رحمة النساء لما
تزوّجت امرأة قطاً...

فأشارت إلى زوجها وقالت:

- أمّه الله يرحمها هي التي اختارتني بنفسها!

فقال إبراهيم وهو يتنهد بأساً:

- ودفعت الثمن، الله يرحمها ويعفو عنها!

ولكنّها لم تأبه لتعليقه وعادت تقول متحسرة:

- لو كانت جميلة!... إنّهُ أعمى!

فقال إبراهيم ضاحكاً:

- مثل أبيه!

فالتفت نحوه غاضبة وقالت:

- أنت جاحد كجنس الرجال!

فقال الرجل بهدوء:

- بل نحن صابرون ولنا الجنة...

الخادومات المحترفات، والعروس نفسها لا يقلّ عمرها
عن ثلاثين عاماً، أي والله، ولو كان بها ذرة من جمال
لعذرته، لماذا يريد أن يتزوّجها؟ إنّهُ مسحور، سحرته
بحيلة، إنّها تعمل معه في المجلّة المششومة، لعلّها
غافلته فوضعت له شيئاً في القهوة أو الماء، اذهبوا
وشوفوا واحكموا، أنا غلبت، لقد عدت من الزيارة لا
أكاد أرى الطريق من حزني وأسفي...

- إنّك تغضبيني، لن أغفر لك كلامك هذا...

- العفو، العفو يا سيّد الملاح! الحقّ عليّ، أنا طول
عمري عيّابة فرماني ربّنا في أولادي بكلّ العيوب،
أستغفر الله العظيم.

- مهما تقوّلت عنهم فليس فيهم من يرمي الناس
بالباطل... مثلك!

- بكرة يا ما تسمع، ويا ما تعرف، سامحك الله على
إهانتي.

- أنت التي أهنتني بما فيه الكفاية!...

- إنّها تطمع في مالك، ولولا خيبتك ما طمعت في
أحسن من بيّاع جرائد...

- إنّها محرّرة في المجلّة بمرتّب ضعف مرتّبي...

- جورنالجيّة هي الأخرى!... ما شاء الله، وهل
تتوقّظ إلا الفتاة البائرة أو القبيحة أو المسترجلة!...

- سامحك الله...

- فليسامحك أنت على ما تصبّ علينا من عذاب!
وهنا قال ياسين الذي كان يتابع الحديث ويده لا
تمسك عن فتل شاربه:

- اسمعي يا אחتي لا داعي للنقار، سنصارح أحمد
بما ينبغي قوله ولكن لا جدوى من الشجار...

ونفض أحمد كالغاضب وهو يقول:

- عن إذنكم سأرتدي ملابس لي لأذهب إلى
عملي...

ولما ذهب انتقل ياسين إلى جانب أخته ومال عليها
قائلاً:

- لن يفيدك الشجار شيئاً، نحن لا نحكم أبناءنا،
إنّهم يرون أنفسهم خيراً ممّا وأذكى، إذا كان لا بدّ من
الزواج فليتزوّج، فإن سعد كان بها وإلا فهو المشول

- خالي، ستعجبك جدًا، سترى وتحكم بنفسك،
إنها شخصية ممتازة بكل معنى الكلمة.

فصاحت به:
- إذا كنت ستدخلها فبفضلي... أنا التي علمتك
دينك!...

٤٥

يا لها من حيرة! كأنها مريض مزمن، فكلّ أمر يبدو
ذا وجوه متعددة متساوية يتعذر فيها الاختيار، تستوي
في ذلك المسألة الميتافيزيقية والتجربة البسيطة من الحياة
اليومية، فإزاء كلّ تعترض الحيرة والتردد، أيتزوج أم
لا؟، كان ينبغي أن يقطع برأي لكنه يدور حول
نفسه حتى يصيبه الدوار ويختلّ منه ميزان الروح
والعقل والحواسّ ثمّ تنجلي الدوامة عن موقف لم يتغيّر
وسؤال لم يظفر بالجواب بعد وهو: أيتزوج أم لا؟. قد
يضيق أحيانًا بحريته فيثقل عليه الشعور بالوحدة أو
يضجر من معايشة الأشباح الفكرية الخاوية فيحنّ إلى
الآليف وتثنّ في عجبته غرائز الأسرة والحبّ تروم
متنفسًا، ثمّ يتخيّل نفسه زوجًا قد برأ من التركيز في
ذاته وتبدّدت أوهامه لكنّه في الوقت نفسه في الأبناء
واستغفره الرزق ومطالبه فتراكمت عليه مشاغل الحياة
اليومية فينزّع أتمًا النزاع ويقرّر الاستمساك بانطلاقه
مهما تحشّم من وحشة وعذاب، بيد أنّه لا ينعم
بالاستقرار طويلًا فلا يلبث أن يعود إلى التساؤل كرهة
أخرى، وهكذا وهكذا، فأين المفر؟ وبدور فتاة ممتازة
حقًا، لا يعيها اليوم أن تتركب الترام ما دامت قد
ولدت وشبّت في جنة الملائكة التي شغفت قلبه قديمًا،
فهي كالشهاب الساقط، وهي فتاة ممتازة حقًا في حسننها
وخلقها وثقافتها، ثمّ إنّها ليست عسيرة المنال فهي
الزوجة الواعدة بكلّ معنى الكلمة إذا أراد أن يتقدّم،
وما عليه إلّا أن يتقدّم، وإلى هذا كلّ فهو لا يسعه إلّا
أن يسلم باحتلالها مركز الاهتمام من وعيه، فهي آخر
ما يودّع من أطيايف الحياة قبل النوم وهي أوّل من
يستقبل من أطيايفها عند الاستيقاظ، ثمّ لا تكاد تغادر
خياله طوال يومه، وما إن يحظى برؤيتها البصر حتى
يخفق الفؤاد مردّدًا أنغامًا شجيّة من أوتار علاها
الصداء، ثمّ إنّ دنياه لم تبق كما كانت، دنيا حيرة
وعذاب ووحشة، داخلتها نسايم وجرى فيها ماء

غادر كمال وأحمد السكرية معًا، وكان يقف من
مشروع هذا الزواج موقف الشك والتردد، إنّه لا يمكن
أن يتهم نفسه بالمحافظة على التقاليد السخيفة، أو
بالتور حيل مبادئ المساواة والإنسانية، ومع ذلك
فالواقع الاجتماعي الذي لا يد له في بشاعته حقيقة
واقعة لا يجوز أن يتجاهلها إنسان، وقديمًا ولع عهدًا
بقمر بنت أبي سريع صاحب المقلّي، فكادت - رغم
جاذبيّتها - تحدث له عقدة برائحة جسدها المحزنة. غير
أنّه كان رغم هذا معجبًا بالشاب، غابطًا له شجاعته
وقوة إرادته وغيرهما من المزايا التي حُرّم هو منها وعلى
رأسها الإيمان والعمل والزواج، كأنما قد بعث في
الأسرة كفارة عن جهوده وسلبتيه. ما الذي يجعل
للزواج هذه الخطورة في نظره بينما هو في نظر الآخرين
لا يزيد عن السلام عليكم... وعليكم السلام؟!

- إلى أين يا فتى؟

- المجلّة يا خالي، وأنت؟

- مجلّة الفكر لأقابل رياض قلّدس، ألا تفكر قليلًا
قبل أن تخطو هذه الخطوة؟

- أيّ خطوة يا خالي! لقد تزوّجت بالفعل!...

- حقًا؟!

- حقًا، وسوف أقيم في الدور الأوّل من بيتنا نظرًا
لأزمة المساكن...

- يا له من تحدّ سافر!...

- نعم، ولكنّها لن توجد في البيت إلّا حين تكون
أنتي قد نامت...

وبعد أن أفاق من وقع الخبر سأله بأسًا:

- وهل تزوّجت على سنّة الله ورسوله؟

فضحك أحمد أيضًا وقال:

- طبعًا، الزواج والدفن على سنن ديننا القديم، أمّا

الحياة فعلى دين ماركس!

ثمّ وهو يودّعه:

الحياة، فإن لم يكن هذا هو الحب فما عسى أن يكون؟! وطوال الشهرين الماضيين جعل من شارع ابن زيدون مقصده كلَّ أصيل، يقطعه على مهل، مسدداً عينيه إلى الشرفة حتى تلتقي بعينيها ثم يتبادلان الابتسام كما يجدر بزميلين، وقد بدا ذلك كما تقع المصادفات، ثم تكرر وقوعه كأنما عن عمد، فما يجد معاده حتى يجدها بمجلسها من الشرفة تقرأ في كتاب أو تسرح الطرف، فأيقن أنها تنتظره، إذ لو شاءت أن تمحو هذا المعنى من ذهنه ما كلفها ذلك إلا لتجيب الشرفة دقائق كلَّ أصيل. ولكن ماذا تظنَّ بمروره وابتسامته وتحيته؟! لكن مهلاً، إن الغرائز لا تحطُّ، كلاهما يودُّ أن يلقي صاحبه، وقد استخفَّه لذلك الطرب وأسكره السرور، وملاء إحساس بجذوى الحياة لم يشعر به من قبل، غير أن هذا الهناء كله لم يمض دون قلق يشوبه، كيف لا وهو لم يُجمع بعد على عزم، ولم يتضح له سبيل، ولكنَّ ثباتاً جوفه فاستسلم له وهو لا يدري كيف مجراه ولا أين مرساه! قليل من العقل يوجب عليه أن يتدبَّر أمره ولكنَّ فرحة الحياة صدته في إشفاق. فتملَّ سروراً دون أن يخلو من قلق. وقال له رياض: أقدمْ فهذه فرصتك، ورياض منذ أن لبس خاتم الخطوبة وهو يتحدث عن الزواج كأنه غاية الإنسان الأولى والأخيرة في هذه الحياة، فيقول مزهراً إنه سيقترحم هذه التجربة الفريدة غير هيَّاب فيتاح له أن يفهم الحياة فهماً جديداً صادقاً ومن ثمَّ يفتح أبواب قصصه للحياة الزوجية والأطفال... أليست هذه هي الحياة أيها الفيلسوف السابح فوق الحياة؟ فأجابه متهزئاً: أنت اليوم نخصم فانت آخر من يصلح حَكماً وسوف أفنقد فيك المشير الصادق؟ وبدا له الحب من ناحية أخرى «دكتاتوراً» وقد علَّمت الحياة السياسية في مصر أن يمقت الدكتاتور من صميم قلبه. ففي بيت عمته جليلة كان يهب عطية جسده ثمَّ سرعان ما يسترده وكأنَّ ما كان لم يكن، أما هذه الفتاة المستكنة في حياثها فلن تقنع بما دون روحه وجسده جميعاً إلى الأبد، ولن يجد من شعار يأتّم به بعد ذلك إلا الكفاح المرير في سبيل الرزق ليؤمن حياة الأسرة والأبناء، مصير غريب يجعل من الحياة الحافلة بالجلال مجرد وسيلة «لتحصيل» الرزق، وقد يكون

الفقير الهندي سخيفاً أو مجنوناً ولكنه أحكم ألف مرة من الغارق حتى أذنيه في سبيل الرزق، فأنعم بالحب الذي كنت تفتقده وتتحرَّس عليه... ها هو يُبعث حيّاً في فؤادك جازاً وراءه المتاعب! وقال له رياض: «أمن المعقول أن تحبها وأن يكون في وسعك أن تتزوجها... ثمَّ تمتنع عن زواجها؟»، فأجابه بأنه يحبها ولكنه لا يحب الزواج! فقال محتجاً: «إنَّ الحب هو الذي يسلمنا للزواج فما دمت لا تحب الزواج كما تقول فأنت لا تحب الفتاة! فأجابه بإصرار: «بل أحبها وأكره الزواج»، فقال: «لعلك تخاف المسؤولية»، فأجابه محتجاً: «إنني أحمل من أعباء المسؤولية في بيتي وفي عملي ما لا تحمل بعضه»، فقال: «لعلك أناني أكثر ممَّا أتصوّر»، فقال ساخراً: «وهل يتزوَّج الفرد إلا مدفوعاً بأنانيته الظاهرة أو الخفية؟» فقال باسماً: «لعلك مريض فاذهب إلى دكتور نفساني لعله يحلِّلك»، فقال له: «من الطريف أنَّ مقالتي القادمة في مجلَّة الفكر عن: كيف تحمِّل نفسك»، فقال له: «أشهد لقد حيَّرتني»، فقال له: «أنا الحائر إلى الأبد». ومرة وهو يقطع كعاداته شارع ابن زيدون صادف في طريقه أم حبيبته متجهة نحو البيت، عرفها من أوَّل نظرة رغم أنَّه لم يرها منذ سبعة عشر عاماً على الأقل. ولم تكن «الهانم» التي عرفها قديماً. ذبلت ذبولاً محزناً وركبها الهم قبل الكبر ولم يكن في وسع إنسان أن يتصوَّر أنَّ هذه المرأة الساعية في هزائها هي نفس الهانم التي كانت تخطر في حديقة القصر في نهاية من الجمال والكمال. ورغم هذا كله قد ذكرته هيئة رأسها بعائدة فقطع قلبه منظرها، وكان حسن الحظَّ أنَّه تبادل مع بدور الابتسام قبل رؤيتها وإلا ما استطاع أن يتسم، ثمَّ ما يدري إلا وهو يتذكَّر عائشة! ثمَّ يذكر كيف أثارت عاصفة من النكد هذا الصباح في البيت وهي تبحث عن طاقم أسنانها التي نسيت أين أودعته قبل نومها. وأوَّل أمس رأى بدور واقفة في الشرفة على غير عادتها ثمَّ تبين أنها متهتأة للخروج! وتساءل أخرج وحدها؟! وما لبثت أن غابت من الشرفة فمضى في سبيله متمهلاً متفكراً. حقاً لو جاءت وحدها فأنما تحيي له، هذا الظفر المسكر لعله يغسل إهانة حلَّت

- فرصة سعيدة! ...

- شكرًا!.

ثم ماذا؟! يبدو أنها تنتظر خطوة جديدة من ناحيته، وما هي نهاية الطريق تقترب، يجب أن يقطع برأي فلما التورط وإما الوداع، لعلها لا تنصّر أبدًا أن يفترقا ببساطة، ولو كلمة واحدة، وما المفترق على بعد خطوات، إنه يشعر شعورًا مؤلمًا بمدى الخيبة التي ستمتئ بها، وبأى لسانه أن ينطق، أم يتكلم ولكن ما يكون؟! وتوقفت عن المسير وابتسمت ابتسامة مرتبكة كأنها تقول آنا لنا أن نفترق فبلغ به الاضطراب نهايته، ثم مدت يدها، فتلقأها بيده وصمت فترة رهبة، ثم غمغم:

- مع السلامة! ...

واستردت يدها ثم مالت إلى عطفة جانبية. أوشك أن يناديها، إن ذهابها متعرة بالخيبة والخلج كابوس لا يُحتمل، وأنت أدري بهذه المواقف التعيسة، غير أن لسانه انعقد. فيم كانت متابعتها لها طوال الشهرين الماضيين؟ أمن الذوق أن ترفضها وقد جاءتك بنفسها؟ أمن الرحمة أن تعاملها نفس المعاملة التاريخية التي عاملتك بها أختها؟ وأنت تحبها؟! وهل تلقى من ليها ما لقيت من ليلتك التي خلّفتها وراءك كالمجرة المتقدة تضيء في غياهب الماضي بالألم المنصهر؟!.

وواصل سيره وهو يتساءل ترى أيريد حقًا أن يبقى أعزب لكي يكون فيلسوفًا أم أنه يدعي الفلسفة ليبقى أعزب؟ وقال له رياض: هذا شيء لا يصدق ولنسوف تندم! وهو شيء لا يصدق حقًا ولكن هل يندم أيضًا؟ وقال له: كيف هان عليك أن تقطعها وقد كنت تتحدث عنها وكأنها فتاة أحلامك؟ ليست فتاة أحلامه... إن فتاة أحلامه لم تكن لتسمى إليه أبدًا. وأخيرًا قال له: إنك في نهاية السادسة والثلاثين من عمرك ولن تكون بعد ذلك صالحًا للزواج. فامتعض لقله ودخلته كآبة...

جاءت كريمة إلى السكينة في حلة العروس في عروبة

منذ سنين! ولكن هل كانت عابدة تفعل هذا ولو انشق القمر؟! وعندما بلغ منتصف الطريق التفت إلى الوراء فرآها قادمة... وحدها! وخيل إليه أن خفقان قلبه سيطرق مسامع الجيران. وسرعان ما شعر بخطورة الموقف الوشيك الحدوث حتى نازعته بعض جوانب نفسه إلى الهروب! كان تبادل الابتسام قبل ذلك هو عاطفياً بريئاً أما اللقاء فسيكون له شأن وأى شأن. هو مسئولية وخطورة ومطالبة بالحسم في الاختيار. ولو هرب الآن لمنح نفسه مزيداً من التروى! ولكنه لم يهرب، وتقدم في خطاه المتمهلة كالمخدر حتى أدركته عند منعطف الطريق إلى شارع الجلال، وفي التفاتة منه التفت عيناهما في ابتسامة، فقال:

- مساء الخير... .

- مساء الخير... .

وتساءل وشعوره بالخطورة يتزايد:

- إلى أين؟

- عند واحدة صاحبي، هناك في هذا الاتجاه... .

وأشارت صوب شارع الملكة نازلي، فقال في استهتار:

- إنه طريقي فهل تسمحين بأن نسير معاً... ؟

ف قالت وهي تداري ابتسامة:

- تفضل... .

وسارا جنباً إلى جنب، إنها لم تتحل بهذا الفستان الجميل لتقابل واحدة صاحبها ولكن لتقابله هو، وما هو قلبه يستقبلها بالوجد والحنان، ولكن كيف يكون مسلكه؟ لعلها ضاقت بجموده فجاءت بنفسها لتهدئ له فرصة موافقة فإما ينتهزها إكراماً لها وإما يتجاهلها فيفتقدها إلى الأبد، هي كلمة قد تقال فيتورط قائلها مدى العمر أو تجلس فيندم حابسها مدى العمر، هكذا دفع إلى مأزق وهو لا يدري، وما هو الطريق يطوى ولعلها تترقب، وهي تبدو مستجيبة ملية كأنها ليست من آل شداد، أجل ليست من آل شداد في شيء، لقد انتهى آل شداد، وولى زمانهم، وليست التي تسايك إلاً فتاة سيئة الخط، والتفتت نحوه كالباسمة فقال برقة:

- عن معركة العلمين، وقد ارتحلت جدران المنظره بأصواتهم.

- وكيف شعورهم حيال انتصار الإنجليز؟
- الغضب طبعاً، إنهم أعداء الإنجليز والألمان والروس جميعاً، وهكذا لم يرحموا العريس حتى في ليلة زفافه...

وكان ياسين جالساً إلى جانب زُتوبة، يبدو في زيتته كأنما يصغرها بعشرة أعوام، فقال:

- فليأكلوا بعضهم البعض بعيداً عنا، ومن رحمة ربنا أنه لم يجعل من مصر ميدان حرب...

فقالت خديجة باسمه:

- لعلك تريد السلام حتى تفرغ لمزاجك!
ورمقت زُتوبة بنظرة مائكة حتى ضحك الجميع، وكان قد ذاع في الأيام القريبة الماضية أن ياسين غازل ساكنة جديدة في بيته، وأن زُتوبة ضبطته متلبساً أو كالتلبس فما زالت بالساكنة حتى اضطرتها إلى إخلاء الشقة. فقال ياسين يداري ارتباكها:

- كيف أفرغ لمزاجي وبيني محكوم بالأحكام العرفية!

فقالت زُتوبة في امتعاض:

- هلاً استحييت أمام ابنتك؟

فقال ياسين في توسل:

- إني بريء والجارة المسكينة مظلومة!

- أنا الظالمة! أنا التي ضُبطت وأنا أطرق شقتها بليل ثم اعتذرت بأنني ضللت سبيلي في الظلام! هه؟ أربعون عاماً في البيت ثم لا تعرف أين تقع شقتك؟!

فتعالى الضحك حتى قالت خديجة في تهكم:

- إنه كثير الخطأ في الظلام!

- وفي النور على السواء...

وإذا بإبراهيم شوكت يخاطب رضوان قائلاً:

- وأنت يا رضوان كيف حالك مع محمد أفندي حسن؟

فقال ياسين مضحكاً:

- محمد أفندي زفت!

وأجاب رضوان حائقاً:

مع والدها وأخيها. وكان في استقبالهم إبراهيم شوكت وخديجة وأحمد وزوجه سوسن حماد وكمال. ولم يكن ثمة ما يدل على زفاف إلا طاقات الورد التي طوقت الصالة، أما المنظره فقد امتلأت بذوي اللحى من الشبان يتوسطهم الشيخ علي المنوفي. ومع ذلك كان قد مرّ عام ونصف على وفاة السيد إلا أن أمينة لم تشهد الزفاف ووعدت بالحضور للتهنئة فيما بعد، أما عائشة فلما عندما دعيتها خديجة إلى شهود الدخلة الصامتة هزت رأسها عجباً وقالت بلهجة عصبية:

- أنا لا أشهد إلا المآتم!

وقد تأملت خديجة لقولها ولكنها كانت قد اعتادت أن تتحلّى بالحلم المثالي حيال عائشة. وقد جُهِز الدور الثاني بالسكرية للمرة الثانية بأثاث العرس. وجُهِز ياسين ابنته كما ينبغي وباع في سبيل ذلك آخر أملاكه فلم يعد يبقى له إلا بيت قصر الشوق. وبدت كريمة آية في الجمال، وقد شابهت أمها في عهدها الزاهر خاصة في عينيها الدافقتين، ولم تكن بلغت سن الزواج إلا في الأسبوع الماضي من أكتوبر. ولاحق خديجة سعيدة كما ينبغي لأم العريس، وقد انتهزت فرصة انفرادها بكمال مرة فمالته على أذنه قائلة:

- على أي حال فهي ابنة ياسين، ومهما يكن من أمر فهي خير ألف مرة من عروس العنابرا!

وقد مدّ بوفيه صغير في حجرة السفارة للأسرة، ومدّ آخر في الفناء لدعوي عبد المنعم من ذوي اللحى، ولم يكن يتميز عنهم إذ أرسل بدوره لحيته حتى قالت له خديجة يومذاك:

- الدين جميل ولكن ما ضرورة هذه اللحية التي تبدو فيها مثل محمد العجبي بيّاع الكسكسي؟!

وجلس أفراد الأسرة في حجرة الاستقبال ما عدا عبد المنعم الذي جالس أصحابه، وأحمد الذي شاركه في الترحيب بهم بعض الوقت، ثم انتقل إلى حجرة الاستقبال حيث انضمّ إلى أهله وهو يقول باسمًا:

- تراجعت المنظره في الزمان ألف عام!

فسأله كمال:

- فيم يتحدثون؟

متعجبة من «استرجالها» في الحديث، فما تمالك أن قالت:

- المفروض أننا في فرح، تكلموا في أمور مناسبة! ولاذت سوسن بالصمت دون اصطدام، على حين تبادل أحمد وكمال نظرة باسمه، أما إبراهيم شوكت فقال ضاحكاً:

- عذرهم أن أفراحنا لم تعد أفراحاً، الله يرحم السيد أحمد ويسكنه فسيح جناته...

فقال ياسين متحسراً:

- تزوجت ثلاث مرّات ولكنني لم أؤفّ مرة واحدة! فقالت زُنبُة في انتقاد مرّ:

- أتذكر نفسك وتنسى ابنتك؟

فقال ياسين ضاحكاً:

- نُؤفّ في الرابعة إن شاء الله...

فقالت زُنبُة في تهكم:

- أجّلها حتى تزفّ رضوان!

فغضب رضوان دون أن ينبس. لعنة الله عليكم جميعاً وعلى الزواج أيضاً، ألا تدركون أنني لن أتزوج أبداً! وأني أودّ أن أقتل من يفاخني بهذه السيرة اللعينة. وعقب صمت قصير قال ياسين:

- ليتني أبقى في بوفيه السيدات حتى لا أقف بين

أصحاب اللحى الذين يجفونني!

أدركته زُنبُة قائلة:

- لو عرفوا سيرتك لرجوك!

فقال أحمد ساخراً:

- ستخوض لحاهم في الصحاف، وتكون معركة،

ونخالي كمال هل يحبّ الإخوان؟

فقال كمال باسمًا:

- أحبّ منهم واحداً على الأقل!

والفتت سوسن إلى العروس وسألته بمودة:

- وما رأي كريمة في لحية زوجها؟

فدازت كريمة ضحكة خفيفة بحني رأسها المتوجّح ولم

تتكلم، فأجابت عنها زُنبُة قائلة:

- قليل من الشبان من هم في تديّن عبد المنعم...

فقالت خديجة:

- إنه ينعم الآن بثروة جدّي التي آلت إلى أمي!

وقال ياسين محتجاً:

- ميراث لا يُستهان به، وكلّما قصدها رضوان في معونة للترفيه أو خلافه تصدّى له الصفيق وناقشه الحساب!

فقالت خديجة مخاطبة رضوان:

- إنّه لم تنجب غيرك، وخير لها أن تمتنع بما لها في حياتها... ثمّ مستدركة:

- وقد آن لك أن تزوّج، أليس كذلك؟

فضحك رضوان ضحكة فاترة ثمّ قال:

- عندما يتزوّج عمّي كمال!

- لقد يشت من عمك كمال ولكن لا ينبغي أن

تقلّده...

وأصغى كمال لما يدور حوله بامتعاض وإن لم يبذّر

أثره في وجهه. لقد يشت منه ويشس هو من نفسه.

وكان قد انقطع عن المرور بشارع ابن زيدون معلّناً

بذلك عن شعوره بذنبه، غير أنّه كان يقف عند طرف

المحطة ليراها في شرفتها من حيث لا تراه، لم يستطع

أن يقاوم رغبته في رؤيتها، ولا أن ينكر حبّه لها، أو

يتجاهل نفوره وجفوله من فكرة التزوّج منها! حتّى قال

له رياض إنك مريض وثأب أن تبرا!

وسأل أحمد شوكت رضوان بلهجة ذات معنى:

- أكان محمّد حسن يناقشك الحساب لو كان

السعديّون في الحكم؟

فضحك رضوان ضحكة حانقة وقال:

- إنه ليس الوحيد الذي يناقشني الحساب اليوم،

ولكن صبراً، إن هي إلا أيام أو أسابيع.

فسألته سوسن حماد:

- أنظرنّ أيام الوفد معدودة كما يشيع خصومه؟

- أيامه رهن بمشيئة الإنجليز، وعلى أيّ حال فلن

تطول الحرب إلى الأبد... ثمّ يجيء وقت الحساب!

فقالت سوسن في جدّ ظاهر:

- المسئول الأوّل عن المأساة هم الذين ظاهروا

الفاشيست لطنع الإنجليز من الخلف...

وكانت خديجة ترمق سوسن بنظرة ساخرة منتقدة،

- تفضّلوا إلى البوفيه، احتفالنا اليوم قاصر على المعدة...

- يعجبني تديّته، هذا خلق في دم أسرتنا، ولكن لا تعجبني لحيته...

فقال إبراهيم شوكت ضاحكًا:

- أعتزف بأنّ ابني - المؤمن والمارق على السواء -

مجنونان!

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال:

- الجنون خلق في دم أسرتنا أيضًا!

فحدجته خديجة بنظرة احتجاج فعالجها قائلاً قبل أن تنبس:

- أعني أنّي مجنون، وأظنّ كمال أيضًا مجنون، وإن

شئت فأنا المجنون وحدي!

- هذا هو الحقّ دون زيادة.

- وهل من العقل أن يقضي إنسان على نفسه بالعزوبة ليتفرّغ للقراءة والكتابة؟

- سيتزوّج عاجلاً أو آجلاً ويكون سيّد العقلاء.

فسأل رضوان عمّه كمال قائلاً:

- لم لا تتزوّج يا عمّي؟ أريد أن أقف على الأثقل

على وجه اعتراضك لأدافع به عن نفسي حين الضرورة!

فقال ياسين:

- أتتوي الإضراب عن الزواج؟ لن أسمح بهذا ما

حييت، ولكن انتظر حتّى تعودوا للحكم ثمّ تزوّج

زواجاً سياسياً رائعاً!

أما كمال فقال له:

- إذا لم يكن عندك مانع فتزوّج في الحال...

هذا الشاب ما أجمله! هو مرشّح للجاء والمال! لو

رأته عابدة في زمانها لعشقتّه، ولو ألقي نظرة عابرة على

بدور لشغفها حبّاً، أمّا هو فيدور على نفسه والدنيا

كلّها تتقدّم، ولا يزال يتساءل: أتزوّج أم لا أتزوّج؟!

والحياة تبدو حيرة مظلمة، فلا هي فرصة سانحة ولا

هي فرصة ضائعة، والحبّ عسير طبعه الخصام

والعذاب، فليتها تتزوّج حتّى يخلص من حيرته

وعذابه!

وإذا بعدد المنعم يدخل عليهم تتقدّمه لحيته وهو

يقول:

٤٧

كان كمال يسير متسكّماً في شارع فؤاد الأوّل، وكانت الساعة تدور في العاشرة من صباح الجمعة فلقي طريقاً غاصّاً بالمائة والواقفين، نساء ورجالاً، وكان الجوّ لطيفاً كأكثر أيّام نوفمبر، يغري بالمشي، وقد ألف أن يتخفّف من عزلته القلبية بالاندساس بين الناس في يوم عطلته، فيمضي على وجهه بلا غاية، متسلّياً بمشاهدة الناس والأشياء، وصادفه في طريقه أكثر من واحد من تلاميذه الصغار فحيّوه برفع أيديهم إلى رؤوسهم فردّ تحييتهم بأحسن منها باسماً. ما أكثر تلاميذه منهم من توقّف، ومنهم من لا يزال بالجامعة، وغالبيتهم بين الابتدائي والثانويّ فليس بالعمر القصير أن تخدم العلم والتعليم أربعة عشر عاماً. وكان منظره التقليدي لا يكاد يتغيّر، البذلة الأنيقة والحذاء اللامع والطربوش المستقيم والنظارة الذهبية والشارب الغليظ، حتّى درجته السادسة لم تتغيّر أربعة عشر عاماً رغم ما يشاع عن تفكير الوفد في إنصاف الهيئات المظلومة، شيء واحد تغيّر هو رأسه الذي انتشر المشيب في سوافه. ويدا سعيداً بتحيّيات تلاميذه الذين يحبّونه ويحترمونه، وتلك منزلة لم يظفر بمثلها أحد من المدرّسين، ظفر بها هو رغم رأسه وأنفه، وبالرغم ممّا اعتري تلاميذه هذه الأيام من شيطنة وجوح!

وعندما بلغ تسكّعه تقاطع عباد الدين مع فؤاد الأوّل ما يدري إلّا وبدور تطلّعه وجهاً لوجه، وخفقت جوانحه كأنّها انطلقت بها صفارة الإنذار، وجمد بصره لحظات، ثمّ همّ بالابتسام ليتفادى من الموقف الحرج، غير أنّها حوّلت عنه عينها في تجاهل بين ودون أن تلين أساريرها ثمّ مرقت من جانبه، وعند ذلك فحسب رأى أنّها تتأبّط ذراع شابّ تسير في صحبته! وتوقّف عن المسير، ثمّ أتبعها ناظره، أجل هي بدور، في معطف أسود أنيق، وهذا صاحبها في

توقّف تخفي تارة وراء المآة وتبدو تارة، ويرى منها جانب مرة ثم يرى جانب آخر. وكان كلّ وتر من أوتار قلبه يغمغم: «وداعاً». ونفذ إلى أعماقه شعور العذاب مصحوباً بأنغام حزينة ليست بالجديدة. فذكر بها حالاً مماثلة ماضية، دبّت في أعماقه جازة وراءها شتى ذكرياتها المدغمة، كأنها لحن غامض مثير لأجل الألم وهو في الوقت نفسه لا يخلو من لذة خفيفة مبهمة! شعور واحد يلتقي فيه الألم باللذة كالنجم يلتقي عند حاشية الليل بأهداب النهار. ثمّ اختفت عن ناظره، وربما اختفت إلى الأبد، كما اختفت أخت لها من قبل! ووجد نفسه يتساءل من عسى أن يكون خطيبها؟ لم يستطيع أن يتفحصه وكم يؤدّ أن يفعل، وودّ - أن يكون موظّفاً - أن يكون من طبقة أدنى من طبقة المعلمين! ولكن ما هذه الأفكار الصبيانية؟ إنّه لأمر مخجل، أمّا عن الألم فجدّير بالخبر به أن يطمش إذ إنّه عرف بالتجربة أنّ مصيره - ككلّ شيء - إلى الموت. وانتبه أوّل مرة إلى معرض اللعب الذي ينسبط تحت عينيه، كان آية في التنسيق والجمال، حاوياً لشتى فنون اللعب التي يهيم بها الأطفال من قطارات وسيارات وأراجيح وأدوات موسيقية وبيوت وحدائق، فانجذب إلى المنظر أمامه بقوة غريبة تفجّرت عنها نفسه المدبّبة حتّى تشبّث بها عيناه، لم يتح له في طفولته أن ينعم بهذه الجلّة فكبر طاوياً نفسه على غريزة لم تشيع وفات أو أن يشباعها. وهؤلاء الذين يتحدثون عن سعادة الطفولة من أدرانهم بها؟ ومنذا يستطيع أن يجزّم بأنّه كان طفلاً سعيداً؟ لذلك فما أسخف هذه الرغبة الطارئة البائسة التي تحلم بأن تروّه طفلاً مثل هذا الطفل الخشبي الذي يلعب في هذه الحديقة الوهميّة الجميلة! إنّها رغبة سخيّة ومحزنة في آن. ولعلّ الأطفال في الأصل كائنات لا تُحتمل، ولعلّها المهنة وحدها التي علّمتها كيف يمكن التفاهم معهم وتوجيههم. ولكن كيف كانت تكون الحياة لو رُدّ إلى الطفولة محفّظاً في ذات الوقت بعقله النامي وذاكرته؟ فيعود إلى اللعب في بستان السطح بقلب عامر بذكريات عابدة، أو يمضي إلى العباسية عام ١٩١٤ فيرى عابدة وهي تلعب في الحديقة ويعرف في الوقت

مثل أناقتها، ولعلّه لم يبلغ الثلاثين بعد. وبذل جهداً صادفاً ليتلذّذ نفسه التي هزّتها المفاجأة ثمّ تساءل في اهتمام من يكون هذا الشاب؟ ليس أختاً لها، ولا هو بالعاشق إذ إنّ العشاق لا يجاهرون بحبهم في شارع فؤاد الأوّل خاصّة صباح الجمعة، فهل يكون...؟! وتتابع دقات قلبه في إشفاق، ثمّ تبعها دون تردّد، وعيناه لا تفارقانهما، ووعيه مركّز فيهما حتّى شعر بأنّ حرارته ترتفع وأنّ ضغطه يصعد وأنّ دقات قلبه تنعاه، ورأهما يتوقّفتان أمام معرض علّ لبيع الحقايب فدنّا منهما متباطئاً مصوّباً عينيه نحو يد الفتاة اليمنى حتّى استقرّ بصره على الخاتم الذهبي! ولفحه إحساس حارّ كأنّه مزيج من الألم العميق، وكان قد مضى على موقف شارع ابن زيدون أربعة أشهر، فهل كان هذا الشاب يرصده في نهاية الطريق ليحلّ محلّه؟ وما ينبغي أن يدهش فإنّ أربعة شهور زمن طويل قد تنقلب فيه الدنيا رأساً على عقب، ووقف أمام علّ اللعب على بعد يسير من موقفها، يلحظها وكأنّه يتفرّج على اللعب. إنّها اليوم تبدو أجمل ممّا كانت في أيّ يوم مضى، كالعروس بكلّ معنى الكلمة! ولكن ما هذا السواد الذي يشيع في كافّة ملابسها؟ إنّ سواد المعطف أمر مألوف بل فاخر ولكن ما بال فستانها أسود كذلك؟ موضّة أم حداد؟ أتكون أمّها قد توقّيت؟ ليس من عادته تصفّح الوفيات في الصحف ولكن ماذا يهّمه من ذلك؟ الذي يهّمه حقّاً أنّ صفحة بدور قد انطوت في كتاب حياته، انتهت بدور، وعرف السؤال الحائر «أتزوّج أم لا أتزوّج» جوابه المحتوم! فليهنّا بالطمأنينة بعد الحيرة والعذاب! وكم تمّنى لو تزوّج ليخلص من عذابه فيها هي قد تزوّجت فليهنّا بالخلاص من العذاب! وخيّل إليه أنّ إنساناً لو دُبّح لعانى مثل الإحساس الذي يعانیه في موقفه. إنّ أبواب الحياة تغلق في وجهه وقد نبذ خارج أسوارها. ثمّ رآهما يتحوّلان عن موقفها، ويتجهان نحوه، ومزاً به في سلام وأتبعهما عينيه وهُمّ بالمسير في أثرهما ولكنّه عدل عن ذلك فيما يشبه الضجر، ولبث أمام معرض اللعب، ينظر ولا يرى شيئاً، ونظر صوبها مرة أخرى كأنّها ليلقي عليها نظرة الوداع، وكانت تتبعد دون

- كم يوافق أحدنا الآخر!
فقلت له بسخرية مستسلمة:
- ما ألطفك في سكرك! ...
فاستطرد:
- ما أسعدنا من زوجين لو تزوجنا! ...
فقلت مقطبة:
- لا تهزأ بي فقد كنت «سيدة» بكل معنى الكلمة ...
- نعم، نعم، إنك الذ من الفاكهة في إبانها! ...
فقرصته هازئة وقالت:
- هذا قولك ولكنني إذا سألتك ريالاً فوق ما تعطيني هربت!
- إن ما بيننا ليسمو فوق النقود!
فحدجته بنظرة احتجاج وقالت:
- ولكن لي طفلان يفضلان النقود على ما بيننا!
فبلغ به السكر والحزن غايتها وقال ساخراً:
- أنا أفكر في التوبة أسوة بالسيدة جلييلة، ويوم يختارني التصوف فسأنزل لك عن ثروتي!
فقلت ضاحكة:
- إذا وصلت التوبة إليك فقل علينا السلام ...
فضحك ضحكة عالية وقال:
- لا كانت التوبة المضرة بميثلتك!
إلى هذا يفزع من السهاد! ثم شعر بأن وقفته أمام معرض اللعب قد طالت فتحول عنه وذهب ...

٤٨

تساءل خالو صاحب حانة النجمة:
- حقيقي يا حبيبي أنهم سيغلطون الخمارات؟
فأجاب ياسين بثقة واطمئنان:
- لا سمح الله يا خالو! من عادة النواب أن يثرثروا عند نظر الميزانية، ومن عادة الحكومة أن تعيد بالنظر في تحقيق رغبات النواب في أقرب فرصة، ومن عادة هذه الفرصة ألا تقترب أبداً ...
واستبقت جماعة ياسين بحانة محمد على المشاركة في التحقيق، فقال رئيس المستخدمين:

نفسه ما لقيه منها عام ١٩٢٤ وما بعده! أو يخاطب أباه وهو يلثغ فيقول له إن الحرب ستقع عام ١٩٣٩ إنه سيقضى عليه عقب إحدى غاراتها! يا لها من أفكار سخيفة ولكنها خير على أي حال من التركيز في هذه الخيبة الجديدة التي ارتطم بها الآن في شارع فؤاد، خير من التفكير في بدور وخطيبتها وموقفه منها، ولعل ثمة خطأ في الماضي يكفر عنه وهو لا يدري، كيف ومتى وقع هذا الخطأ؟ لعله حادث عرضي أو كلمة قيلت أو موقف كابده، هذا أو ذاك هو المسئول عن هذا العذاب الذي يعاني. يجب أن يعرف نفسه حتى يتيسر له أن يخلصها من آلامها، فالمعركة لم تنته بعد، والتسليم لم يقع، وما ينبغي له أن يقع، ولعله المسئول عن ذلك التردد الجهل الذي انتهى به إلى قضم الأظافر على حين مضت بدور متأبطة ذراع خطيبتها! وينبغي التفكير مرتين في هذا العذاب المبطن بلذة غامضة، أليس هو الذي ذاقه قديماً في صحراء العباسية وهو يتطلع إلى الضوء المنبعث من نافذة حجرة الزفاف؟ فهل كان تردده حيال بدور حيلة لدفع نفسه إلى موقف مماثل ليستعيد مشاعر قديمة فيشمل بعذابها ولذتها معاً؟ يحسن به قبل أن يحرك يده للكتابة عن الله والروح والمادة أن يعرف نفسه، بل شخصه المفرد، كمال أفندي أحمد، بل كمال أحمد، بل كمال فقط، حتى يتسنى له أن يخلقه من جديد، وليبدأ الليلة بمعاودة كراسة الذكريات ليتفحص الماضي جيداً، وستكون ليلة بلا نوم، ولكنها ليست الأولى من نوعها، فعنده منها ذخيرة يصح جمعها في مؤلف واحد تحت عنوان «ليالي بلا نوم»، ولن يقول إن حياته عبث، ففي النهاية سيخلف عظاماً قد تصنع منها الأجيال القادمة أداة للهوا! أما بدور فقد ولت من حياته إلى الأبد، يا لها من حقيقة مليئة بالشجن، كاللحن الجنائزي، ولم تترك ذكرى حنان واحدة، لا عناق ولا قبل، حتى ولا لمسة أو كلمة طيبة، ولكنه لم يعد يخشى السهاد. فقدماً كان يلقيه وحيداً، أما اليوم فدون ذلك أفانين تغيب فيها العقول والقلوب، ثم يذهب إلى عطية في البيت الجديد بشارع محمد علي، ثم يواصل أحاديثها التي لا تنقضي. وفي آخر مرة قال لها بلسان أنقله السكر:

- إنَّها عروس كالوردة، زينة السكينة، ولكنَّها أوَّل فتاة في أسرتنا يَمُرُّ عليها عام على زواجها دون أن تحمل، لهذا جزعت أمُّها!

- وأبوها فيما يبدو

فقال ياسين وهو يتبسّم ابتسامة بلهاء:

- إذا جزعت الزوجة جزع زوجها...

- لو يتذكّر الإنسان قَرَف الأولاد لكره الحبل!...

- ولوا الناس يتزوَّجون عادة لإنجاب الذرية...

- لهم حقٌّ لولا الأطفال ما طاق الحياة الزوجية أحد...

فشرب ياسين كأسه وهو يقول:

- أخشى أن يكون ابن أخي من أتباع هذا

الرأي...

- بعض الرجال ينجبون الأطفال ليشغلوا زوجاتهم

بهم فيستردّوا شيئاً من حرّيتهم المفقودة!

فقال ياسين:

- هيهات! المرأة ترضع طفلاً وتهدهد آخر ولكنَّها في

نفس الوقت تحملق في زوجها «أين كنت؟ لماذا غبت

إلى هذه الساعة؟» ومع ذلك فالحكام لم يستطيعوا أن

يغيروا هذا النظام الكوني.

- ماذا منعهم؟

- أزواجهم! لم يدعن لهم فرصة للتفكير في

ذلك...

- اطمئن يا ياسين أفندي، فإنّ زوج ابنتك لا يمكن

أن ينسى فضل ابنك في توظيفه.

- كلّ شيء يُنسى...

ثمّ - وهو يضحك - وقد دغدغت الخمر رأسه:

- ثمّ إنّ «المحروس» نفسه خارج الحكم الآن!

- آه! والوفد سيَعمر هذه المَرّة فيما يبدو...

وإذا بالمحامي يقول بلهجة خطابيّة:

- لو سارت الأمور سيراً طبيعياً في مصر لحكم الوفد

إلى الأبد!...

فقال ياسين ضاحكاً:

- هذا القول له وجهته لولا خروج ابني على الوفد!

- ولا تنسوا حادث القصاصين! إذا مات الملك فقلّ

على أعداء الوفد السلام!

- طول عمرهم يَعدون بإخراج الإنجليز، ويفتح جامعة جديدة، وبتوسيع شارع الخليج، فهل تمّ شيء من هذا يا خالو؟

وقال عميد ذوي المعاشات:

- لعلّ النائب مقدّم الاقتراح قد شرب خمرًا زعافًا

من خمر الحرب فانتقم بتقديم اقتراحه...

وقال المحامي:

- ومهما يكن من أمر، فإنّ حانات الشوارع

الإفرنجية لن تمسّ بسوء، فما عليك يا خالو إذا وقع

المحذور، إلّا أن تسهم في تافرنّا أو غيرها... والخمّار

للخمّار كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً...

وقال باشكاتب الأوقاف:

- إذا كان الإنجليز قد دفعوا بدبّاباتهم إلى عابدين

لمسألة تافهة هي إعادة النحاس إلى الحكم، فهل تظنّهم

يسكتون عن إغلاق الخمّارات؟!

وكان بالبحجرة - إلى جماعة ياسين - نفر من أهل

البلد من التّجار، ولكن على الرغم من ذلك اقترح

الباشكاتب أن يمزجوا سكرهم بشيء من الغناء قائلاً:

- هلمّوا نغني «أسير العشق».

فبادر خالو بالعودة إلى موقفه وراء الطاولة، وراح

الأصدقاء يغنون: «أسير العشق يا ما يشوف هوان»،

وبدت نغمة السكر أوضح الأنغام في أصواتهم حتّى

لاحت في وجوه أهل البلد بسّات ساخرة، غير أنّ

الغناء لم يستمرّ طويلاً، وكان ياسين أوّل المنسحبين،

ثمّ تبعه الآخرون فلم يُتمّ الدور إلّا بالباشكاتب، ثمّ

ساد سكوت تقطعه من حين إلى حين مصمصة أو

تمطّق أو يد تصفّق في طلب كأس أو مرّة، وإذا بياسين

يقول:

- أما من وسيلة ناجعة للحبل!

فقال الموظّف العجوز كالمحتجّ:

- لا تفتنّا تسأل هذا السؤال وتعيده... صبرك

بالله يا أخي!...

وقال باشكاتب الأوقاف:

- لا داعي للجزع يا ياسين أفندي، ومسير بنتك

تحبل!

فقال ياسين وهو يتبسّم ابتسامة بلهاء:

يوم المعركة الكبرى سرت على رأس المظاهرة أنا وأخي
أول شهداء الحركة الوطنية، فسمعت أزيز الرصاص
وهو يرق لصق أذني ويستقر في أخي، يا للذكرى! لو
امتد به العمر للحق بركب الوزراء المجاهدين!

- ولكن العمر امتد بك أنت!

- نعم، ولكن ما كان بوسعي أن أكون وزيراً
بالابتدائية، ثم إننا في جهادنا توقعنا الموت لا
المنصب، غير أنه لا بد أن يموت أناس ويتبوأ المناصب
آخرون، وفي جنازة أخي مشى سعد زغلول فقدمني
إليه زعيم الطلبة، هذه ذكرى عظيمة أخرى!

- ولكن كيف وجدت - رغم جهادك - متسماً
للعريضة والعشق؟

- اسمعوا يا هو، وهؤلاء الجنود الذين يضاجعون
النساء في الطرق أليسوا هم الذين ردوا رومل على
أعقابهم؟ فالجهاد لا يكره الفرفشة، والخمر لو علمتم
روح الفروسية، والمجاهد والسكران أخوان يا أولي
الألباب!

- وسعد زغلول ألم يقل لك شيئاً في جنازة
أخيك...؟

فأجاب عنه المحامي قائلاً:

- قال له ليتك كنت الشهيد أنت...!

وضحكوا، وكانوا في هذه الحال يضحكون أولاً ثم
يتساءلون عن السبب، وضحك معهم ياسين في أريحية
صافية ثم واصل حديثه قائلاً:

- لم يقل هذا، كان رحمه الله مؤدباً لا كحضرتك،
وكان ابن حظ أيضاً، ولذلك كان واسع الأفاق، فكان
سياسياً ومجاهداً وأديباً وفيلسوفاً وقانونياً، وكانت كلمة
منه تحيي وتميت!

- الله يرحمه.

- ويرحم الجميع، كل ميت يستحق الرحمة، بحسبه
أنه فقد الحياة، حتى المومس وحتى القواد، وحتى الأم
التي كانت تبعث بابنها إلى رفيقها ليعود إليها به...

- وهل يمكن أن توجد هذه الأم؟

- كل ما تتصور وما لا تتصور يوجد في الحياة!

- ألم تجد إلا ابنها؟

- الملك بسلام!

- الأمير محمد علي يعلو بذلة التشريفة! وهو منسجم
مع الوفد طول عمره...

- الجالس على العرش - أيًا كان اسمه - هو عدو
للفرد بحكم مركزه كالويسكي والخلوى لا يتفقا!
فقال ياسين وهو يضحك نشوة:

- لعل الحق معكم، فأكبر منك بيوم يعرف أكثر
منك بسنة، وأنتم منكم من بلغ أرذل العمر ومنكم
من يوشك أن يدركه!

- اسم الله عليك يا بن السبعة والأربعين!

- على أي حال فأنا أصغركم سنًا...

ثم فرقع بأصابعه وهو يتمايل نشوة وخيلاء،
واستطرد:

- ولكن العمر الحقيقي لا يقاس بالسنين، ولكن
بالنشوة ينبغي أن يقاس، والخمر قد انحطت نوعاً
ومذاقاً في أيام الحرب ولكن نشوتها هي هي، وعند
الاستيقاظ صباحاً يدق رأسك الصداق فتفتح عينيك
بكهاشة ثم تتجشأ كحولاً، غير أنني أقول لكم إنه في
سبيل النشوة يهون أي شيء، ورب أخ يتساءل
والصحة؟ أجل لم تعد الصحة كما كانت، وابن السبعة
والأربعين غير مثيله في الزمن الأول مما يدل على أن كل
شيء قد غلا ثمنه في الحرب إلا العمر فلا ثمن له، في
الزمن الأول كان الرجل يتزوج في الستين من عمره أما
في زماننا الغادر فابن الأربعين يسأل أهل العلم عن
الوصفات المقوية، والعريس في شهر العسل قد يوحد
في شهر ماء!

- الزمن الأول، أهل الدنيا جميعاً يسألون عنه!
فعاد ياسين يقول وقد أخذت أنغام السكر ترون في
أوتار صوته:

- الزمن الأول، اللهم ارحم أبي، شد ما ضربني
ليمنعني من الاشتراك الدموي في الثورة! ولكن الذي
لا تُرهبه قنابل الإنجليز لا يُرهيه الزجرا وفي قهوة أحمد
عبده كنا نجتمع لتدبير المظاهرات وقذف القنابل...

- هذه الأسطوانة من جديد! خبّرني يا ياسين أفندي
أكان وزنك أيام الجهاد كوزنك اليوم؟

- وأثقل، غير أنني كنت حين الجّد كالنحلة، وفي

كثب، وكان لي منهم أصدقاء على عهد الثورة!
فهتف المحامي:

- ولكنتك كنت مجاهدهم... أنسيت؟!

- نعم... نعم، لكلّ حال ما يناسبها، وفي مرة
ظنوني جاسوسًا لولا أن سارع إليّ زعيم الطلبة في
اللحظة المناسبة فدلّ القوم على حقيقتي فهتفوا لي،
وكان ذلك في جامع الحسين!

- يعيش ياسين... يعيش ياسين! ولكن ماذا كنت
تفعل في جامع الحسين؟

- أجب، هذه نقطة هامة جدًا!...

فضحك ياسين ثم قال:

- كنّا نصلي الجمعة، وكان من عادة أبي أن يأخذنا
معه لصلاة الجمعة، ألا تصدّقون؟ سلوا أهل الحسين!
- كنت تصلي زلفى لأبيك؟

- والله، لا تسيئوا الظنّ بنا، نحن أسرة دينيّة، أجل
كلّنا سكيرون فاسقون، ولكن في النهاية تنتظرنا التوبة!
وهنا تأوّه المحامي قائلاً:

- ألا نعاود الغناء قليلاً؟

فبادره ياسين قائلاً:

- أمس غادرت الحانة وأنا أغنيّ فاعترضني شرطيّ
وهتف بي محدّثاً: «يا أفندي!» فسألته: «ألا يحقّ لي أن
أغنيّ؟»، فقال: «ممنوع الزعيق بعد الساعة ١٢» فقله
محتجاً: «ولكنني أغنيّ!» فقال بحدّة: «كلّه زعق أم
القانون»، فسألته: «والقنابل التي تنفجر بعد الساعة
١٢ ألا تُعدّ زعقاً؟» فقال مهدّداً: «الظاهر أنّك ترغب
في البيات في القسم» فابتعدت عنه وأنا أقول: «بل
الأفضل أن أبيت في البيت!»، كيف نكون أمة
متحضّرة والعساكر تحكمنّا؟! وفي البيت تلقى زوجك
بالمرصاد وهنالك في الوزارة رئيسك، حتّى في التربة
يستقبلك ملاكان بالهراوات...

وعاد المحامي يقول:

- فلنمرّ بشيء من الغناء...

فتنحن عميد ذوي المعاشات ثمّ راح يترنّم:

جوزي التجوّز عليّه
ولسه الحنة في يديّه

يوم ما جه وجبها عليّه

دي نار يا ناس وآدت فيّه

- ومن أرمي للأّم من الابن؟! ثمّ إنكم جميعاً أبناء
المضاجعة!

- الشرعيّة!

- هذه شكليّات أمّا الحقيقة فواحدة، وقد عرفت
موسسات بائسات كان فراشهنّ يخلو من ضجيج أسبوعاً
أو أكثر، دلّوني على أمّ من أمّهاتكم قضت مثل هذه
الفترة بعيداً عن قريتها!

- لا أعرف شعباً كالشعب المصريّ ولعاً بالخوض في
أعراض الأمّهات!

- نحن شعب قليل الأدب!...

فقال ياسين ضاحكاً:

- إنّ الزمن أدبنا أكثر ممّا ينبغي، والشيء إذا زاد
عن حدّه انقلب إلى ضدّه، ولذلك فنحن غير مؤدّبين!
ولكن تغلب علينا الطيبة رغم ذلك، فالتوبة عادة
ختامنا!...

- ها أنا من ذوي المعاشات ولكنني لم أتب بعد!

- التوبة لا تخضع لكادر الموظّفين، ثمّ إنك لا تفعل
شيئاً ضارّاً، أنت تسكر ساعات كلّ ليلة وليس في
ذلك من بأس، وسوف يمتنع عن السكر يوماً المرض
أو الطبيب وكلاهما شيء واحد، ونحن بطبعنا ضعفاء،
ولولا ذلك ما ألفنا الخمر ولا صبرنا على الحياة
الزوجيّة، ونزداد بمرور الأيام ضعفاً ولكنّ رغائبنا لا
تقف عند حدّ، هيهات، فتتعبّد ثمّ نسكر مرة
أخرى، ويشيب شعرنا فيفضح منّا المستور وإذا بصفيق
يعترض سبيلك في الطريق وهو يقول: «عيب أن
تطارد امرأة وشعرك شايب!» يا سبحان الله ما لك
أنت إذا كنت شاباً أو شيخاً، أتبع امرأة أم أتبع حماراً!
حتّى نخال حيناً أنّ الناس متأمرون مع زوجك عليك،
وهنالك إلى ذلك كلّ الدلال بثقله والعسكريّ
بهرأوته، حتّى الخادمة تتيه دلالاً في سوق الخضار،
وهكذا تجد نفسك في عالم مشاكس لا صديق لك فيه
إلا الكأس، ثمّ يجيء دور المرتزقة من الأطّباء فيقولون
لك بكلّ بساطة: «لا تشرب!»

- ومع ذلك أنتكر أنّنا نحبّ الدنيا بكلّ قلوبنا؟

- بكلّ قلوبنا! والشرّ نفسه لا يخلو من خير، حتّى
الإنجليز لا يخلون من خير، لقد عرفتهم يوماً عن

فضحك الرجل دون تعليق فاستطردت تقول:
- أما الأخرى فاستعين عليها بسيدي المتوَّي.

- اعترفي بأنَّ لسانها كالشهدا!

- مكر ودهاء، ماذا تتوقَّع من ابنة العنابر؟

- اتقي الله يا شبيخة!

- ترى متى يذهب بها «الأستاذ» إلى الطبيب؟

- إنَّها زاهدان في هذا!

- طبعًا، إنَّها موقوفة، فمن أين تجد الوقت للحبل

والولادة؟

- إنَّها سعيدان ما في ذلك شلَّ.

- الموظفة لا يمكن أن تكون زوجة صالحة،

وسيعرف ذلك بعد فوات الأوان...

- إنَّه رجل ولن يضره ذلك...

- ليس في هذا الحيِّ كلُّه شابان كولديّ فيا خسارة!

وكان عبد المنعم قد تبلور طابعه واتَّجاهه، فأثبت أنَّه موظَّف كفاء و«أخ» نشيط، وقد انتهى الإشراف على شعبة الجماليَّة إليه فعَيَّن مستشارًا قانونيًّا لها، وأسهم في تحرير المجلَّة، وكان يلقي المواعظ أحيانًا في المساجد الأهليَّة. وجعل من شقته ناديًا لإخوانه يسهرون عنده كلَّ ليلة وعلى رأسهم الشيخ عليّ المنوفي. وكان الشاب شديد التحمُّس موفور الاستعداد كي يضع جميع ما يملك من جهد ومال وعقل في خدمة الدعوة التي آمن بكلِّ قلبه - على حدِّ تعبير المرشد - بأنَّها دعوة سلفيَّة وطريقة سُنيَّة وحقيقة صوفيَّة وهيئة سياسيَّة وجماعة رياضيَّة ورابطة علميَّة ثقافيَّة وشركة اقتصاديَّة وفكرة اجتماعيَّة، وكان الشيخ عليّ المنوفي يقول:

- تعاليم الإسلام وأحكامه شاملة تنظيم شؤون الناس في الدنيا والآخرة، وإنَّ الذين يظنُّون أنَّ هذه التعاليم إلما تتناول الناحية الروحيَّة أو العبادة دون غيرها من النواحي مخطئون في هذا الظنِّ، فالإسلام عقيدة وعبادة ووطن وجنسيَّة ودين ودولة وروحانيَّة ومصحف وسيف...

فيقول شاب من المجتمعين:

- هذا هو ديننا، ولكننا جامدون لا نفعل شيئًا والكفر يحكمنا بقوانينه وتقاليده ورجاله...

وسرعان ما ردَّدوا المطلع في حماس همجيِّ، وكان ياسين يغرق في الضحك حتَّى دمعت عيناه...

٤٩

كثيرًا ما كانت تشعر خديجة بأنَّها وحيدة. ومع أنَّ إبراهيم شوكت - خاصَّة منذ أن قارب السبعين - كان يعتكف في بيته طوال أيَّام الشتاء، إلَّا أنَّه لم يستطع أن يبَدِّد وحشتها، ولم تن في القيام بواجبات بيتها، غير أنَّها - الواجبات - باتت أهون من أن تستغرق حيويَّتها ونشاطها، فعلى تجاوزها السادسة والأربعين لم تزل قويَّة نشيطة وازدادت جسامه. وأسوأ من هذا أنَّ وظيفتها كأمَّ قد انقطعت على حين أنَّ دورها كحماة لم ولن يبدأ أبدًا فيها بدا. فإحدى الزوجتين ابنة أخيها، والأخرى موظفة لا تكاد تلتقي بها إلَّا فيما ندر من الأوقات والمناسبات. فكانت تروِّج عن صدرها المكبوت فيها يدور بينها وبين زوجها المتلفَّع بعباءته.

- مضى أكثر من عام على زواجهما ولم نوقد شموعًا! فهزَّ الرجل منكبيه استهانة دون تعليق فعادت تقول:

- لعلَّ عبد المنعم وأحمد يعدَّان الدرزيَّة موضحة قديمة كطاعة الوالدين!

فقال الرجل في ضجر:

- أريحي نفسك فهما سعيدان وحسبنا هذا.

فتساءلت في حدة:

- إذا كانت العروس لا تحبل ولا تلد فما فائدتها؟

- لعلَّ إبنك يخالفانك في هذا الرأي!

- لقد خالفاني في كلِّ شيء، ما أضيع تعبى

وأملي...

- أيجزلك ألَّا تكوني جدَّة؟

فقالت في حدة تعالت درجتها:

- إنَّ حزني عليها لا على نفسي!

- لقد عرض عبد المنعم كريمة على الطبيب فبشره

خيرًا...

- أنفق المسكين كثيرًا وسيفق غدًا أكثر، إنَّ عرائس

اليوم غالية الثمن كالطماطم واللحوم!

العمّال المجاهدين، وكلا العاملين واجب لا غنى عنه...

فقال الأستاذ:

- ولكنّ المجتمع الفاسد لن يتطوّر إلّا باليد العاملة، وحين يمتلئ وعيها بالإيمان الجديد، ويمسي الشعب كلّ كتلة واحدة من الإرادة، فهناك لن تقف في سبيلنا القوانين الهمجيّة ولا المدافع...

- كلّنا مؤمنون بذلك، غير أنّ كسب العقول المثقفة يعني السيطرة على الفئة المرشحة للتوجيه والحكم... وإذا بأحد يقول:

- سيّدي الأستاذ، ثمة ملاحظة أوّد إبداءها، عرفت بالتجربة أنّه ليس من العسير إقناع المثقّفين بأنّ الدين خرافة وأنّ الغيبيّات تخدير وتضليل، ولكن من الخطورة بمكان مخاطبة الشعب بهذه الآراء، وإنّ أكبر تهمة يستغلّها أعداؤنا هي رمي حركتنا بالإلحاد أو الكفر...؟

- إنّ مهمّتنا الأولى أن نحارب روح القنصاعة والخنول والاستسلام، أمّا الدين فلن يتأتّى القضاء عليه إلّا في ظلّ الحكم الحرّ، ولن يتحقّق هذا الحكم إلّا بالانقلاب، وعلى العموم فالفقر أقوى من الإيمان، ومن الحكمة دائماً أن تخاطب الناس على قدر عقولهم...

ونظر الأستاذ إلى سوسن باسماً وهو يقول:

- كنت تؤمنين بالعمل فهل بتّ تقنعين بالنقاش في ظلّ الزواج...؟

وكانت تدرك أنّه يداعبها وأنّه لا يعني ما يقول، ومع ذلك فقد قالت جادّة:

- إنّ زوجي يحاضر العمّال في الخرابات النائية، وأنا لا أتي أوزع المنشورات بنفسي...

ثمّ قال أحمد مغتاً:

- إنّ عيب حركتنا أنّها تجذب إليها كثيرين من النفعيين غير المخلصين، من هؤلاء من يعمل بغية الأجر أو من يعمل للمصلحة الحزبيّة!

فقال الأستاذ عليّ كريم وهو يهزّ رأسه الكبير في استهانة واضحة:

- أعلم هذا حقّ العلم، ولكنّي أعلم أيضاً أنّ

فيقول الشيخ عليّ:

- لا بدّ من الدعاية والتبشير، وتكوين الأنصار المجاهدين، ثمّ تحيى مرحلة التنفيذ...

- وإلّا من نتظر؟

- لنتظر حتّى تنتهي الحرب. إنّ الحقل مهيباً لدعوتنا، وقد نزع الناس ثقتهم من الأحزاب، وعندما يهتف الداعي في الوقت المناسب يهبّ الإخوان وكلّ مدرّج بقرآنه وسلاحه...

عبد المنعم بصوته القويّ العميق:

- فلنوطّن النفس على جهاد طويل، إنّ دعوتنا ليست موجّهة إلى مصر وحدها. ولكن إلى كافّة المسلمين في الأرض، ولن يتحقّق لها النجاح حتّى تجتمع مصر والأمم الإسلاميّة على هذه المبادئ القرآنيّة، فلن نغمد السلاح حتّى نرى القرآن دستوراً للمسلمين أجمعين...

الشيخ عليّ المنوفي:

- أبشركم بأنّ دعوتنا تنتشر بفضل الله في كلّ بيئة، لها اليوم مركز في كلّ قرية، إنّها دعوة الله، والله لا يخذل قوماً ينصرونه...

وفي نفس الوقت، كان يستعر نشاط آخر في الدور التحتانيّ وإن اختلف الهدف، ولم يكن وفيه العدد كهذا، فإنّ أحمد وسوسن كانا يجتمعان في كثير من الليالي بعدد محدود من الأصدقاء مختلفي النحل والملل، أكثرهم من البيّنة الصحفيّة. وقد زارهم الأستاذ عليّ كريم ذات مساء، وكان على علم بما يدور بينهم من مناقشات نظريّة. فقال لهم:

- حسن أن تدرسوا الماركسيّة، ولكن تذكّروا أنّها وإن تكن ضرورة تاريخيّة إلّا أنّ حتميّتها ليست من حتميّة الظواهر الفلكيّة. إنّها لن توجد إلّا بإرادة البشر وجهادهم، فواجبنا الأوّل ليس في أن نتفلسف كثيراً ولكن في أن نملاً وعي الطبقة الكادحة بمعنى الدور التاريخيّ الذي عليها أن تلعبه لإنقاذ نفسها والعالم جميعاً...

أحمد:

- إنّنا نترجم الكتب القيّمة عن هذه الفلسفة للخاصّة من المثقّفين، ونلقي المحاضرات الحماسيّة على

كانت فيلاً عبد الرحيم باشا عيسى بحلوان تودّع
الفوج الأخير من الزوّار الذين جاءوا يودّعون قبيلاً
سفره إلى الأراضي الحجازية لأداء فريضة الحجّ . . .

- إنّ الحجّ أمنية قديمة، لعن الله السياسة فهي التي
شغلتنى عنه عاماً بعد عام، ولكن في مثل عمري يجب
أن يفكر المرء في أداء اللقاء القريب برّبه.

فقال عليّ مهران وكيل الباشا:

- لعن الله السياسة!

فردّد الباشا عينيه الدابلتين بين رضوان وبين حلمي
متفكّراً ثمّ قال:

- قل فيها ما شئت، غير أنّ لها جيلاً في عنقي لا
أنساه وهو أنّها سلّتنى عن وحشتي، إنّ الأعزب العجوز
مثلي يلتمس الأنس ولو في الجحيم!

فلعب عليّ مهران حاجبيه وقال:

- ونحن يا باشا ألم نغم بواجبنا في تسليتك؟

- دون شكّ، ولكن يوم الأعزب طويل قليل
الشتاء، ولا بدّ للإنسان من رفيق، وإني لأعترف بأنّ
المرأة ضرورة خطيرة، وكلم أذكر أُمّي هذه الأيام! إنّ
المرأة ضرورة حتّى لمن لا يتعشّقها!

وكان رضوان يفكر في أمور بعيدة فإذا به يسأل
الباشا:

- هَبْ النّحاس باشا يسقط أفلا تعدل عن السفر؟!

فلوّح الباشا بيده ساخطاً وقال:

- فليبق بنحسه حتّى أعود على الأقلّ من
الحجّ . . .

ثمّ وهو يهزّ رأسه:

- كلّنا مذنب، والحجّ يغسل الذنوب . . .

فضحك حلمي عزّت قائلاً:

- إنّك يا باشا مؤمن، وإنّ إيمانك كما يحير الكثيرين!

- له؟ إنّ الإيمان واسع الصدر، والمنافق وحده

الذي يدّعي البراءة المطلقة، ومن الغباء أن تظنّ أنّ
الإنسان لا يقترب الذنوب إلّا على جنة الإيمان، ثمّ إنّ

ذنوبنا أشبه بالبعث الصبيانيّ البريء!

فقال عليّ مهران متنهّداً في ارتياح:

الأمويّين قد ورثوا الإسلام وهم لا يؤمنون به ومع
ذلك فهم الذين نشره في بقاع العالم القديم حتّى
إسبانيا! فمن حقّقنا أن نستفيد من هؤلاء، علينا أن
نحدّثهم في الوقت نفسه، ولا تنسوا أنّ الزمن معنا
على شرط أن نبذل ما في وسعنا من جهد وتضحية . . .

- والإخوان يا أستاذ! لقد بتنا نشعر بأنّهم عقبة
خطيرة في سبيلنا!

- لا أنكر هذا، ولكنهم ليسوا بالخطورة التي
تتخلّلها، ألا ترى أنّهم يخاطبون العقول بلغتنا فيقولون
اشترائيّة الإسلام؟ فحتّى الرجعيّون لم يجدوا بدءاً من
استعارة اصطلاحاتنا، وهم لو سبقونا إلى الانقلاب
فسوف يحقّقون بعض مبادئنا ولو تحقيقاً جزئياً، ولكنهم
لن يوقفوا حركة الزمن المتقدّمة إلى هدفها المحتوم، ثمّ
إنّ نشر العلم كفيّل بطردهم كما يطرد النور الخفافيش!

ومضت خديجة تراقب مظاهر هذا النشاط الغريب
في دهشة مقرونة بالامتناع والسخط، حتّى قالت يوماً
لزوجها:

- لم أر بيتاً كبيتك عبد المنعم وأحمد، لعلّها قهوتان
وأنا لا أدري، فلا يجيء المساء حتّى يمتلئ الطريق
بالزوّار من أصحاب اللحي والخواجات، لم أسمع عن
شيء كهذا من قبل . . .

فهزّ الرجل رأسه قائلاً:

- آن لك أن تسمعي . . .

فقال بحدّة:

- إنّ مرتّبيهما لن يكفيّا ثمن القهوة التي تقدّم
للضيوف!

- هل اشتكيا إليك الفقر؟

- والناس؟ ماذا يقولون وهم يرون أفواجاً تدخل

وأفواجاً تخرج؟

- كلّ واحد حرّ في بيته . . .

فنفضت قائلة:

- إنّ أصوات أحاديثهم التي لا تنتهي تملأ أحياناً
حتّى تخرج إلى الحارة . . .

- فلتخرج إلى الحارة أو فلتصعد إلى السّماء! . . .

وتنهّدت خديجة من الأعماق وهي تضرب كفّاً بكفّ . .

- فشر! إذا تحدّثني فسوف أستقبلك حين العودة
من الحجّ بقمر ولا كلّ الأثمار ثمّ ننظر ماذا يكون من
أمرك!

فقال الباشا بأسًا:

- ستكون النتيجة مثل وجهك يا بوز الإخص،
أنت شيطان يا مهران، شيطان لا غنى للإنسان
عنه...

- أحمد الله على ذلك...

رضوان وحلمي في وقت واحد تقرّيبًا:

- ونحمده عليه...

فقال الباشا في خيلاء وسرور:

- أنتم أنسي، ما الحياة بدون المودة والصدقة؟
الحياة جميلة، الجبال جميلة، الطرب جميل، العفو
جميل، أنتم شباب وتنظرون إلى الدنيا من زاوية
خاصة، وسوف تعلّمكم العمر الكثير، إني أحبكم
وأحبّ الدنيا، وإنّ زيارتي لبيت الله للشكر والاعتذار
وطلب الهداية...

فقال رضوان بأسًا:

- ما أجل منظرك! إنك تقطر صفاء...

فقال عليّ مهران بمكر:

- ولكنّ حركة صغيرة تجعله يقطر أشياء أخرى،
حقًا يا باشا إنك معلّم الجيل!

- وأنت إبليس نفسه يا ابن الهرمة! اللهم إني إذا
قدمت يومًا للحساب فسأشير إليك وكفى!

- أنا! مظلوم والله، لست إلا عبدًا مأمورًا...

- بل أنت شيطان...

- ولكن لا غنى للإنسان عنه؟!

فضحك الباشا قائلًا:

- نعم يا عكروت...

- كنت وما أزال في حياتك العامرة نغمًا مطربًا
ووجهًا مليحًا وهناء متجدّدًا، وأخيرًا لا تنس أيام
شبابي يا سعادة الغادرا...

فتأوه الباشا قائلًا:

- أيام زمان! آه من الزمان! يا أولاد لم نكبر؟!!

جلّت حكمتك يا ربّي وعلّت!...

- يا له من قول جميل! والآن دعني أصارحك بأنّي
تساءمت كثيرًا حين حدّثني عن اعتزامك الحجّ،
وساءلت نفسي ترى أهى التوبة؟! وهل تنتهي بالنسبة
لنا مسرّات الحياة؟!

فضحك الباشا حتّى اهتزّ جذعه وقال:

- أنت شيطان من صلب شيطان، أنحزنون حقًا إذا
علمتم أنّها التوبة؟

فقال حلمي متأوّمًا:

- كمن دّبح وليدها في حجرها!...

فضحك عبد الرحيم باشا مرّة أخرى وقال:

- آه منكم يا أولاد الإيّه، على مثلي إذا أراد التوبة
حقًا أن ينأى بنفسه عن العيون النجل والحدود
الوردية، وأن يعكف على مجاورة قبر النبيّ عليه الصلاة
والسلام...

فهتف مهران في شماتة:

- الحجاز وما أدراك ما الحجاز، لقد حدّثني عنها
العارفون، ستكون كالستجير من الرمضاء بالنارا!

فقال حلمي عزّت كالمحتجّ:

- لعلّها دعاية كاذبة كالدهايات الإنجليزية، وهل
يوجد في الحجاز كلّ وجه كوجه رضوان؟!

فهتف عبد الرحيم عيسى:

- ولا في الجنة!.. (ثمّ متراجعًا).. لكننا يا أولاد
الحرام بصدد حديث التوبة!

فقال عليّ مهران:

- مهلاً يا باشا، لقد أخبرتني يومًا عن الصوفيّ الذي
تاب سبعين مرّة، أليس معنى هذا أنّه أذنب سبعين
مرّة؟

فقال رضوان:

- أو مائة مرّة!

فقال عليّ مهران:

- أنا راض بسبعين!

فتساءل الباشا ووجهه يتهلّل بشرًا:

- وهل في العمر بقية؟

- ربّنا يطوّل عمرك يا باشا، طمئنًا وقل إنّها التوبة

الأولى!

- والأخيرة!

الثانية أو الثالثة لا أذكر، وأظنه الآن معتكفاً في عزبته
بكوم حمادة...

- يا عيني على أيامه! وحامد النجدي؟
- هذا أسوأ أحببنا حقاً! خسر الجلد والسقط،
ولأنه ليطوف الآن ليلاً بالمراحيض العمومية...
- كان خفيفاً ظريفاً ولكنه كان كذلك مقامراً
وعريداً. وعليّ رأفت؟
- لقد بلغ «باجتهاده» أن صار عضواً في مجلس إدارة
عدة شركات، ولكن سمعته ضيقت عليه الوزارة فيما
يقال!...

- لا تصدّق ما يقال، وليّ الوزارة أناس جاوزت
شهرتهم حدود المملكة، غير أنّ هذا الرأي الذي طالما
نوّهت لكم عنه وهو أنّ التحليّ بالفضائل العامة واجب
علينا أكثر من بقية الناس! فإذا تحقّق لأحدكم هذا فلا
تشرب عليه بعد ذلك، لقد حكم الماليك مصر
أجيالاً، وما زالت ذرايعهم تنعم بالجاه والمال، وما
المملوك؟ هو ذلك نفسه! سأقصّ عليكم قصّة عظيمة
المغزى...

وصمت الباشا قليلاً كأنما ليجمع شتات فكره ثم
قال:

- كنت في ذلك الوقت رئيس محكمة، وحدث أن
عُرضت عليّ قضية مدنيّة عن ميراث مختلف عليه،
وقبل نظر القضية عرّفني بعضهم بشاب جميل له وجه
رضوان وقوام حلّمي... (ثمّ مشيراً إلى مهران)
ورشاقة هذا الكلب في عزّ أيامه! فتصادقنا عهداً وأنا
لا أدري عن سرّه شيئاً، حتّى إذا كان يوم نظر القضية
ما أدري إلّا وهو يقف أمامي ممثلاً لأحد طرفي النزاع!
ماذا تظنّون فعلت؟

فتمتم رضوان:

- يا له من موقف!...

- تنحّيت عن نظر القضية دون تردّد!
وأبدى رضوان وحلمي عن إعجابها أمّا مهران
فقال كالمحتجّ:

- وضيّعت عليه كفاحه؟!

فقال الباشا دون اكتراث لهُذر مهران:

- ليس هذا فحسب، ولكنّي قطعته احتقاراً لسوء

كانت قناتي لا تميل لغامز
فألانها الإصباح والإمساء

فقال مهران ملقّباً حاجبيه:

- لغامز؟! بل قل لا تميل لمهران!

- يا ابن الكلب لا تفسد الجوّ بهذرك! لا يجوز أن
نعبث عند ذكر الأيام الجميلة، الدموع أحياناً أجمل من
الابتسام وأضحكم إنسانيّة وأشدّ عرفاناً بالجميل،
اسمعوا هذا أيضاً:

واستنكرتني وما كان الذي نكرت

من الحوادث إلّا الشيب والصلعا

- ما رأيكم في قول «من الحوادث»؟

وإذا بمهران ينادي على طريقة باعة الصحف:

- الحوادث والأهرام والمصريّ...!

الباشا ياتسّا:

- الحقّ ليس عليك ولكن ع...!

- عليك أنت!

- أنا! أنا بريء منك، عندما عرفتك كنت على
حال يجسدك عليها إبليس، ولكنّي لن أسمح لك أن
تنزعني من جوّ الذكريات، نعم اسمعوا إلى هذا
أيضاً:

عريت من الشباب وكان غطّاً

كما يعرى من الورق القضيب

فتساءل مهران كالمنزعج:

- القضيب يا باشا.

الباشا وهو يردّد ناظريه بين رضوان وحلمي

المغرقين في الضحك:

- صاحبكم جنة لا يؤثّر فيها الشعرا ولكنّه سيبلغ
قريباً فترة الحسرات، حين يصير كلّ جميل خبراً لكان
أو إحدى أخواتها، (ثمّ متلفّناً إلى مهران) وأصحاب
زمان يا ابن الهرمة هل نسيتمهم؟

- أوه، الله يسميهم بالخير... كانوا الجمال كلّهم
والدلال كلّهم...

- ماذا تعرف عن شاكر سليها؟

- كان وكيل الداخليّة وفرخة بكشك عند الإنجليز

حتّى أحيل على المعاش قبل الأوان في وزارة النحاس

ودموعي تتساقط فوق جبينها وخديها، وكم أود لو
تغلب على متاعبك يا رضوان . . .

فقال رضوان وكان يبدو شاردًا ساهمًا:

- يستطيع الإنسان أن يعيش بلا امرأة . . . ليس
الأمر مشكلة!

- يستطيع الإنسان أن يعيش بلا امرأة، ولكن الأمر
مشكلة، وقد لا تبالي تساؤل الناس ولكن ماذا عن
تساؤل أنت؟ من الممكن أن تقول إن المرأة مشيرة
للاشمئزاز، ولكن لماذا هي لا تثير اشمئزاز الآخرين؟
هنالك يركبك إحساس كالمرض، مرض لا تعرف له
دواء، فتعتزل العالم به، وهو شرّ رفيق في الوحدة،
وربما أخجلك بعد ذلك أن تحتقر المرأة وإن تكن
مضطربًا إلى مواصلة احتقارها!

وهنا نفخ عليّ مهران فيبا يشبه اليأس ثم قال:

- منيت النفس بليلة مرحة جديدة بالوداع!

فضحك عبد الرحيم باشا ثم قال:

- ولكنّه وداع حاج! ماذا تعرف أنت عن توديع
الحجاج؟

- سأودّعك بالدعاء ثم أستقبلك بالورود والحدود،
ويومئذ نرى ماذا أنت فاعل!

فضرب الباشا كفا بكفّ وهو يقول ضاحكًا:

- إني مفوّض أمري إلى الله ذي الجلال . . .

٥١

عند تقاطع شارعني شريف وقصر النيل، أمام
مقهى رتز، وفجأة، وجد كمال نفسه أمام حسين
شدّاد! وتوقفا عن السير وكلاهما يحمل في وجه صاحبه
حتى هتف كمال:

- حسين . . .

فهتف الآخر بدوره:

- كمال!

ثم تصافحا في حرارة وهما يضحكان ضحكة الغبطة
والسرور.

- آية مفاجأة سعيدة بعد ذلك التاريخ الطويل!

- آية مفاجأة سعيدة! تغيّرت كثيرًا يا كمال، ولكن

خلقه، أجل، لا قيمة للإنسان بلا خلق، ليس
الإنجليز بأذكي الناس، الفرنسيون والإيطاليون أذكي
منهم ولكنهم سادة الخلق فهم سادة العالم! لذلك أنبد
الجمال التافه المنحط.

فتساءل عليّ مهران ضاحكًا:

- هل أفهم من إبقائك عليّ أيّ ذو خلق؟ . . .

فاشار الباشا نحوه جادًا وهو يقول:

- الأخلاق متنوعة، فالقاضي مطالب بالنزاهة
والعدل، والوزير بالواجب والشعور بالمسؤولية العامة،
والصديق بالصفاء والوفاء، وأنت عرييد بلا شك
ووغد في أحيان كثيرة، ولكنك أمين وفي . . .

- أرجو أن يكون وجهي قد تورّد!

- الله لا يكلف نفسًا إلّا وسعها! والحقّ أيّ قانع بما
فيك من خير، ثم إنك زوج وأب وهذه فضيلة
أخرى، وهي سعادة لا يقدرها إلّا من عانى صمت
البيوت، إلّا أنّ صمت المقام عذاب الشيخوخة!
فقال رضوان كالمنكر:

- حسبت الشيخوخة عجة للهدوء.

- تحيّلات الشباب عن الشيخوخة ضلال، تحيّلات
الشيخوخة عن الشباب حسرات، خبّرني يا رضوان
عن رأيك في الزواج؟

وانقبضت أسارير رضوان وهو يقول:

- هو الرأي الذي حدّثك عنه من قبل يا باشا.

- لا أمل في العدول عنه؟

- لا أظنّ.

- له؟

تردّد رضوان قليلًا ثم قال:

- شيء عجيب، لا أدري كنهه، ولكنّ المرأة تبدو
لي مخلوقًا مثيرًا للاشمئزاز! . . .

فتجلّت في العينين الدابلتين نظرة حزينة وقال:

- يا للأسف، ألا ترى أنّ عليّ مهران زوج وأب؟
وأنّ صديقك حلمي من أنصار الزواج؟ إني أرثي لك
رثاء مضاعفًا إذ إنّه رثاء لنفسي أيضًا، طالما حبّرني ما
قرأت وما سمعت عن جمال المرأة، غير أنّي طويت
نفسي على رأيي الخاصّ لإكرامًا لذكرى أمي، كنت
أحبّها حبًّا جًّا، وقد أسلمت الروح بين ذراعي

والذي... وجدت الهموم في انتظاري كما قلت، ثم كان عليّ أن أعمل، وأن أعمل ليل نهار! هذا حسين شذاد طبعة ١٩٤٤! ذلك الذي يعد العمل جريمة إنسانية، أحقّ وجد ذلك الماضي؟ لعلّه لا دليل عليه إلّا خفقان هذا القلب.

- أتذكر آخر مرّة تلاقينا؟

- أوه!...

وجاء النادل بالشاي والقهوة قبل أن يتمّ كلامه غير أنّه لم يبد متحمّساً للذكريات!...

- دعني أذكرك، كان ذلك عام ١٩٢٦.

- عفارم على ذاكرتك!... (ثمّ شارداً)... سبعة

عشر عامًا في أوروبا!...

- حدّثني عن حياتك هنالك!

فهوّ رأسه الذي لم يشب منه إلّا سؤالته وقال:

- دع ذلك إلى حينه، واقنع الآن بهذه العناوين:

أعوام سياحية وفرحة كالحلم، حبّ فزواج من باريسية من أسرة محترمة، الحرب والهجرة إلى الجنوب، إفلاس أبي، العمل في متجر حمّاي، عودتي إلى مصر دون زوجي حتّى أهينّ لها حياة مستقرّة، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

- أنجب أطفالاً!

- كلّاً...

كأنّما لا يؤدّ أن يتكلّم، ولكن ماذا بقي من الصداقة القديمة حتّى يأسف على ذلك؟ ورغم هذا وجد رغبة قويّة في طرق أبواب الماضي فتساءل:

- وماذا عن فلسفتك القديمة؟

وتفكّر حسين مليّاً، ثمّ ضحك ضحكة ساخرة وقال:

- إني غارق في العمل منذ أعوام وأعوام، لست إلّا

رجل أعمال!

أين روح حسين شذاد الذي كان يأوي منها إلى ظلّ ظليل من الغبطة الروحية؟ ليست في هذا الرجل الضخم، لعلّها استقرّت في رياض قلّدت، أمّا هذا الرجل فإنّه لا يعرفه، ولا يربطه به إلّا ماضٍ مجهول، ماضٍ ودّ في تلك اللحظة لو كان يحتفظ له بصورة حيّة لا صورة فوتوغرافية باردة.

مهلاً لعلّي أبلغ! عودك هو هو، جملة منظرك، ولكن ما هذا الشارب المحترم؟ وهذه النظارة الكلاسيكية وهذه العصا! وهذا الطربوش الذي لم يعد أحد يلبسه غيرك!

- وأنت شدّ ما تغيّرت! سمعت أكثر ممّا كنت أتصوّر، أهذا يتفق وتقاليد باريس؟ أين حسين زمان؟!

- وأين باريس زمان؟ أين هتلر وموسوليني؟ ما علينا، كنت ذاهباً إلى ريتز لأشرب قدح شاي فهل عندك مانع من الجلوس معي قليلاً؟

- بكلّ سرور...

فبالا إلى ريتز ثمّ جلسا حول مائدة وراء النافذة الزجاجيّة المطلّة على الطريق، وطلب حسين شذاد الشاي وطلب كمال قهوة ثمّ عادا يتفحصان بعضهما البعض في ابتسام. لقد ضخم حسين فامتدّ طولاً وعرضاً. ولكن ماذا فعل بحياته يا ترى؟ هل ساح في الأرض والسماء كما كان يؤدّ قديماً؟ لكنّ عينيه تعكسان رغم ابتسامهما نظرة غليظة كأنّما بذلت من طفولة الحياة جدّاً. وكان قد مضى عام على التقائه ببدور في شارع فؤاد الأوّل فبرئ في أثنائه من نكسة الحبّ وانزوى آل شذاد جميعاً في ركن النسيان، غير أنّ ظهور حسين قد أيقظ النفس من سباتها، فبدا الماضي وكأنّه يتمطّى ناشراً أفراده وآلامه.

- متى عدت من الخارج؟

- منذ عام تقريباً...

ولم يحاول مقابلته على الإطلاق؟ ولكن علام يلوّمه وهو نفسه قد نسيه وفريغ من صداقته منذ دهر؟!

- لو علمت أنّك عدت إلى مصر لسعيت إلى لقاءك!

ولم يبد على حسين أنّه أخرج أو ارتبك ولكنّه قال ببساطة:

- عدت فوجدت الهموم في انتظاري، ألم تبلغك أشياء عنّا؟

فتجهمّ وجه كمال وقال باقتضاب وأسف:

- بلى، عن طريق صديقنا إسماعيل لطيف.

- لقد سافر إلى العراق منذ عامين كما أخبرتني

- لا اختيار لي، ومرجوي الوحيد أن أستعيد شيئاً من مستوى الماضي...
 وساد الصمت ملياً، وكان كمال يتفحص حسين باهتمام، وكانت صورة من الماضي تنبثق خلال تفحصه، حتى وجد نفسه يسأله قائلاً:
 - وكيف حال الأسرة؟
 فقال دون اكتراث:
 - بخير...
 فتردد كمال قليلاً ثم قال:
 - كانت لك أخت صغيرة نسيت اسمها فكيف صارت اليوم؟
 - بدورا، تزوجت في العام الماضي...
 - ما شاء الله، أولادنا يتزوجون!
 - وأنت ألم تتزوج؟
 ترى ألم تعاوده الذكريات؟
 - كلاً...
 - أسرع وإلا فاتك القطار...
 فقال ضاحكاً:
 - فاتي بأميال...
 - ربما تزوجت من حيث لا تدري، صدقي، لم يكن الزواج ضمن خطتي ولكنني متزوج منذ أكثر من عشر سنوات...
 فهزّ كمال كتفيه دون اكتراث وقال:
 - خبرني كيف تجد الحياة هنا بعد إقامتك الطويلة في فرنسا؟
 - لم تكن الحياة في فرنسا عقب الغزو ممّا يسرّ، أمّا هنا فالحياة يسيرة بالقياس إلى هناك. (ثمّ بحنان) ولكن باريس، أين أين باريس؟
 - لمّ لمّ تبقى في فرنسا؟
 فقال باستنكار:
 - أعيش كلّاً على حمي؟!، كلاً، كان ثمة عذر عندما حالت ظروف الحرب دون السفر، أمّا بعد ذلك فلم يكن من السفر بدّاً!
 ترى أهو شذا من الكبرياء القديم؟ ثمّ وجد نفسه مدفوعاً إلى مغامرة خطيرة عذبة معاً، فتساءل بمكر:

- وماذا تعمل الآن؟
 - ألحقني أحد أصدقاء أبي بوظيفة في الرقابة حيث أعمل ابتداء من منتصف الليل حتى الفجر، وإلى هذا فإنّي أقوم بالترجمة في بعض الصحف الإفرنجية...
 - ومتى تخلو من العمل؟
 - فيما ندر، والذي يهوّن عليّ المشقة أنّي لن أدعو زوجي إلى مصر حتى أهيّئ لها حياة تناسبها، فهي من أسرة محترمة، وكنت حين تزوّجت منها معدوداً من الأغنياء...
 قال ذلك وضحك ضحكة كأنّها يسخر بها من نفسه فابتسم كمال ابتسامة كأنّها يشجّعه بها، وراح يقول لنفسه: من حسن حظّي أنّي سلوتك من زمن طويل، ولولا ذلك لبيكت عليك من أعماق قلبي!
 - وأنت يا كمال ماذا تعمل؟
 ثمّ مستدركاً:
 - أذكر أنّك كنت مغرمّاً بالثقافة؟
 ما أجدره بالشكر على هذا التذكّر! فهو ميت بالنسبة إليه كما أنّ الآخر ميت بالنسبة إليه هو، وإنّا لنموت ونحيا كلّ يوم مرّات! وأجابه:
 - إنّني مدرّس لغة إنجليزية...
 - مدرّس! نعم... نعم. تذكّرت الآن أشياء، وكنت ترغب في أن تكون مؤلّفاً؟
 يا للترغبات الخائبة!...
 - إنّني أنشر مقالاتي في مجلّة الفكر، ولعلّي أجمع بعضها في كتاب عمّا قريب!
 فابتسم حسين ابتسامة كثيبة وقال:
 - أنت سعيد لأنك حققت أحلام صباك، أمّا أنا... أنا...
 وضحك مرّة أخرى، أمّا كمال فقد وقعت جملة «أنت سعيد» من أذنيه موقعاً غريباً، ولم يكن أغرب منها إلّا اللهجة التي قيلت بها الدالة على الحسد، فوجد نفسه مرّة واحدة سعيداً ومحسوداً! ومَن؟ من عميد آل شدّاد! غير أنّه قال على سبيل المجاملة:
 - حياتك العملية أجلّ حياة!
 فقال الآخر باستمّة:

الأعلى لهيئته التعليمية، ولعله تشرف بمقابلته مرات وهو زوج لعائدة. رباه... إنه ليذكر الآن أنه شيع جنازة حرم المراقب منذ عام أفكانت هي عايدة؟
ولكن كيف لم يلتقي بحسين؟

- هل حضرت وفاتها؟

- كلاً، توفيت قبل عودتي إلى مصر...

فقال وهو يهز رأسه تعجباً:

- لقد سرت في جنازتها وأنا لا أدري أنها أختك!

- كيف؟

- علمت في المدرسة ذلك اليوم بأن حرم كبير المفتشين قد توفيت وأن الجنازة ستشيع من ميدان الإسماعيلية، فذهبت مع زملائي المدرسين دون أن أطلع على النعي في الصحف، وسرنا بين المشيعين حتى جامع جرّكس، كان ذلك منذ عام...

فابتسم حسين ابتسامة حزينة وهو يقول:

- سعيكم مشكور...

لو وقعت هذه الوفاة عام ١٩٢٦ لجنّ أو انتحر، اليوم نمرّ به كخبر من الأخبار، ومن عجب أن يشيع جنازتها وهو لا يدري، وكان وقتذاك ما يزال أسيراً لمرارة التجربة التي تخلّفت عن زواج بدور فلعل صاحبة النعش طافت برأسه فيها طاف به من خواطر بدور وأسرتها، وما زال يذكر يوم الجنازة حين تقدّم من أنور بك زكي معزياً ثم جلس بين المشيعين، قالوا قياماً لقد حضر النعش فمدّ عينيه فرأى نعشاً جميلاً مكلّلاً بالحرير الأبيض حتى تهاشم بعض زملائه إنها عروس... الزوجة الثانية للمفتش... وقد ذهبت ضحيةً للالتهاب الرئوي، وودّع النعش وهو لا يدري أنه يودّع ماضيه، ومن كان زوجها؟ رجل فوق الخمسين ذو زوجة وأبناء فكيف رضي به ملاك الزمان الخالي؟ وكنت تظنّها فوق الزواج فإذا هي تعنو للطلاق ثم تقنع بنصيب الزوجة الثانية! وسوف يمضي وقت طويل قبل أن يسكن جيشان هذا الصدر لا من الحزن أو الألم ولكن من الدهول والدهشة، ومن خلق العالم من مباحج الأحلام، ومن ضياع سرّ الماضي الساحر إلى الأبد، وإن كان ثمة حزن فعلى أنك لم تحزن كما كان يجدر بك!

- وما أخبار صاحبنا حسن سليم؟

فجدّه بنظرة ارتياب لحظة ثم قال ببرود:

- لا أدري عنه شيئاً!

- كيف؟

فقال وهو يمدّ بصره إلى الطريق خلال الزجاج:

- انتهى ما بيننا وبينه منذ حوالى العامين!

فقال كمال في دهشة لم يستطع إخفاءها:

- أتعني...؟

ولم يتمّ كلامه. غلبته المفاجأة. هل عادت عايدة إلى العباسية مرة أخرى؟ امرأة مطلقة؟ فليؤجل التفكير في هذا كله إلى حين، وقال بهدوء:

- كان سفره إلى إيران آخر ما حدثني به إسماعيل لطيف عنه!

فقال حسين بكآبة:

- لم تمكث أختي معه في هذه الرحلة إلا شهراً واحداً، ثم عادت بمفردها... (ثم بصوت منخفض)

يرحمها الله!

- هه...!

نذت عن كمال في صوت ترامي إلى الموائد القريبة من حوشهم. فنظر إليه حسين كالداهش وقال:

- لم تكن تدري! لقد ماتت منذ عام!

- عايدة؟

فهزّ الآخر رأسه بالإيجاب، وفي نفس الوقت خجل كمال من نطقه الاسم مجرداً بصوت مسموع، ولكنه لم يقف عند هذا إلا أقل من لحظة. وبدت الألفاظ جميعاً وكان لا معنى لها. وشعر بدوامة الفناء تدور برأسه. وكان ما به دهشة وارتياح، لا حزن ولا ألم، وتكلّم أخيراً فقال:

- يا له من خبر محزن! البقية في حياتك!

فقال حسين:

- عادت من إيران وحيدة، ومكثت مع أمي شهراً، ثم تزوّجت من أنور بك زكي كبير مفتشي اللغة الإنجليزية ولكنها لم تعاشره إلا شهرين، ثم مرضت، ثم توفيت في المستشفى القبطي.

كيف لرأسه أن يتابع هذه الأحداث في سرعتها الجنونية! ولكنه يقول أنور بك زكي، وهو المراقب

إبراهيم المقيمين في هذا البيت؟
فأجاب الرجل وقد امتنع وجهه:
- بلى...
- عندنا أوامر بتفتيش البيت جميعه...
- لماذا يا حضرة المأمور؟
فلم يأبه له والتفت نحو معاونيه أمراً:
- فتنشوا...
واندفع الرجال إلى الحجرات صادعين بالأمر على
حين تساءل لإبراهيم شوكت:
- لماذا تفتشون شقّي؟
ولكنّ المأمور تجاهل، وعند ذاك اضطرت خديجة
إلى مغادرة حجرة النوم - التي اقتحمها المخبرون -
متلّعة بشال أسود وهي تهتف غاضبة:
- أليس للنساء حرمة؟ هل نحن لصوص يا حضرة
المأمور؟!
كانت تحدّق في وجهه غاضبة، وإذا بها تشعر بفتة
بأنّها رأت هذا الوجه من قبل، أو بمعنى أصحّ أنّها رأت
صورته الأولى قبل أن يعتورها تقدّم السنّ، متى وأين؟
ربّاه إنّهُ هو دون ريب، لم يكده يتغيّر كثيراً، واسمه؟
وقالت دون تردّد:
- حضرتك كنت ضابطاً بقسم الجماليّة، منذ
عشرين عاماً، بل منذ ثلاثين عاماً لا أذكر الزمن
بالضبط...

فرفع المأمور إليها عينين متسائلتين، وردّد إبراهيم
شوكت ناظره بينهما متسائلاً كذلك، وإذا بها تقول:
- اسمك حسن إبراهيم، أليس كذلك؟
- حضرتك تعرفيني؟
فقالت برجاء:
- أنا بنت السيّد أحمد عبد الجواد وأخت فهمي
أحمد الذي قتله الإنجليز أيام الثورة، ألا تذكره؟
فلاححت الدهشة في عيني المأمور وتمتم بصوت
مهذّب لأوّل مرّة:
- رحمه الله رحمة واسعة...

فقالت برجاء أشدّ:
- أنا أخته فهل ترضى لبني هذه البهدة؟
فأشاح المأمور عنها بوجهه وهو يقول كالمعتذر:

- لكن ماذا غير حسن سليم؟
فهزّ حسين رأسه بازدراء وقال:
- عشق الوغد موظّفة بمفوضيّة بلجيكا بإيران
فغضبت المرحومة لكرامتها وطالبت بالانفصال...
«تأّ يعزّي المرء في مثل هذا الموقف أنّ بديهيّات
إقليدس لم تعد بالبديهيّات المطلقة!».
- وأولادها؟
- عند جدّتهم لأبيهم.
وهي أين هي؟ وماذا جدّ عليها في هذا العام؟
وهل يمكن أن يعرفها فهمي أو السيّد أحمد عبد الجواد
أو نعيمة؟
وإذا بحسين شدّاد ينهض وهو يقول:
- آن لي أن أذهب، دعني أراك، إنّّي أتناول عشاءي
عادة في رتز.
فنهض بدوره، وتصافحا وهو يتمتم:
- إن شاء الله...

وافترقا عند ذاك وهو يشعر بأنّه لن يراه مرّة أخرى،
وبأنّه ليس به حاجة إلى معاودة رؤيته، كما ليس بالآخر
حاجة إلى ذلك، وغادر المشرب وهو يقول لنفسه: «إنّي
حزين يا عايذة لأنّي لم أحزن عليك كما كان يجدر
بي...».

٥٢

في سكّون الهزيع الأخير من الليل طرق طارق باب
بيت آل شوكت بالسكريّة، ثمّ تتابع الطرق حتّى
استيقظ النائمون، وما إن فتحت خادم الباب حتّى
تدافعت إلى الداخل أقدام ثقيلة شديدة الوقع،
انتشرت في الفناء والسلم وأطبقت على الشقيق
الثلاث. وخرج إبراهيم شوكت إلى الصالة مثقل
الرأس بالنوم متعباً بالكبر فرأى ضابطاً كبيراً يتوسّط
مجموعة من الجنود والمخبرين، فدهش الرجل وتساءل
منزعجاً:

- ماذا هنالك كفى الله الشرّ؟!
فسأله الضابط الكبير بخشونة:
- ألسنت والد أحمد إبراهيم شوكت وعبد المنعم

- هَذَنِي روعك، لم يعثروا على شيء مريب، ولن
يثبت ضدّهما شيء، لا تجري وراءهم حفظاً لكرامة
عبد المنعم وأحمد...

فصاحت بها:

- هَذَا الهدوء تحسدين عليه!

فقال سوسن برقة وصبر:

- سيعودان إلى بيتها بخير، اطمئني...

فتساءلت بحدة:

- مَنْ أدراك؟

- إني واثقة ممّا أقول...

فلم تكثرث لقولها والتفتت نحو زوجها ثمّ ضربت
كفّاً بكفّ وهي تقول:

- انعدم الرفاء، أقول لهما إنهما ابنا أخت فهمي
فيقول لي عندي أوامر، لماذا يأخذ ربنا الناس الطيبين
ويترك الأرزال؟

وانجّحت سوسن نحو إبراهيم وقالت:

- سيفتشون بيت الجاعة في بين القصرين! سمعت
خبراً يقول للمأمور أنّه يعرف بيت جدّهما في بين
القصرين فاقترح عليه الضابط المساعد تفتيشه تنفيذاً
للأوامر على سبيل الحيلة أن يكونا قد أخفيا فيه
منشورات!

فصاحت خديجة:

- إني ذاهبة إلى أمّي، لعلّ كمال يستطيع شيئاً، آه
يا ربّي إني أحترق...

وجاءت بمعطفها وغادرت السكّرية في خطوات
متلاحقة مضطربة، كان الجوّ بارداً والظلام ما يزال
كثيفاً، وكانت الديكة تصيح في تجاوّب متواصل،
انطلقت من الغوريّة مخترقة الصاغة إلى النحاسين.
ووجدت عند باب البيت خبراً، ووجدت في الفناء
خبراً آخر، ثمّ صعدت السلم وهي تلهث...

وكانت الأسرة قد استيقظت مضطربة على رنين
الجرس، ثمّ جاءتهم أمّ حنفي وهي تقول في ذعر:
«بوليس»، وهرع كمال إلى الحوش حيث التقى بالمأمور
فتساءل منزعاً:

- أفندم؟

فسأله المأمور:

- إننا ننقذ الأوامر يا هانم.

- ولكن لماذا يا حضرة المأمور، نحن أناس طيّبون!
فقال المأمور برقة:

- نعم، ولكن ليس كذلك نجلاك...

فهتفت خديجة باضطراب:

- إنهما ابنا أخت صديقك القديم!

فقال المأمور دون أن ينظر نحوهما.

- إننا ننقذ أوامر الداخلية.

- لم يفعل شيئاً ضاراً، إنهما ولدان طيّبان وأقسم لك
على ذلك...

وعاد الجنود والمخبرون إلى الصالة دون أن يعثروا
على شيء فأمرهم المأمور بمغادرة الشقّة، ثمّ التفت إلى
الزوجين المائلين أمامه وقال:

- أبلغنا عن اجتماعات مريبة تُعقد في شقّتيهما...

- لهذا كذب يا حضرة المأمور!

- أرجو أن يكون الأمر كذلك، لكنني مضطرّ الآن
إلى القبض عليهما وسوف يقيان حتّى يتمّ التحقيق
معهما، ولعلّ العقابة أن تكون سليمة!

هتفت خديجة بصوت متهدّج وشئ بدموعها:

- أتسوقفها حقّاً إلى القسم؟، هذا... لا
أتصوّر... اعفِ عنهما وحيّة أولادك!

- ليس بوسعي ذلك، لديّ أوامر صريحة بالقبض
عليهما، طاب مساؤكما!

وغادر الرجل الشقّة، وما لبث أن غادرتها خديجة
وفي أعقابها الرجل العجوز ونزلا السلم لا يلوّيان على
شيء، ورأتهما كريمة وكانت واقفة أمام شقّتها في حال
شديدة من الفزع فهتفت:

- أدخلوه يا عمّتي، أدخلوه إلى السجن...

فالقت خديجة على الشقّة نظرة متحرّجة، ونزلت
مسرعة إلى الشقّة الأولى حيث وجدت سوسن على
باب شقّتها كذلك تتطلّع إلى الفناء بوجه كالح،
فنظرت حيث تنظر فرأت القوّة تحيط بعبد المنعم
واحد، متّجهة بهما إلى الخارج، فلم تتمالك أن تصرخ
من أعياق قلبها وهمت بالانطلاق في أثرهما لولا أن
أمسكت بها يد سوسن، فالتفتت نحوها هائجة، غير

أنّ سوسن قالت لها بصوت هادئ حزين:

فصافحه الرجل قائلاً:
- حسن إبراهيم مأمور قسم الجمالية! بدأت فيه ملازماً وعدت إليه في آخر المطاف مأموراً...
ثم وهو يهز رأسه:
- كانت الأوامر صريحة، أرجو ألا يثبت عليها ما يدينها.
وهنا ترمى إليهما صوت خديجة وهي تحدث أمها وعائشة بما كان وتبكي فقال:
- هذه أمها، عرفتني بذاكرتها العجيبة ثم ذكرتني بالمرحوم ولكن بعد أن كان التفتيش الدقيق قد وقع، طمئنتها ما أمكنك.
ثم نزلا معاً جنباً إلى جنب، وعند مرورهما بالدور الثاني مرقّت عائشة من الباب في حدة بادية وحدجت المأمور بنظرة قاسية وصاحت به:
- لماذا تقبضون على أولاد الناس بلا سبب؟ ألا تسمع بكاء أمها؟ فانحرف بصر المأمور إليها كردّ فعل للمفاجأة ثم غصّ بصره تأذّباً وهو يقول:
- سيطلق سراحهما عمّا قريب إن شاء الله...
ثم سأل كمال بعد أن ابتعدا عن مدخل الدور الثاني:
- والدتك؟
- بل شقيقتي! لم تتجاوز الرابعة والأربعين ولكنها عانت من سوء الحظّ ما حطّمها...
والتفت المأمور إليه كالداهش، وخيّل إليه بأنّه همّ أن يطرح سؤالاً، ولكنه تردّد لحظة ثم عدل عمّا كان همّ به، وتصافحا في الفناء، وقبل أن يمضي الرجل إلى سبيله سأل كمال:
- أمن المستطاع أن أزورهما في السجن؟
- نعم...
- شكراً...
وعاد كمال إلى الصالة فانضمّ إلى أمه وشقيقتيه وهو يقول:
- سأزورهما غداً، لا داعي للخوف، وسوف يطلق سراحهما عقب التحقيق معها...
وكانت خديجة لا تمسك عن البكاء فصاحت عائشة في نرفزة:

- أتعرف عبد المنعم إبراهيم وأحمد إبراهيم؟
- أنا خالهما!
- صناعتك؟
- مدرّس بمدرسة السلحدار...
- عندنا أوامر بتفتيش البيت!
- ولكن لماذا؟ أيّ تهمة توجهها إليّ؟
- إننا نفّش عن منشورات تخصّ الشائين لعلها أخفيها هنا!
- أوكد لحضرتك أنّه ليس في بيتنا منشورات، تفضّل فّش كما تشاء...
ولاحظ كمال أنّه أمر القوّة باحتلال السّلم والسطح وأنّه مضى معه بمفرده، وما كان تفتيشاً يقلب البيت رأساً على عقب ولكنّ المأمور اكتفى بتفقد الحجرات وإلقاء نظرة سطحيّة على المكتب وخزانات الكتب فاستردّ أنفاسه، واستطاع أن يسأله وقد أنس إليه:
- فّشتم بيتها؟
- طبعاً...
ثم بعد لحظة قصيرة:
- إنهما الآن في سجن القسم!
فسأله كمال في انزعاج:
- هل ثبت عليهما شيء؟
فأجاب الرجل برقة غير معهودة في أمثاله:
- أرجو ألا يصل الأمر إلى هذا الحدّ، غير أنّ التحقيق متروك للنيابة.
- أشكر لك جميل عواطفك!
فقال المأمور بهدوء وهو يتسم:
- ولا تنس أنّي لم أهمل البيت!
- نعم يا سيدي، إنّني لا أدري كيف أشكرك!
وإذا به يلتفت نحوه متسائلاً:
- حضرتك أخو المرحوم فهمي؟
فانتسعت عينا كمال دهشة وقال:
- نعم، أكنت تعرفه؟
- كنّا أصدقاء رحمه الله...
فقال كمال برجاء:
- مصادفة سعيدة... (وهو يمدّ له يده)... كمال
أحمد عبد الجواد...

- لا تبك، كفانا بكاء، سيعودان إليك ألا تسمعين؟

فولولت خديجة قائلة:

- لا أدري... لا أدري. في السجن يا ولداه!
وكانت أمينة صامته كأن الحزن أحرسها، فقال كمال
في لهجة توحى بالطمأنينة:

- المأمور يعرفنا، كان صديق المرحوم فهمي، وقد
تلطف بنا في التفتيش لدرجة لا تصدق، ولا شك أنه
سيرعاهما بعطفه!

فرفعت الأم رأسها كالمسائلة فقالت خديجة في
حق:

- حسن إبراهيم، ألا تذكرينه يا أمي؟ وقد أخبرته
بأنني أخت فهمي فما كان منه إلا أن قال: إننا ننقد
الأوامر يا هانم! أوامر في عينه...!
وانجحت عينا الأم نحو عائشة ولكنها لم يبد عليها
أنها ذكرت شيئاً...

ثم انتحلت أمينة بكمال جانباً وراحت تقول له في
قلق بالغ:

- لم أفهم شيئاً يا بني، لماذا قبض عليها؟

فتفكر كمال فيما ينبغي قوله، ثم قال:

- الحكومة تظن خطأ أنها يعملان ضدها!

فهزت رأسها في حيرة وقالت:

- أختك تقول إنهم قد قبضوا على عبد المنعم لأنه
من الإخوان المسلمين، لماذا يقبضون على المسلمين؟

- الحكومة تظنهم يعملون ضدها...

- وأحمد؟ قالت إنه... نسيت الكلمة يا

بني؟

- شيعوي؟ الشيعويون كالأخوان في ظن

الحكومة!

- الشيعويون؟ أشياع سيدنا علي؟

فدارى كمال ابتسامة وقال:

- الشيعويون لا الشيعة، هم حزب ضد الحكومة

والإنجليز!...

فتنهكت المرأة في حيرة وقالت:

- متى يفرج عنهما؟ انظر إلى أختك المسكينة!

الحكومة والإنجليز لم يجدوا إلا بيتنا المصاب؟!

كان أذان الفجر يسري في الصمت الشامل حين
استدعى مأمور قسم الجالية عبد المنعم وأحمد إلى
حجرته، ومثلاً أمام مكتبه يسوقهما جندي مسلح،
فأمره المأمور بالانصراف، ومضى يتفحصهما باهتمام،
ثم نظر إلى عبد المنعم وسأله:

- اسمك وستك وصناعتك؟

فأجاب عبد المنعم بهدوء وثبات:

- عبد المنعم إبراهيم شوكت، خمسة وعشرون
عاماً، محقق بإدارة التحقيقات بوزارة المعارف.

- كيف تخرق قوانين الدولة وأنت من رجال
القانون؟!

- لم أخرق قانوناً، ونحن نعمل جهاداً فنكتب في
الصحف ونخطب في المساجد، إن الدين يدعو إلى
الله لا يجدون ما يخفونه.

- ألم تحدث في بيتك اجتماعات مريبة؟

- كلاً، كانت اجتماعات عادية مما تجمع بين
الأصدقاء لتبادل الرأي والمشورة والتفقه في الدين...

- وهل يدخل ضمن هذه الأغراض التحريض على
معاداة دول حليفة؟

- أتعني بريطانيا يا سيدي؟ إنها عدو غادر، الدولة
التي تدوس كرامتنا بالدبابات لا يمكن أن تكون دولة
حليفة...

- إنك رجل مثقف، وكان ينبغي أن تدرك أن
للحرب ظروفًا تبيح المحظورات!

- إني أدرك أن بريطانيا هي عدونا الأول في هذا
الوجود!

والتفت المأمور إلى أحمد متسائلاً:

- وأنت؟

فأجاب أحمد وعلى شفته شبه ابتسامة:

- أحمد إبراهيم شوكت، أربعة وعشرون عاماً،
محور بمجلة الإنسان الجديد...

- هنالك تقارير خطيرة عن مقالاتك المتطرفة،
فضلاً عن أنه من المسلم به أن مجلتك سيئة
السمعة...

وغادرا الحجرة حيث تسلمهما أونياني وجنديان مسلحان، ومضوا جميعاً إلى الدور الأرضي، ثم عرجوا إلى بهو مظلم شديد الرطوبة فساروا فيه قليلاً حتى استقبلهم السجن بكشافه الكهربائي كأنما ليدهم على باب السجن، وفتح الرجل الباب وأدخلهما، ثم صوب ضوءه إلى الداخل ليهدئ به إلى بُرشيهما، وأضاء الكشاف المكان فبدأ متوسط المساحة عالي السقف، ذا نافذة صغيرة في أعلى جداره تعترضها القضبان الحديدية. وكان عامراً بالضيوف، فيهم شبان على هيئة الطلبة، وثلاثة رجال حفاة مجفوي المنظر شائهي الخلفة. وما لبث أن أغلق الباب وساد الظلام، غير أن الضوء وحركة القادمين كانت قد أيقظت النائمين، وقال أحمد لأخيه همساً:

- لن أجلس وإلا قتلني الرطوبة، فلننتظر الصبح واقفين!

- سنضطر إلى الجلوس عاجلاً أو آجلاً، أعلمت متى نبرج هذا السجن؟

وإذا بصوت - أدركا بالبدهاء أنه لأحد الشابين - يقول:

- لا بد من الجلوس، ليس هو بالشيء السار ولكنّه أخفّ من الوقوف أياماً...

- هل مكثنا طويلاً؟

- منذ ثلاثة أيام!

وساد الصمت حتى عاد الصوت يسأل:

- لماذا قبض عليكما؟

فأجاب عبد المنعم باقتضاب قائلاً:

- أسباب سياسية فيما يبدو...

فقال الصوت ضاحكاً:

- صارت الأغلبية أخيراً للسياسيين في هذا السجن، كنا قبل تشريفكما أقلية...

فسأله أحمد:

- وما تهمتكما؟

- تكلمنا أننا أولاً، فأنتم أحدث مقاماً! وإن يكن لا داعي للسؤال بعد أن رأينا حية أحكما الإخوانية؟!

فسأله أحمد وهو يبتسم في الظلام:

- وأنتم؟

- مقالاتي لا تعدو الدفاع عن مبادئ العدالة الاجتماعية...

- شيوخك حضرتك؟

- إني اشتراكي، وكثير من النواب يدعون إلى الاشتراكية، والقانون نفسه لا يؤاخذ الشيوعي على رأيه ما دام لا يلجأ إلى أساليب العنف...

- أكان ينبغي أن تنتظر حتى تتمخض الاجتماعات التي تعقد كل مساء في شقتك عن العنف؟

وتساءل في نفسه ترى هل وقفوا على سر المنشورات والمحاضرات الليلية؟! وأجاب:

- إني لا أجتمع في بيتي إلا بالأصدقاء المقربين، ولم يزد عدد زوّاري يوماً عن أربعة أو خمسة، وكان تفكيرنا أبعد ما يكون عن العنف...

وردد المأمور نظره بينهما ثم قال بعد تردد:

- إنكما مثقفان و... مهذبان، ومتزوجان أليس كذلك؟ حسن، أليس من الأفضل لكما أن تهتما بشئونكما الخاصة وأن تجنبا نفسيكما الهلاك؟...

فقال عبد المنعم بصوته القوي:

- إني أشكر لك نصيحتك التي لن أعمل بها... فندت عن المأمور ضحكة مقتضبة كأنما على رغمه، ثم قال:

- علمت في أثناء التفتيش أنكما حفيدا المرحوم أحمد عبد الجواد، وقد كان خالكما المرحوم فهمي صديقاً حميماً لي، وأظنكما تعلمان أنه فقد حياته في ربيع العمر على حين أن زملاءه ظلوا على قيد الحياة حتى تبوأوا أكبر المناصب...

فقال أحمد وقد أدرك السر في لطف المأمور الذي حيره:

- دعني أسألك يا سيدي عما كانت تكون عليه مصر لولا تضحية خالي وأمثاله؟!

فهز الرجل رأسه وقال:

- فكراً في نصيحتي بعقل وروية ودعكم من هذه الفلسفة المهلكة!

ثم وهو يقف:

- ستبقين ضيفين في سجننا حتى تُدعوا إلى التحقيق، أرجو لكما حظاً سعيداً...

- كلانا طالب في الحقوق متهم بتوزيع منشورات هدامة كما يقولون...

فثار أحد وسأله:

- أضبطنها متلبسين!

- نعم...

- وماذا كان في المنشورات؟

- بيان بتوزيع الثروة الزراعية في مصر...

- لهذا تم نشره الصحف في ظل الأحكام العرفية نفسها!

- يضاف إليه شوية توجيهات حماسية!

فابتسم أحمد مرة أخرى في الظلام وقد تخفف من وحشته لأول مرة، وعاد صاحب الصوت يقول:

- إنا لا نخاف القانون بقدر ما نخاف الاعتقال...

- إن الأمور تبشر بتغير شامل...

- لكننا سنظل المهدف في جميع العهود...

وإذا بصوت غليظ يعلو في خشونة قائلًا:

- كفاكم كلامًا ودعونا ننام...

ولكن صوته أيقظ زميلًا من زميليه فتشاءب متسائلًا:

- طلع الصبح؟

فأجابه الأول هازئًا:

- كلاً، ولكن أصحابنا يحسبون أنفسهم في غرزة...

تنهد عبد المنعم وهمس بصوت لم يسمعه إلا أحمد:

- أيزج بي إلى هذا المكان لا لسبب إلا أنني أعبد

الله؟!

فهمس أحمد في أذنه بأسًا:

- وما ذنبي أنا الذي لا أعبد؟!

لم يشأ أحد بعد ذلك أن يرفع صوته، وراح أحد

يسأل نفسه عما دعا إلى القبض على الآخرين، سرقة

أم مشاجرة أم سكر وعريضة؟ طالما كتب عن الشعب

وهو مدثر بمعطف في حجرة مكتبة الجميلة، ها هو

الشعب يلعن أو يغط في نومه، وهذه الوجوه الكالحة

البائسة التي رآها على ضوء الكشافات لحظات، وذلك

الرجل الذي كان يحك رأسه وما تحت إبطيه فلعل

قمله يزحف نحوهما دائبًا، هذا هو الشعب الذي

تعيش من أجله فكيف تجزع عن فكرة ملاسته؟! هذا

الرجل المناط به خلاص الإنسانية ينبغي أن يمسك عن

شخيره وأن يعي موقفه التاريخي حتى ينهض لإنقاذ

العالم جميعًا. وقال لنفسه: «إن موقفًا إنسانيًا واحدًا

هو الذي جمعنا على اختلاف مشاربنا في هذا المكان

المظلم الرطب. الأخ والشيوعي والسكرير والسارق على

السواء، كلنا واحد على تفاوت في قوة المناعة أو

الحظ». وحدث نفسه مرة أخرى فقال: لماذا لا تعنى

بشئونك الخاصة، هكذا يقول المأمور، ولي زوجة

محبوبة ورزق موفور، والحق أن الإنسان قد يسعد بما

هو زوج أو موظف أو أب أو ابن ولكنه مقضي عليه

بالمتابع أو بالموت نفسه بما هو إنسان. وسواء أفضي

عليه بالسجن هذه المرة أم أطلق سراحه فباب السجن

الغليظ المتجهم هو ما يترأى لعينه في أفق حياته،

وعاد يتساءل: ماذا يدفعني في هذا السبيل الخطير

الباهر؟. ألا إنه الإنسان الكامن في أعماقي، الإنسان

الواعي لذاته المدرك لموقفه الإنساني التاريخي العام،

وإن ميزة الإنسان على سائر المخلوقات هي أنه يستطيع

أن يقضي على نفسه بالموت بحض اختياره ورضاه...

وشعر بالرطوبة تسري في ساقيه والإعياء يتخلل

مفاصله، وكان الشخير يتردد في الأركان بإيقاع

موصول، ثم لاحت خلال قضبان النافذة الصغيرة

طلائع من النور وانية رقيقة...

٥٤

غادر الطبيب الحجرة وكمال يتبعه واجئًا، ثم لحق به

في الصالة وحده بعينين متسائلتين، قال الطبيب

بهدوء:

- يؤسفني أن أخبرك بأنها حالة شلل كلي...

فانقبض صدر كمال انقباضًا شديدًا وسأله:

- حالة خطيرة؟

- طبعًا! وقد أصيبت في الوقت نفسه بالتهاب

رئوي، ولذلك فالحقن ضرورية لإراحته.

- أليس هناك أمل في الشفاء؟

وكان هذا آخر عهده بيقظتها، وقد جاءه نبأ مرضها
ظهرًا في المدرسة فعاد مصطحبًا الطبيب الذي نعاها
إليه سلفًا منذ دقائق. أجل لم يبق إلا ثلاثة أيام! ترى
كم يومًا تبقى له هو؟ واقترب من عائشة وسألها:

- متى وكيف وقع لها ما وقع؟

فأجابت عنها أم حنفي قائلة:

- كنا جالستين في الصلاة، ثم قامت متجهة نحو
حجرتها لترتدي معطفها وتخرج وهي تقول لي «عندما
أفرغ من زيارة الحسين سأزور خديجة»، وذهبت إلى
الحجرة، وبعد دخولها مباشرة ترامي إلى أذني صوت
وقوع شيء فهرعت إلى الداخل فوجدتها ملقاة على
الأرض بين السرير والدولاب، فجريت نحوها وأنا
أنادي ست عائشة...

وقالت عائشة:

- جئت مسرعة فوجدتها في هذا المكان، فحملناها
إلى السرير، وجعلت أسألها عما بها ولكنها لم تجبني، ولم
تتكلم، متى تتكلم يا أخي؟
فأجاب في ضيق:

- عندما يشاء الله...

وترجع إلى الكنية ثم جلس، ومضى ينظر في حزن
إلى الوجه الشاحب الصامت، أجل لينظر إليه طويلًا
فعمًا قريب لن يكون له إلى رؤيته سبيل. هذه الحجرة
نفسها ستتغير معالمها وستتغير بالتالي معالم البيت في
مجموعه، ولن ينادي به أحد «أمي»، لم يكن يتصور أن
موتها سيحمل قلبه هذا الألم كله، ألم يالف الموت
بعد؟... بلى، ولديه من العمر والتجربة ما يقيه
الجزع، ولكن لذة الفراق الأبدية موجعة، ولعله مما
يلام عليه قلبه أنه رغم ما كابد من ألم يتألم كالقلب
الغض. وكم أحبته، وكم أحببت الجميع، وكم أحببت
كل شيء في الوجود، ولكن هذه السجايا الطيبة لا
تعيها النفس إلا عند الفراق، ففي هذه اللحظة
الخطيرة تزدحم ذاكرتك بصور أماكن وأزمنة وحوادث
يهتز لها من أعماقه، وما هي يخالط نورها الظلام،
وتعترج فيها زرقعة الفجر بحديقة السطح، وبجمرة
مجلس القهوة بالأساطير، وهديل الحمام بأغنيات حلوة،
وكان حبًا رائعا أيها القلب الجاحد، ولعلك تقول غدا

فصمت الطبيب قليلًا ثم قال:

- الأعمار بيد الله، أما الطبيب فيقرر في حدوده أن
هذه الحال لا يمكن أن تستمر أكثر من ثلاثة أيام...

وتلقى كمال نذير الموت بتجلد، وأوصل الطبيب إلى
الباب الخارجي ثم عاد إلى الحجرة. وكانت الأم
نائمة، أو كالنائمة، لا يبدو من الغطاء الكثيف إلا
وجهها الشاحب وفوها المطبق في شيء من الاعوجاج،
وكانت عائشة واقفة حيال السرير فأقبلت نحوه
متسائلة:

- ما لها يا أخي؟ ماذا قال الطبيب؟

وقالت أم حنفي من موقفها عند مقدم الفراش:

- إنها لا تتكلم يا سيدي، لم تتكلم كلمة واحدة.

وقال لنفسه: ولن يسمع لها صوت بعد الآن، ثم

قال جيبًا أخته:

- حالة ضغط مصحوبة بإصابة برد خفيفة، سوف

ترجيحها الحقن!

فقال عائشة، ولعلها كانت تخاطب نفسها:

- إني خائفة، وإذا كانت سترقد هكذا طويلًا فكيف

تُحتمل الحياة في هذا البيت؟

فتحول عنها إلى أم حنفي وسألها:

- هل أخبرت الجماعة؟

- نعم يا سيدي، وستحضر ست خديجة وسي

ياسين في الحال، ما لها يا سيدي؟ كانت في الصباح في
تمام الصحة والعافية...

كانت!... وهو يشهد بذلك! وقد مرَّ بالصالة

كعادته كل صباح قبل انطلاقه إلى مدرسة السلحدار،

فتناول فنجان القهوة الذي قدّمته له وهو يقول:

- لا تغادري البيت اليوم فالجو بارد جدًا...

فابتسمت ابتسامتها الرقيقة وقالت:

- وكيف يطيب لي اليوم دون زيارة سيّدك؟

فقال محتجًا:

- افعلي ما يحلو لك، إنك عنيدة يا أمّاه!

فتمتمت:

- ربك الحافظ...

ثم وهو يغادر المكان:

- ربنا يسعد أيامك...

- ستلد في بحر هذا الأسبوع، أو هذا ما تؤكده الحكمة...

فتمتم كمال:

- ربنا يأخذ بيدها...

فقال ياسين:

- سيخرج الوليد إلى الدنيا وأبوه في المعتقل...

ودقّ الجرس، فكان القادم رياض قلّس، وقد استقبله كمال ومضى به إلى حجرة مكتبه، وفي الطريق

إلى الحجرة قال رياض:

- سألت عنك في المدرسة فأخبرني السكرتير بالخبر، كيف حالها؟

- أصيبت بشلل وأخبرني الطبيب بأنها ستنتهي في ظرف ثلاثة أيام...

فوجم رياض وتساءل:

- أليس هنالك حيلة ما؟

فهزّ كمال رأسه يائساً، وقال:

- لعله من حسن الحظّ أنّها في غيبوبة لا تدري عمّا ينتظرها شيئاً...

ثمّ في لهجة ساخرة وهما يجلسان:

- ولكن هل ندري نحن عمّا ينتظرنا شيئاً؟

وابتسم رياض دون أن ينبس، فعاد الآخر يقول:

- كثيرون يرون أنّ من الحكمة أن نتخذ من الموت ذريعة للتفكير في الموت، والحقّ أنّه يجب أن نتخذ من الموت ذريعة للتفكير في الحياة...

فقال رياض باسماً:

- هذا أفضل فيما أرى، كذلك فلنسأل أنفسنا عند

الموت - أيّ موت - ماذا صنعنا بحياتنا؟

- أمّا أنا فلم أصنع بحياتي شيئاً، هذا ما كنت أفكر فيه...

- بيد أنّك ما زلت في منتصف الطريق...

ربّما نعم، وربّما لا، غير أنّه من المستحسن دائماً أن يتأمل الإنسان ما يراود نفسه من أحلام، على ذلك فالتصوّف هروب، كما إنّ الإيمان السلبيّ بالعلم هروب، وإذن فلا بدّ من عمل، ولا بدّ للعمل من إيمان، والمسألة هي كيف نخلق لأنفسنا إيماناً جديراً بالحياة. قال:

بحقّ إنّ الموت استأثر بأحبّ الناس إليك، ولعلّ عينيك أن تدمعاً حتى يزجرك المشيب. والنظر إلى الحياة كمأساة لا يخلو من رومانتيكيّة طفليّة والأجدر بك أن تنظر إليها في شجاعة كدراما ذات نهاية سعيدة هي الموت. ثمّ سأل نفسك إلّام تضيع حياتك هباءً؟ إنّ الأمّ تموت وقد صنعت بناء كاملاً فماذا صنعت أنت؟

واستيقظ على صوت أقدام، وإذا بخديجة تدخل الحجرة مرتاعة وتبّجه نحو الفراش وهي تنادي أمّها وتسألهم عمّا حلّ بها. وتضاعف ألمه حتى خاف أن يخونه تجلّده فغادر الحجرة إلى الصالة، وما لبث أن جاء ياسين وزّوبة ورضوان، فصافحوه، وأخبرهم عن مرضها دون التفاصيل، فذهبوا إلى الحجرة ولبث وحيداً حتى عاد إليه ياسين وهو يسأله:

- ماذا قال لك الطبيب؟

فقال في وجوم:

- شلل والتهاب رئويّ، سينتهي كلّ شيء في خلال ثلاثة أيام...

فعضّ ياسين على شفته وقال بحزن:

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله...

ثمّ جلس وهو يتمتم:

- مسكينة، كان كلّ شيء مفاجئاً! ألم تُشكّ تعباً في الأيام الأخيرة؟

- كلّاً، إنّها لم تُعَدِّ الشكوى كما تعلم، ولكنّها كانت تبدو أحياناً كالتعب...

- ليترك عرضتها على الطبيب من قبل!

- لم يكن أبغض إلى نفسها من سيرة الطبيب!

وانضمّ إليهما رضوان بعد حين فقال لكمال:

- أرى أن نُقل إلى المستشفى يا عمّي!

فقال كمال وهو يهزّ رأسه في حزن:

- لا داعي إلى ذلك، وسيرسل الصيدليّ مرصّة يعرفها لتحقنها...

ولاذوا بالصمت والوجوم يعلو وجوههم، وعند ذاك ذكر كمال أمراً تقتضي المجاملة ألاّ يهمله فسأل ياسين:

- كيف حال كريمة؟...

بعذاب الضمير الخلق بكل خائن، قد يبدو يسيرًا أن تعيش في قمقم أنانيتك ولكن من العسير أن تسعد بذلك إذا كنت إنسانًا حقًا...

فأشرق وجه رياض على رغم كآبة المناسبة وقال:
- هذا بشير بانقلاب خطير يوشك أن يقع!
فقال كمال في حذر:

- لا تسخر مني، إن مشكلة الإيمان ما زالت قائمة بدون حل، وغاية ما أستطيع أن أعزي به نفسي هو أن المعركة لم تنته، ولن تنتهي ولولم يبق من عمري إلا ثلاثة أيام كآتي...
ثم وهو يتنهد:

- أتعلم ماذا قال أيضًا؟ قال: إني أومن بالحياة وبالناس، وأرى نفسي ملزمًا باتباع مثلهم العليا ما دمت أعتقد أنها الحق إذ النكوص عن ذلك جبن وهروب، كما أرى نفسي ملزمًا بالثورة على مثلهم ما اعتقدت أنها باطل إذ النكوص عن ذلك خيانة، ولهذا هو معنى الثورة الأبدية!

وجعل رياض ينصت وهو يهز رأسه موافقًا، ثم بدا على كمال الإعياء والضييق فقال رياض:

- أنا مضطر إلى الذهاب فما رأيك في أن تصحبني إلى محطة الترام لعل المشي يريح أعصابك!
ونفضا معًا وغادرا الحجرة، وقابلا ياسين عند مدخل الدور الأول - وكان على معرفة سطحية برياض - فدعاه كمال إلى مصاحبته. غير أنه استأذن منها دقائق ريشا يلقي نظرة على أمه، ومضى إلى حجرتها فوجدتها كما تركها في غيبوبة. وكانت خديجة جالسة في الفراش عند قدميها وقد احمرت عينها من البكاء، وعلت وجهها الكآبة التي لم تفارقه منذ امتدت يد الحكومة إلى ابنها، أما زئوبة وعائشة وأم حنفي فقد جلسن على الكنب صامتات، وكانت عائشة تدخن سيجارة في سرعة وقلق، على حين راحت عينها تحولان في المكان في اضطراب عصبي، وسألن:

- كيف حالها؟

فأجابت عائشة بصوت مرتفع ينم عن الضيق والاحتجاج:

- لا تريد أن تصحوا!

- حسبتي قد أدت للحياة واجبها بالإخلاص لمهنتي كمعلم وبكتابة المقالات الفلسفية...

قال رياض بعطف:

- وقد أدت واجبًا بلا شك!

- ولكنني عشت معذب الضمير كما ينبغي لكل خائن!

- خائن؟!

فتنهد كمال وقال:

- دعني أخبرك بما قال لي أحد ابن أختي عندما زرت في سجن القسم قبل نقله إلى المعتقل...

- على فكرة، أما من جديد عنها؟

- لقد رحلا مع كثيرين إلى معتقل الطور...

فتساءل رياض بأسًا:

- الذي يعبد الله والذي لا يعبد؟

- يجب أن تعبد الحكومة أولًا كي تعيش مطمئنًا...

- على أي حال الاعتقال أخف في نظري من

المحاكمة!

- هذا رأي، ولكن متى تنكشف هذه الغمة؟ متى

تُرفع الأحكام العرفية؟ متى يعود السلطان إلى القانون الطبيعي والدستور؟ متى يعامل المصريون كالأدمنين؟!

فجعل رياض يعث بخاتم الزواج في يسراه، ثم قال بحزن:

- نعم متى؟ ما علينا، ماذا قال أحمد في سجن القسم؟

- نعم، قال لي إن الحياة عمل وزواج وواجب إنساني عام، وليست هذه المناسبة للحديث عن واجب الفرد نحو مهنته أو زوجه أما الواجب الإنساني العام فهو الثورة الأبدية، وما ذلك إلا العمل الدائب على تحقيق إرادة الحياة ممثلة في تطورها نحو المثل الأعلى...

فتفكر رياض قليلًا ثم قال:

- رأي جميل، ولكنه يتسع لكافة المتناقضات...

- نعم، ولذلك وافقه عليه أخوه ونقيضه عبد

المنعم، ولذلك فهمته على أنه دعوة إلى الإيمان أيًا كان مشربه وأيًا كانت غايته، ولذلك فلاني أعلل تعاسي

وكان كمال من أعرف الناس بمزاج أخيه، فقال:

- لا داعي إلى ذلك البتة...

فدفعه ياسين أمامه وهو يقول:

- إنها أمي كما إنها أمك!

وداخل كمال بغتة شعور بالخوف على ياسين! حقاً
إنه يسير مكتئباً بالحياة في ضخامة الجمل ولكن إلام
يحتمل حياته المفعمة بالأهواء؟ وطفح فؤاده بالكآبة،
غير أن فكره طار فجأة إلى الطور، إلى المعتقل. إنني
أومن بالحياة وبالناس، هكذا قال، وأرى نفسي ملزماً
بأتباع مثلهم العليا ما دمت أعتقد أنها الحق إذ
النكوص عن ذلك جبن وهروب، كما أرى نفسي ملزماً
بالثورة على مثلهم ما اعتقدت أنها باطل إذ النكوص
عن ذلك خيانة! وقد تسأل ما الحق وما الباطل، ولكن
لعل الشك نوع من الهروب كالتصوف والإيمان السلبي
بالعلم. فهل تستطيع أن تكون مدرّساً مثاليًا وزوجاً
مثاليًا واثراً أبدياً؟!

وعندما مرّا بدكان الشرقاوي توقّف ياسين وهو
يقول:

- كلّفني كريمة بأن أستبضع لها بعض اللوازم
للمولود المنتظر... عن إذنك...

ودخلا الدكان الصغير، وراح ياسين ينتقي ما يريد
من لوازم المولود المنتظر: قماطاً وطاقيّة ومنامة، وعند
ذلك تذكّر كمال أن رباط عنقه الأسود الذي استعمله
عاماً حداذاً على والده قد استهلك، وأنه يلزمه آخر
جديد ليواجه به اليوم الحزين، فقال للرجل حين فرغ
من ياسين:

- رباط عنق أسود من فضلك...

وتناول كل لفافته، وغادرا الدكان.

وكان الغيب يقطر سمرة هادئة فمضيا جنباً إلى
جنب نحو البيت...

وحانت منه التفاتة إلى خديجة فتبادلا نظرة طويلة
دلّت على تفاهم حزين ويأس مشترك فلم يتمالك إلا
أن يغادر الحجرة ويلحق بصاحبيه...

وساروا في الطريق متمهلين، فقطعوا الصاغة إلى
الغوريّة في شبه صمت، وعندما بلغوا الصنادقيّة
صادفوا الشيخ متوّلي عبد الصمد ينحدر منها إلى
الغوريّة متوكّناً على عصاه، في خطوات مخلخلة، وقد
كفّ بصره وارتعشت أطرافه، وكان يتلفّت فيما حوله
متسائلاً في صوت مرتفع:

- من أين طريق الجنة؟

فأجابه ماّز وهو يضحك:

- أول عطفة على يمينك...

وقال ياسين لرياض قلّدس:

- أتصدّق أن هذا الرجل قد جاوز المئة بما يقرب
من عشرة أعوام؟...

فقال رياض بأساً:

- إنه لم يعد رجلاً على أيّ حال...

وكان كمال ينظر نحو الشيخ متوّلي بعطف، كان
يذكر به أباه، وكان يعدّه معلّماً من معالم الحيّ كالسبيل
القديم وجامع قلاوون وقبو قرمز، ووجد كثيرين وهم
يعطفون عليه، غير أن العجوز لم يسلم من شقاوة
بعض الغلمان الذين راحوا يصفّرون في وجهه أو
يتبعونه محاكين حركاته.

وأوصلا رياض حتّى محطّة الترام، وانتظرا معه حتّى
ركب، ثمّ عادا معاً إلى الغوريّة، وتوقّف كمال عن
السير فجأة وقال لأخيه:

- أن لك أن تذهب إلى القهوة...

فقال ياسين بحلّة:

- كلا، سأبقى معك...